طبعة جديدة ومنقحة

العميد الركن د. ياسين سويد

الفن العسكري الإسلامي

أصوله ومصادره

الفن العسكري الإسلامي

أصوله ومصادره

الفن العسكري الإسلامي

أصوله ومصادره

ويتضمن دراسة تطبيقية نموذجية
لمعارك العبور في الفتوح الإسلامية

العميد الركن الدكتور
ياسين سويد

شركة المطبوعات للتوزيع والنشر
بيروت - لبنان
تلفون - ٨٦٢٤٣١
فاكس - ٨٦٥٤٠٧
تلكس - ٢٢٦٦١

الطبعة الثانية
١٩٩٠م - ١٤١١هـ

المقدمة

إنها لمهمة شاقة وجليلة في آن، أن نتصدى لموضوع ندر أن تصدى له العاملون في الحقل الفكري في العالمين العربي والإسلامي، حين نستنبط، من أصول الدين الإسلامي ومصادره الأصلية والأصيلة، مصادر الفن العسكري الإسلامي وأصوله، فنضع، بذلك، موضع الشك على الأقل، آراء الكثير من المؤرخين والباحثين الغربيين والأوروبيين الذين يدَّعون أنه لا يوجد فن عسكري إسلامي بالمعنى العلمي للكلمة.

بدأت المسيرة بمحاضرة أعدت للإلقاء في «المعهد العالي للدراسات الإسلامية» التابع «لجمعية المقاصد الخيرية الإسلامية» في بيروت، بمناسبة موسمه الثقافي لعام (١٩٨٣ ـ ١٩٨٤)، بعنوان: «الفن العسكري الإسلامي في النظرية والتطبيق»، إلا أن ظروفاً خاصة حالت دون إلقاء المحاضرة فنشرت (عام ١٩٨٥) في العدد الأول من مجلة المعهد المذكور «دراسات إسلامية» وبالعنوان ذاته.

وتطورت الفكرة ـ المقالة إلى منهاج واسع للتدريس في الفرع الأول في كلية الآداب بالجامعة اللبنانية، بعنوان «مصادر الفن العسكري الإسلامي»، وضمن رصيد «مصادر التاريخ العسكري»، ثم إلى كتاب هو هذا الذي نقدمه اليوم إلى القارىء العربي والمسلم.

إنها محاولة ولا شك، ولكنها محاولة مثيرة للاهتمام، فهل يمكن أن يكون القرآن الكريم والحديث الشريف والسنة النبوية مصدراً من مصادر الفن العسكري؟

يكفي، للإجابة عن هذا التساؤل، أن نقدم نموذجاً لذلك، فنتلو الآية الكريمة، ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا **زحفاً فلا تولوهم الأدبار**، ومن يولّهم يومئذ دبره إلا **متحرفاً** لقتال أو **متحيزاً** إلى فئة فقد باء بغضب من الله ومأواه جهنم وبئس المصير﴾ «الأنفال ١٥ و ١٦»، والآية الكريمة ﴿إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله **صفّاً** كأنهم بنيان مرصوص﴾ «الصف ٤»، وأن نورد الحديث الشريف «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً». وأن نذكر ما قام به النبي (صلعم)، يوم بدر، حين كان يستعرض صفوف المسلمين ويسوِّيها للقتال، إذ أشار إلى أحد المقاتلين المسلمين وهو «سواد بن غُزية» وقد برز ناتئاً في صفه، فقال له: «إستوِ يا ابن غُزية».

فمن الآيتين الكريمتين السابقتين، ومن الحديث الشريف والسنّة النبوية اللذين ورد ذكرهما، نستطيع أن نستنتج مبادىء عدّة في الفن العسكري الإسلامي، أهمها:

- **قتال الزحف والصف**، وهو أسلوب لم يعرفه عرب الجاهلية، فجاء الإسلام وكرسه مبدءاً قتالياً، حيث صارت صفوف المسلمين تسوَّى للقتال «كما تسوّى القداح أو صفوف الصلاة، ويمشون بصفوفهم إلى العدو قُدُماً»، حسب قول ابن خلدون.

- **قتال الكر دون الفر**، وهو أسلوب لم يعرفه عرب الجاهلية كذلك، إذ كان «الكرّ والفر» أسلوبهم المفضل، فجاء الإسلام واعتمد أسلوب «الكرّ دون الفر» مبدءاً أساسياً من مبادىء القتال عند المسلمين.

- **المناورة في القتال**، وذلك «بالتحرّف» أو «الميل» يميناً أو يساراً لمداورة العدو ومناورته أو الالتفاف عليه.

- **التعاون** مع القوى الحليفة في ساحة القتال، وهو ما دعاه القرآن

الكريم «بالتحيز» إلى فئة حليفة مقاتلة.

ـ وأخيراً، وضع من لم يتقيد من المقاتلين بهذه المبادىء في وضع المشرك الكافر، حيث يلقى الجزاء نفسه «ومأواه جهنم وبئس المصير». ونجد في القرآن الكريم والحديث الشريف والسنة النبوية، العديد من الآيات والأحاديث والسنن المشابهة لما تقدم، والتي تتناول الفن العسكري ومبادىء الحرب والقتال، ونذكر منها (على سبيل المثال لا الحصر) العناوين التالية:

ـ تحديد أهداف الحرب وغايات القتال في الإسلام.

ـ تحديد العدو.

ـ الاستنفار والتعبئة العامة (المادية والمعنوية) للحرب.

ـ مبادىء في التعليم التقني والتكتيكي للمقاتل (التدريب والتنظيم والمناورة والرصد الخ..)

ـ مبادىء في التوجيه المعنوي وآداب القتال، ومنها كيفية معاملة الأسرى واحترام العهود والمواثيق.

ـ تحديد أهلية المسلم للقتال، أي الشروط التي يجب توافرها في المقاتل المسلم، جندياً كان أم قائداً..

ـ توجيهات عامة في صنع الأسلحة والدروع وكيفية استعمالها وحملها. يضاف إلى ذلك ما يمكن أن نستنبطه، في مجال الفن العسكري أيضاً، من وصايا الخلفاء الراشدين وتوجيهاتهم وأفعالهم، فلقد تميز كل من الخليفتين الراشدين أبي بكر وعمر (رضي) بإدراكهما العميق للاستراتيجية العسكرية بمفهومها العصري الحديث، وذلك في الخطة التي اتبعاها في فتوح الشام والعراق، وتميز عمر (رضي) بفهمه التنظيمي والإداري للجيوش (ديوان الجند، والتجنيد الإلزامي، والتسريح والبدال) وبألمعية مشهودة في الشؤون العملياتية والقتالية (التكتيكية والاستراتيجية).

ويستلفت الباحث بعد النظر الاستراتيجي لدى الخليفة عثمان (رضي) عندما أمر المسلمين بركوب البحر، وهم الذين كان البحر عندهم عالماً مجهولاً

ومرهوباً، فركبوه وغزوا قبرص وافتتحوها، كما يستوقفه الفهم العسكري البارع عند الإمام علي بن أبي طالب (كرم الله وجهه)، المتجلي في «نهج البلاغة»، وفي كيفية إدارته لمعاركه الثلاث: الجمل وصفين والنهروان.

أما القادة العسكريون المتميزون فقد استوقفتنا ملامح العبقرية العسكرية في أوامرهم لجندهم، وكيفية إدارتهم لمعاركهم.

ففي معركة اليرموك يبهرنا خالد بن الوليد «بالتجديد» الذي أدخله على فن المناورة والتكتيك العسكري. وفي القادسية يتميز سعد بن أبي وقاص بأسلوب «التكتيك المتغير». وفي نهاوند يبرز النعمان بن مقرِّن بأسلوب «استدراج العدو». وفي الإسكندرية يلمع عمرو بن العاص بأسلوب «الحصار». وفي وادي لكة بالأندلس يدهشنا طارق بن زياد ببراعته في «الاستكشاف والاستطلاع والتحشد» وبإقدامه، لأول مرة في تاريخ الفتوح الإسلامية، على تكتيك جديد، وذلك بإنشائه «رأس جسر» على الشاطىء الأندلسي.

ولقد تتبعنا، لإثراء البحث، ما قدمه أوائل المفكرين المسلمين، في مجال الفن العسكري وشؤون الحرب، كالشيباني، وأبي يوسف، والشافعي، والدينوري، وابن عبد ربه الأندلسي، والماوردي، والهرثمي الشعراني، والطرسوسي، والنويري، وابن القيم الجوزي، وابن خلدون. وقد وقع اختيارنا على هؤلاء المفكرين لما قدموه، في هذا المجال، من أثر هام، دون أن ندّعي أننا جمعنا، فيهم، كل ما قدمه المفكرون المسلمون الأوائل من بحوث في هذا الحقل.

وقد جمعنا ذلك كله في باب واحد هو (البحث الأول). أما الباب الثاني (أو البحث الثاني) فقدمنا، من خلاله، دراسة «تطبيقية نموذجية لمعارك العبور في الفتوح الإسلامية»، وهي المعارك التي طبق المسلمون فيها مبادىء الفن العسكري الإسلامي تطبيقاً يثير الإعجاب، وقد سمينا تلك المعارك «معارك العبور» باعتبارها كانت المعارك التي عبرَ الفاتحون المسلمون، بانتصارهم فيها، إلى مختلف أصقاع الأرض، خارج حدود الجزيرة العربية، وهذه المعارك هي:

- اليرموك، أو معركة العبور إلى بلاد الشام.

- القادسية، أو معركة العبور إلى العراق.

- نهاوند، أو معركة العبور إلى بلاد فارس.

- من عين شمس إلى الإسكندرية، أو معارك العبور إلى مصر وشمال أفريقية.

- وادي لكة، أو معركة العبور إلى الأندلس.

وقد تضمن كل باب (أو بحث) من البابين (أو البحثين) المذكورين خمسة فصول (سميناها مقالات)، وتوّجنا البحث الأول بمدخل عن «الفن العسكري الإسلامي: أصوله ونشأته»، كما توّجنا البحث الثاني بمدخل عن «التكتيك العسكري الإسلامي: أصوله ونشأته»، وختمنا الكتاب ببحث خاص عن «العقيدة العسكرية الإسلامية».

ولا بد من الإشارة إلى أننا اعتمدنا، في أبحاثنا هذه، المصادر والمراجع الموثوقة والمعتمدة لدى معظم الفقهاء والمؤرخين في هذا المجال، كما اعتمدنا، في تفسيرنا للآيات الكريمة وشرحنا للأحاديث النبوية الشريفة، ما ذهب إليه الفقهاء المسلمون في تفسيرهم لهذه الآيات، وفي شرحهم لتلك الأحاديث. وجهدنا أن لا نخرج عن المنطقي والواقعي، وعن الموضوعية والعلمية وحدود ما يحمله النص، في التحليل والاستقراء، والاستنتاج.

ولا بد كذلك من الإشارة إلى أن ضرورات علمية اضطرتنا إلى إدراج «معركة اليرموك»، وهي من أهم معارك العبور في الفتوح الإسلامية، في البحث الثاني من هذا الكتاب، رغم ورود النص نفسه في كتابنا «معارك خالد بن الوليد» في طبعته الرابعة التي يتزامن صدورها مع صدور هذا الكتاب. كما اضطررنا، للأسباب نفسها، إلى إدراج بعض المعلومات الواردة في الكتاب المذكور حول «الفن العسكري الإسلامي» في كتابنا هذا، وذلك لوجود كثير من نقاط التقاطع في بحوث الكتابين. ولعل القارىء الكريم

يلتمس لنا العذر في ذلك، آملين أن نكون، فيما نقدم بين يديه، قد وفقنا إلى القيام بقسط، ولو متواضع، من الواجب المترتب علينا تجاه أمتنا العربية وعالمنا الإسلامي وتراثنا الغني بالقيم، وبكل ما يصلح لأن يكون أساساً لدفع حضاري جديد، يليق بهذا التراث، وبالأمة التي انتجته.

والله من وراء القصد.
بيروت في ٢٩ أيلول/ سبتمبر ١٩٨٨
العميد الركن د. ياسين سويد

البحث الأول

مصادر الفن العسكري الإسلامي

مدخل إلى البحث: الفن العسكري الإسلامي ـ أصوله ونشأته:
ـ المقالة الأولى: المصدر الأول ـ القرآن الكريم.
ـ المقالة الثانية: المصدر الثاني ـ الحديث والسنة.
ـ المقالة الثالثة: المصدر الثالث ـ أقوال الخلفاء وأفعالهم.
ـ المقالة الرابعة: المصدر الرابع ـ أوامر القادة العسكريين وسلوكهم في القتال
ـ المقالة الخامسة: المصدر الخامس ـ أوائل المفكرين المسلمين.

البحث الثاني

دراسة تطبيقية نموذجية
لمعارك العبور في الفتوح الإسلامية

مدخل إلى البحث: التكتيك العسكري الإسلامي ـ أصوله ونشأته.
ـ المقالة الأولى: معركة اليرموك (أو معركة العبور إلى بلاد الشام)
ـ المقالة الثانية: معركة القادسية (أو معركة العبور إلى بلاد العراق)
ـ المقالة الثالثة: معركة نهاوند (أو معركة العبور إلى بلاد فارس)
ـ المقالة الرابعة: من عين شمس إلى الاسكندرية (أو معارك العبور إلى مصر وشمالي إفريقية)
ـ المقالة الخامسة: معركة وادي لكه (أو معركة العبور إلى بلاد الاندلس).
ـ الخاتمة: العقيدة العسكرية الإسلامية ـ عقيدة هجومية.

المبحث الأول

مصادر الفن العسكري الإسلامي

مدخل الى البحث*

الفن العسكري الإسلامي: أصوله ونشأته

الفن العسكري، بمعناه العلمي، هو مجموع الوسائل والأساليب التي تعتمدها أمة لتنظيم الجيوش وتعبئتها وتسييرها وتدبير أمور الحرب وإدارة المعركة بغية تحقيق الأهداف العسكرية والسياسية المتوخاة.

من هذا المنطلق لمفهوم الفن العسكري، يتوقف الباحث أمام تساؤل لا بد أن يطرح نفسه عند البحث في الفن العسكري الإسلامي وهو: من أين استمد المسلمون أسس الفن العسكري الذي اعتمدوه في حروبهم وفتوحهم، وما هي أصول هذا الفن؟ وللوصول إلى إجابة صحيحة عن هذا التساؤل، لا بد من البحث في الأمور التالية:

أولاً: الفن العسكري عند العرب قبيل الإسلام، أي عرب الجاهلية.

ثانياً: الفن العسكري عند الأمم الأجنبية التي تعامل الإسلام معها، حرباً أم سلماً، منذ بدء الدعوة الإسلامية، وخاصة الفرس والبيزنطيين.

ثالثاً: خصائص الدعوة الإسلامية التي استطاعت، بانفتاحها وطموحها ومرونتها، وعبقرية قادتها، أن تستوعب، بسهولة ويسر، مبادىء الفن العسكري المعروفة لدى أمم ذلك العصر، وتصهرها في فن عسكري إسلامي خاص ومتميز.

(*) للتوسع، يمكن العودة إلى الجزء الأول من كتاب «معارك خالد بن الوليد» للمؤلف.

أولاً ـ الفن العسكري عند عرب الجاهلية:

يتساءل الكثير من المؤرخين عما إذا كان لدى عرب الجاهلية فن عسكري بالمعنى العلمي للكلمة، حتى أن الكثير منهم ينكر على هؤلاء العرب ذلك وينفي وجود فن عسكري عربي، قبل الإسلام، على الإطلاق[1]. ولكن مثل هذا النفي المجرد يثير كثيراً من علامات الاستفهام والدهشة، إذ كيف استطاع هؤلاء العرب، وفي بضع سنين فقط[2]، أن يتعلموا فن الحرب ويتقنوه ويضاهوا به أعرق الأمم وأكثرها تجذراً في التاريخ، مثل الفرس والروم، وينتصروا عليهم به، بل كيف استطاع هؤلاء العرب أن يخضعوا جزءاً كبيراً من أقطار العالم وأن يصلوا في فتوحهم إلى أقاصي الأرض في خلال فترة يسيرة من الزمن لا تتعدى نصف قرن، بالرغم من حداثة عهدهم بهذا الفن وضعف شأنهم فيه؟

إن الإجابة عن هذا التساؤل تدفعنا إلى تحديد الدوافع والغايات التي كان عرب الجاهلية يحاربون من أجلها، والوسائل والأساليب التي كانوا يعتمدونها في حروبهم.

١ ـ غايات الحرب عند عرب الجاهلية:

يصعب أن نسمي المنازعات التي كانت تحصل بين القبائل عند عرب الجاهلية «حروباً» بالمعنى الصحيح للكلمة، فهي لم تكن أكثر من «مناوشات» تجري بين أفراد من قبائل مختلفة تتعداها أحياناً إلى القبائل نفسها، دون غاية معينة أو نظام معين، ولفترات يسيرة تتوقف بعدها ثم تعود لتتجدد دون سابق إنذار أو إعلان، باستثناء ما اشتهر منها والتي يمكن أن تسمى «حروباً» مثل حرب داحس والغبراء بين قبيلتي عبس وذبيان، وحرب البسوس بين بكر وتغلب، وحرب

---

(١) يقول «غوستاف لوبون» في كتابه «حضارة العرب» إن العرب «كانوا يجهلون فن الحرب جهلاً تاماً» وإنهم تعلموا هذا الفن واتقنوه في بضع سنين، بعد ظهور الدعوة الإسلامية، وخلال حروبهم مع الفرس والروم، في الربع الأول من القرن الأول الهجري (غوستاف لوبون، حضارة العرب، تعريب عادل زعيتر، ص ١٣٣ ـ ١٣٤ و١٤٠ ـ ١٤١ و٦٠٥).

(٢) يقول لوبون: «خسر الروم في سبع سنين بلاد سورية التي ظلوا حاكمين لها سبعماية سنة» (م. ن، ص ١٤٢).

الفجار بين كنانة وقيس، وحروب المناذرة والغساسنة.

ولم يكن لهذه الحروب، في الجاهلية، أهداف أو غايات عقيدية، ولم تكن ذات صلة بأية مثل عليا، كأن تكون مثلاً في سبيل نصرة مبدأ أو دفاعاً عن عقيدة، بل كانت تجسد، بحق، أنانية الانسان العربي وأهواءه وشهواته دون أي شيء آخر، فرداً كان أم قبيلة.

ويمكن إيجاز غايات الحرب عند عرب الجاهلية بثلاث:

الأولى: الغزو، الذي كان الغاية الأساسية لمنازعات العرب في الجاهلية، وهو ضرب من القتال تدعو إليه حاجة القبيلة للعيش، كالتنافس على المراعي وموارد المياه، وربما تكون أقرب إلى مفهوم «القرصنة» منه إلى مفهوم «الحرب»، ورغم ذلك فقد كان الغزو ضرورة لا بد منها لأية قبيلة لكي تستمر في العيش ضمن المجتمع البدوي الذي كانت تشكل جزءاً منه، ولم تكن أسباب الغزو مقتصرة على الناحية الاقتصادية وحدها، بل كانت له أسباب أخرى كالثأر والانتقام، حتى أصبح الغزو جزءاً لا يتجزأ من النظام الذي يرعى الحياة اليومية لتلك القبائل، كما أضحى عادة متأصلة لدى العرب يباهون بها ويفتخرون.

الثانية: الثأر، الذي يكون، أحياناً، أحد أهداف الغزو، وهو يعتبر واجباً على القبيلة المصابة لا يمكنها التنازل عنه وإلا اعتبرت مهانة وتتدنى منزلتها بين القبائل، ويتمثل الثأر في ثلاثة قوانين: الحد، والانتقام، والديّة. أما الحد فهو شأن داخلي في القبيلة يقام على أحد أفرادها إذا قتل شخصاً آخر من القبيلة نفسها، وفي هذه الحالة، لا يحق لأفراد تلك القبيلة أو لأنسباء القاتل حمايته والدفاع عنه، إذ يستباح دمه ويطارد. وأما الانتقام فهو شأن يقع بين قبيلتين متنازعتين، إذ يكفي لأن يقدم امرؤ من قبيلة ما على قتل امرىء من قبيلة آخرى حتى تتداعى قبيلة المجني عليه، برمّتها، ودون تمييز بين من أصابه الاعتداء ومن لم يصبه، للانتقام من قبيله الجاني، دون تمييز كذلك بين المذنب فيها وغير المذنب، إذ تنتصر كل قبيلة المجني عليه للانتقام من كل قبيلة الجاني، فيصبح كل فرد من أفراد هذه القبيلة عرضة للقتل والانتقام. ويمكن أن تحل هذه المنازعات بين القبائل

بوسيلة سلمية تمنع التقاتل فيما بينها وتفض المنازعات دون إراقة دماء، وهذه الوسيلة هي دفع الدية لقبيلة المجني عليه من قبل قبيلة الجاني.

الثالثة: الدفاع، وهو أكثر الغايات مشروعية وقانونية، ويقع في مجال دفاع القبيلة عن نفسها أو أرزاقها وأموالها ومتاعها ورد الاعتداء الذي يقع عليها، خاصة تلك الاعتداءات التي كانت تقع على قوافل العرب في رحلاتها التجارية الطويلة سواء إلى الشام أم إلى اليمن، والتي كانت تسمى «رحلة الشتاء والصيف» وكان عرب الحجاز يقومون بهذه الرحلات في قوافل مسلحة تبلغ أحياناً نحو ١٥٠٠ بعير محمل «تخرج مع عظيم استعداداً وكبير حيطه، تتقدمها الكشافة تتعرف ما في الطريق، والهداة يهدون السبيل، والحراس يخفرون القافلة»[٣].

٢ ـ وسائل القتال عند عرب الجاهلية:

وهي ما يستعمل في القتال من وسائل دون الرجال، وكانت غايات القتال ودوافعه هي التي تحدد هذه الوسائل عند عرب الجاهلية، بالإضافة إلى الوضع المجتمعي البدائي الذي كانت تعيشه تلك القبائل في ذلك الحين، لذا، نجد وسائل القتال عند عرب الجاهلية، كحياتهم تماماً، بدائية وبسيطة، ويمكن حصرها بالأسلحة والمعدات والتحصينات والحيوانات، وتقسم إلى أربع فئات:

الفئة الأولى: الأسلحة، وتقسم إلى:

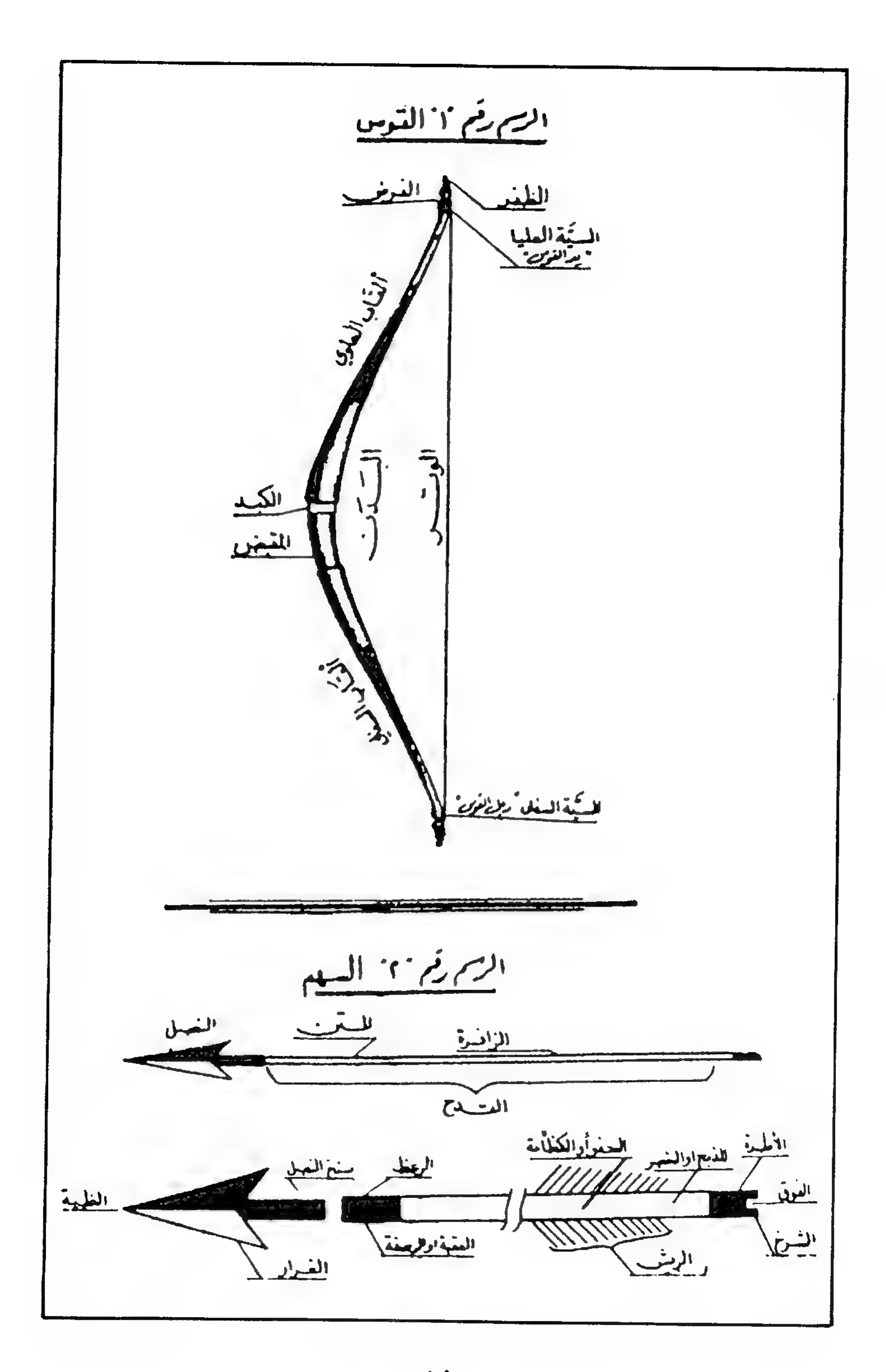
أ ـ **الأسلحة الفردية**، أي التي لا يتطلب استخدامها أكثر من مقاتل واحد، وهي: القوس والسهم، والرمح، والسيف، والدبوس، والفأس، والخنجر.

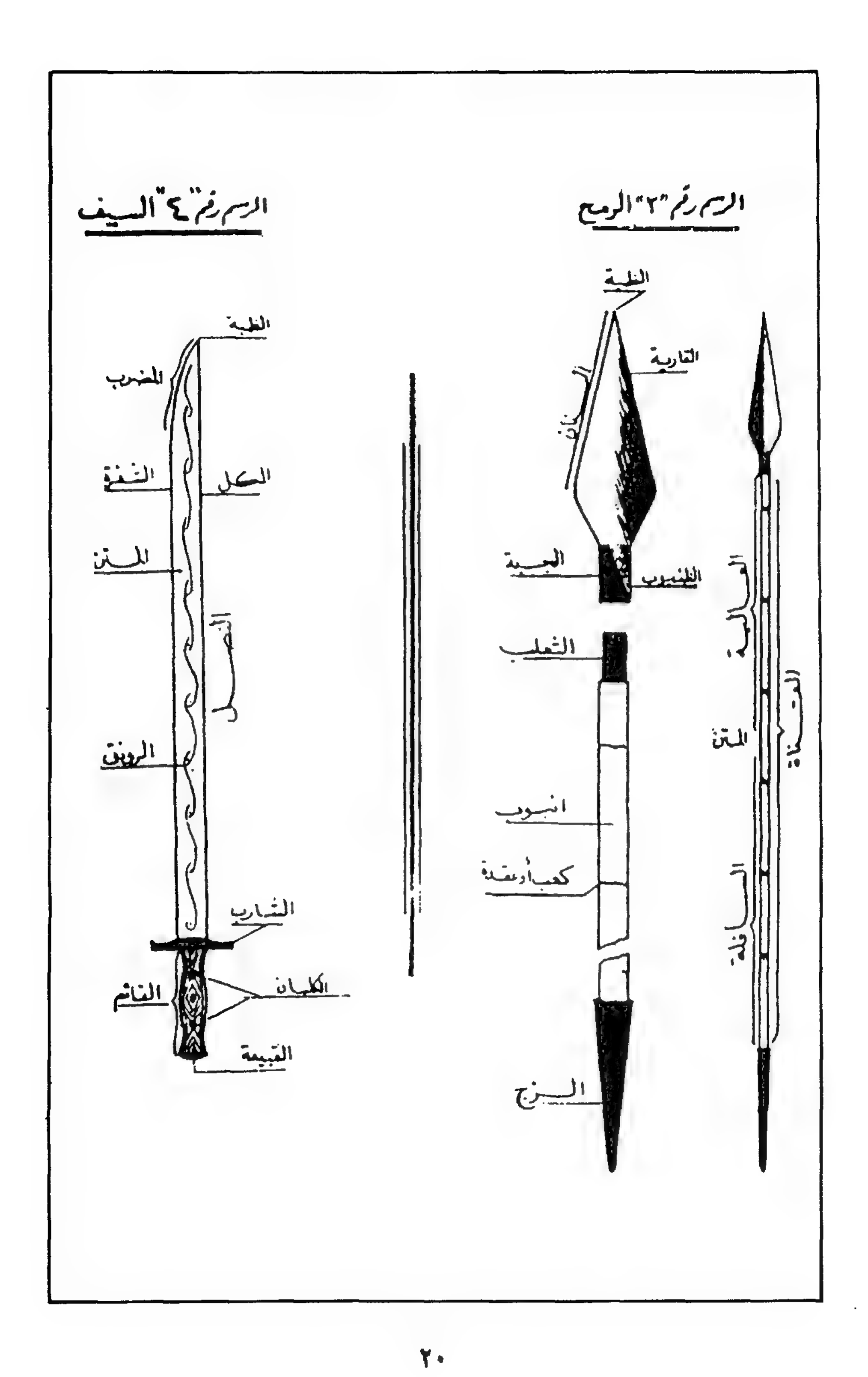
ب ـ **الأسلحة الإجمالية**: أي التي يتطلب استخدامها أكثر من مقاتل، وهي: المنجنيق والعرّادة، والدبابة أو الضبر[٤].

---

(٣) أمين، أحمد فجر الإسلام، ص ١٤، ويذكر أحمد أمين أن «سترابو» قد رأى هذه القوافل بنفسه وأنه شبهها بالجيش (م. ن، ص. ن).

(٤) المنجنيق: آلة ترمى بها الحجارة، والعرادة: أصغر من المنجنيق، ترمي بالحجارة المرمى البعيد (محيط المحيط).


الرسم رقم "١" القوس
الفرض
الظفر
السية العليا
يد القوس
الكبد
المقبض
السية السفلى "رجل القوس"
الرسم رقم "٢" السهم
النصل
المتن
الزافرة
القدح
الظبية
الغرار
سنخ النصل
الرعظ
العقبة او الرصفة
الأطرة
الفوق
الشرخ
الريش


الرسم رقم "٤" السيف
الظبة
المضرب
الشفرة
المتن
الرونق
الشارب
القائم
الكلبان
القبيعة
الرسم رقم "٢" الرمح
الظبة
القارية
الجبة
الظنبوب
الثعلب
انبوب
كعب أو عقدة
الزج
العالية
المتن
السافلة

الفئة الثانية: المعدات، وتقسم كذلك إلى:

أ ـ **المعدات الفردية**، وهي: الدرع، والترس أو المجن، والبيضة أو الخوذة.

ب ـ **المعدات الإجمالية**، وهي: سلم الحصار، والحسك الشائك[٥].

الفئة الثالثة: االتحصينات، وهي:

الخنـادق (خندقـا الحصار والـدفاع)، والحصـون والأسـوار، والمسـالـح والثغور[٦]. (وكانت هذه الأخيرة تقام بين قبائل المناذرة والغساسنة على حدود فارس وبيزنـطية).

الفئة الرابعة: الحيوانات، وهي: الحصان والجمل.

وكان عرب الجاهلية يتبادلون الخبرات في صنع هذه الأسلحة مع غيرهم من الأمم التي يتعاملون معها، كالفرس والروم، فبينما أجاد العرب صنع الأدوات الجارحة وصنــع أدوات الرمي كالسيف والخنجر والمدية والرمح والترس والقوس والنبل والسهم، فإنهم أخذوا، بدورهم، عن الفرس والروم، آلات حربية أخرى أكثر تطوراً كآلات الحصار مثل المنجنيق والعراده (المنجنيق الصغير)، والنار المسماة «باليونانية» والدبابة (أو الضبر) وخنادق الدفاع والحسك الشائك، وغيرها، وقد طور العرب، بعد الإسلام، هذه الآلات تطويراً ملحوظاً[٧].

= ـ الدبابة: آلة تتخذ للحروب فتدفع في أصل الحصن فينقبون وهم في جوفها «القاموس المحيط».
والضبر: جلد يغشى خشباً فيه رجال تقترب من الحصون للقتال «القاموس المحيط». والدبابة، أو الضبر، عبارة عن صندوق خشبي أشبه ببرج مربع مسقوف لا أرض له يسير على عجلات، يغشاه الرجال ويقتربون بواسطته من سور الأعداء لينقبوه، وتسمى كذلك «كبشاً» لأن في رأسها آلة أشبه برأس الكبش تستخدم لهدم الأسوار.

(٥) سلم الحصار: سلم من حبال مجدولة بشكل درجات تنتهي بانشوطة يرميها المقاتل على أعلى السور لتعلق به ثم يتسلق السور بواسطة السلم بعد تثبيته.
ـ الحسك الشائك: في البدء، كان أدة خشبية، ثم أصبح أداة حديدية ذات شعب ثلاث أو أكثر (٤ أو ٥ أو ٦) تغرز شعب منها في بطن الأرض وتبقى الأخرى على ظاهرها لتعيق تقدم المهاجمين من خيالة ومشاة، وكانت تزرع حول الخنادق وفي الأماكن الضيقة والممرات الإجبارية.

(٦) أنظر شرحاً لهذه الأنواع من التحصينات في كتاب معارك خالد بن الوليد، للمؤلف، ص ٥٩ ـ ٦٦ و٦٩ ـ ٧٢.

(٧) أنظر مفصلاً لوسائل القتال عند عرب الجاهلية وصدر الإسلام، في كتاب «معارك خالد بن الوليد» للمؤلف، ص ٤٣ ـ ٧٥.

٣ ـ أساليب القتال عند عرب الجاهلية:

أ ـ التنظيم: لم يعرف العرب، في جاهليتهم، تنظيماً عسكرياً أو جيوشاً منظمة، باستثناء المناذرة والغساسنة الذين استطاعوا، بحكم تحالف أولئك مع الفرس وهؤلاء مع البيزنطيين، التعرف إلى شيء من النظم العسكرية، وهكذا فإننا نجد، عند المناذرة، فرقاً عسكرية منظمة ومؤلفة من خمس كتائب هي:

ـ **الرهائن**: وهي مجموعة مؤلفة من خمسماية مقاتل من رهائن قبائل البادية كانوا يحرسون باب الملك اللخمي ملك الحريرة، ويستبدلون بخمسماية آخرين دورياً.

الصنائع: وهي فرقة مؤلفة من بني قيس وبني تميم، وتشكل حرس الشرف الخاص بالملك.

الوضائع: وهي كتيبة مؤلفة من ألف مقاتل يضعها كسرى في خدمة الملك اللخمي، وتبدل كل عام.

الأشاهب: وهي كتيبة من قبيلة الملك نفسه.

دوسر: وهي أقوى الكتائب وأشدها بأساً، وتؤلف من مختلف القبائل في المملكة.

أما الغساسنة فلم يكن لديهم جيش منظم، وإنما كانوا يعبئون رجالهم للقتال في أوقات الحرب، حتى إذا ما وضعت الحرب أوزراها، أعاد الرجال أسلحتهم إلى مستودعاتها في كل من بصرى أو دمشق، وعادوا يمارسون أعمالهم اليومية المعتادة.

ب ـ التكتيك: كذلك، لم يعرف عرب الجاهلية تكتيكاً معيناً في حروبهم باستثناء «الكر والفر». فقد كانوا يقاتلون بلا نظام، وكان كل قتال يبدأ عندهم «بالمبارزة» بين أبطال الفريقين المتحاربين، وكثيراً ما كانت المبارزة تحسم المعركة دونما حاجة إلى اشتباك بين القبيلتين المتواجهتين. أما إذا نشب القتال بينهما فلم يكن أكثر من كر وفر دون أية فكرة مناورة، وكان القتال يبدأ بالتراشق بالسهام بين

المتحاربين حتى إذا أحسّ فريق منهم ضعفاً أو هزيمة تراجع ثم أعاد الكرة من جديد دون نظام أو قاعدة أو هدف محدد، ونادراً ما كانت تهرق دماء كثيرة في هذا القتال بين القبائل، باستثناء ما عرفناه من حروب الروم ضد زينب ملكة تدمر، ومن حروب الغساسنة ضد المناذرة على تخوم الشام والعراق، وحروب الغساسنة ضد الفرس أو المناذرة ضد البيزنطيين على هذه التخوم، فقد استفادت هذه القبائل، ولا شك، من تعاملها مع الامبراطوريتين الكبيرتين فارس وبيزنطية، حرباً أم سلماً، في مجال التنظيم والتكتيك(٨).

ثانياً ـ الفن العسكري عند الفرس والبيزنطيين:

كانت فارس وبيزنطية من أعرق الامبراطوريات في التاريخ القديم حضارة وأعظمها شأناً وأوسعها نفوذاً وأشدها بأساً وأقواها جيوشاً، حين قامت في شبه الجزيرة العربية دعوة الإسلام عند عرب بدائيين في مجتمعهم وحضارتهم وأساليب قتالهم.

ولم يكن الفرس والبيزنطيون، وقد تمكنوا في الأرض، ليخشون قلة من العرب المسلمين ينطلقون من فيافي الصحراء العربية يحدوهم إيمان بالله وبالرسالة التي حملها إليهم النبي محمد ﷺ، ولم يكونوا ـ أي الفرس والبيزنطيون ـ ليأخذون حذرهم من أولئك العرب ما دامت أمم المشرق قد دانت لهم وخضعت جميعها لسطوتهم وقوتهم، فاسترخوا، واطمأنوا، لذا، لم تكن لديهم غايات محددة للحرب (أكثر من الدفاع)، كما لم تكن الحرب بحد ذاتها، في نظرهم، هدفاً وغاية، فهم

---

(٨) ثبت ذلك في وقعة «ذي قار» التي جرت بين قبائل بكر ووائل وشيبان من جهة والفرس من جهة أخرى، فقد روي أن ربيعة بن غزالة نصح بني شيبان في هذه الوقعة بأن «لا تستهدفوا لهذه الأعاجم فتهلككم بنشابها، ولكن تكردسوا لها كراديس، فيشد عليهم كردوس. . . فإذا أقبلوا عليه شد الآخر. قالوا: فإنك قد رأيت رأياً» وفعلوا برأيه. فقاتلت هذه القبائل الفرس وهي على «تعبئة» إذ قسمت جندها كتائب في ترتيب «الخميس» و«الكراديس» محتفظة بالظعن خلف الصفوف، وحركت هذه الكتائب في مناورة بارعة وفقاً لرأي ربيعة فانتصرت على الفرس في ذلك. والمعروف أن المناذرة والغساسنة عرفوا التنظيم الخماسي للجيش (الخميس) كما عرفوا الكراديس واستعملوها في حروبهم.

قد توقفوا في فتوحهم عند حدود معينة، ولم يعد يشغلهم إلا الحروب الصغيرة التي تجري من وقت لآخر فيما بينهم، أو بينهم وبين القبائل العربية المقيمة على حدودهم، أو تلك الحروب الداخلية التي كانت تقض مضجع أباطرتهم بين الحين والآخر، ولم يعد التوسع أمراً يعنيهم من قريب أو بعيد.

ولكن الفرس والبيزنطيين ظلوا يتميزون عن غيرهم بقوتهم العسكرية وتنظيماتهم وأساليب القتال التي سبق واعتمدوها في حروبهم، والتي كان العرب يجهلونها إلى حد كبير، فقد عرفت بيزنطية نظام الكتائب في سلاحي المشاة والخيالة كما عرفت نظام الكراديس (والكردوس عندهم يضم ستمائة مقاتل)، كما عرف الفرس أنواعاً من المحاربين في جيشهم مثل: الفرسان، والفيّالة، والمشاة، والردائف، (وكان هؤلاء يحرسون أطراف الامبراطورية ويتألفون من رجال من الشعوب المحاربة والمقيمة على هذه الأطراف)، فكان الفرسان قوة الجيش الضاربة بينما كانت الفيلة تشكل «دبابات» ذلك العصر.

وفيما يلي لمحة عن التنظيمات العسكرية في كل من فارس وبيزنطية:

التنظيمات الفارسية: كان الجيش الفارسي مؤلفاً من أربعة أنواع من المحاربين:

١ ـ **الفرسان: الأساوره**، (مفردها أساور، وجمعها أسواران)، وهم أساس الجيش وقوته الضاربة. ويقسمون بدورهم إلى أنواع:

أ ـ **الفرسان الدارعون**: أو الفرسان النبلاء، وهم النخبة الممتازة في الجيش، يسيرون في مقدمته، ويشكلون عماد المعركة بحيث يتوقف النصر على قوتهم وشجاعتهم.

ب ـ **فرقة الخالدين**: وهي فرقة من الفرسان المختارين تضم عشرة آلاف فارس.

ج ـ **فرقة الفدائيين**: وهي فرقة من الفرسان الذين يمتازون بالجرأة واقتحام المخاطر.

٢ ـ الفيالة:

وهم راكبو الفيلة، يأخذون مواقعهم في المعركة خلف الفرسان، ويحملون سكاكين طويلة المقابض لطعن الفيل طعنة قاتلة في رقبته إذا ما ذعر وارتد نحو صفوف الفرس خشية أن يدوس خيلهم ورجالهم.

٣ ـ المشاة (پايكان):

وهم مؤخرة الجيش، يُجمعون من الفلاحين الفقراء، ويعملون خلف صفوف المحاربين حيث يهدمون الأسوار ويخدمون الفرسان، ولم يكونوا مهرة في القتال، بل كانوا يولون الأدبار فور مواجهتهم للعدو.

٤ ـ الفرق الرديفة:

وهي الفرق المؤلفة من الشعوب المحاربة التي تقطن أطراف الدولة، وتضم عادة محاربين ممتازين يرئسهم قادة وطنيون منهم، وكان بعض هذه الفرق يقاتل راكباً كالفرسان (الأساوره).

وقد أجرى كسرى أنو شروان إصلاحات واسعة في الحقل العسكري، فعزز سلاح الفرسان وأنشأ جيشاً منهم ومن المهاجرين الغرباء، وقد تميزت إصلاحاته بأنها سارت بالدولة نحو الحكم العسكري حيث استبد كل حاكم بمقاطعته فكثرت أطماع الحكام ومحاولاتهم لاغتصاب العرش، مما سهل للمسلمين سبيل الفتح.

أما الرتب العسكرية التي استقرت في عهد كسرى أنو شروان فهي كما يلي:

الشاه: وهو القائد العام لجيوش فارس.

الاسبهبذ: وهو الحاكم العام للولاية وقائد جيشها.

المرزبان: وهو نائب الحاكم العام للولاية ونائب قائد جيشها.

السالار: وهو قائد وحدة عسكرية (قائد وحدة فرسان: اسواران سالار، وقائد وحدة مشاة: پايكان سالار)[٩].

---

(٩) كريتنسن، آرثر، إيران في عهد الساسانيين، تع: يحيى الخشاب، ص ٨٦. و٩٤ و١١٨ ـ ١٢١، =

التنظيمات البيزنطية:

لم تكن التنظيمات البيزنطية لتختلف كثيراً عن تلك التي عرفت، في ذلك الحين، عند الفرس. فقد عرفت بيزنطية نظام الكتائب القائمة على سلاحي المشاة والفرسان، وكان الجيش يقسم إلى فرق تسمى كراديس (مفردها كردوس) يضم كل منها نحو ٦٠٠ جندي، وكان الامبراطور هو القائد الأعلى للجيوش التي تضم زهاء ١٥٠ ألف جندي (في عهد جوستنيان، أي قبل الفتح الإسلامي مباشرة)، وفيما يلي موجز لهيكلية التنظيم العسكري لهذه الجيوش:

ـ **التيما (Thema)**، وهو جيش مؤلف من عشرة آلاف جندي، وكانت جيوش الأمبراطورية تضم خمسة عشر جيشاً، وهي موزعة على خمسة عشرة ولاية يتمركز كل جيش في واحدة منها، ومهمته حمايتها والدفاع عنها والقتال دفاعاً عن الامبراطورية مع باقي الجيوش، ويقوده قائد ولاية (أو بطريق أو جنرال Stratégos). ويقسم الجيش (التيما) إلى فرقتين متساويتين، تسمى كل منهما: تورماي.

ـ **التورماي Turmai**، وهي فرقة مؤلفة من خمسة آلاف جندي، يقودها قائد يسمى طورمرخاي (Turmarchai). وتقسم الفرقة (التورماي) إلى خمس عصبات متساوية تسمى كل منها: باندا.

ـ **العصبة، أو الباندا (Banda)**: بمثابة **فوج**، وهي مؤلفة من ألف جندي، يقودها قائد عصبة أو درانغاريوس (Drungarius)، وتقسم العصبة (باندا) إلى خمس وحدات متساوية تسمى كل منها: بنتارخيا.

ـ **البنتارخيا (Pentarkhia)**: بمثابة **كتيبة**، وهي مؤلفة من مايتي جندي، ويأمرها قائد يسمى كُند أو قُمط أو قومس (komites).

ـ **وحدة العشرين**: بمثابة **فصيلة**، وهي مؤلفة من عشرين جندياً، ويأمرها

= و١٩٦ ـ ٢٠٠ و٣٥٢ ـ ٣٥٦، وكان كسرى أنو شروان قد ألغى منصب «إيران أسبهبذ»، أي القائد العام للجيوش الفارسية، واستبدله بأربعة قادة «أسبهبذ» (ص ٣٥٥).

ضابط يسمى بنتكنتارخيا (Pentekontarhia) أو آمر فصيلة.

- **وحدة العشرة:** بمثابة حضيرة، وهي مؤلفة من عشرة جنود، ويأمرها جاويش يسمى ديكارخس (Dekarches) أو آمر عشره[10].

ويضيف المؤرخان جرجي زيدان وعبد الرؤوف عون على هذا التقسيم:

- **وحدة المابة:** بمثابة سريه، ويقودها: قائد ماية، أو قمطرخ أو قمطارخيا (centurion)[11].

وهكذا:

- يأمر الامبراطور خمسة عشر قائد ولاية، أو بطريقاً. (أي ١٥ جيشاً أو تيما).
- ويأمر البطريق، قائدَيْ فرقة أو طورمرخايين اثنين. (أي فرقتين أو ٢ تورماي).
- ويأمر الطورمرخاي، خمسة من قادة العصبات أو الأفواج أو الدرانغاريوس. (أي ٥ أفواج أو باندا).
- ويأمر الدرانغاريوس، خمسة من قادة الكتائب أو القومس. (أي ٥ كتائب أو بنتارخيا).
- ويأمر القومس، قائدَيْ ماية أو سرية أو قمطارخيين اثنين. (أي سريتين أو مايتين).
- ويأمر القمطارخيا، خمسة بنتكنتارخيا أو آمري فصائل. (أي ٥ فصائل)
- ويأمر البنتكنتارخيا آمرَيْ عشرة أو ٢ ديكارخس. (أي حضيرتين).

أما وسائل القتال عند الفرس والبيزنطيين فقد كانت متطورة إلى حد كبير،

---

(١٠) بينز، نورمان، الأمبراطورية البيزنطية، تع: حسين مؤنس ومحمود زايد، ص ١٧٢ - ١٧٣.

(١١) عون، الفن الحربي، ص ١١٢، وقارن: زيدان، التمدن الإسلامي، جـ١: ١٤٢ - ١٤٣ مع ملاحظة أن عون اعتبر القمطرخ قائداً لخمسين جندياً بينما اعتبرناه قائداً لمئة نظراً لورود اسمه بالفرنسية عند زيدان Centurion والمعروف في المعاجم أن هذا الاسم يعني (قائد المئة) Larousse XXe siècle, V2. (centurion).

رغم أنها كانت هي نفسها التي عرفها العرب وتقدم ذكرها وهي، بالإضافة إلى الأسلحة التي ذكرناها: المنجنيق والعرّادة والدبابة (أو الكبش أو الضبر) وسلّم الحصار والحسك الشائك وسائر أنواع التحصينات مثل خنادق الدفاع والحصون والأسوار والمسالح والثغور.

وكان الفرس والبيزنطيون يقاتلون بالكراديس وبنظام الصف بدلاً من نظام الكر والفر الذي كان العرب يعتمدونه، وكان «قتال الزحف» الذي اعتمده هؤلاء العجم «أوثق وأشد» من «قتال الكر والفر» الذي اعتمده «العرب والبربر من أهل المغرب» كما يقول ابن خلدون[١٢].

ثالثاً: خصائص الدعوة الإسلامية، ونشأة الفن العسكري الإسلامي:

١ ـ خصائص الدعوة الإسلامية:

ضمن هذه الأطر العامة التي وصفنا، والتي كانت سائدة لدى عرب الجاهلية في شبه الجزيرة العربية من جهة، ولدى الفرس والبيزنطيين في فارس وبيزنطية وبلاد العراق والشام من جهة أخرى، نزلت الدعوة الإسلامية على رسول الله محمد ﷺ فأحدثت تغيّراً جذرياً في ذهنية المجتمع العربي الذي كان قائماً في ذلك العصر، بل ونقلت ذلك المجتمع نقلة أصيلة ونوعية نحو عالم جديد لم يعهده العرب، بل العالم من قبل.

فمن ناحية علاقة الدين الإسلامي بعرب الجزيرة، قضى الإسلام على النزعة الجاهلية لدى هؤلاء العرب قضاء مبرماً، كما قضى على تلك النزعة البدوية التي كانت متأصلة بابن الجزيرة العربية، والتي كانت سائدة في ذلك المجتمع مع ما كان يرافقها من نزاعات دامية ذات غايات ثانوية تعبّر عن الأنانية والمصلحية لدى الانسان العربي، واستبدلتها بنزعة انسانية نبيلة هي الجهاد في سبيل نشر الدعوة الإسلامية والدفاع عن الدين الجديد. ولا ريب في أن الظروف الاجتماعية

(١٢) ابن خلدون، المجلد الأول (المقدمة) ص ٤٨.

والاقتصادية القاسية التي كانت سائدة في المجتمع العربي في ذلك الحين، وهي ظروف اتسمت بالحرمان والجهل والطبقية، ساعدت إلى حد كبير على احداث هذا التغيّر الجذري، إذ أن الدين الجديد وعد الانسان المؤمن «بدولة تحكم وفق المبادىء الموحى بها من الله وتعامل جميع المؤمنين بالتساوي تجاه الشريعة الإسلامية»، كما وعد بدولة «تحقق في قلب الجماعة الإسلامية تكافلاً واسعاً على حساب المحظوظين ولمصلحة الفقراء»[١٣].

ومن ناحية علاقة الدين الإسلامي بالفرس والبيزنطيين، فقد كانت هذه العلاقة علاقة حرب وقتال بدل أن تكون علاقة ود وسلام، ومن خلال هذه العلاقة العدائية ـ العسكرية تمكن المسلمون، وبسرعة مذهلة، من اكتساب كل خصائص الفن العسكري الذي كان أعداؤهم الفرس والبيزنطيون قد اتقنوه وطوّروه وبرعوا به، وهكذا، وفي بضع سنين فقط، تمكن العرب المسلمون من أن يتقنوا هذا الفن الصعب وينتصروا به على أولئك الذين كانوا له أرباباً وكانوا هم فيه مقلدين.

ولم يكن ذلك نتيجة تطور عفوي وعادي في ذهنية الانسان العربي المسلم، بل كان نتيجة تبدل جذري، نفسي وعقيدي ومجتمعي، أوجدته العقيدة الإسلامية في داخل هذا الانسان، ومن هنا تبرز خصائص هذه العقيدة الفريدة في نوعها في تاريخ المجتمعات الانسانية، ويكمن ذلك في التعليمات الأساسية التي حملتها الشريعة الإسلامية لهذا الانسان القابع في عمق الجزيرة العربية القاحلة، فحوّلته إلى انسان آخر تماماً، حمل إلى الكون بأسره مشعل الحرية والنور والسعادة الأبدية.

ولا شك في أن أهم عوامل هذا التطور السريع والجذري، هو غاية الرسالة نفسها، والطريق إلى نشرها بين الأمم، لذلك، لا بد أن نعتبر غايات الحرب في الإسلام أهم خصائص الدعوة الإسلامية في هذا المجال.

---

(١٣) رودانسون، الإسلام والرأسمالية، تعريب: نزيه الحكيم، ص ٦٥ ـ ٦٦.

٢ ـ غايات الحرب في الإسلام:

لقد أحدث ظهور الدعوة الإسلامية في شبه الجزيرة العربية ثورة في المجتمع العربي وتطوراً جذرياً في نفسية الانسان العربي وعقليته، إذ بدأت مظاهر الجاهلية، من أنانية وتسلط وحب للثأر، بالزوال، لتحل محلها مظاهر أخرى بديلة حملها الدين الجديد، وأهمها التسامح والتضحية ونكران الذات في سبيل أخوة رابطتها الإسلام ولحمتها العقيدة السماوية الجديدة. فكان لا بد لغايات القتال في هذا المجتمع العربي من أن تتطور بتطور المجتمع نفسه، وتلتصق بمبادىء الرسالة الإسلامية وغاياتها، فإذا بالدين الجديد ينهي عصر الثأر والغزو والقبلية ليفرض على العرب غايات جديدة للحرب لم يألفوها، غايات حددتها مثل عليا وأهداف سامية حملتها الرسالة الإسلامية نفسها، وهذه الغايات هي:

الأولى ـ الجهاد في سبيل الله (وأول أهداف الجهاد وأهمها: نشر الدين الإسلامي).

والثانية ـ الردع وصد الفتنة عن دين الله.

والثالثة ـ التطلع إلى حياة أفضل.

الغاية الأولى ـ الجهاد في سبيل الله:

إن أولى غايات القتال في الإسلام هي «الجهاد في سبيل الله» وذلك وفقاً لآيات كريمة عديدة أمرت المسلمين بالجهاد والقتال في سبيل الله، نذكر بعضاً منها على سبيل المثال، فقد قال تعالى: ﴿وجاهدوا في الله حق جهاده﴾ «الحج ٧٨»، وقال: ﴿... وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون﴾ «التوبة ٤١». وقال: ﴿.... وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة....﴾ «التوبة ٣٦». وقال: ﴿كتب عليكم القتال وهو كره لكم....) «البقرة ٢١٦».

كذلك كان النبي ﷺ يأمر المسلمين دائماً بالجهاد والقتال في سبيل الله، فقد كان يوصي قادة الغزوات بقوله: «اغزوا باسم الله، قاتلوا من كفر بالله» كما كان

يوصيهم أن يدعوا المشركين إلى الإسلام قبل قتالهم فإن استجابوا كان خيراً، وإلا «فقاتلوا في سبيل الله من كفر بالله». وظلت دعوة الجهاد هذه حافزاً للمسلمين في جميع حروبهم وفتوحهم حتى بلغوا بها أقاصي المشرق وأواسط أوروبا. ويتبين مما تقدم من آيات وأحاديث أن أول هدف من أهداف الجهاد هـو نشر الدين الإسلامي وقتال كل من لم يؤمن بالدعوة الإسلامية من المشركين والكافرين، كما سنرى. وقد حلت «عقيدة الجهاد» محل «الغزوات القبلية» وحولت «قوة القبائل الضخمة التي تهدر في النزاعات الداخلية نحو محاربة العالم الخارجي باسم الدين الجديد»(١٤).

الغاية الثانية ـ الردع وصد الفتنة عن دين الله:

بدأ الإسلام في قريش ضعيفاً مقهوراً، فنزلت أولى الآيات القرآنية تدعو لنبي محمداً ﷺ إلى الرفق واللين والحسنى، مثل: ﴿وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله﴾ «الأنفال٦١» ومثل: ﴿فاصفح عنهم وقل سلام فسوف يعلمون﴾ «الزخرف ٨٩» ومثل ﴿واصبر على ما يقولون واهجرهم هجراً جميلاً﴾ «المزّمل ١٠» ومثل: ﴿. . . فاعفوا واصفحوا حتى يأتي الله بأمره. . .﴾ «البقرة ١٠٩». ومثل قوله عليه الصلاة والسلام: «أيها الناس، لا تتمنوا لقاء العدو وسلوا الله العافية».

وهكذا، فقد كان القتال في الإسلام، وفي أول الأمر، يهدف إلى ردع المشركين وصد عدوانهم على المسلمين، إلا أن هذه الفئة القليلة المضطهدة على أيدي قومها من قريش ظلت تتحمل الاضطهاد والقهر طيلة ثلاثة عشر عاماً، حتى إذا ما اشتد ساعدها وقويت شوكتها وكثر عددها، انبرت تقاتل المشركين وترد عدوانهم بل وتهاجمهم في عقر دارهم وأينما وجدوا، وقد رافق ذلك نزول آيات كريمة تدعو المسلمين للقتال، فنزلت الآية الكريمة: ﴿أذِن للذين يقاتلون بأنهم ظُلموا وأن الله على نصرهم لقدير﴾ «الحج ٣٩». وتبعتها آيات أخرى عديدة تحض المسلمين على قتال المشركين وتدعوهم إلى ذلك مثل ﴿وقاتلوهم حتى لا

---

(١٤) خدوري، مجيد، الحرب والسلم في شرعة الإسلام، ص ٩٠.

تكون فتنة ويكون الدين لله، فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين﴾ «البقرة ١٩٣» ومثل ﴿وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين﴾ «البقرة ١٩٠» ومثل قوله تعالى وهو يحث المسلمين على القتال دفاعاً عن دينهم وعن أنفسهم ونسائهم وأولادهم: ﴿وما لكم لا تقاتلون في سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان﴾ «النساء ٧٥»، فيكون الإسلام قد اعتمد استراتيجية مرحلية في مقارعته للمشركين والكافرين، حيث بدأ معهم مهادناً، ثم مدافعاً، وانتهى مهاجماً، إلا أن صد الاعتداء وردع المعتدين ودفع الفتنة عن دين الله والدفاع عن النفس والأهل والعقيدة ظلت من أهم غايات القتال في الإسلام.

الغاية الثالثة ـ التطلع إلى حياة أفضل:

وهي غاية لم يقرّها أحد من الباحثين ولم يلتفت إليها، رغم ما في حروب المسلمين خارج الجزيرة العربية من إشارات ودلائل تشير إلى رغبة الإسلام في تحسين الوضع الاجتماعي والاقتصادي للمسلمين. والحقيقة التي لا مراء فيها أنه، وإن كانت الغاية الأساسية للقتال في الإسلام هي الجهاد في سبيل الله ونشر دينه ورد الأذى عن الإسلام والمسلمين، فإن «التطلع إلى حياة أفضل» للمسلمين الخارجين من شظف العيش في الجزيرة العربية، والمتطلعين إلى كنوز كسرى وأهراء بيزنطية، لا بد وأن يكون حافزاً آخر جديراً بالاهتمام والتقييم.

وإذا لم تكن الدوافع الاقتصادية غاية الحروب الإسلامية في الأساس، وهي ليست كذلك على الإطلاق، فإن هذه الدوافع أضحت، ولا شك، تمثل حافزاً هاماً من حوافز الحرب عند المسلمين، وخاصة بعد النهضة العارمة التي بعثها الإسلام في الجزيرة وبعد انفتاح العرب على العالم الخارجي بفضل عقيدتهم الجديدة. كما كان لا بد للمسلمين من هذا التطلع المادي بعد أن أصبح ضرورة ماسة لسد حاجات اقتصادية فرضها ازدياد عددهم ونمو جيشهم، فالغاية الأخيرة إذن هي نتيجة حتمية للغايتين الأوليين، وهي متفرعة عنهما وليست متساوية بهما أو موازية لهما.

وليس أكثر دلالة على ذلك من اهتمام الإسلام بتوزيع الفيء والغنائم على المقاتلين اهتماماً لا يكاد يعادله اهتمام، يضاف إلى ذلك ما ورد في خطبة الخليفة عمر بن الخطاب (رضي) يوم وليّ الخلافة إذ قال: «لكم عليّ أيها الناس خصال أذكرها لكم فخذوني بها: لكم عليّ ألا اجتبي شيئاً من خراجكم ولا ما أفاء الله عليكم من وجهه، ولكم عليّ إذا وقع في يدي ألا يخرج مني إلا في حقه، ولكم عليّ أن أزيد عطاياكم وأرزاقكم إن شاء الله تعالى»[١٥]. وما روي من قول المثنى بن حارثة الشيباني لما رأى تردد الناس في اللحاق به لمحاربة الفرس في العراق، إذ قال: «أيها الناس، لا يعظمنّ عليكم هذا الوجه[١٦]، فأنّا قد تبحبحنا[١٧] ريف فارس وغلبناهم على خير شقيّ السواد وشاطرناهم ونلنا منهم واجترأ مَنْ قِبَلَنا عليهم، ولها إن شاء الله ما بعدها» فلما سمع الخليفة عمر (رضي) قول المثنى زاد عليه: «إن الحجاز ليس لكم إلا بدار على النُّجعة[١٨]، ولا يقوى عليه أهله إلا بذلك. أين الطُّراء[١٩] المهاجرون من موعود الله؟ سيروا في الأرض التي وعدكم الله في الكتاب أن يورثكموها[٢٠].

بعد كل ما تقدم، يمكن القول، بلا مبالغة، إن غايات الحرب في الإسلام كانت وراء تقدم المسلمين وتطورهم في مجال الفن العسكري، فالغاية تبرر الوسيلة، وليس من غاية كنشر الإسلام يمكن أن تكون حافزاً لمؤمن أن يسلك كل السبل الشريفة ويستخدم كل الأساليب النبيلة، لكي يقاتل فيستشهد أو ينتصر، وهذا ما فعله المسلمون بلا تردد.

٣ ـ وسائل الحرب وأساليبها عند المسلمين:

تعلم المسلمون من حروبهم ضد الفرس والبيزنطيين استعمال مختلف وسائل

---

(١٥) هيكل، محمد حسين، الفاروق عمر، جـ ١: ٩٦.

(١٦) هذا الوجه: أي وجه فارس، وكان أكره الوجوه على المسلمين لشدة بأسهم وسطوتهم (م. ن، جـ ١: ٩٧).

(١٧) تبحبحنا: أي توسطنا، وتمكنا من. . (م. ن، ص. ن).

(١٨) النجعة: طلب الكلأ في موضعه (محيط المحيط).

(١٩) الطراء (بضم الطاء والراء وشدهما): الغرباء (محيط المحيط).

(٢٠) هيكل، المصدر السابق، جـ ١: ٩٧ ـ ٩٨.

القتال التي عرفها هؤلاء، فصنعوها بدورهم واستعملوها في حروبهم كافة، فقد أخذوا المنجنيق، مثلاً، عن الفرس، واستعملوه في حروبهم في العراق والشام بعد أن طوّروه وزادوا عليه، وأخذوا خنادق الدفاع عن الفرس كذلك، كما أخذوا عن الروم «الخنادق المائية»، وغنم النبي ﷺ من يهود خيبر عدداً كبيراً من المجانيق والدبابات التي كانوا يختزنونها في بيت تحت الأرض، وقال بعض المؤرخين إن النبي ﷺ استعمل المجانيق والدبابات في حصاره لبني ثقيف بالطائف. وقد طوّر المسلمون الدبابة وأدخلوا عليها كثيراً من التعديلات والتحسينات، كذلك تعلم المسلمون بناء الحصون والأسوار والأبراج والاطام من اليهود الذين نقلوها بدورهم عن الرومان، وذلك قبل هجرتهم إلى الجزيرة العربية، واستعمل المسلمون كذلك الحسك الشائك وسلم الحصار والنار اليونانية، كما أنشأوا المسالح والثغور وذلك في مرحلة متقدمة من فتوحهم[٢١].

أما في مجال التنظيم والتكتيك، فقد كانت هناك قفزة نوعية عند المسلمين لم تشهدها أية أمة من الأمم في تلك البرهة من الزمن التي استطاع المسلمون، في خلالها، إحراز هذا التقدم النوعي. وقد حقق المسلمون، في بدء حروبهم في عهد النبي ﷺ، وفي بدء فتوحهم في عهد الخليفتين أبي بكر وعمر (رضي) تقدماً لا يضاهى في مجال التنظيم العسكري:

- **ففي عهد النبي ﷺ**: عرف المسلمون تنظيم الجيش في وحدات يعرّف عليها العرفاء وينقب النقباء (على كل عشرة رجال عريف، وعلى كل عشرة عرفاء نقيب) كما عينوا للجيش أميراً من أهل السابقة في الإسلام والتجربة في القتال.

- **وفي عهد الخليفة أبي بكر (رضي)**: عرف المسلمون تنظيم الجيش في «كراديس» على الطريقة البيزنطية، مع الاحتفاظ بنظام «الخميس».

- **وفي عهد الخليفة عمر (رضي)**: تمَّ أهم تحديث للتنظيم في الجيش الإسلامي، حيث أقر عمر نظامي الكراديس والخميس وزاد عليهما تحديد القيادات العسكرية، كما أنشأ ديواناً للجند ورواتب للعسكريين ونظاماً للتجنيد الالزامي

(٢١) زيدان، جرجي، تاريخ التمدن الإسلامي، جـ١: ١٧٤ ـ ١٨٠.

والتسريح والبدال، وأنشأ أجهزة في الجيش، إدارية وإعلامية ومعنوية وقضائية وطبية، ووظائف أخرى لا تزال معروفة ومستخدمة حتى في الجيوش الحديثة[٢٢].

ولم يكن التطور النوعي في مجال التكتيك بأقل مما كان في مجال التنظيم، فقد تخلى المسلمون نهائياً عن نظام الكر والفر الذي عرفه العرب في جاهليتهم، وتبنوا، بصورة قاطعة، نظام الصف، وذلك عملاً بقوله تعالى: ﴿إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص﴾ أو عملاً بالحديث الشريف: «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً». واقترن نظام الصف هذا بنظام آخر هو نظام الزحف و«نظام الكر دون الفرّ»، وذلك عملاً بقوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفاً فلا تولوهم الادبار الخ . . .﴾، حيث صار المسلمون يرتبون صفوفهم للقتال ويسوّونها كما تسوى الصفوف للصلاة، ويزحفون نحو العدو دون فكرة تراجع، جاعلين خلفهم إبلهم ونساءهم وأولادهم وأحمالهم كحاجز معنوي لمنعهم من التراجع والفرار، فكان ذلك ولا شك من أهم أسباب انتصار المسلمين في حروبهم وفتوحهم.

يضاف إلى ما تقدم من شؤون الفن العسكري ما اتقنه المسلمون في مطلع عهدهم بالحروب من أمور الاستراتيجية والتعبئة بمعنييها الاستراتيجي والتكتيكي[٢٣] في مفهوم ذلك العصر. ولا شك في أن القرآن الكريم زاخر بالآيات التي تعلم المسلين الكثير من تعاليم القتال، وكذلك الأمر بالنسبة إلى الأحاديث النبوية الشريفة وسنة الرسول ﷺ.

وسنحاول، فيما يلي من أبحاث، أن ندرس مبادىء الفن العسكري أو فن

---

(٢٢) سوف نبحث هذه التنظيمات بالتفصيل في مقالة لاحقة.

(٢٣) عرف المسلمون حرب الجماعة أو «الأمة المسلحة» إذ كان القتال فرضاً على كل مسلم «عاقل بالغ حر سليم من الأمراض»، كما عرفوا النفير العام باعتبار أن القتال فرض على المسلمين جميعاً بلا استثناء، والنفير الخاص وهو لقتال الممتنعين عن إداء الفرائض الدينية والخارجين على الشرائع الإسلامية، وقطاع الطرق، وهو فرض كفاية إذا قام به البعض سقط عن الباقي، وكان الفضل لمن قام به. أما التعبئة التكتية فقد عرفها خالد بن الوليد الذي خرج للقاء الروم في اليرموك «بتعبئة لم تعبئها العرب قبل ذلك»، كما سنبين في مقالات لاحقة.

الحرب، عند المسلمين، كما أرشد إليها القرآن الكريم والحديث الشريف، وكما وصلتنا في سنة رسول الله ﷺ، أي سلوكه عليه السلام في القتال، وأقوال الخلفاء (الراشدين) وأفعالهم، وأوامر القادة العسكريين المسلمين وسلوكهم في القتال، ثم ما وضعه المفكرون المسلمون من مبادىء في هذا المجال، معترفين، سلفاً، أن ما نقدمه ما هو إلا غيض من فيض، وأنه لا يمكن لأي باحث أن يفي هذا البحث حقه لسعته وشموله.

المقالة الأولى

المصدر الأول: القرآن الكريم

يعتبر القرآن الكريم المصدر الأول من مصادر الفن العسكري الإسلامي، فهو الذي حدد أهداف القتال وغاياته في الإسلام، كما تعددت فيه الآيات المتعلقة بالقتال والحض عليه وتحديد مبادئه، بل لقد ذهب بعضها إلى حد تعليم المسلمين أساليبه ومناوراته وآداب السلوك فيه، وفيما يلي نماذج من هذه الآيات وما تضمنته من مبادىء وتعاليم ذات علاقة مباشرة بالفن العسكري:

١ ـ الإستنفار أو التعبئة العامة والإعداد للحرب:

أمر الله عز وجل المسلمين بالتعبئة البشرية قبل القتال بقوله ﴿انفروا خفافاً وثقالاً وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون﴾ «التوبة ٤١»[1]، ويعني الاستنفار هنا: استنفار الجماعة وتعبئتها، أو حرب الجماعة، دون قبول العذر من أحد، فقد روى ابن أم مكتوم أن مسلماً ضريراً سأل رسول الله ﷺ: أعليّ أن أنفر؟ فقال رسول الله ﷺ: نعم، حتى نزلت الآية ﴿ليس على

---

(١) انفروا خفافاً وثقالاً، أي شباناً وشيوخاً، أو أغنياء وفقراء، أو ركباناً ومشاة، أو ذوي عيال وغير ذوي عيال (الماوردي، الأحكام السلطانية، ص ٣٦)، وقد روى القرطبي عشرة أقوال في تفسير ﴿انفروا خفافاً وثقالاً﴾، منها: الشجعان (الخفاف) والجبناء (الثقال)، وطليعة الجيش (الخفاف) والجيش بأسره (الثقال)، (القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، جـ ٨ : ١٥٠)، وعند الأمامين: أقوياء وضعفاء، أو أغنياء وفقراء، (تفسير الأمامين: جلال الدين المحلي وجلال الدين السيوطي، وهو ما يسمى بتفسير الجلالين)، وقد ذكر الأمامان أن هذه الآية نسخت بآية ﴿ليس على الضعفاء حرج﴾ إلا أن القرطبي (م. ن. ص. ن) يرى أنها ليست بمنسوخة.

الأعمى حرج﴾[٢]، «النور ٦١»، وقوله عز وجل ﴿يا أيها الذين آمنوا خذوا حذركم، فانفِروا ثُباتٍ أو انفِروا جميعاً﴾ «النساء ٧١» والثبات، لغةً: الجماعات المتفرقة، أو السرايا (واحدها ثُبَة وهي العصابة من الفرسان)[٣] وهذا أمر صريح للمسلمين بالاستنفار العام والتعبئة الكلية تحسباً للقاء العدو. كما أمر الله عز وجل بالتعبئة المادية والإعداد للحرب بقوله: ﴿وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم، وما تنفقوا من شيء في سبيل الله يوفّ إليكم وأنتم لا تظلمون﴾ «الأنفال ٦٠». وقد فسر الأمامان قوله تعالى ﴿عدو الله وعدوكم﴾ بإنه إشارة إلى كفار مكة، وقوله ﴿وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم﴾ بأنه إشارة إلى المنافقين أو اليهود[٤]، إلا أن القرطبي يرى في القول ﴿عدو الله وعدوكم﴾ إشارة إلى «اليهود وقريش وكفار العرب»، وفي القول ﴿وآخرين من دونهم﴾ إشارة إلى «فارس والروم»، كما ذكر «السُّدِّي»[٥]. ويشجع الله المؤمنين، في هذه الآية، على البذل والجهاد في سبيله بوعده لهم بأنه سوف يجزيهم خيراً وأنهم لن يُظلموا إذا ما جاهدوا في الله حق جهاده. كما وردت في القرآن الكريم آيات أخرى ترشد المسلمين إلى الوسائل والمعدات اللازمة للقتال، هجوماً ودفاعاً، من هذه الآيات:

ـ قوله تعالى: ﴿. . . وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس، وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب، أن الله قوي عزيز﴾ «الحديد ٢٥» والبأس هنا بمعنى القوة الضرورية للقتال. ويذكر البيضاوي في تفسيره[٦] أن آلات الحرب متخذة من الحديد، وأن نصر الله يتم باستعمال الأسلحة المصنوعة منه (البيضاوي في تفسير سورة الحديد).

ـ وقوله تعالى: ﴿وجعل لكم سرابيل تقيكم الحر وسرابيل تقيكم بأسكم. .﴾

---

(٢) القرطبي م. ن. جـ ٨ : ١٥٠.
(٣) م. ن. جـ ٥ : ٢٧٣ ـ ٢٧٤، ومحيط المحيط (ثُبيّ وثُبو).
(٤) انظر (تفسير الجلالين) بهامش القرآن الكريم.
(٥) القرطبي، م. ن. جـ ٨ : ٣٨.
(٦) القرآن الكريم وبهامشه تفسير القاضي ناصر الدين البيضاوي.

«النحل ٨١» والسرابيل: مفردها سربال وهو الدرع أو الجوشن الذي يقي من الطعن والضرب في القتال.

ـ وقوله تعالى: ﴿وعلمناه صنعة لَبوس لكم لتُحصنكم من بأسكم..﴾ «الأنبياء ٨٠» واللَّبوس: هي الدرع لأنها تُلبس، ويذكر القرطبي في تفسيره أن «اللبوس» هي عند العرب «السلاح كله، درعاً كان أو جوشناً أو سيفاً أو غمداً» (القرطبي، تفسير سورة الأنبياء) والهاء في (علمناه) تعود إلى (داود) في الآية التي تسبق هذه الآية ﴿.. وسخّرنا مع داود الجبال يسبّحن والطير﴾ «الأنبياء ٧٩»[٧]، ولتُحصنكم من بأسكم: أي لتحميكم في حروبكم مع أعدائكم، والبأس هنا بمعنى الحرب أو آلة الحرب (بعد حذف المضاف: آلة بأسكم)، (القرطبي).

ويؤكد الله عز وجل في آيتين أخريين من سورة «سبأ» فضله في تعليم داود صنع السابغات (أي الدروع) من الحديد، حتى ان قتادة قال: كان داود أول من صنع الدروع، إذ كانت صفائح فكان أول من سردها وحلّقها[٨]، قال تعالى: ﴿ولقد آتينا داود فضلاً منّا، يا جبال أوِّبي معه والطيرَ وألنّا له الحديد. أن اعمل سابغات وقدّر في السرد...﴾ «سبأ ١٠ و١١» وفي هاتين الآيتين إشارة إلى داود أن يصنع الدروع من الحديد بعد أن ألانه الله له فجعله في يده «كالشمع يصرفه كيف يشاء» (البيضاوي) أو «كالطين المبلول والعجين والشمع» (السُّدي في القرطبي) وأن يقدّر سردها (أي نسج حلقها) تقديراً صحيحاً بحيث تجمع بين الخفة والحصانة (القرطبي)، والسرّاد: هو الزَّراد الذي يصنع حلقات الدروع وينسجها. ويفسر البيضاوي عبارة «وقدِّر في السرد» أي قدِّر مسامير الدرع (أي حلقاته) ﴿فلا تجعلها دقاقاً فتفلق ولا غلاظاً فتخرق﴾ (البيضاوي، تفسير سورة سبأ). ويأتي قول الله تعالى لداود في هذه الآيات في سياق إرشاد المسلمين إلى استعمال الحديد والدروع في الحروب.

---

(٧) قال وهب: كان داود يمر بالجبال مسبحاً والجبال تجاوبه بالتسبيح، وكذلك الطير (القرطبي، المصدر السابق، جـ ١١: ٣١٩).

(٨) م. ن. ص ٣٢٠. وحلّقها: جعلها حلقات.

إلا أنه، عز وجل، عرّض بالمتخاذلين والمتقاعسين عن الخروج للقتال من المسلمين ونعتهم بالكاذبين فقال: ﴿لو كان عرضاً قريباً وسفراً قاصداً لاتبعوك ولكن بعدت عليهم الشقة، وسيحلفون بالله لو استطعنا لخرجنا معكم، يهلكون أنفسهم والله يعلم أنهم لكاذبون﴾ «التوبة ٤٢»، أي لو كان ما دعوتهم إليه يا رسول الله متاعاً من الدنيا سهل المأخذ لاتبعوك طلباً للغنيمة، ولكن بعدت عليهم المسافة فتخلفوا، ويحلفون إذا رجعتم إليهم أنهم لو استطاعوا الخروج معكم لفعلوا، ولكنهم يهلكون أنفسهم بالحلف الكاذب والله يعلم أنهم لكاذبون (تفسير الجلالين). ولام عز وجل نبيه ﷺ لأنه أذن لجماعة من المنافقين بالتخلف عن القتال والجهاد في سبيل الله فخاطبه بقوله: ﴿عفا الله عنك لِمَ أذنتَ لهم حتى يتبين لك الذين صدقوا وتعلم الكاذبين﴾ «التوبة ٤٣»[٩]، ثم بقوله: ﴿لا يستأذنك الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم والله عليم بالمتقين﴾ «التوبة ٤٤»، ﴿إنما يستأذنك الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر وارتابت قلوبهم فهم في ريبهم يترددون﴾ «التوبة ٤٥» ﴿ولو أرادوا الخروج لأعدوا له عدة ولكن كره الله انبعاثهم فثبطهم وقيل اقعدوا مع القاعدين﴾ «التوبة ٤٦». أي أن المؤمنين حقاً لا يستأذنون رسول الله ﷺ بالخروج معه للقتال بل يخرجون بمبادرة منهم، وما الاستئذان إلا علامة النفاق وسبيل أولئك الذين يجب أن يرتاب النبي في صدق إيمانهم ونواياهم، إذ أنهم لو كانوا مؤمنين حقاً وأرادوا الخروج للقتال جهاداً في سبيل الله لأعدوا للخروج عدته من متاع وسلاح وخيل وما شابه.

وقد نزلت هذه الآيات الكريمة (في سورة التوبة) تعريضاً بالمنافقين الذين تخلفوا عن القتال في غزوة تبوك، وأذن النبي ﷺ لهم بذلك، فعاتب الله عز وجل نبيه بالآيات التي ذكرنا، والتي تُبين مدى إصرار العزة الإلهية على خروج المسلمين إلى الجهاد والقتال في سبيل الله حتى أنه، عز وجل، نعت المتخاذلين والمتقاعسين عن القتال والمتخلفين عنه بالمنافقين، ووضعهم في مستوى الكافرين الذين لا

---

(٩) قيل في تفسير هذه الآية قولان، الأول: لِمَ أذنتَ لهم بالخروج معك وهم بلا عدة ولا نية صادقة، والثاني، لِمَ أذنتَ لهم بالقعود والتخاذل وقبلت أعذارهم. والقول الثاني أصح وفقاً لما ذكره قتادة وعمرو بن ميمون. (أنظر القرطبي، م. ن. جـ ٨: ١٥٤ ـ ١٥٥).

يؤمنون بالله واليوم الآخر والذين «ارتابت قلوبهم» فخامرها الشك، فما صلح إيمانهم، وظلوا في شكهم يترددون. وقد كره الله «انبعاث» هؤلاء المنافقين، أي خروجهم للقتال، فثبط همتهم عنه وأمر أن يقعدوا «مع القاعدين» أي مع المرضى والنساء والصبيان، ووعدهم بنار جهنم إذ قال فيهم: ﴿فرح المخلَّفون بمقعدهم خلاف رسول الله وكرهوا أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله وقالوا لا تنفروا في الحر قل نار جهنم أشد حراً لو كانوا يفقهون. فليضحكوا قليلاً وليبكوا كثيراً جزاءً بما كانوا يكسبون﴾ «التوبة ٨١ و٨٢». وأمر الله تعالى نبيه أن لا يقبل خروجهم للقتال معه بعد ذلك فقال له: ﴿فإن رَجَعَك الله إلى طائفة منهم فاستأذنوك للخروج فقل لن تخرجوا معي أبداً ولن تقاتلوا معي عدواً إنكم رضيتم بالقعود أول مرة فاقعدوا مع الخالفين﴾ «التوبة ٨٣». وأكثر من ذلك، فقد أمره أن لا يصلي على أحد منهم، قال تعالى: ﴿ولا تصلِّ على أحد منهم مات أبداً ولا تقم على قبره أنهم كفروا بالله ورسوله وماتوا وهم فاسقون﴾ «التوبة ٨٤»، وذلك لأنهم ﴿رضوا بأن يكونوا مع الخوالف وطبع على قلوبهم فهم لا يفقون﴾ «التوبة ٨٧». وقد روي أن آية الصلاة هذه نزلت في شأن عبد الله بن أبي سلول، وكان منافقاً، وقد صلى النبي ﷺ عليه حين موته، فنزلت الآية لتمنع النبي عن الصلاة على المنافقين والفاسقين. وروي عن أنس بن مالك أن النبي ﷺ كان قد همّ بالصلاة على ابن أبي سلول إلا أن جبريل جذب ثوبه وتلا عليه: «ولا تصلِّ على أحد منهم مات أبداً...» الآية، «فانصرف رسول الله ﷺ ولم يصلِّ عليه». ولكن البخاري روى عن ابن عباس أن الآية نزلت بعد أن صلى النبي عليه السلام على ابن أبي سلول «ثم انصرف» وهذا هو المرجح[١٠].

استثناءات من التعبئة العامة

إلا أن التعبئة العامة في الإسلام لم تكن مطلقة، فقد وردت في القرآن الكريم استثناءات من هذه التعبئة بحيث يعفى منها من ورد ذكرهم في آيات محددة، وهم:

---

(١٠) القرطبي، م. ن، جـ ٨ : ٢١٨.

أ ـ طلبة العلم المستمرون في دراستهم:

وذلك في قوله تعالى: ﴿وما كان المؤمنون لينفروا كافة فلولا نفرَ من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون﴾ «التوبة ١٢٢»، فقد أعفى الله عز وجل طالبي العلم من المسلمين من أن ينفروا للقتال، وأمرهم بأن يبقوا في قومهم «ليتفقهوا في الدين» و«لينذروا قومهم» أي يرشدوهم بما تفقهوا من العلم، حتى لا ينقطع التفقّه في الإسلام، وهو الجهاد الأكبر. وتأتي كلمة «فلولا» في الآية بمعنى «فهلا». (القرطبي والبيضاوي).

ب ـ المرضى وأصحاب العاهات:

مثل الأعمى والأعرج، وذلك في قوله تعالى: ﴿ليس على الأعمى حرج ولا على الأعرج حرج ولا على المريض حرج..﴾ «الفتح ١٧»، أي أنه لا حرج على الأعمى والأعرج والمريض في عدم الذهاب إلى القتال، لعذرهم الواضح.

ج ـ العجزة والمسنون والزَّمِنون أو أهل الزَّمانه:

كما جاء في الآية الكريمة: ﴿ليس على الضعفاء ولا على المرضى... حرج﴾ «التوبة ٩١» فالضعفاء هم العجزة والمسنون، والمرضى هنا هم الزَّمِنون (أو الزَّمنى أو أهل الزَّمانه) أي المصابون بأمراض مزمنة لا شفاء منها (القرطبي والبيضاوي).

د ـ المعوزون، أي الفقراء والمحتاجون:[11]

الذين لا يجدون ما ينفقونه من مال لشراء عدة القتال وذلك عملاً بالآية ﴿لا يكلف الله نفساً إلّا وسعها﴾ إذا ان كل من عجز عن شيء سقط عنه[12]. وقد ورد ذلك في تتمة الآية السابقة «التوبة ٩١»: ﴿.. ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون حرج إذا نصحوا الله ورسوله..﴾. ويشترط عز وجل في هذه الآية، لاعفاء الضعفاء والمرضى والمعوزين من القتال، أن يكونوا صادقين في إيمانهم، وذلك بأن ينصحوا الله ورسوله فلا يحرضون المسلمين على التقاعس عن القتال ولا

(١١) العوز، لغة: الحاجة والضيق، أي الفقر الشديد.

(١٢) القرطبي، المصدر السابق، جـ٨: ٢٢٦.

يطلقون الأراجيف (الفتن والشرور) بحق المؤمنين ولا يعصون الله ورسوله في شيء.

ومما يجدر ذكره في هذا المجال هو أن الله عز وجل خصّ بالعفو والمغفرة المحسنين والذين يرغبون بالجهاد ولم يجد لهم الرسول ما يحملهم عليه، إذ قال فيهم: ﴿ما على المحسنين من سبيل﴾ «التوبة ٩٢» أي لا سبيل لمؤاخذتهم، وقال كذلك ﴿ولا على الذين إذا ما أتوك لتحملهم قلت لا أجد ما احملكم عليه، تولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزناً ألاّ يجدوا ما ينفقون﴾ «التوبة ٩٣». وقيل إن هذه الآية نزلت في بني مقرِّن المزنيّون، وهم سبع إخوة، أتوا رسول الله ﷺ ليحملهم في غزوة تبوك فلم يجد ما يحلمهم عليه، فعادوا وهم يبكون، فسمّوا البكائين[١٣]. وهو، بعكس ذلك، لا يغفر للأغنياء القادرين إذا ما تخلفوا عن القتال وذلك بقوله: ﴿إنما السبيل على الذين يستأذنونك وهم أغنياء، رضوا بأن يكونوا مع الخوالف وطبع الله على قلوبهم فهم لا يعلمون﴾ «التوبة ٩٤».

٢ ـ التعبئة النفسية والتوجيه المعنوي للمقاتلين:

تعتبر التعبئة النفسية والتوجيه المعنوي في العلم العسكري الحديث أحد أهم عوامل النصر في أية حرب، لذا فهما لا ينفصلان عن التعبئتين المادية والبشرية، إذ أنه، بقدر ما يكون الجيش معبأ للقتال بشرياً ومادياً ونفسياً تكون عوامل النصر في هذا القتال أكثر تهيؤاً له. ويكون إعداد الجيش بشرياً باستنفار الأمة للقتال «خفافاً وثقالاً»، ويكون إعداده مادياً بإعداد ﴿ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل﴾ لقهر العدو، أما إعداده نفسياً فيتم بتحريض الأمة على القتال وحضها عليه لكي تلاقي العدو بشحنة من الانفعال والتأثر تساعدها على النصر، إذ أن أي نصر لا بد وأن يبدأ بانتصار المقاتل على ذاته فيتخلص من عوامل الخوف، متبنياً، في قتاله، عقيدة تستحق أن يُستشهد من أجلها، كما أن أية هزيمة لا بد وأن تبدأ بالهزيمة المعنوية في نفوس المقاتلين. لذا حرّض الله عز وجل المسلمين على القتال وأمر رسوله ﷺ بتحريض المسلمين عليه، فخاطبه، وخاطب

(١٣) م. ن. ص ٢٢٨.

المؤمنين، بقوله: ﴿يا أيها النبي حرّض المؤمنين على القتال إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مئتين وإن يكن منكم مئة يغلبوا ألفاً من الذين كفروا بأنهم قوم لا يفقهون﴾ «الأنفال ٦٥». وفي ذلك أمر واضح للمسلمين بأن يقاتل العشرون منهم مايتين من الأعداء، وذلك لأن الأعداء، بعكس المسلمين، «قوم لا يفقهون» لم يقاتلون. إلا أن هذه الآية نسختها (وقيل: خففتها)[١٤] آية أخرى تلتها وهي: ﴿الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفاً، فإن يكن منكم مئة صابرة يغلبوا مئتين، وإن يكن منكم ألف يغلبوا ألفين بإذن الله، والله مع الصابرين﴾ «الأنفال ٦٦». أي أن الله عز وجل خفف عن المسلمين أعباء القتال، بعد أن رأى فيهم ضعفاً، (والعلم في الآية بمعنى الرؤية والاحساس والمشاهدة، إذ أن الله عز وجل يعلم، منذ الأزل، أن سيكون في المسلمين ضعف، في ذلك الحين، في القتال)، فرفع النسبة العددية التي كان فرضها عليهم لمواجهة أعدائهم، وهي عشرة بالماية (١٠٪) في الآية الأولى، خمسة أضعاف، أي إلى خمسين بالماية (٥٠٪) في الآية الثانية، ولم يسمح للمسلمين بالتخلي عن مواجهة العدو وقتاله إن هم بلغوا هذه النسبة أو زادوا عليها. كما حرضهم على القتال بقوله: ﴿فليقاتل في سبيل الله الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة، ومن يقاتل في سبيل الله فيُقتَل أو يَغلِب فسوف نؤتيه أجراً عظيماً﴾ «النساء ٧٤» أي ان الأجر والثواب مكتوبان للمقاتل المسلم شهيدا كان أم منتصراً، ولم يخصّ الله عز وجل المسلم المغلوب أو المنهزم، كما نرى، بأجر عظيم، وقوله ﴿وما لكم لا تقاتلون في سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها وآجعل لنا من لدنك ولياً وآجعل لنا من لدنك نصيراً﴾ «النساء ٧٥»[١٥]، وقوله: ﴿ولا تقولوا لمن يُقتل في سبيل الله أموات بل أحياء ولكن لا تشعرون﴾ «البقرة ١٥٤»، وقوله: ﴿الذين آمنوا يقاتلون في سبيل الله والذين كفروا يقاتلون في سبيل الطاغوت[١٦]، فقاتلوا

---

(١٤) ويرى البعض أن في هذا تخفيفاً لا نسخاً (أنظر، القرطبي، م. ن. ج ٨ : ٤٠ ـ ٤٥).

(١٥) يوبخ الله في هذه الآية المسلمين الذين لا يقاتلون في سبيله وفي سبيل انقاذ المستضعفين منهم من الرجال والنساء والصبيان وقد حبسهم الكفار وآذوهم، ويقصد بالقرية هنا مكة وكان يستنجد المسلمون من أهلها بالله ليجيرهم من ظلم المشركين وعذابهم ويخرجهم منها بعد أن ظلمهم أهلها.

(١٦) الطاغوت: الشيطان.

أولياء الشيطان إن كيد الشيطان كان ضعيفاً﴾ «النساء ٧٦»، وقوله: ﴿ألم ترى إلى الذين قيل لهم كفوا أيديكم وأقيموا الصلاة وأتوا الزكاة، فلما كتب عليهم القتال إذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية وقالوا ربنا لم كتبت علينا القتال لولا أخرتنا إلى أجل قريب. قل متاع الدنيا قليل والآخرة لمن اتقى ولا تُظلمون فتيلاً[١٧]. إينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم في بروج مشيدة . . .﴾ «النساء ٧٧ و٧٨»، وقوله ﴿ فقاتل في سبيل الله لا تُكَلَّفُ إلاّ نفسِك وحرّض المؤمنين عسى الله أن يكف بأس الذين كفروا والله أشدّ بأساً وأشدّ تنكيلاً﴾ «النساء ٨٤»[١٨].

ويبلغ التحريض المعنوي على القتال والتعبئة النفسية والمعنوية للمسلمين درجة يحرص فيها الله عز وجل على إظهار دعمه ومساندته لهم في القتال بإمدادهم بأعداد كبيرة من الملائكة كما جرى في وقعة بدر (٣ هـ)، قال تعالى: ﴿إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أني ممدكم بألف من الملائكة مردِفين﴾ «الأنفال ٩»، وقال أيضاً: ﴿ولقد نصركم الله ببدر وانتم أذلة فاتقوا الله لعلكم تشكرون. إذ تقول للمؤمنين ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزَلين. بلى إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسوِّمين. وما جعله الله إلا بشرى لكم ولتطمئن قلوبكم به وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم﴾ «آل عمران ١٢٤ ـ ١٢٦»، وجاء في (تفسير الجلالين) أن الملائكة قاتلت يوم بدر مع المسلمين «على خيل بُلق عليهم عمائم صفر أو بيض أرسلوها بين أكتافهم»، ولا نشك في أن القوة التي أمدّ الله بها المسلمين في بدر كانت قوة معنوية هائلة ولم تكن قوة مادية بأي حال، وفي ذلك تأكيد لِقوله تعالى: ﴿. . . كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين﴾ «البقرة

---

(١٧) «روى عمرو بن دينار عن عكرمة عن ابن عباس أن عبد الرحمن بن عوف واصحاباً له أتوا النبي ﷺ بمكة فقالوا: يا نبي الله كنا في عز ونحن مشركون، فلما آمنا صرنا أذلّة؟ فقال: إني أمرت بالعفو فلا تقاتلوا القوم. فلما حوّله الله تعالى إلى المدينة أمره بالقتال فكفّوا، فنزلت الآية، (القرطبي، م. ن. جـ٥ : ٢٨١).

(١٨) يخاطب الله في هذه الآية نبيه الكريم بما معناه: يا محمد، لا تهتم بتخلفهم عنك، وقاتل ولو وحدك فإنك موعود بالنصر (تفسير الجلالين).

٢٤٩». ويقال الشيء نفسه عن ما ورد في دعمه عز وجل للمسلمين في غزوة حنين (٨ هـ)، قال تعالى: ﴿لقد نصركم الله في مواطن كثيرة ويوم حنين إذا أعجبتكم كثرتكم فلم تُغنِ عنكم شيئاً وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين. ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وانزل جنوداً لم تروها.... ﴾ «التوبة ٢٦ ـ ٢٧».

ولكن الآيات الكريمة لم تكن تحضّ المسلمين على القتال وتعلمهم الإعداد للحرب فحسب، بل كانت تدعوهم للجنوح إلى السلم بعد القتال إذا ما جنح العدو له شرط أن لا يكون مخاتلاً أو مخادعاً، قال تعالى: ﴿وإن جنحوا للسَّلم فاجنح لها وتوكل على الله إنه هو السميع العليم﴾ «الأنفال ٦١»[١٩]. ثم يحذر الله رسوله من خداع الأعداء له بالصلح كي يستعدوا للقتال فيقول له: ﴿وإن يريدوا أن يخدعوك فإن حسبك الله هو الذي أيدّك بنصره وبالمؤمنين﴾ «الأنفال ٦٢» مطمئناً إياه بأن سوف يؤيده بنصر من عنده، وبالمؤمنين، كما أيّده دائماً بنصره.

٣ ـ تحديد غايات القتال وأهدافه في الإسلام

حدد القرآن الكريم غايات القتال وأهدافه في الإسلام بما يلي:

أ ـ نشر الدين الإسلامي:

وذلك باجبار أهل الكتاب على أحد أمرين: إما الإسلام أو الجزية، وذلك في قوله تعالى ﴿قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرِّمون ما حرّم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون﴾ «التوبة ٢٩»[٢٠]، وقتال الكفار والمشركين حتى يدخلوا في الإسلام ويمتنعوا عن الإشراك بالله وذلك في قوله تعالى: ﴿وقاتلوا المشركين كافة كما

---

(١٩) اختلف في هذه الآية هل انها منسوخة أم لا، فقال قتادة وعكرمة أنها نسخت بالآيتين: ﴿فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم﴾ و ﴿وقاتلوا المشركين كافة﴾ وقالا: «نسخت براءة كل موادعة حتى يقولوا لا اله إلا الله» والمقصود آية ﴿براءة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم من المشركين﴾ «التوبة١» وقال آخرون انها لسيت بمنسوخة، بل انها نزلت لقبول الجزية من اهل الجزية القرطبي، م. ن. جـ٨ : ٣٩ ـ ٤٠.

(٢٠) دين الحق: أي الدين الثابت الناسخ لغيره من الأديان، وهو دين الإسلام (تفسير الجلالين).

يقاتلونكم كافة وآعملوا أن الله مع المتقين﴾ «التوبة ٣٦»[٢١].

ب ـ ردّ الاعتداء عن المسلمين وعودتهم إلى الديار التي أخرجوا منها:

وذلك في قوله تعالى: ﴿وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم، ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين﴾ «البقرة ١٩٠»، وهذه هي أول آية نزلت على النبي ﷺ في الأمر بالقتال، وقد نزلت بعد الهجرة حيث كان القتال محظوراً قبلها، فقد كانت جميع الآيات التي نزلت قبل هذه الآية تأمر النبي ﷺ بدفع المشركين بالحسنى «إدفع بالتي هي أحسن» وبالعفو عنهم «فاعف عنهم واصفح»، وبهجرهم «هجراً جميلاً»[٢٢] إلى أن ردّ المشركون من أهل مكة النبي ﷺ عن البيت الحرام يوم الحديبية فنزلت آية القتال هذه، إلا أنها نسخت بعدها بالآية التي تلتها في السورة نفسها وهي: ﴿واقتلوهم حيث ثقفتموهم وأخرجوهم من حيث أخرجوكم والفتنة أشد من القتل. ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه فإن قاتلوكم فاقتلوهم كذلك جزاء الكافرين﴾ «البقرة ١٩١» ﴿فإن انتهوا فإن الله غفور رحيم﴾ «البقرة١٩٢»[٢٣]. وفي هاتين الآيتين الأخيرتين تأكيد من الله تعالى وإصرار على المسلمين بالقتال لردّ العدوان وصدّ الفتنة التي هي «أشد من القتل»، إلا أنه وضع، في البدء، للقتال حدوداً: فلا قتال في الأشهر الحرم إلا إذا بادر الكفار بالقتال، ولا قتال إذا انتهى الكفار عن كفرهم، أي إن تخلوا عنه ودخلوا في دين الإسلام. وفي هذا التحديد اعتدال تخلى الإسلام عنه بعد ذلك في سبيل نشر

---

(٢١) وقاتلوا المشركين كافة: أي جميعهم وفي كل الشهور (تفسيرالجلالين). ويأتي هذا المقطع من الآية استكمالاً للمقطع الأول منها وهو «إن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً في كتاب الله يوم خلق السماوات والأرض منها أربعة حرم... فلا تظلموا فيهم أنفسكم وقاتلوا....»

(٢٢) القرطبي، م. ن. جـ ٢ : ٣٤٧، وروي عن أبي بكر (رضي) أن أول آية نزلت في الإذن بالقتال هي ﴿أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا﴾ ويرى القرطبي (م. ن. ص. ن) أن هذه الآية الإذن نزلت في القتال عامة، أما الآية الأولى ﴿وقاتلوا في سبيل الله...﴾ فقد نزلت في قتال المشركين خاصة.

(٢٣) حيث ثقفتموهم: أي حيث وجدتموهم وتمكنتم منهم. ومن حيث أخرجوكم: أي من مكة، ويرى القرطبي أن الخطاب في هذه الآية هو للمهاجرين، وإن الضمير عائد لكفار قريش (القرطبي، م. ن. جـ ٢ : ٣٥١) فإن انتهوا...: أي إن انتهوا عن الكفر واسلموا فإن الله غفور رحيم (تفسير الجلالين).

الدعوة الإسلامية، إذ يؤكد الله عز وجل، في آية أخرى، وجوب مبادرة المشركين بالقتال فيقول: ﴿فإذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وخذوهم واحصروهم واقعدوا لهم كل مرصد فإن تابوا واقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم إن الله غفور رحيم﴾ «التوبة ٥»، فهو، في هذه الآية، يأمر المسلمين بعدم التهاون في قتال المشركين إذا ما انقضت الأشهر الحرم، بل يأمر بملاحقتهم أينما وجدوا وأسرهم وحصرهم في القلاع والحصون ورصد كل الطرق التي يسلكونها حتى يدخلوا في الإسلام أو يقتلوا [٢٤]، ولكن الله أمر المسلمين بقتال المشركين في الأشهر الحرم إذا هم قاتلوهم فيها فقال عز وجلّ: ﴿الشهر الحرام بالشهر الحرام، والحرمات قصاص، فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم، واتقوا الله واعلموا أن الله مع المتقين﴾ «البقرة ١٩٤». إلا أن بعض الفقهاء يرى أن الله عز وجلّ أباح قتال المشركين في الأشهر الحرم، في الآية: ﴿وقاتلوا المشركين كافة. . . . . .﴾ كما أباحه غزو رسول الله ﷺ لبني ثقيف في الشهر الحرام، لهذا فإن قتال المشركين في الأشهر الحرم مباح (الزهري)، بينما يرى البعض الآخر أن قتال المشركين في الأشهر الحرم غير جائز (عطاء)، وأن رسول الله ﷺ كان لا يقاتل في الأشهر الحرم «إلا أن يُغزى»[٢٥].

ج ـ صدّ الفتنة، والفتنة هنا بمعنى الشرك، ويجب على المسلمين صدّ الشرك ومحاربته لأنه «أشد من القتل» هولاً، قال تعالى: ﴿وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين﴾ «البقرة ١٩٣» وقال أيضاً: ﴿وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله فإنْ انتهوا فإن الله بما

---

(٢٤) يرى القرطبي أن في ذلك جواز اغتيال المشرك قبل دعوته إلى الإسلام، (م. ن. جـ ٨: ٧٣)، فالرصد هو مراقبة الطريق التي يسلكها المشرك، وفي ذلك إيذان بقتله، إلا أننا لا نرى رأيه، حيث أن الرصد يمكن أن يكون للأخذ (أي الأسر)، وليس للقتل (أو الاغتيال) فقط، خاصة وأن الإسلام قد نهى نهياً مطلقاً عن قتل المشرك قبل دعوته إلى الإسلام.

(٢٥) القرطبي، م. ن. جـ ٣ : ٤٣ ـ ٤٤، ويذكر الشيباني (في كتاب: «السير) عن (أبي يوسف) أن رسول الله غزا بني ثقيف في الطائف في مستهل شهر المحرم «وأقام عليها أربعين يوماً، وفتحها في صفر» (خدوري القانون الدولي الإسلامي، كتاب السير للشيباني، ص ١٠١) ويرى الرضي (في كتابه المبسوط) إن في هذا «دليلاً على أنه لا بأس بالقتال في الشهر الحرام، فإن المحاصرة من القتال» (م. ن. ص ١٠٧ حاشية ٦٣).

يعملون بصير﴾ «الأنفال ٣٩»[٢٦].

٤ ـ تحديد العدو

حدد القرآن أعداء الإسلام الذين يجب قتالهم، وهم:

ـ الذين كفروا «الأنفال ١٥».

ـ الذين يقاتلون المسلمين ويعتدون عليهم «البقرة ١٩٠»

ـ الذين أخرجوا المسلمين من ديارهم «البقرة ١٩١ و١٩٢»

ـ أهل الكتاب حتى يدفعوا الجزية أو يدخلوا في الإسلام «التوبة ٢٩»

ـ المفتنون أي المشركون الذين لا يؤمنون بما أنزل الله على رسوله، والذين يفتنون المسلمين عن دينهم، حتى يُقتلوا أو يؤمنوا «البقرة ١٩٣ والأنفال ٣٩».

ـ المشركون كافة حتى يقتلوا أو يؤمنوا «التوبة ٥ و٣٦».

٥ ـ مبادىء أساسية في القتال

حدد القرآن الكريم مبادىء أساسية يجب على المسلمين آتباعها في قتالهم مع المشركين والمعتدين وأهل الكتاب وهي كما يلي:

ـ عدم الاعتداء «البقرة ١٩٠» ويستوجب ذلك دعوة الأعداء، قبل القتال، للإسلام إن كانوا مشركين، وللإسلام أو الجزية إن كانوامن أهل الكتاب.

ـ قتال الأعداء في كل مكان وجدوا فيه إلا عند المسجد الحرام حيث لا يسمح بقتالهم إلا إذا بادروا هم بالقتال «البقرة ١٩١»

ـ قتال الأعداء في أي وقت، باستثناء الأشهر الحرم إلا إذا اعتدوا فيعتدى عليهم بمثل ما اعتدوا «البقرة ١٩٤» ويشترط الله عز وجل في هذه الآية أن يبادر المشركون المسلمين بالقتال في الأشهر الحرم كي يقاتلهم المسلمون، كما يشترط أن يكون ردّ الاعتداء بمثله، اتقاء لله[٢٧].

---

(٢٦) أي قاتلوهم حتى لا يكون هناك إشراك بالله، ويكون الدين كله لله، فإن أسلموا فلا عدوان إلا على المعتدين، والله يعلم ما يعملون فيجازيهم به (تفسير الجلالين).

(٢٧) مع أخذ اختلاف الفقهاء، في هذه المسألة، بالاعتبار.

ـ قتال المشركين بعد انسلاخ الأشهر الحرم، في كل مكان وزمان «التوبة ٥».

ـ قتال المشركين وأسرهم ومحاصرتهم في القلاع والحصون ورصد طرقاتهم كلها حتى يُقتلوا أو يدينوا بدين الإسلام «التوبة ٥».

ـ إجارة المسلم للمشرك إذا استجاره، وذلك عملاً بقوله تعالى: ﴿وأن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه ذلك بأنهم قوم لا يعملون﴾ «التوبة ٦»[٢٨].

٦ ـ التعليم التقني والتكتيكي للمقاتل

ونجد في القرآن الكريم آيات تعلم المقاتل المسلم مبادىء تفصيلية في الفن العسكري، تقنياً وتكتيكياً، كتنظيم الصفوف للقتال، واستعمال السلاح، والثبات في المعركة، والمناورة، وكيفية التعامل مع العدو في أثناء القتال وبعده، واليقظة والحذر أمام العدو، فمن هذه الآيات:

أ ـ **ما يعلم تنظيم الصفوف في القتال**، كقوله تعالى: ﴿إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص﴾ «الصف ٤»، لذا كان النبي ﷺ يستعرض الصفوف قبل القتال فيسويها، ولم يعرف العرب في جاهليتهم نظام الصف هذا رغم أن جيرانهم من الفرس والروم كانوا قد عرفوه وعملوا به، فجاء الإسلام وفرضه نظاماً للقتال عند العرب المسلمين[٢٩].

ب ـ **ما يعلم المقاتلين استعمال السيف في القتال**، كقوله تعالى: ﴿إذ يوحي ربك إلى الملائكة أني معكم فثبتوا الذين آمنوا سألقي في قلوب الذين كفروا الرعب فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان﴾ «الأنفال ١٢». وقوله تعالى: ﴿فإذا

---

(٢٨) أي إذا استأمن المشرك مسلماً من القتل فعليه أن يؤمنه حتى يسمع القرآن ثم يبلغه دار قومه ولو لم يؤمن (تفسير الجلالين).

(٢٩) يرى بعض الفقهاء أن في هذه الآية تفضيلاً للمقاتل الراجل على المقاتل الفارس باعتبار أن الصف يكون من أولئك وليس من هؤلاء، إلا أننا نرى الرأي الآخر، وهو أن الصف يكون للفرسان بقدر ما هو للرجالة «ولا يخرج الفرسان من معنى الآية» (القرطبي م. ن. جـ ١٨).

لقيتم الذين كفروا فضربَ الرقاب. . .﴾ «محمد ٤». فهو في هاتين الآيتين يدل المسلمين على المواقع التي يجب أن يضربوا الأعداء فيها بسيوفهم، أي رقابهم ورؤوسهم وأصابعهم، فضرب الرقاب والرؤوس يقتل، وضرب الأصابع يمنع المقاتل عن ممارسة القتال. كما أنه عز وجل، يعبئهم للحرب تعبئة نفسية، إذ يوحي إليهم أنه سوف يلقي الرعب في قلوب أعدائهم في أثناء القتال.

ج ـ **ما يعلم الثبات في وجه الأعداء وعدم الفرار من المعركة** بل ويذهب إلى اعتبار المسلمين الفارين من وجه العدو في مرتبة المشركين ويعدهم بعذاب جهنم، كما يوصي باعتماد المناورة في الحرب، وذلك في قوله تعالى: ﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله لعلكم تفلحون﴾ «الأنفال ٤٥»، وقوله: ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفاً فلا تولوهم الأدبار﴾ «الأنفال ١٥». ﴿ومن يولهم يومئذ دبره إلا متحرفاً لقتال أو متحيزاً إلى فئة فقد باء بغضب من الله ومأواه جهنم وبئس المصير﴾ «الأنفال ١٦»[٣٠].

ويعلم الله، عز وجلّ، المسلمين، في هذه الآيات، ثلاثة مبادىء تكتيكية أساسية في القتال هي:

ـ **قتال الزحف**، وهو نوع من القتال، كالصف، لم يألفه عرب الجاهلية، وإن كان جيرانهم من الفرس والروم قد عرفوه وعملوا به، فجاء الإسلام وفرضه تكتيكاً يقاتل المسلمون به، وذلك بقوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفاً. . .﴾.

---

(٣٠) متحرفاً لقتال، أي منعطفاً إليه، وذلك بأن يُري الأعداء «الفرّة مكيدة وهو يريد الكرّة» ومتحيزاً إلى فئة، أي منضماً إلى جماعة من المسلمين يستنجد بها (تفسير الجلالين). ويمكن تفسير «متحرفاً لقتال» بمعنى «الالتفاف» في التعبير العسكري، وفي ذلك أبلغ معاني المناورة في القتال.

وقد ذكر الإمامان أن كلمة «زحفاً» في الآية ١٥ عائدة «للذين كفروا» وانها تأتي بمعنى «مجتمعين كأنهم لكثرتهم يزحفون» إلا أننا نرى انها عائدة «للذين آمنوا» باعتبارها حالاً للمؤمنين الذين يلقون الكافرين زحفاً، مثل قوله تعالى في آية أخرى «ان الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً» ويبدو أن ذلك رأى القرطبي أيضاً (المصدر السابق، جـ ٧ : ٣٨٠) وكذلك الامام الطبري الذي يفسر (زحفاً) بان يزحف بعضهم إلى بعض.

- **الصمود في المواقع والثبات فيها وعدم التراجع عنها، وذلك بقوله تعالى:** ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا...﴾

- **قتال «الكر دون الفر»** وهو تكتيك لم يألفه عرب الجاهلية كذلك ولا جيرانهم من الفرس والروم وقد قرنه الإسلام بقتال الصف، وبالثبات، كتكتيك متميز للمسلمين، وذلك بقوله تعالى: ﴿... فلا تولوهم الأدبار، ومن يولهم يومئذ دبره...﴾. فالنهي عن الفرار من أمام العدو هو أحد النواهي التي تضع مخالفها بمرتبة الكافر والمشرك، مما يجعل القتال في الإسلام متميزاً بهذه المبادىء التكتيكية الثلاثة:

زحف صفوفاً، فكرٌ دون فرّ، فثبات. مع جواز المناورة والانحياز إلى قوى صديقة للتعاون معها في القتال.

د - ما يعلم السلوك الواجب اتباعه في أثناء القتال وبعده، كقوله تعالى: ﴿فإذا لقيتم الذين كفروا فضربَ الرقاب حتى إذا اثخنتموهم فشدوا الوثاق فإما منّاً بعد وإما فداء حتى تضع الحرب أوزارها ذلك ولو يشاء الله لانتصر منهم ولكن ليبلوا بعضكم ببعض والذين قتلوا في سبيل الله فلن يُضل أعمالهم﴾ «محمد ٤». ﴿سيهديهم ويصلح بالهم﴾ «محمد ٥»، ﴿ويدخلهم الجنة عرّفها لهم﴾ «محمد ٦»: إذ يعلم الله المسلمين في هذه الآيات الكريمة كيف يقاتلون الكفار فيقتلونهم ويكثرون القتل فيهم حتى إذا أثخنوهم تقتيلاً عمدوا إلى أسر الأحياء منهم فلا يطلقون سراحهم بعد ذلك إلا منّاً منهم أو لقاء فدية من مال أو بمبادلة بأسرى مسلمين، ويأمرهم بأن يستمروا في الحرب على هذه الحال «حتى تضع الحرب أوزارها» بأن يسلِّم الكفار أو أن يدخلوا في عهد المسلمين، إن كانوا من أهل الكتاب، وهذه هي غاية القتال. ويشجع الله المسلمين في الآيات الثلاث على الموت في القتال والاستشهاد في سبيل الله واعداً إياهم بالهداية والصلاح وإدخالهم الجنة. وقد حدد الله عز وجلّ في الآية الأولى سبيلين لأسرى الأعداء هما: المن أو الفداء[31]، كما سنرى (أنظر: آداب القتال - معاملة الأسرى).

---

(٣١) المن، في إصطلاح الفقهاء، تخلية سبيل الأسير وإطلاق سراحه إلى بلاده بلا بدل وبغير شيء يؤخذ =

هـ ـ ما يعلّم اليقظة والحذر أمام العدو حتى في أوقات الصلاة، كقوله تعالى: ﴿وإذا كنت فيهم فأقمت لهم الصلاة فلتقم طائفة منهم معك وليأخذوا أسلحتهم فإذا سجدوا فليكونوا من ورائكم ولتأت طائفة أخرى لم يصلّوا فليصلّوا معك وليأخذوا حذرهم وأسلحتهم. ودَّ الذين كفروا لو تغفلون عن أسلحتكم وأمتعتكم فيميلون عليكم ميلة واحدة ولا جناح عليكم إن كان بكم أذى من مطر أو كنتم مرضى أن تضعوا أسلحتكم وخذوا حذركم إن الله أعدّ للكافرين عذاباً مهينا﴾ «النساء ١٠٢». ففي هذه الآية من البلاغة في التعبير عن الخطة العسكرية الواجب اتباعها في أثناء إقامة الصلاة أمام العدو ما يغني عن أي شرح، إذ يأمر الله تعالى نبيه بأن يقسِّم جيشه، عند الصلاة في القتال، إلى فرقتين، الأولى تصلي معه بينما الثانية مستنفرة ترصد العدو وقد أعدت سلاحها للدفاع عن المصلين، حتى إذا أتمت الفرقة الأولى الصلاة استبدلت بتلك التي كانت تسهر عليها في أثناء إقامتها للصلاة كي تقيمها الثانية بدورها، وهي ما سمي بـ «صلاة الخوف» (والأصح أن تسمى صلاة الحذر لورود كلمة «الحذر» مرتين في الآية نفسها: وليأخذوا حذرهم، وخذوا حذركم)، وقد أقامها النبي ﷺ «بعُسفان» في أثناء سيره لغزو بني حيان (٥ هـ)، وفي مواجهة فرسان المشركين بقيادة خالد بن الوليد، وكان لا يزال يومئذ جاهلياً، إذ حال خالد، بفرسانه، بين المسلمين وبين القِبلة، كما أقامها «ببطن نخل» وهي قرية قريبة من المدينة على طريق البصرة. وقد اعتمد المسلمون، بعد ذلك، هذه الصلاة في حروبهم[٣٢].

و ـ ما يحدد الوقت الملائم للإغارة: وذلك في قوله تعالى: ﴿والعاديات ضبحاً، فالموريات قدحاً، فالمغيرات صبحاً، فأثرن به نقعاً، فوسطن به جمعاً﴾

= منه، ويرى الإمامان أن هذه الآيات قد نزلت بعد وقعة أُحد حيث هزم المسلمون وكثر فيهم القتل والتجريح، وأن الله قد خص، في الآية الأولى، الذين «قُتلوا» أو الذين «قاتلوا» ـ في قراءة أخرى ـ في سبيله بأن لا يحبط أعمالهم (تفسير الجلالين).

(٣٢) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، جـ ٥ : ٣٦٤، وقد صلاها الامام علي (كرم الله وجهه) في صفين، ليلة الهرير. كما أباح الإسلام صلاة المقاتل إيماء، راكباً كان أم راجلاً، وذلك عند اشتداد الخوف في الحرب (ص ٣٦٩)، وعُسفان: بلدة تقع على مرحلتين من مكة، وقيل على ٣٦ ميلاً منها (معجم البلدان).

«العاديات ١ ـ ٥»، ويقسم الله عز وجلّ، في هذه الآيات، بالخيل التي تعدو محمحمة فيقدح الشرر من تحت سنابكها، وتغير على العدو عند إنبلاج الفجر فتملأ ساحة القتال بغبار المعركة وتقتحم عليه جموعه فتخترقها حتى تتوسطها. ويؤكد عز وجل في هذه الآيات الكريمة مبدأ هاماً في القتال هو الإغارة على العدو عند الفجر، وذلك في قوله ﴿فالمغيرات صبحاً﴾، وهو مبدأ لا يزال يعتمد في الحروب حتى يومنا هذا.

٧ ـ آداب القتال

حدد القرآن الكريم آداباً للقتال وللتعامل مع العدو وجب على المسلمين احترامها والتقيد بها، من ذلك:

أ ـ **عدم الطمع في غنائم الحرب**، وذلك بقوله تعالى: ﴿وما كان لنبي أن يَغُلَّ ومن يغلل يأت بما غَل يوم القيامة ثم تُوفَّى كل نفس ما كسبت وهم لا يُظلمون﴾ «آل عمران ١٦١»[٣٣].

وقد نظم الله عز وجل في كتابه الكريم عملية توزيع غنائم الحرب وفيئها على المسلمين وفقاً للآيتين المتعلقتين بالغنيمة والفيء. وتعرّف الغنيمة بأنها «مال من أموال الكفار ظفر به المؤمنون على وجه الغلبة والقهر»[٣٤]، وهي تشمل الأسرى والسباء والأراضي والأموال. وكانت الغنائم تجمع بعد المعركة وتقسم إلى خمسة أخماس، يوزع الخمس الأول منها وفقاً للآية الكريمة ﴿واعلموا أن ما غنمتم من شيء فإن لله خمسه وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل﴾ «الأنفال ٤١»، أما الأخماس الأربعة الباقية فتوزع على الغانمين، أي المقاتلين، بنسبة سهم للراجل وسهمين للفارس (عند أبي حنيفة) أو ثلاثة اسهم (عند الشافعي).

---

(٣٣) غَلَّ غُلولا: الخيانة في المغنم، وقد نزلت هذه الآية يوم أُحد، إذ فقدت قطيفة حمراء فظن الناس أن النبي ﷺ قد أخذها، فنزلت الآية أن ليس لنبي أن يخون في الغنيمة فلا تظنوا به ذلك (تفسير الجلالين). والقطيفة: دثار من مخمل.

(٣٤) الصالح، صبحي، النظم الاسلامية، ص ٣٦٦.

ويعرّف الفيء بأنه «المال الذي أصابه المسلمون عفواً دون قتال ودون إيجاف بخيل ولا ركاب»[٣٥]، ويقسم أيضاً، كالغنيمة، إلى خمسة أخماس، يوزع الخمس الأول منها وفقاً للآية الكريمة ﴿ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل﴾ «الحشر ٧»، أما الأخماس الأربعة الباقية فتوزع على الجند لشراء الخيل والأسلحة بالنسبة نفسها التي توزع بها الغنيمة.

ب ـ **الموازاة في القتال بين الإعتداء والرد عليه**، كأن يكف المسلمون عن القتال إذا كف هؤلاء عن شركهم وذلك في قوله تعالى: ﴿. . . فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين﴾ «البقرة ١٩٣» والإنتهاء هنا بمعنى «الانتهاء من الشرك» أي الدخول في الإسلام، لقوله تعالى: ﴿قل للذين كفروا إن ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف﴾ «الأنفال ٣٨». فاعتداء المشركين يكون بشركهم، ويكون الرد عليه بقتالهم حتى الإسلام أو القتل، أما اعتداء أهل الكتاب فيكون بعدم إيمانهم بدين الحق الذي هو الإسلام، وهو الدين الناسخ لغيره من الأديان، ويكون الرد بقتالهم حتى الإسلام أو الجزية. إلا أنه لا يصح رد الاعتداء إلا بقدر الإعتداء نفسه وذلك عملاً بقوله تعالى: ﴿. . . فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم. . .﴾ «البقرة ١٩٤».

ج ـ **احترام العهود والمواثيق والالتزام بها**، وذلك في قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود. . .﴾ «المائدة ١»، وقوله: ﴿ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن حتى يبلغ أشدّه، وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسؤولاً﴾ «الإسراء ٣٤»، وقوله: ﴿وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ولا تنقضوا الايمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلاً إن الله يعلم ما تفعلون﴾ «النحل ٩١»، وقوله: ﴿ودوا لو تكفرون كما كفروا فتكونون سواء فلا تتخذوا منهم أولياء حتى يهاجروا في سبيل الله فإن تولوا فخذوهم واقتلوهم حيث وجدتموهم ولا تتخذوا منهم ولياً ولا نصيراً. إلا الذين يصلون إلى قوم بينكم وبينهم ميثاق أو جاءُوكم حَصِرت صدورهم أن

(٣٥) م. ن. ص ٣٦٨. وانظر، عن الغنائم والفيء: الماوردي، الأحكام السلطانية، ص ١٢٦ ـ ١٤١، وأبو يوسف، الخراج، ص ١٨ ـ ٢٧.

يقاتلوكم أو يقاتلوا قومهم ولو شاء الله لسلطهم عليكم فلقاتلوكم، فإن اعتزلوكم فلم يقاتلوكم والقوا إليكم السَّلَم فما جعل الله لكم عليهم سبيلاً﴾ «النساء ٨٩ و٩٠»[٣٦]، وقوله: ﴿براءة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم من المشركين﴾ «التوبة ١»[٣٧]. وقد منع الله عز وجلّ المسلمين عن مناصرة حلفائهم في الدين على قوم بينهم وبين المسلمين عهد وميثاق، فقال تعالى في ذلك ﴿. . . وإن استنصروكم في الدين فعليكم النصر إلا على قوم بينكم وبينهم ميثاق والله بما تعملون بصير﴾ «الأنفال ٧٢»، إذ لا يحق للمسلمين نقض العهد ومقاتلة من كان بينهم وبين المسلمين عهد أو ميثاق، ولأي سبب، حتى ولو كانوا كفاراً، أو كان القتال انتصاراً لمسلمين مستضعفين يطلبون العون والنجدة، إلا إذا نقض الكفار العهد أو انقضت مدته[٣٨].

د ـ **معاملة الأسرى:** قلنا فيما سبق إن الله عز وجلّ حدد سبيلين اثنين لمعاملة الأسرى، هما:

المن أو الفداء، وفقاً للآية الكريمة ﴿فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب حتى إذا اثخنتموهم فشدوا الوثاق فإما مناً وإما فداءً، حتى تضع الحرب أوزارها﴾ «محمد ٤» إلا أنه عز وجلّ أبدى لومه للمسلمين، بعد بدر، لأنهم تركوا أسرى من المشركين بين أيديهم، قبل أن يثخنوا في قتلهم، فنزلت الآية ﴿ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض. . . .﴾ «الأنفال ٦٧»، وتعني هذه الآية

---

(٣٦) أي إلا الذين يلتجئون إلى قوم تربطكم بهم معاهدة أو ميثاق، أو الذين جاءوكم وقد ضاقت صدورهم عن مقاتلتكم أو مقاتلة قومهم فامسكوا عن ذلك، فلا تتعرضوا لهم بأسر ولا قتل (تفسير الجلالين)، واختلف في القوم الذين نزلت الآيتان لاجلهم، فقيل: بنو مُدلج (كان بينهم وبين قريش عقد، وكان بين قريش والنبي عهد)، وقيل: خزاعة، وقيل: بنو بكر بن زيد بن مَناة، وقيل: بنو عويمر وجُشعُم وعبد مناف (القرطبي، م. ن. جـ ٥ : ٣٠٩).

(٣٧) إلا أنها براءة محدودة بالآية التي تليها وهي ﴿فسيحوا في الأرض أربعة أشهر واعلموا أنكم غير معجزي الله وأن الله مخزي الكافرين﴾ «التوبة ٢» والخطاب فيها موجه للمشركين الذين عاهدهم رسول الله ﷺ أن يسيروا آمنين في الأرض أربعة أشهر ولا أمان لهم بعْدها، (تفسير الجلالين). وتبدء مهلة الأشهر الأربعة من يوم الحج الأكبر (أي يوم النحر) إلى «عشر من شهر ربيع الاخر» من عام ٩ هـ، حيث لا يحج بعد هذه المهلة مشرك (تفسير الجلالين والقرطبي).

(٣٨) القرطبي، م. ن. جـ ٨ : ٥٧.

أنه كان على المسلمين أن يثخنوا في قتل أعدائهم (أي يكثروا ويبالغوا)، حتى إذا أثخنوهم «شدوا وثاق» الأسرى منهم ليتم بعد ذلك الإفراج عنهم، إما «مناً» (أي بلا بدل) وإما لقاء «فدية» من مال أو مبادلة بأسرى من المسلمين.

وقد اختلف الفقهاء في ذلك، فقال بعضهم بجواز إعدام الأسرى إذا كان فيه مصلحة للمسلمين (أبو يوسف والشافعي) على أن يعطى الأسير، قبل إعدامه، فرصة لاعتناق الإسلام بدلاً من الموت إن أراد (الأوزاعي). إلا أنهم، جميعاً، قالوا بجواز إطلاق سراحهم: إما بلا مقابل، أو لقاء فدية، أو مبادلة بأسرى من المسلمين. وقال بعضهم بجواز استرقاقهم[٣٩].

الجهاد في القرآن الكريم

الجهاد هو الشكل الإلهي للقتال في الإسلام، أو هو «الصيغة المقدسة» التي قدم الله عز وجلّ بها القتال للمسلمين، وهو بتعبير آخر «القتال في سبيل الله ونشر دينه والذود عنه»، أو هو، كما عرفه «محيط المحيط»: «القتال محاماة عن دين الحق... ويعرف عند النصارى بالحرب المقدسة»[٤٠] ويكون «جهاد حرب أو نفس» كما فسره الإمامان[٤١]، وهو، في كل حال، وفي نظر الإسلام «حرب مشروعه»[٤٢]

وقد شغل «الجهاد» حيزاً هاماً في كتاب الله الكريم، ونورد، فيما يلي، بعض

---

(٣٩) خدوري، المصدر السابق، ص ١٧٥ ـ ١٧٧. ويذكر الشيباني (في كتابه: السير) أن رسول الله ﷺ أمر بقتل أسرى المشركين ونهى عن قتل النساء والولدان والشيوخ الكبار، إذ قال: «اقتلوا المشركين إذا أسروا، واستحيوا شرخهم» أي صبيانهم، وقال: «لا تغلّوا ولا تغدروا ولا تمثلوا، ولا تقتلوا وليداً ولا النساء ولا الشيخ الكبير» (خدوري، القانون الدولي الإسلامي، كتاب السير للشيباني، ص ٩٨ و١٠٠). ويقول أبو يوسف (في كتابه: الخراج) إن أسرى المشركين يُقتلون «إذا خيف منهم على المسلمين، ولا يُقتل إلا من جرّت عليه المواسي، ومن لم تجر عليه لم يقتل وهو من الذرية» وإذا أخذ الأسرى إلى الإمام فله الخيار «إن شاء قتلهم وإن شاء فادى بهم» (م. ن. ص ١٠٤ حاشية ٣٧).

(٤٠) البستاني، بطرس، محيط المحيط، ج ١ : ٣٠٦ (جهد).

(٤١) تفسير الجلالين للآية ٦ من سورة العنكبوت.

(٤٢) خدوري، مجيد، الحرب والسلم في شرعة الإسلام، ص ٨٧.

الآيات المتعلقة بالجهاد، على سبيل المثال:

قوله تعالى: ﴿أجعلتم سقاية الحاجّ وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر وجاهد في سبيل الله لا يستوون عند الله والله لا يهدي القوم الظالمين﴾ «التوبة ١٩»[٤٣]، وقوله: ﴿الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم أعظم درجة عند الله وأولئك هم الفائزون﴾ «التوبة ٢٠»، وتعتبر هذه الآية استكمالاً لسابقتها، أي أن الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله هم أعظم درجة من الذين افتخروا بالسقاية والعمارة؛ وقوله: ﴿ومن جاهد فإنما يجاهد لنفسه إن الله لغني عن العالمين﴾ «العنكبوت ٦»، وقوله: ﴿إن الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا في سبيل الله أولئك يرجون رحمة الله والله غفور رحيم﴾ «البقرة ٢١٨» وقد وردت هذه الآية بعد الآيتين المتعلقتين بالقتال وهما: الآية ﴿كتب عليكم القتال وهو كره لكم...﴾ «البقرة ٢١٦»، والآية ﴿يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه قل قتال فيه كبير...﴾ «البقرة ٢١٧»، مما يعني أن الجهاد في الآية المعنية هو القتال في سبيل الله، وقوله: ﴿أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين. ولقد كنتم تمنون الموت من قبل أن تلقوه فقد رأيتموه وأنتم تنظرون﴾ «آل عمران ١٤٢ ـ ١٤٣» وقد نزلت هاتان الآيتان للوم المسلمين بعد هزيمتهم في أُحد[٤٤]، وقوله: ﴿يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين وأغلظ عليهم ومأواهم جهنم وبئس المصير﴾ «التوبة ٧٣»[٤٥]، وقوله تعالى ترغيباً للمؤمنين بالقتال والجهاد في سبيله: ﴿يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم؟ تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون. يغفر لكم

---

(٤٣) روي عن السُّدِّي إنه قال: «افتخر عباس بالسقاية وشيبة بالعمارة وعلي بالإسلام والجهاد فصدّق الله علياً وكذبهما» (القرطبي، المصدر السابق،جـ ٨ : ٩١).

(٤٤) تفسير الجلالين للآيتين المذكورتين. ويذكر القرطبي (م. ن. جـ ٤ : ٢٢٠ ـ ٢٢١) أن كثيراً من المسلمين الذين لم يحضروا بدراً تمنوا يوماً يكون فيه قتال، فلما كان يوم أُحد منهم من انهزم ومنهم من استشهد فنزلت الآيتان الكريمتان عتاباً ولوماً للمسلمين الذين انهزموا.

(٤٥) قال ابن عباس: يكون الجهاد «مع الكفار بالسيف ومع المنافقين باللسان وشدة الزجر والتغليظ»، وقال الحسن: يكون الجهاد مع المنافقين «بإقامة الحدود عليهم» (القرطبي، م. ن. جـ٨: ٢٠٤).

ذنوبكم ويدخلكم جنات تجري من تحتها الأنهار ومساكن طيبة في جنات عدن ذلك الفوز العظيم﴾ ثم أنه يعدهم بأكثر من ذلك إذ يقول لهم: ﴿وأخرى تحبونها نصر من الله وفتح قريب وبشر المؤمنين﴾ «الصف ١٠ ـ ١٣»، وقوله تعالى مخاطباً رسوله ﷺ في معرض لومه للمتخلفين عن القتال: ﴿وإذا أنزلت سورة أن آمنوا بالله وجاهدوا مع رسوله آستأذنك أولوا الطَّوْل منهم وقالوا ذرنا نكن مع القاعدين. رضوا بأن يكونوا مع الخوالف وطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون﴾ «التوبة ٨٦ و٨٧»[٤٦]، وقوله تعالى في مجال المقارنة بين المؤمنين القاعدين عن القتال والمتخلفين عنه والمؤمنين المجاهدين والمقاتلين في سبيل الله: ﴿لا يستوي القاعدون من المؤمنين غير أولي الضرر والمجاهدون في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم، فضّل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة وكلاً وعد الله الحسنى، وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجراً عظيماً. درجات منه ومغفرة ورحمة وكان الله غفوراً رحيماً﴾ «النساء ٩٥ و٩٦»[٤٧].

هذا بعض من كثير من الآيات الكريمة استشهدنا به لنبين ما للحرب والقتال جهاداً في سبيل الله من أهمية في القرآن الكريم، الأمر الذي أعطى الفن العسكري الإسلامي أهم مصادره وأروع منابعه[٤٨].

---

(٤٦) ذوو الطَّول: ذوو الغنى. والخوالف: جمع خالفة؛ وهن النساء اللواتي يتخلفن في المنازل، وكذلك الصبيان وأصحاب الأعذار من الرجال، (تفسير الجلالين، وانظر: القرطبي، المصدر السابق، جـ ٨ : ٢٢٣).

(٤٧) أولوا الضرر: من كان به زمانة أو عمى أو نحوه (تفسير الجلالين) وقد استثناهم الله عز وجلّ من الجهاد والقتال في سبيله (أنظر: القرطبي، م. ن. جـ ٥: ٣٤١ ـ ٣٤٢) وروي عن ابن عباس أنه قال في تفسير «لا يستوي القاعدون من المؤمنين الخ. . .» بأنهم: القاعدون عن بدر والخارجون إلى بدر، (م. ن. ص ٣٤٢).

(٤٨) يميز الدكتور خدوري بين الآيات المكية الأولى التي تحض على الجهاد «بالإقناع» وبين الآيات المدنية التي تحض على الجهاد «بالكفاح» ويرى أنه، رغم اتفاق الفقهاء على الوسائل الأربع للجهاد وهي: اللسان والقلب واليد والسيف، وأن الجهاد باللسان هو «الجهاد الأكبر»، فإنه «ليس ثمة شك في أن مفهوم الجهاد في بعض هذه الآيات هو مرادف للحرب والقتال» (خدوري، مجيد، الحرب والسلم في شرعة الإسلام، ص ٨٢ ـ ٨٣).

المقالة الثانية

المصدر الثاني: الحديث والسنة

تأتي الأحاديث والسنة النبوية الشريفة في المرتبة الثانية، بعد القرآن الكريم، كمصدر من مصادر الشريعة الإسلامية، وكمصدر من مصادر الفن العسكري الإسلامي، ففي كل من الحديث والسنة أقوال وأفعال تبيّن غايات القتال وأهدافه في الإسلام وتحض عليه كوسيلة للجهاد في سبيل الله ونشر دينه، كما تحدد قواعده وأساليبه وآدابه والسلوك الواجب اتباعه فيه، وساعد على ذلك كون النبي ﷺ قائداً للمسلمين في الحرب والسلم على السواء، فهو، بالإضافة إلى أنه صاحب رسالة سماوية مقدسة، خلق في المجتمع العربي وفي العالم نواة لمجتمع جديد متقدم، وحياة اجتماعية متطورة، فقد «غزا بنفسه سبعاً وعشرين غزوة، وكان ما قاتل فيها تسعاً»[1]؛ وأثبت، في خلال غزواته تلك، أنه قائد عسكري بارع، كما كان مصلحاً اجتماعياً بارعاً، وسياسياً بارعاً.

وسنحاول، فيما يلي، أن نلم بما أمكن من الأحاديث والسيرة النبوية التي أسهمت إسهاماً فعالاً في خلق ما يمكن تسميته بالفن العسكري الإسلامي.

١ ـ تحديد غايات القتال وأهدافه في الإسلام:

حدّدت بعض الأحاديث النبوية الشريفة غايات القتال وأهدافه في الإسلام

(١) الواقدي، كتاب المغازي، طبعة عالم الكتب، جـ ١: ٧. أما الامام مسلم فيذكر ان رسول الله (صلعم) غزا «تسع عشرة غزوة وقاتل في ثمان منهن» (الجامع الصحيح، جـ ٥ : ٢٠٠).

تحديداً واضحاً، وهي لا تخرج عن تلك التي حددتها آيات من القرآن الكريم سبق وذكرناها في المقالة السابقة، وأهم هذه الغايات والأهداف.

ـ نشر الدين الإسلامي ومنع الشرك: فقد روي عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: ﴿أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله فيؤمنوا بي وبما جئت به فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله﴾. وفي حديث آخر عن عبد الله بن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة، فإذا فعلوا عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله»[2]. وروي عن أبي هريرة أيضاً أنه لمّا توفي رسول الله ﷺ واستُخلف أبو بكر على المسلمين سأل عمر بن الخطاب أبا بكر (رضي الله عنهما): كيف تقاتل الناس وقد قال رسول الله ﷺ: أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله فمن قال لا إله إلا الله فقد عصم مني ماله ونفسه إلا بحقه وحسابه على الله، فقال أبو بكر: والله لاقاتلن من فرّق بين الصلاة والزكاة فإن الزكاة حق المال، والله لو منعوني عقالاً كانوا يؤدونه إلى رسول الله ﷺ لقاتلتهم على منعه، قال عمر: فوالله ما هو إلّا أن رأيت الله عز وجلّ قد شرح صدر أبي بكر للقتال فعرفت أنه الحق[3]. كما روي عن النبي ﷺ أنه حرّم قتل الكافر إذا قال لا إله إلّا الله، فقد جاء في حديث عن أبي بكر بن أبي شيبة أنه قال: بعثنا رسول الله ﷺ في سرية فصبّحنا الحرقات من جهينة فأدركت رجلاً قال لا إله إلّا الله فطعنته فوقع في نفسي من ذلك فذكرته للنبي ﷺ فقال رسول الله ﷺ: أقال لا إله إلّا الله وقتلته؟ قلت: يا رسول الله إنما قالها خوفاً من السلاح، قال: أفلا شققت عن قلبه حتى تعلم أقالها أم لا؟ فما زال يكررها حتى تمنيت أني أسلمت يومئذ (أي وددت لو أن ما مضى من إسلامي لم يكن ولم أكن فاعلاً في إسلامي ما لا يحل لي)[4]

وكان رسول الله ﷺ يدعوا أعداءه (من المشركين ويهود الحجاز) إلى الإسلام

---

(٢) الإمام مسلم، الجامع الصحيح، جـ ١ : ٣٩.
(٣) م. ن. ، جـ ١ : ٣٨.
(٤) م. ن. ، جـ ١ : ٦٧.

ثلاثاً قبل أن يقاتلهم، فإن أسلموا كان خيراً وإلّا قاتلهم، فقد روي عن أبي هريرة أنه قال: «بينا نحن في المسجد إذ خرج إلينا رسول الله ﷺ فقال: انطلقوا إلى يهود، فخرجنا معه حتى جئناهم، فقام رسول الله ﷺ فناداهم فقال: يا معشر يهود، أسلموا تسلموا، فقالوا: قد بلّغت يا أبا القاسم، فقال لهم رسول الله ﷺ: ذلك أريد، أسلموا، تسلموا، فقالوا: قد بلّغت يا أبا القاسم، فقال لهم رسول الله ﷺ: ذلك أريد، فقال لهم الثالثة، فقال: اعلموا أنما الأرض لله ورسوله وأني أريد أن أجليكم من هذه الأرض، فمن وجد منكم بماله شيئاً فليبعه وإلّا فاعلموا أن الأرض لله ورسوله»، وقد حارب يهود بني النضير وقريظة رسول الله ﷺ فأجلاهم رسول الله ﷺ من الحجاز بعد أن قتل رجالهم وقسّم نساءهم وأولادهم وأموالهم بين المسلمين، كما أجلى يهود المدينة من بني قينقاع وبني حارثة «وكل يهودي كان بالمدينة»[٥] إلّا من اعتنق الإسلام منهم. إلّا أنه، صلى الله عليه وسلم، كان يحذّر المسلمين من الوقوع في شرك الفتنة والاقتتال فيما بينهم، وذلك للمحافظة على وحدة المسلمين وتماسكهم في وجه أعدائهم من جهة، ولإعدادهم للقتال والجهاد في سبيل نشر رسالة الإسلام من جهة أخرى، فقد روي أن رسول الله ﷺ حرّم قتل المسلم للمسلم فقال في ذلك: «سباب المسلم فسوق وقتاله كفر»[٦]. وقال في حجة الوداع مخاطباً المسلمين: «لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض»[٧]. كما قال: «من حمل علينا السلاح فليس منا»[٨].

تحديد أهلية المسلم للقتال

سواء كان هذا المسلم قائداً أم مقاتلاً عادياً، وقد حدد ﷺ هذه الأهلية في مواضع كثيرة من أحاديثه وأفعاله، ومن ذلك:

أ ـ ما يحدد شروط أهلية القيادة في الحرب، وأهمها: العلم بها، وذلك في قوله ﷺ، «إني لأؤمر الرجل على القوم فيهم من هو خير منه، لأنه أيقظ عيناً

---

(٥) م. ن. جـ ٥ : ١٥٩ (باب إجلاء اليهود عن الحجاز).
(٦) م. ن. جـ ١ : ٥٨.
(٧) م. ن. ص. ن.
(٨) م. ن. جـ ١ : ٦٩.

وأبصر بالحرب»[9]. وقد روى السيوطي عن البيهقي أن النبي ﷺ بعث عمرو بن العاص على سرية فيها أبو بكر وعمر (رضي الله عنهما) «فلما انتهوا إلى مكان الحرب أمرهم عمرو أن لا ينوّروا ناراً، فغضب عمر، فهمَّ أن يأتيه، فنهاه أبو بكر وأخبره أنه لم يستعمله رسول الله عليه الصلاة والسلام عليك إلّا لعلمه بالحرب، فهدأ عنه»[10]. كما أنه ﷺ أمرّ على المسلمين في مؤتة، زيد بن حارثة وقال: «إن أصيب زيد بن حارثة فجعفر بن أبي طالب على الناس، فإن أصيب جعفر فعبد الله بن رواحة على الناس»[11]. وذلك تأميناً لاستمرارية القيادة في أثناء القتال.

ب ـ **ما يحدد شروط أهلية المسلم للقتال، وأهمها: الرغبة فيه**، فقد روي أن النبي ﷺ كان يقول لأصحابه، إذا خرج في غزواته: «لا يخرجن معنا إلّا راغب في الجهاد» كما كان يأمر قادة سراياه أن لا يكرهوا أحداً على السير معهم للقتال، ولكنه، مع ذلك، كان يلزم المسلم القادر الزاماً معنوياً بالقتال عندما لا يرضى منه أن يتخلف عن ذلك علانية، وبلا عذر، وكان يكفي عدم رضى النبي ﷺ عن هذا المتخلف المتقاعس حتى يصبح مذموماً ومعزولاً بين المسلمين، إلّا أنه ﷺ كان يقبل من المنافقين أعذارهم وهو يعلم بكذبهم[12].

ج ـ **ما يحدد سن المقاتل**، وقد حددها النبي ﷺ بخمسة عشر عاماً عندما أجاز، يوم أحد، «سمرة بن جندب ورافع بن خديج» في الرماة، وسن كل منهما خمسة عشر، بينما ردّ سواهما «أسامة بن زيد وعبد الله بن عمر بن الخطاب، وزيد بن ثابت» لأن سن كل منهما كانت دون ذلك «ثم أجازهم يوم الخندق وهم أبناء خمس عشرة سنة»[13].

---

(9) السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص ٩٩.

(10) م. ن. ص. ن.

(11) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، جـ٣ : ٣٦.

(12) لذا أنزل الله الآية الكريمة ﴿عفا الله عنك لِمَ أذنت لهم حتى يتبين لك الذين صدقوا وتعلم الكاذبين﴾.

(13) ابن هشام، سيرة النبي، جـ٣ : ٩، وقارن: الطبري، المصدر السابق، جـ٢ : ٥٠٥ وابن الأثير، الكامل في التاريخ، جـ٢ : ١٥١.

د ـ ما يحدد الرتب في القيادات العسكرية، فقد كان النبي ﷺ يعرّف العرفاء وينقّب النقباء، ويؤمّر على الجيوش الأمراء، ويجعل على كل عشرة جنود عريفاً وعلى كل عشرة عرفاء نقيباً، أما أمير الجيش فكان النبي ﷺ يختاره من أهل السابقة في الإسلام والتجربة في القتال، وكثيراً ما كان النبي ﷺ يقود الجيوش بنفسه.

هـ ما يمنع تجنيد الابن الوحيد، فقد رفض النبي ﷺ تجنيد الابن الوحيد لأبوين ليس لهما معيل سواه، إذ روي أن رجلاً أتى رسول الله ﷺ وقال له: «يا رسول الله، إني قد أردت الجهاد معك ابتغي وجه الله والدار الآخرة» فقال رسول الله: «هل من أبويك أحد حي؟» قال «نعم يا رسول الله، كلاهما» فقال رسول الله: «إرجع فأبرر أبويك»(١٤).

٣ ـ وضع مبادىء عسكرية تقنية وتكتيكية

يجد الباحث في سيرة النبي ﷺ كثيراً من الأقوال والأفعال التي تضع أسساً واضحة لبعض مبادىء الحرب وأساليبها، وذلك رغم ما كانت تتصف به أساليب القتال ووسائله في ذلك العصر من بدائية وبساطة، من ذلك:

أ ـ ما يبين أهمية تدريب المقاتلين قبل القتال، فقد كان النبي ﷺ يحض المسلمين على استعمال القوس واتقان الرمي، وعلى ركوب الخيل، فقال: «إن الله ليدخل بالسهم الواحدة ثلاثة نفر الجنة: صانعه المحتسب في عمله الخير، والرامي به، والممد به، فآرموا واركبوا، وإن ترموا أحب إلي من أن تركبوا»(١٥). كما كان يفسر الآية الكريمة ﴿وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل...﴾ إلى آخر الآية بقوله: «ألآ إن القوة الرمي» مردداً ذلك ثلاث مرات(١٦).

ب ـ ما يبين أهمية تنظيم الصفوف في المعركة، وذلك تنفيذاً للآية الكريمة ﴿إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص﴾ فقد كان النبي

---

(١٤) ابن حنبل، المسند، جـ ١٠، حديث رقم ٦٥٢٥ و٦٥٤٤.

(١٥) ابن القيم الجوزية، الفروسية، ص ١٤.

(١٦) مسلم، المصدر السابق، جـ ٦ : ٥٢.

ﷺ يستعرض الصفوف قبل القتال فيسويها، وقد استعرضها يوم بدر الكبرى، فأشار إلى «سواد بن غزية» وقد ظهر ناتئاً أمام صفه، فقال له: «استوِ يا ابن غزية». كما روي عنه ﷺ انه قال: «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً» ثم شبّك بين أصابعه[17]، وقد طبق النبي ﷺ ذلك بمعناه المادي عندما كان يرص الصفوف للقتال، إذ ذكر الواقدي أنه جعل، يوم أحد، يسوي صفوف المسلمين للقتال ويعدّهم له فيقول: «تقدم يا فلان، وتأخر يا فلان، حتى أنه ليرى منكب الرجل خارجاً فيؤخره»[18].

ج ـ **ما يجيز المناورة ويؤمن المباغتة في القتال**، كقوله ﷺ: «الحرب خدعة»[19].

كما كان (صلعم) يتقن عنصري السرِّية والباغتة، فقد روى ابن هشام[20] أن رسول (صلعم) أمر أهله أن يجهزوه، فدخل أبو بكر (رضي) على ابنته عائشة وهي تحرك بعض جهاز الرسول فقال: «أي بنية، أأمركم رسول الله أن تجهزوه؟» قالت: «نعم، فتجهز»، فقال: «فأين ترينه يريد؟» قالت: «والله ما أدري»، ثم إن رسول الله ﷺ أعلم الناس أنه سائر إلى مكة وأمرهم بالتجهز والسرّية وقال: «اللهم خذ العيون والأخبار عن قريش حتى نبغتها في بلادها». ويروى كذلك عنه أنه عندما عزم على السير إلى مكة، وضع على الطريق الموصلة إليها خفراء يمنعون الناس من الخروج لئلا يصل خبر المسلمين إلى قريش فتستعد لملاقاتهم، كما يروى عنه أنه لما خرج إلى بدر أمر أصحابه أن يقطعوا الأجراس من أعناق الإبل حتى لا ينبه رنينها الأعداء[21]، وأنه لما أرسل سرّية بقيادة ابن سلمة بن عبد الأسد للإغارة على بني أسد أمر قائدها أن يختفي بقواته نهاراً ويسير بها ليلاً كي لا يكتشفه العدو،

---

(١٧) البخاري، صحيح البخاري، جـ ٣ : ٦٩ (طبعة دار الجيل، بيروت، لات).

(١٨) الواقدي، المغازي، جـ ١ : ٢٢١.

(١٩) النويري، نهاية الأرب، جـ ٦ : ١٧٦، ومسلم، المصدر السابق، جـ ٥ : ١٤٣، والبخاري، صحيح البخاري، جـ ٢ : ١٧٤ (طبعة البابي الحلبي).

(٢٠) سيرة النبي، جـ ٤ : ١١.

(٢١) الحلبي، برهان الدين، السيرة الحلبية، جـ ٢ : ١٥٨.

وأن يسلك طريقاً غير مسلوكة كي يفاجىء عدوه منها.

د ـ ما يجيز ترصد الأعداء واستطلاع أخبارهم، فقد بعث ﷺ عبد الله بن جحش في سرية من المهاجرين وسلمه كتاباً أمره أن لا يفضه إلّا بعد يومين من مسيره، ونفذ عبد الله الأمر وفض الكتاب بعد مسيره من المدينة بيومين فوجد فيه أمر الرسول ﷺ: «إذا نظرت كتابي هذا فامض حتى تنزل نخلة بين مكة والطائف فترصد بها قريشاً وتعلّم لنا من أخبارها»، كما كان يوصي قادته باستخدام الأدلاء وارسال الطلائع في مقدمة الجيش، فقد أوصى أسامة بن زيد عندما سلمه قيادة حملة مؤتة الثانية بقوله: «... وخذ معك الأدلاء، وقدّم الطلائع أمامك».

وبعث رسول الله ﷺ، قبيل غزوة حنين عام ٨ هـ، عبد الله بن أبي حدرد، إلى هوازن ليتقصى أخبارها، وكان قد وصله أنها تستعد، مع حليفاتها من عرب الجزيرة، لقتاله، وأمر ابن أبي حدرد «أن يدخل في الناس فيقيم فيهم حتى يعلم علمهم، ثم يأتيه بخبرهم»[٢٢]، وكذلك فإنه بعث، في أثناء مسيره لملاقاة أبي سفيان في بدر، كلا من «بسيس بن عمرو وعدي بن أبي الزغباء الجهنيين» إلى حيث «يتجسسان الأخبار عن أبي سفيان»[٢٣]. ولم يكن الرسول ﷺ ليكتفي بما ينقله السعاة من أخبار العدو، بل كان يترصد أخباره ممن يقع في يديه من جماعته، وكان ﷺ قد سبق وأرسل علي بن أبي طالب وسعد بن أبي وقاص والزبير بن العوام بالمهمة التي كان أرسل بها بسيس وعدي فأسر الثلاثة غلامين للأعداء كانا يطلبان الماء في نواحي بدر، فأخذ الرسول ﷺ يستنطقهما لكي يعرف منهما أخبار قريش وأبي سفيان، وسألهما عن قريش فقالا له: «هم وراء هذا الكثيب الذي ترى بالعُدوة القصوى»، وسألهما عن عدد جيشها فقالا: «كثير»، وسألهما كم تنحر قريش من الإبل، فقالا: «يوماً تسعاً ويوماً عشراً»، فقدر أن «القوم بين تسعماية إلى الألف»[٢٤].

هـ ـ ما يحدد بعض مبادىء التكتيك العسكري في وقت لم يكن التكتيك علماً

---

(٢٢) ابن هشام، المصدر السابق، جـ ٤ : ٥٤.
(٢٣) ابن الأثير، المصدر السابق، جـ ٢ : ١١٩.
(٢٤) م. ن.، ص. ن.

قائماً بذاته، كالتشدد في التقيد بالأوامر ومساندة المهاجمين وتوزيع المهمات:

ـ فمن أبرز الأوامر العسكرية التي أصدرها ﷺ في معاركه تلك التي أعطاها إلى جنده يوم أُحُد إذ قال لهم: «لا يقاتلن أحد منكم حتى نأمره بالقتال» وتلك التي أعطاها إلى قائد رماته «عبد الله بن جبير» ذلك اليوم، فقد أمره ﷺ أن يركز الرماة على مرتفع من شعاب جبل أُحُد قبالة فرسان العدو وخلف المقاتلين المسلمين وقال له: «**إنضح عنا الخيل بالنبل لا يأتونا من خلفنا، وإن كانت لنا أو علينا فاثبت مكانك لا نؤتين من قبلك**»(٢٥). وكان عدم تقيّد رماة المسلمين بأوامر النبي في أُحُد سبباً لهزيمة المسلمين.

ـ وفي بدر، أمر النبي أصحابه أن «لا يحملوا حتى يأمرهم» وقال لهم: «إن اكتنفكم القوم فأنضحوهم عنكم بالنبل»(٢٦).

ـ ومن أهم أعمال النبي ﷺ في القتال وما يدل على فهمه العميق للحروب، ترتيبه لجيش المسلمين وتوزيعه المهمات على قادة هذا الجيش قبل دخوله مكة لفتحها، فقد رتبه في أربع فرق:

الأولى: بقيادة الزبير بن العوام، وهي تشكل ميسرة الجيش وتدخل مكة من شمالها (كُدَى).

الثانية: بقيادة خالد بن الوليد، وهي تشكل ميمنة الجيش، وتدخل مكة من أسفلها (اللِّيط).

الثالثة: بقيادة سعد بن عبادة، وهي من الأنصار، وتدخل مكة من الغرب (كَداء).

الرابعة: بقيادة أبي عبيدة بن الجراح، وهي من المهاجرين، وتدخل مكة من أعلاها (أذاخر). وقد سار النبي مع الفرقة الأخيرة(٢٧).

---

(٢٥) ابن هشام، المصدر السابق، جـ٣ : ٨ ـ ٩.
(٢٦) ابن الأثير، المصدر السابق، جـ٢ : ١٢٥.
(٢٧) المؤلف، معارك خالد بن الوليد، ص ١٥٠ ـ ١٥١، وابن هشام، المصدر السابق، جـ ٤ : ٢٠ ـ ٢١، ويذكر ابن هشام، عن ابن اسحق، أن سعداً تقدم نحو مكة وهو يقول: اليوم يوم =

ـ ومن المعروف عن النبي ﷺ في غزواته أنه لم يكن يغير على الأعداء إلاّ عند الفجر، وهو مبدأ في الهجوم أقره العلم العسكري الحديث، فقد روي عنه ﷺ أنه كان يغير إذا طلع الفجر، وكان ينتظر الآذان فإن سمع آذاناً أمسك وإلاّ أغار.

ـ **اختيار مكان القائد** إذ كان الرسول ﷺ يختار الموقع الملائم له كقائد لجيش المسلمين في المعركة، ففي غزوة بدر الكبرى بني له عريش استقر فيه ليشرف منه على المعركة[28]. وفي وقعة أحد وقف النبي ﷺ في مكان مرتفع يشرف على المعركة فقال له أبو طلحة «يا نبي الله، بأبي أنت وأمي، لا تشرف، لا يصيبك سهم من سهام القوم، نحري دون نحرك»[29].

ـ **اختيار مكان المعركة،** إذ اختار موقع جيش المسلمين في أُحد اختياراً ملائماً وناجحاً، فنزل به في الشِّعب من أُحد «في عُدوة الوادي إلى الجبل، **فجعل ظهره** وعسكره إلى أُحد»[30]، كما اختار، في غزوة بدر، ماء نزل عليها بجيشه، ولما سئل عن ذلك أجاب: بل هو الرأي والحرب والمكيدة، ولما نصحه الحباب بن المنذر بن الجموح بالانتقال إلى أقرب ماء من العدو فعل[31].

ـ **اختيار وسائل القتال:** إذ اختار، في غزوة الخندق، وسيلة دفاعية حصينة اتقى بها المسلمون شر اجتياح أحزاب المشركين لمدينتهم، فأمر بحفر خندق حول المدينة منع بواسطته وصول المشركين إلى مواقع المسلمين[32].

ـ **اختيار المقاتل المناسب للموقف المناسب في المعركة،** وذلك لحسن معرفته بالرجال واختباره لهم، ففي غزوة بدر الكبرى، برز، من المشركين، عتبة وشيبة ابنا ربيعة والوليد بن عتبة، ودعوا المسلمين للمبارزة، فخرج إليهم نفر من الأنصار،

= الملحمة، اليوم تستحل الحرمة، فسمعه رجل من المهاجرين ونقل ذلك إلى النبي ﷺ الذي قال لعلي بن أبي طالب(كرم الله وجهه): «ادخل فخذ الراية منه فكن أنت الذي تدخل بها» (ابن هشام، م. ن. ، ص. ن.).

(28) ابن الأثير، المصدر السابق، جـ٢ : ١٢٢.

(29) مسلم، المصدر السابق، جـ٥ : ١٩٦ ـ ١٩٧.

(30) ابن هشام، المصدر السابق، جـ٣ : ٨، والشِّعب: الطريق في الجبل أو ما انفرج بين جبلين.

(31) ابن الأثير، المصدر السابق، جـ٢ : ١٢٢، وابن هشام، المصدر السابق، جـ٢ : ٢٥٩ ـ ٢٦٠.

(32) ابن هشام، م. ن. ، ص ١٧٠ ـ ١٧٣.

فأبى المشركون مبارزتهم قائلين: «ليخرج إلينا أكفاؤنا من قومنا» فقال رسول الله ﷺ: «قم يا حمزه، قم يا عبيدة بن الحارث، قم يا علي»، فقام الثلاثة للمبارزة، فقتل حمزة شيبة، وقتل علي الوليد، إلاّ أن عتبة بن ربيعة كاد يقتل عبيدة بن الحارث لولا أن انقض عليه حمزة وعلي فقتلاه وحملا عبيدة، وكانت قد قطعت رجله، إلى الرسول فاستشهد بين يديه[٣٣]. كذلك اختار الرسول ﷺ، في غزوة الخندق، حذيفة بن اليمان، ليتقصى له أخبار العدو[٣٤]، وكان أبو طلحة «رامياً شديد النزع» ماهراً في التسديد والإصابة، لذا كان النبي ﷺ، في أحد، يوجه حَمَلَة النبل إليه قائلاً لكل منهم «أنثرها لأبي طلحة»[٣٥].

٤ ـ تحديد السلوك الواجب اتباعه في أثناء القتال

وقد روي عن النبي ﷺ في هذا المجال الكثير من الأحاديث والأفعال، من ذلك:

أ ـ ما يجيز الإغارة على الكفار الذين بلغتهم دعوة الإسلام، مباغتة، ودون الإعلان عن الإغارة: فقد روي عنه ﷺ أنه أغار على بني المصطلق «وهم غارّون وانعامهم تُسقى على الماء فقتل مقاتليهم وسبى سبيهم»، وقد روى هذا الحديث عبد الله بن عمر وكان في ذلك الجيش[٣٦].

ب ـ ما يفرض على المسلمين دعوة المشركين إلى الإسلام قبل القتال: فقد روي عنه ﷺ أنه كان يوصي قادة الجيوش أو السرايا بأن يدعوا المشركين قبل القتال إلى ثلاث خصال: الإسلام، فإن أبوا فالجزية، فإن أبوا «فاستعن بالله وقاتلهم»[٣٧]، كما كان يأمر هؤلاء القادة بأن «بشّروا ولا تنفّروا، ويسّروا ولا تعسّروا»[٣٨]. إلاّ أن جمهور الفقهاء يكاد يجمع على أن المشركين يُخيّرون بين

---

(٣٣) ابن الأثير، المصدر السابق، جـ٢ : ١٢٥، وابن هشام المصدر السابق، جـ٢ : ٢٦٥.
(٣٤) مسلم، المصدر السابق، جـ٥ : ١٧٧.
(٣٥) م. ن. ، ص ١٩٦.
(٣٦) مسلم، المصدر السابق، جـ٥ : ١٣٩.
(٣٧) م. ن. ، ص ١٤٠.
(٣٨) م. ن. ، ص ١٤١.

الإسلام أو الحرب فقط، وذلك عملاً بقوله تعالى: ﴿....... فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم﴾ «التوبة ٥» وقوله: ﴿ياأيهاالذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجدوا فيكم غلظة....﴾ «التوبة ١٢٣» وقوله: ﴿فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب حتى إذا أثختنموهم فشدوا الوثاق.....﴾ «محمد ٤»، وفي حديث عن رسول الله ﷺ أنه قال: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلاّ الله وأني رسول الله...». بينما يُخيَّر أهل الكتاب بين الإسلام أو الجزية أو الحرب، وذلك عملاً بقوله تعالى: ﴿قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر ولا يحرّمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يدٍ وهم صاغرون﴾ «التوبة ٢٩».

ج ـ **ما يحرض على الصبر عند لقاء العدو**، رغم دعوته إلى عدم تمني هذا اللقاء: فقد روي عنه ﷺ أنه كان يقول إذا سار للقاء العدو: «يا أيها الناس، لا تتمنوا لقاء العدو وآسألوا الله العافية، فإذا لقيتموهم فأصبروا واعملوا أن الجنة تحت ظلال السيوف»[٣٩].

د ـ **ما يجيز قطع أشجار الأعداء وحرقها في أثناء القتال**: فقد روي أن النبي ﷺ قطع نخل بين النضير (من اليهود) في البويرة (موضع كان به نخلهم) وأحرقه في أثناء قتاله معهم، وناداه بنو النضير أن «يا محمد، قد كنت تنهى عن الفساد وتعيبه على من فعله فما بالك تقطع النخل وتحرقها؟» ووقع ذلك في نفوس المسلمين، فانزل الله تعالى الآية الكريمة تأييداً لفعل نبيه ﷺ: «ما قطعتم من لينة أو تركتموها قائمة على أصولها فبإذن الله وليخزي الفاسقين»[٤٠] «الحشر ٥».

هـ ـ **ما يجيز اشتراك نساء المسلمين في القتال**: فقد أجاز النبي ﷺ لامرأة مسلمة تدعى (أم سُلَيم) بالاشتراك في غزوة حنين، كما روي عن أنس بن مالك أنه قال «كان رسول الله ﷺ يغزو بأم سُلَيم ونسوة من الأنصار معه إذا غزا فيسقين الماء ويداوين الجرحى». وروي أن رسول الله ﷺ شاهد يوم حنين «أم سُلَيم» وقد

(٣٩) م. ن. ، ص ١٤٣، وانظر: البخاري، المصدر السابق، جـ٢ : ١٤٠ ـ ١٤١ و١٤٣ وجـ٤ : ٢٥٠ ـ ٢٥١.

(٤٠) مسلم، المصدر السابق، جـ٥ : ١٤٥. واللينة: النخلة الناعمة.

اتخذت خنجراً حملته معها فسألها رسول الله ﷺ ما هذا الخنجر قالت: اتخذته إن دنا مني أحد المشركين بقرت بطنه، فجعل رسول الله ﷺ يضحك[٤١].

و ـ **ما يحظر على المسلم الاستعانة بمشرك في القتال:** فقد رفض النبي ﷺ الاستعانة، في غزوة بدر، بأحد المشركين، ثلاث مرات، رغم شجاعته وجرأته في القتال حتى أسلم، فقبله[٤٢].

٥ ـ وضع قواعد لآداب القتال

لقد وضع النبي ﷺ، في أحاديثه الشريفة وسيرته الكريمة، قواعد مميزة لآداب القتال تعتبر من أهم المزايا الخلقية في الإسلام، ومن هذه القواعد:

أ ـ **ما ينهي عن التمثيل بالأعداء وعن قتل النساء والجرحى والأسرى والأطفال والعاجزين:** فقد كان النبي ﷺ يوصي قادة الغزوات بقوله: «أغزوا باسم الله في سبيل الله، قاتلوا من كفر بالله، أغزوا ولا تغلّوا، ولا تغدروا ولا تمثلوا، ولاتقتلوا وليداً»[٤٣]. كما أوصى زيد بن حارثة، وكان قائداً لإحدى سراياه، بقوله: «لا تقتلوا وليداً ولا امرأة ولا كبيراً ولا فانياً ولا منعزلاً بصومعة، ولا تقربوا نخلاً ولا تقطعوا شجرة ولا تهدموا بناء». ويروى أنه قال يوم فتح مكة: «ألا لا يُجهزن على جريح ولا يُتبعن مدبر، ولا يُقتلن أسير، ومن أغلق بابه فهو آمن». وروي عن عبد الله بن عمر أن امرأة وجدت في بعض مغازي (غزاوت) رسول الله ﷺ مقتولة فنهى رسول الله ﷺ عن قتل النساء والصبيان[٤٤]، إلّا أنه أجاز قتلهم بياتاً ومن غير قصد، فقد سئل رسول الله ﷺ: «لو أن خيلاً أغارت من الليل فأصابات من أبناء المشركين»، فقال: «هم من آبائهم»[٤٥]. أنه ﷺ

---

(٤١) م. ن، ص ١٩٦.

(٤٢) من. ن. ، ص ٢٠١.

(٤٣) ابن القيم الجوزية، أحكام أهل الذمة، جـ١ : ٤. وانظر، مسلم، المصدر السابق، جـ ٥ : ١٤٠، ويذكر ابن الأثير أن النبي ﷺ أمر، بعد وقعة بدر، أن يطرح قتلى قريش من المشركين في بئر يدعى القليب (المصدر السابق جـ٢ : ١٢٩).

(٤٤) مسلم، المصدر السابق، جـ٥ : ١٤٤.

(٤٥) م. ن. ، ص ١٤٤ ـ ١٤٥.

حرّم التمثيل بجثث الأعداء بعد قتلهم، وقطع رؤوسهم ورفعها على سنان الرماح كما كان يحدث في الجاهلية[٤٦].

ب ـ ما ينهي عن الغلول، أي الخيانة في المغنم، وعن الفساد في الجيوش: فقد روي عنه ﷺ أنه قال: «أنهوا جيوشكم عن الفساد، فإنه ما فسد جيش قط إلّا قذف الله في قلوبهم الرعب، وانهوا جيوشكم عن الغلول، فإنه ما غل جيش قط إلّا سلط الله عليهم الرَّجْلة»[٤٧].

ج ـ ما ينهى عن الغدر ونقض العهود في الحروب: فقد روي عنه ﷺ أنه قال: «إذا جمع الله الأولين والآخرين يوم القيامة يرفع لكل غادر لواء فقيل هذه غدرة فلان بن فلان»[٤٨]، وقال: «لكل غادر لواء يوم القيامة يرفع له بقدر غدره، ألا ولا غادر أعظم غدراً من أمير عامة»[٤٩]. إلّا أن رسول الله ﷺ أجاز الخداع في الحرب فقال «الحرب خدعة» كما سبق وذكرنا، كما أجاز قتال من نقض العهد، وهو ما فعله ببني قريظة حين نقضوا عهدهم معه، إذ قاتلهم وأجلاهم عن ديارهم.

٦ ـ تحديد السلوك الواجب اتباعه تجاه أسرى العدو وغنائم المسلمين منه:

كذلك وضع النبي ﷺ قواعد محددة وواضحة تجاه أسرى العدو والغنائم التي يغنمها المسلمون في أثناء حروبهم مع الأعداء، إلّا أن هذه القواعد مستمدة، في معظمها، من القرآن الكريم نفسه، ومن هذه القواعد:

---

(٤٦) خدوري، المصدر السابق، ص ١٤٤.
(٤٧) الماوردي، المصدر السابق، ص ٤٤. والرَّجْلة: الخسران، فقد روي عن عمر بن الخطاب (رضي) أنه قال: لما كان يوم خيبر أقبل نفر من صحابة النبي ﷺ فقالوا: فلان شهيد فلان شهيد، حتى مروا على رجل فقالوا: فلان شهيد، فقال رسول الله ﷺ كلا، إني رأيته في النار في بردة غلها أو عباءة، ثم قال رسول الله ﷺ: يا ابن الخطاب، اذهب فناد في الناس أنه لا يدخل الجنة إلّا المؤمنون، قال: فخرجت فناديت ألا إنه لا يدخل الجنة إلّا المؤمنون (صحيح مسلم، جـ ١: ٧٥).
(٤٨) مسلم، المصدر السابق، جـ ٥ : ١٤١.
(٤٩) م. ن.، ص ١٤٣.

أ ـ ما يجيز فداء أسرى المسلمين بأسرى الأعداء: فقد روى أياس بن سَلَمة عن أبيه أن رسول الله ﷺ بعث يغزو فزارة بسرية أمّر عليها أبا بكر (رضي) وكان أبو أياس فيها، فغنم فتاة «من أحسن العرب» فنفله أبو بكر إياها، ولكن رسول الله ﷺ استوهبها منه فوهبه إياها، «فبعث بها رسول الله ﷺ إلى أهل مكة ففدى بها ناساً من المسلمين كانوا أسرى بمكة»[٥٠].

ب ـ ما يجيز للمقاتل المسلم أخذ سَلَب من يقتل من الأعداء: إذا ثبت قتله لهم: فقد أجاز النبي ﷺ لمعاذ بن عمر وبن الجموح أخذ سلب أبي جهل بعد أن ثبت لديه أنه قاتله[٥١] (والسَّلَب بفتح السين واللام، هو ما يحمله المقاتل من ثياب وسلاح ودابه)[٥٢].

ج ـ ما يجيز للمقاتل المسلم الاستفادة من الغنائم والفيء من أموال المشركين:

وقد روي عن عمر (رضي) أن أموال بني النضير كانت «مما أفاء الله على رسوله مما لم يوجف عليه المسلمون بخيل ولا ركاب، فكانت للنبي ﷺ خاصة، فكان ينفق على أهله نفقة سنة وما بقي يجعله في الكراع (أي الدواب التي تصلح للحرب) والسلاح عدة في سبيل الله»[٥٣].

٧ ـ تعزيز معنويات المقاتلين، (أو التوجيه المعنوي للمقاتل):

كما في القرآن الكريم كذلك في الأحاديث النبوية الشريفة، تشغل دعوة المسلمين إلى الجهاد والقتال في سبيل نشر الدين الإسلامي والذود عنه حيزاً هاماً وكبيراً من الأحاديث المتعلقة بالحرب، فلا يترك النبي ﷺ مناسبة إلاّ ويحض المسلمين على الجهاد ويحرضهم عليه ويزين لهم الشهادة ويعدهم بالجنة إن هم قضوا مقاتلين في سبيل الله، وتكثر الأحاديث النبوية في هذا المجال مما يجعل من

(٥٠) م. ن. ، ص ١٥٠ ـ ١٥١.

(٥١) م. ن. ، ص ١٤٨ ـ ١٤٩.

(٥٢) البستاني، المعلم بطرس، محيط المحيط (سلب). وانظر كذلك، هامش صحيح مسلم، جـ ٥ : ١٤٨.

(٥٣) مسلم، المصدر السابق، جـ ٥ : ١٥١.

الصعب على الباحث أن يحصرها في مقالة واحدة، ومن هذه الأحاديث:

أ ـ ما يعزز معنويات المقاتلين ويحضهم على الثبات وعدم الفرار أمام العدو: إذ روي أن المسلمين، يوم الحديبية، بايعوا النبي على القتال وعدم الفرار، ففي حديث منقول عن سفيان عن ابن الزبير عن جابر أنه قال: «كنا يوم الحديبية ألفاً وأربعمائة فبايعناه وعمر آخذ بيده تحت الشجرة. وهي سَمُرَة وقال: بايعناه على أن لا نفر ولم نبايعه على الموت»[٥٤]. وفي حديث آخر عن يزيد بن أبي عبيد مولى سَلَمة ابن الأكوع قال: «قلت لسَلَمة، على أي شيء بايعتم رسول الله ﷺ يوم الحديبية؟ قال: على الموت»[٥٥]. كما روي أن المسلمين بايعوا النبي ﷺ بعد فتح مكة «على الإسلام والجهاد»، ففي حديث عن مجاشع بن مسعود السُّلمي أنه قال «أتيت النبي ﷺ أبايعه على الهجرة فقال: إن الهجرة قد مضت لأهلها ولكن على الإسلام والجهاد والخير»[٥٦].

ب ـ ما يعزز معنويات المقاتلين ويحضهم على اقتناء الخيل للقتال: ففي حديث عن جرير بن عبد الله قال: «رأيت رسول الله ﷺ يلوي ناصية فرس باصبعه وهو يقول: الخيل معقود بنواصيها الخير إلى يوم القيامة الأجر والغنيمة»[٥٧].

ج ـ ما يعزز معنويات المقاتلين ويحضهم على الجهاد والخروج في سبيل الله ونشر دينه: ففي حديث عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «تكفل الله لمن جاهد في سبيله لا يخرجه من بيته إلا جهاد في سبيله وتصديق كلمته بأن يدخله الجنة أو يرجعه إلى مسكنه الذي منه مع ما نال من أجر أو غنيمة». وفي حديث آخر عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «لا يَكْلَم أحد في سبيل الله، والله أعلم بمن يَكْلَم في سبيله، إلاّ جاء يوم القيامة وجرحه يثعب، اللون لون دم والريح ريح مسك». وفي حديث آخر عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال: «كل كَلْم

(٥٤) م. ن.، جـ٦ : ٢٥. والسَّمُرَة: شجر الطلح.
(٥٥) م. ن.، ص ٢٧.
(٥٦) م. ن. ص. ن.
(٥٧) م. ن. ص ٣٢.

يكلمه المسلم في سبيل الله ثم تكون يوم القيامة كهيئتها إذا طعنت تَفَجَّرُ دماً، اللون لون دم والعرف عرف مسك»[٥٨]. وقال رسول الله ﷺ: «والذي نفس محمد بيده لولا أن أشق على المؤمنين ما قعدت خلف سرية تغزو في سبيل الله ولكن لا أجد سَعَة فاحملهم ولا يجدون سَعَة فيتبعوني ولا تطيب أنفسهم أن يقعدوا بعدي»[٥٩]. وفي حديث آخر عن أبي هريرة قال: «قيل للنبي ﷺ ما يعدل الجهاد في سبيل الله عز وجلّ؟ قال: لا تستطيعونه، قال فأعادوا عليه مرتين أو ثلاثاً، كل ذلك يقول: لا تستطيعونه، وقال في الثالثة: مثل المجاهد في سبيل الله كمثل الصائم القائم القانت بآيات الله لا يفتُرُ من صيام ولا صلاة حتى يرجع المجاهد في سبيل الله تعالى»[٦٠].

د ـ ما يعزز معنويات المقاتلين ويحضهم على الشهادة في سبيل الله والإقدام في القتال: ففي حديث عن أنس بن مالك عن رسول الله ﷺ أنه قال: «ما من أحد يدخل الجنة يحب أن يرجع إلى الدنيا وأن له ما على الأرض من شيء غير الشهيد فإنه يتمنى أن يرجع فيُقتل عشر مرات لما يرى من الكرامة»[٦١]. وفي حديث آخر عن النبي ﷺ أنه قال: «والذي نفس محمد بيده لوددت أن أغزو في سبيل الله فأقتل ثم أغزو فأقتل ثم أغزو فأقتل»[٦٢]. وفي حديث آخر عن عبد الله بن عمرو بن العاص أن رسول الله ﷺ قال: «يغفر للشهيد كل ذنب إلّا الدَّين»[٦٣]. وفي حديث آخر أن رجلاً سأل رسول الله ﷺ: «يا رسول الله أرأيت إن قُتلتُ في سبيل الله تكفّر عني خطاياي؟ فقال له رسول الله ﷺ: نعم إن قتلت في سبيل الله وأنت صابر محتسب مقبل غير مدبر»[٦٤]. وفي حديث آخر عن أبي

---

(٥٨) وفي حديث آخر «... والذي نفس محمد بيده ما من كَلْم يُكلم في سبيل الله إلّا جاء يوم القيامة كهيئته حين كلم لونه لون دم وريحه ريح مسك...» (م. ن. ، ص ٣٣ و٣٤). والكَلْم: الجرح، ويكلم: أي يجرح، ويثعب الجرح: أي يجري دمه بكثرة.

(٥٩) م. ن. ، ص ٣٥.

(٦٠) م. ن. ، ص ٣٥.

(٦١) م. ن. ، ص. ن.

(٦٢) م. ن. ، ص ٣٤.

(٦٣) م. ن. ، ص ٣٨.

(٦٤) ثم استطرد رسول الله (صلعم) قائلاً: «إلا الدَّين، فإن جبريل عليه السلام قال لي ذلك»(م. ن، ص ٣٧ ـ ٣٨).

هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال: «يضحك الله إلى رجلين يقتل أحدهما الآخر كلاهما يدخل الجنة، فقالوا: كيف يا رسول الله؟ قال: يقاتل هذا في سبيل الله عز وجلّ فيستشهد ثم يتوب الله على القاتل فيسلم فيقاتل في سبيل الله عز وجل فيستشهد. وفي حديث آخر عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال «لا يجتمع كافر وقاتله في النار أبداً»(٦٥). وفي حديث عن أبي بكر بن عبد الله بن قيس عن أبيه قال: «سمعت أبي وهو بحضرة العدو يقول: قال رسول الله ﷺ: إن أبواب الجنة تحت ظلال السيوف، فقام رجل رث الهيئة فقال: يا أبا موسى، أأنت سمعت رسول الله ﷺ يقول هذا؟ قال: نعم، قال: فرجع إلى أصحابه فقال: أقرأ عليكم السلام، ثم كسر جفن سيفه فألقاه ثم مشى بسيفه إلى العدو فضرب به حتى قتل»(٦٦). وفي حديث آخر عن أنس بن مالك عن رسول الله ﷺ أنه قال: «من طلب الشهادة صادقاً أعطيها ولو لم تصبه»(٦٧).

هـ ـ ما يعزز معنويات المقاتلين المسلمين بالقول إن الملائكة تقاتل معهم:
فقد روي عن سعد بن أبي وقاص أنه قال: «لقد رأيت يوم أُحُد عن يمين رسول الله ﷺ وعن يساره رجلين عليهما ثياب بيض يقاتلان عنه كأشد القتال ما رأيتهما قبل ولا بعد»، وفي حديث آخر أن هذين الرجلين هما «جبرائيل وميكائيل عليهما السلام»، وروي مثل ذلك في غزوة بدر(٦٨).

٨ ـ تطبيق مبدأ الشورى في القيادة:

وذلك دون الخروج، في الوقت نفسه، على وحدانيتها التي كانت معقودة اللواء للقائد الأعلى لجيش المسلمين وهو النبي ﷺ، وكان الرسول يتولى قيادة الجيش بنفسه في معظم الأحيان، كما كان يولي عليه أحياناً رجلاً يختاره بنفسه.

---

(٦٥) م. ن. ، ص ٤٠.
(٦٦) م. ن. ، ص ٤٥.
(٦٧) م. ن. ، ص ٤٨.
(٦٨) م. ن. ، جـ٧ : ٧٢، وقد روي أن الله أرسل، يوم بدر، جبريل بألف ملاك وميكائيل بألف وأسرافيل بألف «على خيل بلق» يحيطون بالنبي ويقاتلون مع المسلمين (ابن سعد، الطبقات الكبرى، جـ٣ : ٥٤ ـ ٥٥).

وكان يستشير صحابته في أمور الحرب والسلم عملاً بقوله تعالى: ﴿. . . وشاورهم في الأمر فإذا عزمت فتوكل على الله أن الله يحب المتوكلين﴾ «آل عمران ١٥٩»، وهكذا فقد استشار النبي ﷺ أصحابه في غزوة بدر الكبرى (عام ٢ هـ) إذ أقبل عليهم وقال: «هذه مكة قد ألقت إليكم أفلاذ أكبادها» ثم أردف: «أشيروا علي أيها الناس» فكان الرأي بالحرب[٦٩]. كما استشار سعد بن معاذ وسعد بن عبادة في غزوة الخندق (عام ٥ هـ) فاشارا عليه بالقتال[٧٠].

٩ ـ تخصيص سرايا الجيش بألوية (ورايات) وشعارات:

أ ـ **الألوية والرايات**: كان رسول الله ﷺ إذا أرسل سرية لغزوة أو لقتال عقد لقائدها راية أو لواء، من ذلك أنه عقد لعمه حمزة بن عبد المطلب لواء أبيض وسيّره في ثلاثين رجلاً من المهاجرين لمهاجمة إحدى قوافل قريش (عام ١ هـ)، فكان أول لواء يعقده النبي ﷺ لسرية من سراياه (وقيل إن أول لواء كان عقده لأبي عبيدة بن الجراح). وعقد النبي ﷺ في العام نفسه، لواء أبيض أيضاً، لعبيدة بن الحارث وسيّره لقتال المشركين، وكان في المسلمين سعد بن أبي وقاص، فكان «أول من رمى بسهم في سبيل الله». وعقد النبي ﷺ في العام نفسه أيضاً، لواء لسعد بن أبي وقاص وسيره إلى «الأبواء» في فرقة من المهاجرين لقتال المشركين إلّا أنه «لم يلق حرباً»[٧١].

وروى ابن هشام، عن ابن اسحق، أنه كان لرسول الله ﷺ في بدر، لواء أبيض ورايتان سوداوان، وقد عهد باللواء إلى مصعب بن عمير بن هاشم، أما الرايتان فعهد بإحداهما، وتسمى (العقاب)، إلى علي بن ابي طالب، (كرم الله وجهه)، من المهاجرين، وعهد بالثانية إلى سعد بن معاذ، من الأنصار[٧٢]، قال ابن هشام في ذلك: «قال ابن اسحق: ودفع ـ أي النبي ﷺ ـ اللواء إلى مصعب بن عمير بن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار. قال ابن هشام: وكان

(٦٩) ابن الأثير، المصدر السابق، حـ٢ : ١٢٠.
(٧٠) ابن هشام، المصدر السابق، جـ٣ : ١٧٧، والطبري، المصدر السابق، جـ٢ : ٥٧٣.
(٧١) ابن الأثير، المصدر السابق، جـ٢ : ١١١.
(٧٢) ابن هشام، المصدر السابق، جـ٢ : ٢٥١.

أبيض. قال ابن اسحق: وكان أمام رسول الله رايتان سوداوان: إحداهما مع علي بن أبي طالب يقال لها العقاب، والأخرى مع بعض الأنصار.... وكانت راية الأنصار مع سعد بن معاذ، فيما قال ابن هشام»[٧٣]. كما عهد النبي ﷺ بلواء المسلمين، في أُحُد، إلى مصعب بن عمير أيضاً، ولما قتل مصعب عهد به إلى علي بن أبي طالب.

ب ـ **الشعارات**: أما شعارات المسلمين في القتال فكانت متعددة ومنها: شعارهم في وقعة أُحُد «آمِت، آمِت»[٧٥]، وفي غزوة بدر «أَحَد، أَحَد»[٧٦]، وفي غزوة بني المصطلق «يا منصور، أَمِت. أَمِت»[٧٧]، وفي غزوة الخندق «حم، لا يُنصرون»[٧٨] وروي عروة بن الزبير عن أبيه «إن النبي ﷺ جعل شعار المهاجرين: يا بني عبد الرحمن، وشعار الخزرج: يابني عبد الله، وشعار الأوس: يا بني عبد الله، وسمي خيلة خيل الله»[٧٩].

١٠ ـ تحديد كيفية حمل السلاح في الأماكن العامة:

ويحدد النبي ﷺ، في أحاديثه وسلوكه، كيفية حمل السلاح في الأماكن العامة وفي مختلف المناسبات، فقد حذر المسلمين من حمل السهام والنبال وقد بدت نصالها، فروي أن رجلاً مر بأسهم في المسجد «وقد أبدى نصولها» فأمره رسول الله ﷺ «أن يأخذ بنصولها كي لا يخدش مسلماً»، وروي أيضاً أن رسول الله ﷺ أمر رجلاً كان يتصدق بالنبل في المسجد «أن لا يمر بها إلّا وهو آخذ بنصولها»[٨٠]. وفي حديث عن أبي موسى أن رسول الله ﷺ قال: «إذا مر أحدكم في مجلس أو سوق

---

(٧٣) م. ن.، ص. ن.
(٧٤) م. ن.، جـ٣: ٩، وابن الأثير، المصدر السابق، جـ٢: ١٥٥.
(٧٥) م. ن.، ص ١١.
(٧٦) ابن هشام، المصدر السابق، جـ٢: ٢٧٥.
(٧٧) م. ن.، جـ٣: ٢٥١.
(٧٨) م. ن.، ص ١٨٠.
(٧٩) الماوردي، المصدر السابق ص ٣٦ ـ ٣٧.
(٨٠) مسلم، المصدر السابق، جـ٨: ٣٣.

وبيده نبل فليأخذ بنصالها ثم ليأخذ بنصالها ثم ليأخذ بنصالها»[٨١]. وفي حديث آخر عن أبي موسى عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إذا مر أحدكم في مسجدنا أو في سوقنا ومعه نبل فليمسك على نصالها بكفه أن يصيب أحداً من المسلمين منها بشيء أو قال ليقبض على نصالها»[٨٢]. كذلك حذر النبي ﷺ المسلمين من أن يشير أحدهم إلى أخيه بالسلاح فقد روي عن رسول الله (صلعم) أنه قال «لا يشير أحدكم إلى أخيه بالسلاح فإنه لا يدري أحدكم لعل الشيطان ينزع في يده فيقع في حفرة من النار»[٨٣].

١١ ـ قتال البحر:

لم يركب المسلمون البحر غازين في عهد رسول الله ﷺ وعهد خليفته أبي بكر وعمر (رضي)، فقد كان الخليفة عمر (رضي) يكره ركوب البحر ويمنع المسلمين من ركوبه، حتى أنه قال «لا تجعلوا بيني وبين المسلمين بحراً»[٨٤]. إلّا أن المسلمين ركبوا البحر غازين في عهد الخليفة عثمان بن عفان (رضي) وبطلب من معاوية، (وكان والياً على الشام) حيث أرسل عام ٢٨ هـ (٦٤٨ م) حملة لغزو قبرص وفتحها، وتم له ذلك (كما سنرى في المقالة القادمة).

وكان المسلمون، في بادىء أمرهم، يتهيبون ركوب البحر، إلا أنهم سرعان ما تعودوه، فغزوا، بعد قبرص، رودس وصقلية وفتحوهما، ثم خاضوا، ضد الروم، عام ٣٤ هـ (٦٥٥م) أهم معركة بحرية في تاريخ الفتوح الإسلامية، وهي معركة «ذات الصواري» وانتصروا بها انتصاراً حاسماً (وكانت الحملة بقيادة عبد الله بن أبي سرح والي مصر).

ولا نجد في القرآن الكريم وجوامع الحديث الكثير من الآيات والأحاديث الشريفة المتعلقة بركوب البحر والغزو فيه، والقليل الذي وجد منها يشجع على ذلك ويحرض عليه، فقد قال تعالى: ﴿الله الذي سخر لكم البحر تجري الفلك فيه

---

(٨١) م. ن.، ص. ن.
(٨٢) م. ن.، ص. ن.
(٨٣) م. ن.، ص ٢٤.
(٨٤) خدوري، المصدر السابق، ص ١٥٦.

بأمره ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون﴾ «الجاثية ١١»، وقال: ﴿وهو الذي جعل لكم النجوم لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون﴾ «الأنعام ٩٨»، دالاّ المسلمين في هذه الآية على استعمال البوصلة البحرية المرتكزة على مسار النجوم [٨٥].

إلّا أن هناك أحاديث شريفة جاءت لتؤكد أهمية ركوب البحر جهاداً في سبيل الله، فقد قال ﷺ «شهيد البحر مثل شهيدي البرّ، والمائد في البحر كالمتشحط في دمه في البر. . . .» وقال: «غزوة في البحر مثل عشر غزوات في البر، والذي يَسْدُر في البحر كالمتشحط في دمه في سبيل الله سبحانه»[٨٦] وقال أيضاً: «لا تركب البحر إلّا حاجاً أو معتمراً أو غازياً في سبيل الله»[٨٧]. ويرى الشيباني أن المسلم الذي يشترك في حملة بحرية يؤتى أجره مضاعفاً وتغفر له جميع خطاياه «فيعود كأنه ولد من جديد»[٨٨].

وقد روى الإمام مسلم في «الجامع الصحيح»[٨٩] أن رسول الله ﷺ رأى في المنام قوماً من المسلمين يركبون البحر «غزاة في سبيل الله» وقد روى منامه «لام حَرام» (زوجة «عبادة بن الصامت» فيما بعد) فالتمست منه أن يجعلها منهم فقال لها: «أنت من الأولين» وبالفعل ركبت أم حَرام البحر في غزوة قبرص (٢٨هـ) حيث لقيت مصرعها في هذه الغزوة (بسقوطها عن ظهر دابتها) ولا يزال قبرها قائماً في قبرص حتى اليوم.

نكتفي بهذا السرد الموجز لبعض ما ورد في الحديث الشريف والسنة النبوية من أقوال النبي وأفعاله في الحرب والقتال، والتي تعتبر، بحق مصدراً هاماً من مصادر الفن العسكري الإسلامي.

---

(٨٥) م. ن. ص ١٦٢.

(٨٦) ابن ماجه القزويني، سنن المصطفى، ج ٢ : ١٧٨. والمائد: الذي يصيبه دوار البحر في أثناء إبحاره، والمتشحط في دمه: المتضرج به. ويسدر: يصاب بدوار البحر.

(٨٧) خدوري، المصدر السابق، ص ١٥٧ عن «السنن» للامام البغوي.

(٨٨) م. ن. ص. ن.

(٨٩) م. ن، ج ٦ : ٤٩ ـ ٥٠.

المقالة الثالثة

المصدر الثالث: أقوال الخلفاء وأفعالهم

تعتبر أقوال الخلفاء وأفعالهم المصدر الثالث من مصادر الفن العسكري الإسلامي، وسوف نحصر هذه الأقوال والأفعال بالخلفاء الراشدين، باعتبارهم أوائل الفاتحين المسلمين.

لقد أظهر الخلفاء الراشدون الذين قادوا الفتوح الإسلامية في مشارق الأرض ومغاربها، وخاصة في العراق والشام ومصر وإفريقية، من الكفاية والدراية في الفن العسكري، على الصعيد الاستراتيجي والتنظيمي والإداري، والتكتيكي أحياناً، ما جعلهم في مصاف كبار الفاتحين التاريخيين في العالم، وهنالك نماذج رائعة من الفكر العسكري والسلوك الحربي خلفها لنا هؤلاء الفاتحون الخالدون، من هذه النماذج:

أولاً: الإدراك العميق للاستراتيجية العسكرية بمفهومها العصري الحديث:

في وقت لم تكن الاستراتيجية معروفة باسمها، والاستراتيجية العسكرية، بمفهومها العصري هي «مجموعة الترتيبات والتدابير التي يتوجب اتخاذها، والاحتراز الذي يجب التقيد به، بغية سوق جيش إلى أمام عدو»[1].

---

(١) Larousse XXe-S.V.6, (Stratégie) وكانت كلمة «التعبئة» أقرب إلى هذا المعنى في ذلك الحين، **فهي** التي تعبر عن كل ما يقوم به الجيش من تحركات استراتيجية وتكتيكية لوضعه في وضع القتال. **انظر** معنى «التعبئة» في ذلك الزمن عند ابن خلدون، مجلد ١: ٤٨١.

فإذا أردنا أن نقارن بين هذا التحديد العصري للاستراتيجية العسكرية وبين ما قام به الخليفة أبو بكر (رضي) من عمليات تحريك الجيوش الإسلامية على مختلف الجبهات في كل من العراق والشام، وما سبق ذلك من تحريك هذه الجيوش في حروب الردة في الجزيرة العربية، لتبين لنا كم كان هذا الخليفة بارعاً في مجال الاستراتيجية العسكرية. فبعد وفاة النبي ﷺ ارتدت عن الإسلام قبائل عديدة في مختلف أنحاء الجزيرة كطيء وأسد وغطفان وسليم وهوازن وبني عامر وبني ثعلبة بن يربوع وبني حنيفة وغيرها، وكانت حركة الارتداد هذه من الخطورة بحيث أنها هددت، إلى حد كبير، وبجدية متناهية، مصير الإسلام والمسلمين. وكان تحرك الخليفة أبي بكر (رضي) تجاه هذه الحركة، في مستوى الحدث الخطير، فجيّش كل قوات المسلمين وعلى رأسها قادة أكفاء أمثال خالد بن الوليد وعكرمة بن أبي جهل والمهاجر بن أمية وشرحبيل بن حسنة وخالد بن سعيد وحذيفة بن محصن وعرفجة بن هرثمة وسويد بن مقرّن والعلاء بن الحضرمي ومعن بن حاجز (وعند الطبري طريفة ابن حاجز) وعمرو بن العاص[٢] وأخذ يحرك هذه القوات التي كانت تنتقل لقتال المرتدين من موقع إلى آخر ومن معركة إلى أخرى في أنحاء مختلفة ومتباعدة من الجزيرة العربية، بسرعة وبراعة لا مثيل لهما، كأنما هو يقرأ في صفحة ناصعة أو في خارطة واضحة المعالم، وقد تعرف إلى مضارب القبائل المرتدة وحدد أماكن إقامتها ووجه إلى كل منها القوة الملائمة والكافية لردعها، وكان لحنكته ودرايته وما يتمتع به من حس مرهف في قدر الموقف العسكري، وكذلك لعبقريته في تحريك القوات وفقاً للوضع العسكري القائم، الفضل الأول والأكبر في صمود الدين الإسلامي في الجزيرة العربية وانتصار المسلمين على تلك الحركة الخطيرة. ويمكن القول نفسه عن الاستراتيجية العسكرية التي اتبعها أبو بكر في توجيه الفرق الإسلامية إلى كل من العراق والشام وفيهما، فقد كان هذا الخليفة بارعاً، إلى أقصى الحدود، في جمع هذه الفرق وتحريكها

أما التعبئة بمعناها الحديث، فهي: «مجموع التدابير والعمليات التي تؤهل القوات المسلحة في بلد ما لدخول الحرب، وذلك بتكييف بيئة البلاد الاقتصادية والإدارية حسب ضرورات هذه الحرب» Larousse XXᵉ S.V.4, (Mobilisation).

(٢) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج ٢ : ٣٤٦.

واستخدامها، وقد برهن على ذلك بالأوامر التي كان يوجهها إلى هذه الفرق لكي تتحرك نحو أهدافها، ومن هذه الأوامر:

١ ـ بعد أن فرغ من قتال المرتدين في الجزيرة العربية (عام ١٢هـ ـ ٦٣٣م) قرر أن يسيّر جيوشاً لفتح العراق والشام، فجيّش، لفتح العراق، جيشين:

ـ الأول بقيادة خالد بن الوليد وكان يومئذ، باليمامة، فكتب إليه يأمره بأن يغزو العراق من جنوبه الغربي، وقال له:

«سر إلى العراق حتى تدخلها، وابدأ بفرج الهند» أي ثغرها، وهي «الأبلّه»[٣].

ـ الثاني، بقيادة عيّاض بن غنم، وكان بين النباج[٤] والحجاز، فكتب إليه يأمره بأن يغزو العراق من شماله الشرقي، بادئاً بالمصيّخ[٥] وقال له: «سر حتى المصيخ فابدأ بها، ثم ادخل العراق من أعلاها حتى تلقى خالداً» ثم أردف أمره هذا بقوله: «وإذنا لمن شاء بالرجوع، ولا تستفتحا بمتكاره» أي لا تجبرا أحداً على السير معكما للقتال إكراهاً، فمن شاء فليقدم، ومن شاء فليحجم.

إن نظرة واحدة إلى خارطة العراق ترينا ما كان يتمتع به الخليفة أبو بكر من حس استراتيجي متقدم على عصره، فهو بأوامره هذه إلى قائديه، خالد وعياض، أعطى جملة تعليمات عسكرية استراتيجية منها وتكتيكية، فحدد لكل من القائدين المسلمين، جغرافياً، منطلقه للدخول إلى العراق، كأنما هو يمارس القيادة من غرفة العمليات، بالحجاز، وقد بسطت أمامه خارطة العراق بكل تضاريسها ومسالكها، فيأمر أحدهما (خالداً) بدخول العراق من أسفلها، جنوباً بغرب، (أي الأبله)، ويأمر الثاني (عياضاً) بدخول العراق من أعلاها، شمالاً بشرق (أي المصيخ) ويأمر الاثنين معاً أن يلتقيا في وسط العراق. ولا ينسى الخليفة، مع ذلك، أن يأمرهما بأن لا يُكرها الناس على الانخراط في جيشيهما، وأن لا يجبرا أحداً على البقاء معهما

---

(٣) بلدة تقع على شاطىء دجلة في زاوية الخليج الذي يدخل إلى مدينة البصرة، وكانت أعظم ثغور فارس (انظر الخارطة).

(٤) موضع على بعد عشر مراحل من البصرة،أو هي قرية في بادية البصرة في منتصف الطريق بين مكة والبصرة. ويوجد نباج آخر بين البصرة واليمامة على مسيرة أربعة أيام من اليمامة (ياقوت، معجم البلدان).

(٥) موضع على حدود الشام مما يلي العراق (انظر الخارطة).

للقتال.فلم يكن التجنيد، في نظره، الزامياً، وإنما طوعياً واختيارياً، والجدير بالذكر أن أبا بكر (رضي) رفض أن يشترك المسلمون الذين عادوا إلى الإسلام، بعد ارتدادهم عنه، في الحملات التي وجهها لفتح العراق والشام، خشية أن لا يكون ايمانهم بعد قد صفا، فيفسدوا على المؤمنين ايمانهم.

٢ ـ في أواخر العام نفسه (١٢هـ)، وبعد أن اطمأن أبو بكر إلى النصر الذي أحرزه كل من خالد وعياض على الجبهة العراقية، قرر تسيير الجيوش لفتح بلاد الشام تنفيذاً لرغبة سابقة كان أبداها رسول الله ﷺ عندما بدأ بتجهيز حملة بقيادة أسامة بن زيد لإنفاذها إلى الشام، إلا أنه ﷺ توفي قبل ذلك، وتنفيذاً لرغبته هو نفسه (أي أبوبكر)، وهو الذي قال:«لفتح قرية في الشام، أفضل عندي من فتح بلد في العراق». وحشد أبو بكر، لفتح بلاد الشام، جيشا بلغ عديده نحو عشرين ألف مقاتل، نظمه في خمس فرق تم توزيعها وتسييرها إلى الشام على الشكل التالي (انظر الخارطة):

الفرقة الأولى:

القائد: يزيد بن أبي سفيان

الهدف: دمشق

العديد: ٣ ـ ٤ آلاف مقاتل

المهمة: احتلال دمشق ومساندة الفرق الأخرى في تحركاتها والعمل بالتساند معها.

الطريق المتبعة: معان ـ الأزرق ـ البلقاء ـ بصرى ـ دمشق.

الفرقة الثانية:

القائد: شرحبيل بن حسنة

الهدف: بصرى عاصمة حوران

العديد: ٣ ـ ٤ آلاف مقاتل

المهمة: احتلال بصرى، ومساندة الفرق الأخرى في تحركاتها والعمل بالتساند معها.

الطريق المتبعة: معان ـ الكرك ـ مأدبا ـ البلقاء ـ بصرى.


خطة الخليفة لفتح العراق
الشمال
أرض الجزيرة
الجبال أو العراق العجمي
خوزستان
أصبهان
الأهواز
الفراض
بادية الشام
المصيخ
عياض بن غنم
الحصيد
الخنافس
الأنبار
عين التمر
الحيرة
أرض السواد
المزار
البصرة
الولجة
خالد بن الوليد
الأبلة
دومة جندل
الحفير
كاظمة
الخليج العربي

الفرقة الثالثة:

القائد: أبو عبيدة الجراح

الهدف: حمص

العديد: ٣ ـ ٤ آلاف مقاتل

المهمة: احتلال حمص ومساعدة الفرق الأخرى في تحركاتها والعمل بالتساند معها.

الطريق المتبعة: طريق الفرقة الأولى ـ حمص.

الفرقة الرابعة:

القائد: عمرو بن العاص

الهدف: فلسطين

العديد: ٦ ـ ٧ آلاف مقاتل

المهمة: احتلال فلسطين.

الطريق المتبعة: طريق الساحل (ساحل البحر الأحمر) ـ العقبة ـ وادي عربة ـ البحر الميت.

الفرقة الخامسة:

القائد: عكرمة بن أبي جهل.

العديد: غير محدد.

المهمة: احتياط في المدينة.

كانت الفرق الأربع الأولى مكلفة احتلال منطقة مساحتها نحو ١٢٠ ألف كلم[٢]، وهي منطقة تمتد من غزة غرباً حتى صحراء الشام شرقاً، ومن معان جنوباً حتى دمشق شمالاً، والمسافة بين غزة وصحراء الشام ٣٠٠ كلم، كما أن المسافة بين معان ودمشق ٤٠٠ كلم، ناهيك بأن هذه الفرق تبتعد عن قاعدة تموينها في المدينة بالحجاز نحو ١١٠٠ كلم، في وقت انعدمت فيه وسائل الاتصال باستثناء

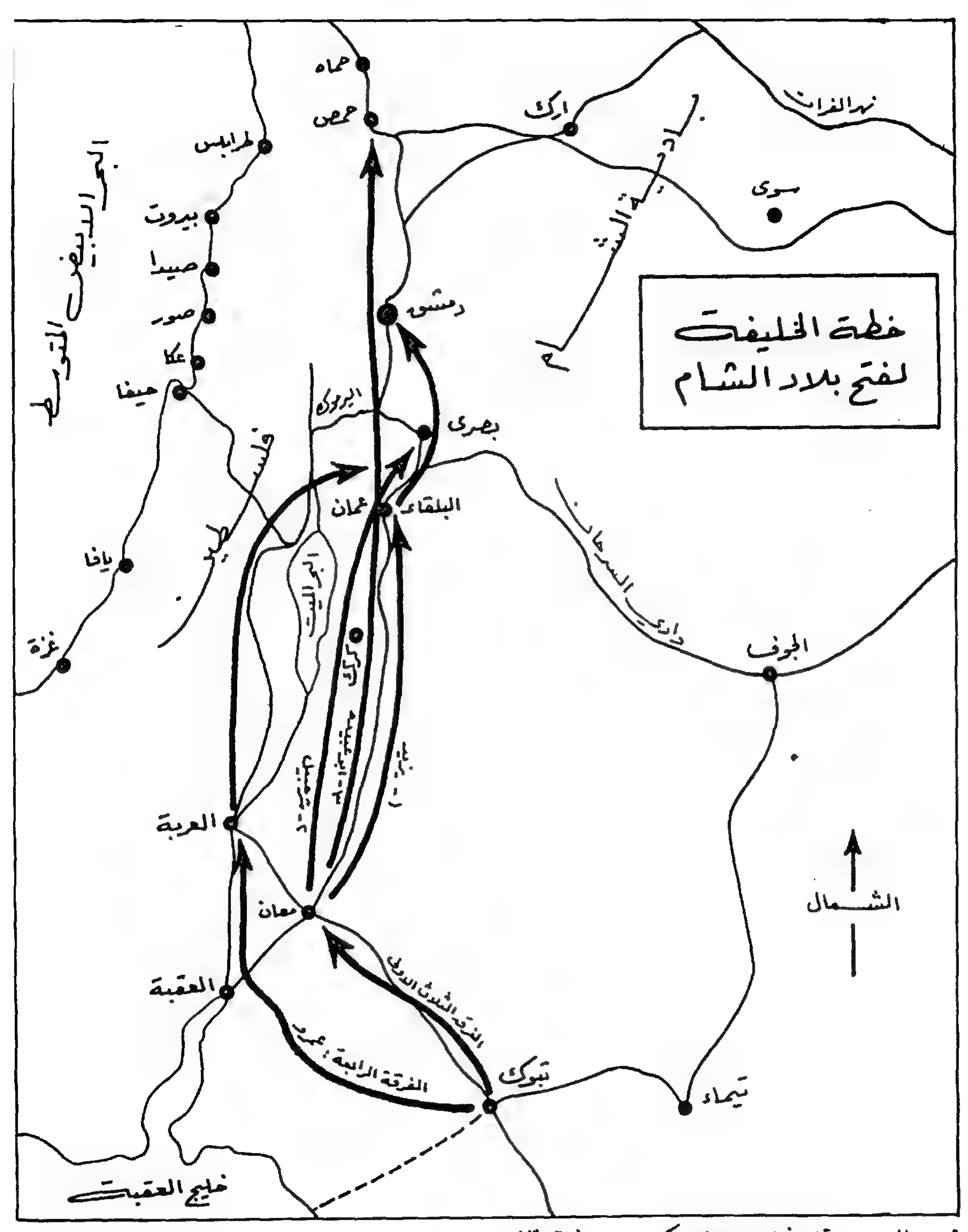
السعاة على ظهور الخيل أو الإبل التي كان عليها أن تقطع هذه المسافات في فترات زمنية طويلة تبلغ بضعة أسابيع، الأمر الذي كان يدفع الخليفة لأن يحسب لكل شيء حسابه، ولفترة طويلة، مع اعطاء قدر من حرية التصرف لكل قائد. وكان انطلاق هذه الفرق، من المدينة، في أوقات متفاوتة ووفقاً للمسافات التي كان عليها أن تقطعها، أو الاتجاه الذي ستتجهه، فانطلقت الفرقة الأولى (يزيد) في أواخر العام ١٢هـ، وانطلقت الثانية (شرحبيل) بعد الأولى بثلاثة أيام، إذ قال أبو بكر لشرحبيل: «إذا سار يزيد. . . أقم ثلاثاً ثم تيسر للمسير». ثم تبعتهما الفرقتان الأخريان، وكان بوسع هذه الفرق أن تتساند فيما بينها إذا دعت الحاجة، إذ كانت الفرقة الثانية (شرحبيل) تشكل الجناح الأيمن للفرقة الرابعة (عمرو) والجناح الأيسر للفرقة الثالثة (أبي عبيدة)، كما كانت الفرقة الثالثة تشكل الجناح الأيسر للفرقة الأولى (يزيد) والجناح الأيمن للفرقة الثانية. (انظر الخارطة).

٣ ـ بينما كانت القوات الإسلامية في العراق (بقيادة خالد وعياض) تقاتل جحافل الفرس فتنتصر عليها، كانت الفرق الإسلامية الموجلة بفتح بلاد الشام تلاقي صعوبة في تنفيذ المهمات الموكلة إليها، فقرر قادة الفرق، بعد التشاور فيما بينهم، وبناء لرأي من عمرو بن العاص، الاجتماع في بصرى لملاقاة الروم في معركة حاسمة باليرموك، وكتب القادة إلى الخليفة يستشيرونه ويستأمرونه فوافقهم على رأيهم وقرر أن ينجدهم بخالد، وكان في الحيرة، ومعه المثنى بن حارثة الشيباني، فكتب إليه يأمره بالتوجه من العراق إلى الشام للانضمام إلى القادة الأربعة وتولي القيادة في تلك البلاد، كما أمره أن يأخذ نصف الناس ويستخلف المثنى على النصف الآخر، وأن لا يأخذ أحداً من أهل النجدة إلّا ويترك للمثنى مثله. ونفذ خالد أمر الخليفة وانتقل بنصف جيشه من العراق إلى الشام، عبر الصحراء، في رحلة أسطورية لم يذكر التاريخ شبيهاً لها[٦].

وهكذا ما أن شعر أبو بكر، بوعي القائد المدرك، أن الفرق التي أرسلها

---

(٦) انظر لهذه المسيرة: المؤلف نفسه، معارك خالد، ص: ٢٣٠ ـ ٢٣٨، وانظر: المقالة الرابعة من هذا البحث.



محمود الدرة : تاريخ العرب العسكري (بتصرّف)

لقتال الروم في الشام غير قادرة على الحركة، وبالتالي على الانتصار، وأن هذه الفرق بحاجة إلى تعزيز ومساندة على مستوى الجند والقيادة، وأن هذا التعزيز يمكن أن يتم بجند من القوات المقاتلة في العراق، وأن القائد الملائم لقيادة الفرق في الشام هو خالد بن الوليد، حتى أسرع في اعطاء الأوامر لخالد بالتحرك نحو الشام لنجدة تلك الفرق، فحقق، بقراره هذا، ثلاثة أمور عادت على المسلمين بالنصر، وهي: توحيد جيش المسلمين في الشام، وتوحيد قيادة هذا الجيش بأمرة خالد، وتغيير نظام التعبئة (النظام الجديد الذي اتبعه خالد لتعبئة جيش المسلمين في اليرموك أو ما سمي بالتعبئة الخالدية)[٧]، وهذا ما يؤكد وضوح الرؤية عند الخليفة أبي بكر في تحريك الجيوش والقدرة البارعة في استعمالها، وهو ما اتفق على تسميته «بالاستراتيجية» في العلم العسكري الحديث.

ولم يكن الخليفة عمر بن الخطاب (رضي) ليقل دراية وكفاية في الشأن الاستراتيجي عن سلفه أبي بكر، إذ كان يكفي أن يصف له قائد جيشه العدو وأرض المعركة، حتى يصدر القرار الملائم، فقد كان الفاروق عمر يطلب من قادته، وهم بعيدون عن المدينة، عاصمة الإسلام ومركز القائد الأعلى، أن يصفوا له، بالتفصيل، عدوهم الذي عليهم أن يواجهوه، عدداً وعدة وقادة ومستوى معنوياً، ويصفوا له أرض المعركة وطبيعتها، حتى إذا درس الوصف المرسل إليه استطاع أن يتخذ القرار المناسب.

لقد تسلم عمر الخلافة وجيوش المسلمين في العراق والشام فتابعت هذه الجيوش فتوحها بتوجيه منه، ثم ما لبث أن وجه الجيوش الإسلامية لفتح فارس ومصر وشمال إفريقية، فكان يسيّر تلك الجيوش إلى الحرب ويبعث الأوامر إلى قادتها في مختلف الجبهات، ويحرك القوات من أقليم إلى آخر ومن جبهة إلى أخرى بسرعة ودراية فائقتين، مما يؤكد عمق إدراكه لمفهوم الاستراتيجية العسكرية وتطبيقه لها، وكان يدير المعارك على مختلف الجبهات وهو في موقعه بالمدينة كأنما رسمت أمامه مواقع القتال رسماً، فيقيّم الوضع العسكري لجيوشه وللعدو على كل

(٧) انظر لهذه التعبئة، المؤلف نفسه، م. ن. ص ١٠٤ وص: ٢٥٠ ـ ٢٥٤

جبهة، ثم يصدر أوامره وتعليماته وفقاً لهذا الوضع، كأنما هو مع تلك الجيوش يشهد قتالها ويراقب مناوراتها. وكان خبيراً باختيار القادة الأكفاء الناجحين، فاختار أبا عبيدة لاستكمال فتح الشام، (مبرراً عزله لخالد بقوله: إني لم أعزل خالداً عن سخطة ولا عن خيانة، ولكن الناس فتنوا به، فخفت أن يوكلوا إليه ويبتلوا به، فأحببت أن يعلموا أن الله هو الصانع، وألا يكونوا بعرضَ فتنة)، واختار سعد بن أبي وقاص لاستكمال فتح العراق، وعمرو بن العاص لفتح مصر، والنعمان بن مقرّن المزني لمقارعة الفرس في نهاوند، ونعيم بن مقرّن لفتح همذان، وعتبة بن فرقد وبكير بن عبد الله لفتح أذربيجان، وعبد الله بن عبد الله لفتح أصبهان، ولما استبطأ عمراً في فتح مصر أنجده بأربعة آلاف مقاتل على رأسهم أربعة قادة هم: الزبير بن العوام والمقداد بن عمرو وعبادة بن الصامت ومسلمة بن مخلد، وكتب إليه يقول: «إني أمددتك بأربعة آلاف رجل، على كل ألفٍ رجلٌ منهم مقام الألف، وأعلم أن معك اثني عشر ألفاً ولا تُغلب اثنا عشر ألفاً من قلة».

وقد اعتمد عمر استراتيجية إنشاء الحصون والثغور والعواصم في البلدان التي فتحها، وعلى حدود الدولة الإسلامية، وفي الأماكن الاستراتيجية الهامة، وأقام في تلك الحصون والثغور والعواصم جيوشاً تحميها وتدافع عن الأرض المفتوحة، فأنشأ البصرة والكوفة في العراق، والفسطاط في مصر، ويذكر أنه، عام ١٧ هـ، وفي عهده، بلغت ثغور الكوفة، وحدها، أربعة:

- حلوان، وعليها القعقاع بن عمرو.
- ماسبذان، وعليها ضرار بن الخطاب الفهري.
- الموصل، وعليها عبد الله بن المعتم.
- قرقيسيا، وعليها عمرو بن مالك.

وكان لكل قائد نائب ينوب عنه إذا تغيب عن الثغر.

وهكذا يتبين لنا أن الاستراتيجية العسكرية فن عرفه الخلفاء في العهد الإسلامي الأول وطبقوه ببراعة وإن لم يسموه باسمه الحديث.

ثانياً: الفهم العميق للشؤون التنظيمية والإدارية لجيوش ذلك العصر:

بل يمكن القول إن فهم الخلفاء المسلمين لتنظيم الجيوش وإدارتها قد جاوز مفهوم ذلك العصر إلى حد كبير، وقد ظهر ذلك جلياً عند الخليفة عمر بن الخطاب (رضي) الذي يعتبر أول منظم للجيش الإسلامي بشكله المتطور والمعروف في ذلك الزمن، إذ بادر هذا الخليفة إلى تنظيم الجيش على أسس علمية حديثة حتى صح القول إن جيشاً إسلامياً رسمياً ظهر إلى الوجود في عهد عمر، فقد أنشأ «ديوان الجند» الذي نظم بواسطته إحصاء المقاتلين وحدد حقوقهم وواجباتهم، وأقر مبدأي التسريح والاستبدال، وسن التجنيد الالزامي على كل مسلم بالغ وقادر، ثم نظم الجيش تنظيماً هرمياً وأنشأ الوحدات العسكرية بكامل هيئاتها القيادية وملاكاتها التنظيمية، وأنشأ في الجيش، كذلك، أجهزة مختلفة كالجهاز الإداري والإعلامي والمعنوي والقضائي والطبي وغيرها.

١ - ديوان الجند:

وهو أهم أثر ينسب إلى الخليفة عمر (رضي) في تنظيم الجند وإدارة شؤونهم، سواء من حيث ما يترتب لهم من حقوق أو ما يترتب عليهم من واجبات، أما الحقوق فهي الأعطيات (الرواتب) والتسريح والبدال، وأما الواجبات فهي التجنيد الالزامي الذي اقترنت نشأته بنشأة هذا الديوان، وسبب أنشائه هو أنه لما استقرت فتوح المسلمين في كل من العراق والشام وجلبت لهم مالاً وفيراً وغنى ملحوظاً، ونمت إثر هذه الفتوح جيوش المسلمين وتوسعت بقاع انتشارها خارج الجزيرة العربية، وبدأ الخليفة يتطلع إلى نشر الدين الحنيف خارج حدود العراق والشام، باتجاه مصر وفارس وإفريقيا، أخذ يفكر بتنظيم هذه الجيوش على الأساليب المعروفة لدى الفرس والروم، وقد استشار أصحابه، فقال له عثمان بن عفان(رضي): «أرى مالاً وفيراً يسع الناس، وإن لم يحصوا حتى يعرف من أخذ ممن لم يأخذ، خشيت أن ينتشر الأمر» وقال الوليد بن المغيرة: «قد جئت الشام فرأيت ملوكها قد دونوا ديواناً وجندوا جنداً، فدوِّن ديواناً وجنِّد جنداً» وأعجبت الفكرة عمر فتبناها ونفذها، وهكذا أُنشيء ما سمي «بديوان الجند» في الإسلام، وقد نظم هذا الديوان:

أ ـ رواتب العسكريين:

فقد حدد الخليفة عمر رواتب العسكريين لأول مرة، في الجيش الإسلامي، جنداً وقادة، وفقاً للقاعدة التالية: «فالرجل وتلاده في الإسلام، والرجل وقدمه في الإسلام، والرجل وغناه في الإسلام، والرجل وحاجته في الإسلام»، وحدد، تبعاً لذلك، رواتب هؤلاء العسكريين، كما يلي:

- خمسة آلاف درهم سنوياً لكل من حضر بدراً من المسلمين[٨].
- أربعة آلاف درهم سنوياً لكل من جاء بعد بدر حتى الحديبية.
- ثلاثة آلاف درهم سنوياً لكل من جاء بعد الحديبية حتى حروب الردة.
- ألفا درهم سنوياً لكل من أهل الشام وأهل القادسية.
- ألف درهم سنوياً للذين جاؤوا بعد اليرموك والقادسية.
- من ٢٠٠ إلى ٥٠٠ درهم سنوياً للروادف من الذين لم يحضروا إحدى معركتي اليرموك والقادسية.

وحدد لنفسه راتباً هو مقدار الراتب الذي كان أبو بكر (رضي) يتقاضاه قبله، ورفض أية زيادة عليه، كما فرض تعويضات عائلية للنساء والأطفال، واحتفظ للفارس بسهمين مقابل سهم واحد للراجل، كما كان الأمر في عهد النبي ﷺ وأبي بكر (رضي)[٩].

ب ـ التجنيد الالزامي:

كان التجنيد في عهد النبي وأبي بكر تطوعاً واختياراً، ولم يكن ملزماً للمسلم القادر إلّا معنوياً، فأصبح، مع الخليفة عمر، ومع نشأة الديوآن وتحديد الرواتب، إلزامياً على كل مسلم بالغ حر عاقل قادر. وسبب ذلك أنه لما رأى عمر أن

---

(٨) العبادي وزيادة والعدوى، الدولة الإسلامية، ص ١٠٤، ويرى هؤلاء المؤرخون أن عطاء الجندي المسلم كان سخياً بالنسبة إلى عطاء الجندي البيزنطي يومذاك.

(٩) الطبري، تاريخ الأمم والملوك، جـ٣: ٦١٣ ـ ٦١٦، وابن الأثير، المصدر السابق جـ٢: ٥٠٢ ـ ٥٠٥ ويقول الطبري أن عمر «قعد على رزق أبي بكر الذي كانوا فرضوا له ورفض أية زيادة عليه».

المسلمين بدأوا ينصرفون عن الجهاد والحرب إلى البذخ والترف، بعد أن غمرتهم الفتوح بخيراتها، حدد رواتب الجند والقادة كما أسلفنا، وعمد، بالمقابل، إلى تطبيق التجنيد الإلزامي، تطبيقاً صارماً، محدداً، بوضوح، الشروط التي يجب أن تتوافر في المقاتل المسلم، وهي بالنسبة إلى الجندي: الإسلام، والبلوغ، والحرية، والعقل، واللياقة البدنية، وبالنسبة إلى القائد: الشروط نفسها التي يجب أن تتوفر في المقاتل المسلم، يضاف إليها: مؤهلات القيادة في تسيير الجيوش ومصابرة العدو، ومؤهلات إدارة المعركة، وتدبير الحرب، والمؤهلات التقنية والتكتيكية التي تفرض عليه معرفة السلاح والعتاد وكيفية استعمالهما، كما تفرض عليه سلوكاً معيناً في القتال. كما كان عمر يعتبر القدم في الإسلام أحد الشروط التي يجب أن تتوافر لدى القائد المسلم، بالإضافة إلى بصيرته في الحرب، وخبرته بأساليب القتال.

وكان عمر يفرض على الجند الانصراف إلى القتال انصرافاً تاماً دون أي شاغل آخر، فيمنعهم من تعاطي المهن الأخرى كالزراعة والتجارة وسواهما، حتى أنه كان يمنع الجند عن الاختلاط بسكان البلدان المفتوحة، فيبني لهم معسكرات يقيمون فيها بعيداً عن المدن، ثم أخذ يبني بعد ذلك الثغور على تخوم تلك البلدان وحدودها، يستوطن فيها جنده لحماية الدولة الإسلامية، وكان يهتم بتدريب الجند، فرساناً ومشاة، وإعدادهم للقتال، وذلك في مواقعهم ومعسكراتهم.

ج - تسريح العسكريين واستبدالهم:

لم يعرف نظام التسريح النهائي من الخدمة العسكرية، في الإسلام، حتى في عهد عمر، بل كان على الرجل المسلم أن يظل جاهزاً للقتال دفاعاً عن الإسلام، وجهاداً في سبيل نشره طالما هو قادر على ذلك دون تحديد لسن، ولما كان عمر قد أقر التجنيد الإلزامي على المسلمين، فقد كان عليه أن يجد متنفساً للمقاتلين يستطيعون من خلاله أن يعتنوا بشؤونهم الخاصة بالإضافة إلى عائلاتهم وأرزاقهم، فأقر ما يسمى «بالبدال» أو «التسريح الموقت» وكان هذا النظام قد عرف في عهد أبي بكر عندما سرّح جيش عكرمة في اليمن واستبدله بسواه فسمي جيش عكرمة يومئذ «بجيش البدال». وأخذ عمر هذا النظام وتوسع فيه وطوره حتى عرف عنه

أنه لم يكن يطيق أن «يجمّر الناس في ثغورهم»[١٠] وأن يطيل مدة غيابهم عن منازلهم رحمة بهم وبنسائهم وأهلهم. وتحقيقاً للعدالة بين الجند، كان يعمد إلى استبدالهم بسواهم كل ستة أشهر، وروي عنه أنه سأل حفصة أم المؤمنين عن المدة التي يمكن للمرأة أن تبقى فيها بعيدة عن زوجها فأجابت «ستة شهور» فاعتمد عمر هذه المدة كحد أقصى لاستبدال الجند[١١]، وقد جرت العادة فيما بعد، أن يرسل عمر الجند إلى الثغور، مع عائلاتهم، ومع زيادة في أرزاقهم ورواتبهم.

٢ ـ تنظيم الجيش:

كان عمر أول خليفة اهتم بتنظيم الجيش الإسلامي على الأسس التي كانت سائدة عند الفرس والروم في ذلك العصر، مع الكثير من الابداع والتجديد، وكان دافعه إلى ذلك اتساع رقعة الفتوح والنمو المطرد لهذا الجيش، ورغم أن عمر حافظ على الكثير من الأسس التي ورثها عن سلفيه، النبي وأبي بكر، إلاّ أنه طورها وزاد عليها، فقد روى الطبري أن عمر كتب إلي سعد بن أبي وقاص قبل معركة القادسية يقول: « إذا جاءك كتابي هذا فعشر الناس وعرّف عليهم وأمرّ على اجنادهم وعبّهم... واجعل على الرايات رجالاً من أهل السابقة» ويضيف الطبري أن سعداً «عرّف العرفاء، فعرّف على كل عشرة رجلاً كما كانت العرافات أزمان النبي ﷺ[١٢]»، ويظهر أن ترتيب الجيش قد استقر، في عهد عمر، على نظام الكراديس، وعلى الشكل التالي:

- أمير الجيش، أو القائد العام، ويأمر عشرة آلاف جندي وما يزيد.
- أمير التعبئة، ويأمر خمسة آلاف جندي.
- أمير الكردوس، ويأمر ألف جندي.
- القائد أو قائد السرية، ويأمر ماية جندي.

---

(١٠) يجمر: يجمد، والثغور: المراكز العسكرية التي كان الخليفة يقيمها في أطراف الدولة الإسلامية لحمايتها والدفاع عنها.

(١١) ابن الجوزي، سيرة عمر بن الخطاب، ص ٧٢.

(١٢) الطبري، المصدر السابق، جـ٣: ٤٨٨.

ـ العريف، ويأمر عشرة جنود[١٣].

٣ ـ الأجهزة والوظائف الملحقة بالجيش:

وقد شمل التنظيم العسكري للجيش الإسلامي في عهد الخليفة عمر الأجهزة والوظائف التالية:

أ ـ الجهاز الإداري ويشمل:

ـ صاحب الأقباض، أو ضابط الإدارة، أو ضابط الأموال، وهو الذي يتولى جمع الغنائم، وتوزيعها.

ـ مفتش الخيل، وهو الذي يتولى التدقيق في الخيل والركاب.
ـ الساعي، وهو الذي ينقل البريد والرسائل.
ـ الكاتب، أو أمين السر، وهو الذي يكتب الرسائل ويسجل الوقائع.
ـ المترجم، وهو الذي يترجم رسائل ملوك الأعداء وقادتهم.

ب ـ الجهاز الإعلامي والمعنوي، ويشمل:

ـ الداعي، وهو الذي يدعو الأعداء إلى الدين، عملاً بسنة الرسول ﷺ الذي كان، كلما بعث بسرية إلى القتال، يوصي قائدها بقوله: «تآلفوا الناس وتأنّوا بهم، ولا تغيروا عليهم حتى تدعوهم ـ أي إلى الإسلام ـ».

ـ القارىء، وهو الذي يتلو على الجند سورة «الأنفال» لما فيها من حض على القتال، عملاً بقوله تعالى: ﴿يا أيها النبي حرض المؤمنين على القتال... إلى آخر الآية﴾[١٤].

ـ القاص، وهو الذي يقص على الجند ملاحم البطولات وأشعار الحرب والحماسة.

---

(١٣) عون، عبد الرؤوف، الفن الحربي في صدر الإسلام، ص ١١٤ ـ ١١٥، استناداً إلى ابن خلدون والطبري وابن الأثير.

(١٤) الأنفال، ٦٥، وراجع المقالة الأولى من هذا البحث.

ج ـ **الجهاز القضائي**، ويشمل:

ـ القاضي، وهو الذي ينظر في مشاكل الجند ويقضي بها حسب الشريعة الإسلامية.

د ـ **الجهاز الطبي**، ويشمل:

ـ الطبيب، وهو الذي يعتني بالجرحى والمرضى.

ـ المرض، وهو الذي يساعد الطبيب في مهمته ويضمد الجراح، وكانت هذه الوظيفة خاصة بالنساء المسلمات عادة[15].

هـ ـ **وظائف أخرى**:

ـ **الرائد**، وهو الذي يرتاد مكان نزول الجيش قبل وصوله لاختيار بقعة النزول، وهو ما يسمى اليوم بمفرزة الطليعة.

ـ **صاحب الساقة**، وهو الذي يبقى في مؤخرة الجيش لسوق المتخلفين من الجند وإعانتهم، وهو ما يسمى اليوم بناظر الرتل.

وهكذا يتبين لنا كم كان التنظيم العسكري، في الجيش الإسلامي، في عهد الخليفة عمر، متقدماً ومتطوراً، بحيث يضاهي، في تقدمه وتطوره، أكثر الجيوش عراقة وأصالة، ليس في ذلك الزمن فحسب، بل في الأزمنة المتقدمة بعده.

ثالثاً: الحس العميق بالتكتيك العسكري المتطور:

١ ـ في إعطاء الأوامر وتوزيع المهمات:

أ ـ **المناورة بالخطوط الداخلية**: عندما عين الخليفة عمر أبا عبيدة قائداً لجيوش المسلمين في الشام بدلاً من خالد، كتب إليه يقول: «ابدأوا بدمشق فانهدوا لها، فإنها حصن الشام وبيت مملكتهم ـ أي الروم ـ واشغلوا عنكم أهل فِحل بخيل تكون بأزائهم في نحورهم، فإن فتحها الله قبل دمشق فذلك الذي نحب، وإن

(١٥) عرفت مهنة التمريض في زمن النبي ﷺ فقد ضمدت بنت الرسول جراحه يوم أحد (ابن الأثير، المصدر السابق، جـ٢: ٥٨) وكان للسيدة رفيدة خيمة بمسجد المدينة يوم غزوة بني قريظة تداوي الجرحى (ابن هشام، المصدر السابق، جـ٣: ١٩٢).

تأخر فتحها وفتح الله دمشق فلينزل بدمشق من يمسك بها، ودعوها، وانطلق أنت وسائر الأمراء حتى تغيروا على فِحل، فإن فتح الله عليكم فانصرف أنت وخالد إلى حمص، ودع شرحبيل وعمراً وأَخِلهما بالأردن وفلسطين، وأمير كل بلد وجند على الناس حتى يخرجوا من إمارته»[١٦] وإذا أردنا أن نعبر عن هذه الأوامر باللغة العسكرية الحديثة لعبرنا عنها كما يلي:

- الهدف الرئيس الأول: دمشق؛ التجهيز: الجيش بكامله ما عدا قوة مشاغلة.
- هدف مشاغلة: فحل؛ التجهيز: قوة مشاغلة
- الهدف الرئيس الثاني: فحل؛ التجهيز: الجيش بكامله
- الهدف الرئيس الثالث:
  - أ ـ حمص؛ التجهيز: نصف الجيش
  - ب ـ الأردن وفلسطين؛ التجهيز: النصف الآخر من الجيش.
- تعيين حاكم وحامية لكل مدينة تفتح. وفي هذه الأوامر تطبيق عفوي «للمناورة بالخطوط الداخلية» التي تقوم على مبدأ مشاغلة العدو في جبهة أو أكثر بغية شن هجوم رئيس عليه في إحدى الجبهات، حتى إذا ما انتهت، انتقل الهجوم إلى جبهة أخرى، وهكذا حتى تتم هزيمة العدو على جميع الجبهات.

ب ـ التبصر والحيطة: وكتب إليه، في رسالة أخرى، يقول: «لا تقدِّم المسلمين إلى هلَكة رجاء غنيمة، ولا تنزلهم منزلاً قبل أن تستريده لهم (أي ترسل رائداً من قبلك لاستكشافه) وتعلم كيف مأتاه (أي من أين تدخله) ولا تبعث سرية إلا في كَثْف (جماعة) من الناس، وأياك وإلقاء المسلمين في الهلَكة»[١٧].

ج ـ تعيين القادة: وكتب إلى النعمان بن مقرِّن، قبل وقعة نهاوند، يقول: «إن أُصبت فالأمير حذيفة بن اليمان، فإن أصيب فجرير بن عبد الله البَجَلي، فإن أصيب فالمغيرة بن شعبه، فإن أصيب فالأشعث بن قيس»[١٨] وتشبه هذه الأوامر

---

(١٦) الطبري، المصدر السابق، جـ٣، ص ٤٣٧ ـ ٤٣٨.
(١٧) م. ن. ج ٣ : ٤٣٤.
(١٨) البلاذري، فتوح البلدان، ص ٤٢٥.

تلك التي أعطاها النبي ﷺ لزيد بن حارثة، يوم مؤتة (٨ هـ)، إذ أمرّه على الجيش وقال «إن أصيب زيد فجعفر بن أبي طالب على الناس فإن أصيب جعفر فعبد الله بن رواحة على الناس»(١٩).

٢ ـ في سلطة القائد العام وحضوره المعنوي في ميدان القتال:

ـ لم يكن الخليفة (أبو بكر أو عمر) ليجهل، في كل حال، أهمية حضوره المعنوي في ميدان القتال، فكان يؤكد هذا الحضور بوسائل مختلفة أهمها:

ـ استمرارية سلطته القيادية بواسطة الأوامر،مع كانت تتميز به تلك الأوامر من تبصر وبعد نظر ونفاذ في البصيرة.

ـ بداهته في فهم الوضع العسكري على أرض المعركة، وبالتالي سرعته في تحريك القوى وفقاً لهذا الوضع وبما يلائمه تمام الملاءمة.

ـ حسن اختياره للقادة الذين كانوا، بفعل الثقة المتبادلة بينه وبينهم، يقرأون أفكاره ويحسون برغباته ونواياه، فتتجسد في مخيلتهم فكرة المناورة التي يعتزم تنفيذها، ويقومون بتنفيذها كما لو كان الخليفة ينفذها بنفسه.

وهكذا، وبواسطة هذه الوسائل الثلاث، كان الخليفة يدير المعارك على الجبهات المختلفة كأنما هو حاضر في كل منها، بحيث يحس الجيش، قادة وجنداً، كأن الخليفة نفسه معهم، يقودهم، ويوجههم، فيأتي عملهم مطابقاً تمام المطابقة لما يريد ويرغب، ووفقاً لأوامره وتوجيهاته.

رابعاً: الإدراك الكامل لمسؤوليات القائد العام وصلاحياته:

ويظهر ذلك في الممارسات التالية:

١ ـ التعامل بين القائد وأركان القيادة والجيش:

ـ اعتماد السرية في العمل والمناورة.

---

(١٩) ابن هشام، المصدر السابق، جـ٣: ٣٢٢ وقارن: الطبري، المصدر السابق، جـ٣:٣٦، وابن الأثير، المصدر السابق، جـ٢: ٢٣٤، وصحيح البخاري، جـ٥: ١٨٢.

ـ التشاور مع أركان القيادة، واعتماد الصراحة والصدق والوضوح في بسط الوضع على المستشارين للوصول إلى حلول صحيحة وسليمة.

ـ اعتماد الخفر والحراسة لمواقع الجيش وأماكن تمركزه ومبيته، والتواصل المستمر، ليل نهار، مع الخفراء والحراس بغية ابقائهم في وضع الحذر والحيطة.

ـ الإعتناء بالجند وعدم التجسس عليهم وفضح أسرارهم.

ـ الشجاعة والصدق في لقاء العدو وعدم التخاذل والضعف والجبن كي لا يجبن الجيش ويتخاذل. وقد ورد ذلك في وصية الخليفة أبي بكر لقادته الذين توجهوا لفتح الشام، إذ أوصى قائد الفرقة الأولى يزيد بن أبي سفيان، وكان أول من خرج إلى الشام، بقوله: «إذا سرت فلا تضيّق على نفسك ولا على أصحابك في مسيرك، ولا تغضب على قومك ولا على أصحابك،وشاورهم في الأمر. . .»[٢٠] ثم قال له: «ولا تجعل سرك لعلانيتك فيخلط أمرك، وإذا استشرت فأصدق الحديث تصدق المشورة، ولا تُخزن عن المشير خبرك فتؤتى من قبل نفسك، واسمر بالليل في أصحابك تأتك الأخبار وتنكشف عندك الأستار، وأكثر حرسك وبددهم في عسكرك، وأكثر مفاجأتهم في محارسهم بغير علم منهم بك، فمن وجدته غفل عن محرسه فأحسن أدبه وعاقبه في غير افراط، وأعقب بينهم بالليل، واجعل النوبة الأولى أطول من الأخيرة فأنها أيسرهما لقربها من النهار. . . ولا تغفل عن أهل عسكرك فتفسده، ولا تجسس عليهم فتفضحهم، ولا تكشف الناس عن أسراراهم، . . . وأصدق اللقاء، ولا تجبن فيجبن الناس»[٢١].

وفي رواية أخرى أن الخليفة أبا بكر أوصى يزيداً أن يكتم أيرار جيش العدو عن جنده حتى يحين أوان استثمارها لاحراز النصر إذ قال له، فيما قال: «وإذا بلغتك عن العدو عورة فاكتمها حتى توافيها»[٢٢].

---

(٢٠) الواقدي، فتوح الشام، جـ ١: ٤.

(٢١) ابن الأثير، المصدر السابق، جـ ٢: ٤٠٤ ـ ٤٠٥.

(٢٢) حتى توافيها: أي حتى تستكمل التحقق منها فتصبح صالحة للاستثمار ضده.

٢ ـ السلوك الواجب اتباعه في عملية السير نحو العدو وفي أثناء القتال:

ـ الرفق بالضعفاء في أثناء المسير، وعدم سلوك الجيوش كلها لمسلك واحد.

ـ ترصد أخبار الحلفاء على جبهات القتال الأخرى ومساندتهم عند الحاجة.

ـ ترصد أخبار العدو والحذر منه بإقامة الخفر والحراسة على مراكز الجيش ومواقعه.

ـ التواصل المستمر مع الجند والإقامة معهم وتوجيههم والاشراف على شؤونهم اشرافاً مباشراً والإيجاز في وعظهم.

ـ إعطاء المثل بأن يكون القائد قدوة لجنده كي يحظى بطاعتهم وانضباطهم.

ـ إرسال مفارز متقدمة للاستطلاع تسبق الجيش في الترحال والحل، أي في أثناء المسير وأثناء التمركز، لتكون عيوناً على العدو وتحركاته.

وذلك في التعلميات التي زود بها أبو بكر قائد الفرقة الرابعة إلى الشام (عمرو بن العاص) إذ قال له: «كن والداً لمن معك، وارفق بهم في السير فإن فيهم أهل ضعف... وإذا سرت بجيشك فلا تسر في الطريق التي سار فيها يزيد وربيعة (بن عامر) وشرحبيل، بل آسلك طريق ايلياء (القدس) حتى تنتهي إلى أرض فلسطين. وابعث عيونك يأتونك بأخبار أبي عبيدة، فإن كان ظافراً بعدوه فكن أنت لقتال من في فلسطين، وإن كان يريد عسكراً فأنفذ إليه جيشاً في إثر جيش... واحذر من عدوك، وأمر أصحابك بالحرس، ولتكن بعد ذلك مطلعاً عليهم، وأطل الجلوس بالليل على أصحابك وأقم بينهم، وأجلس معهم ولا تكشف أستار الناس. واتق الله إذا لاقيت العدو. وإذا وعظت أصحابك فاوجز. واصلح نفسك تصلح لك رعيتك... وتعهد عسكرك في سيرك. وقدم قبلك طلائعك فيكونوا أمامك. وخلِّف على الناس من ترضاه، وإذا رأيت عدوك فاصبر ولا تتأخر»[٢٣].

---

(٢٣) الواقدي، المصدر السابق، ص ٧ ـ ٨، وربيعة بن عامر فارس مشهور في الحجاز كان الخليفة أبو بكر (رضي) قد الحقه بيزيد مع ألف فارس (م. ن. ص ٤).

ـ تأمين استمرارية القيادة وذلك بتعيين قادة يرى فيهم الخليفة الكفاية والجدارة لتسيير الجيوش وإدارة الجند وتولي مهمات القتال عند فقدان القائد الأصيل، كما سبق ورأينا (أوامر الخليفة أبي بكر للنعمان بن مقرِّن قبل وقعة نهاوند).

ـ الإصرار على الثبات في القتال وعدم التراجع أمام العدو والفرار م وجهه، عملاً بالآية الكريمة: ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفاً فلا تولوهم الأدبار﴾ وذلك في وصية الخليفة أبي بكر ليزيد، إذ قال له: «وإذا لقيتم القوم فلا تولوهم الأدبار، ومن يولهم يومئذ دبره إلا متحرفاً لقتال أو متحيزاً إلى فئة فقد باء بغضب من الله ومأواه جهنم وبئس المصير»(٢٤)

٣ ـ التعامل مع العدو في أثناء التفاوض:

ـ اكرام مفاوضي العدو، ومنع أخبار جيش المسلمين عنهم، وحصر التفاوض معهم بشخص القائد، وذلك في وصية أبي بكر ليزيد، إذ قال له:

«إذا قدم عليك رسل عدوك فاكرمهم وأقلل لبثهم حتى يخرجوا من عسكرك وهم جاهلون به، ولا تُرِيَنَّهم فيروا خللك ويعلموا علمك، وانزلهم في ثروة عسكرك وامنع مَنْ قِبَلك من محادثتهم، وكن أنت المتولي لكلامهم»(٢٥).

٤ ـ السلوك الواجب اتباعه من قبل جيوش المسلمين في البلدان المحتلة:

ـ عدم جواز قتل غير المقاتلين.

ـ عدم الغدر بالمعاهدين.

ـ عدم نقض الصلح.

ـ عدم المساس بالرهبان المقيمين في الصوامع أو الأطفال أو الشيوخ أو النساء، وذلك في وصية الخليفة أبي بكر (رضي) ليزيد، إذ قال له:

---

(٢٤) م. ن. ص ٤.

(٢٥) ابن الأثير، المصدر السابق، جـ٢، ص ٤٠٤.

«وإذا نصرتم على عدوكم فلا تقتلوا ولداً ولا شيخاً ولا أمرأة ولا طفلاً ولا تعقروا بهيمة الأبهيمة المأكول، ولا تغدروا إذا عاهدتم ولا تنقضوا إذا صالحتم، وستمرون على قوم في الصوامع رهباناً يزعمون أنهم ترهّبوا في الله فدعوهم ولا تهدموا صوامعهم»[٢٦].

خامساً: اقتحام البحر:

اقتحم المسلمون البحر جهاداً في سبيل الله في عهد الخليفة عثمان بن عفان (رضي)، ولم يكونوا قد اقتحموه قبلاً، وقد حدث في عهده غزوتان بحريتان هامتان:

الأولى: الأندلس:

يذكر كل من الطبري وابن الأثير رواية يحيط بها الكثير من الشك عن غزوة للاندلس قام بها المسلمون في عهد الخليفة عثمان (رضي) عام ٢٧هـ، ويتفق هذان المؤرخان على أن المسلمين قد غزوا الأندلس في هذا العام بعد فتحهم لإفريقية مباشرة وبعد أن هزم عبد الله بن سعد بن أبي سرح، عامل الخليفة على مصر وإفريقية، قائد الروم المسمى «جريجوريوس» (أو جرجير) كما يسميه ابن الأثير، أو (الأجلّ) كما يسميه الطبري، في معركة جرت بين الفريقين في بلدة تدعى «سبيطلة» أو «سوفيتولا» بالقرب من اطلال قرطاجنة، حيث قتل جريجوريوس واحتل المسلمون سبيطلة فترة من الزمن (نحو ١٥ شهراً) عاد بعدها عبد الله بن سعد إلى مصر بعد أن أقام حامية في كل من برقة وزويلة.

ورغم أن العديد من المؤرخين، وخاصة الثقاة منهم أمثال ابن عذارى وابن خلدون والبلاذري والواقدي وصاحب «أخبار مجموعة» وسواهم، لم يذكر غزوة الاندلس هذه التي ذكرها الطبري وابن الأثير، فلا نرى غضاضة في ذكر ما أورده

(٢٦) الواقدي، المصدر السابق، ص ٤، ويضيف الواقدي «وستجدون قوماً آخرين من حزب الشيطان وعبدة الصلبان قد حلقوا أوساط رؤوسهم حتى كأنها مناحيض العظام فأعلوهم بسيوفكم حتى يرجعوا إلى الإسلام أو يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون» (الواقدي، م. ن، ص. ن).

هذان المؤرخان عنها، لاعتقادنا أن الفكرة بحد ذاتها، وإن لم تكن قد نفذت فعلاً، تعبّر عن استراتيجية تستحق التسجيل، باعتبار أن الخليفة قد قصد، من غزو الاندلس، الوصول إلى القسطنطينية عن طريق اوروبا، كما ذكر هذان المؤرخان.

ووفقاً لرواية هذين المؤرخين، فإن الخليفة عثمان قد أمر، في العام المذكور (٢٧هـ)، كلا من عبد الله بن نافع بن الحصين وعبد الله بن نافع بن عبد القيس، أن يسير إلى الاندلس «فأتياها من قِبَل البحر». وكان الهدف من هذه الحملة غزو القسطنطينية عن طريق أوروبا ـ كما سبق وأشرنا ـ بدلاً من غزوها عن طريق آسيا، وتلك كانت استراتيجية متطورة وبعيدة المدى رسمها الخليفة عثمان (رضي)، وقد كتب، بهذا الصدد، إلى قادته المكلفين تنفيذ هذه الحملة، ومن معهم، يقول:

«أما بعد، فإن القسطنطينية إنما تفتح من قِبَل الاندلس، وإنكم إن افتتحتموها كنتم شركاء من يفتحها في الأجر، والسلام»[٢٧]، ويؤكد كل من الطبري وابن الأثير أن الغزوة قد وقعت وأن فتح الاندلس قد تمّ في هذا العام، ولكن المرجح أن هذين الغزو والفتح لم يتما، كما ظلت استراتيجية عثمان في فتح القسطنطينية، عن طريق الاندلس، طموحاً لم يتحقق.

والثانية: غزو قبرص: وقد تم عام ٢٨ هـ، على يد معاوية بن أبي سفيان (وكان والياً على الشام) وبأمر من الخليفة عثمان نفسه. وقد ذكر أن معاوية كان قد ألحّ على الخليفة عمر بن الخطاب (رضي) أن يسمح له بركوب البحر لغزو هذه الجزيرة وذلك لقربها من الساحل الشامي، من جهة حمص، بحيث: «يسمع أهلها نباح كلابهم وصياح دجاجهم»[٢٨]. فكتب الخليفة عمر إلى عمرو بن العاص، وكان عامله على مصر، يقول له: «صف لي البحر وراكبه، فإن نفسي تنازعني إليه» فكتب إليه عمرو يقول: «إني رأيت خلقاً كبيراً يركبه خلق صغير، إن ركُن خرَّق

---

(٢٧) الطبري، المصدر السابق، جـ ٤ : ٢٥٣ ـ ٢٥٥. وابن الأثير، المصدر السابق، جـ ٤ : ٨٨ ـ ٩٣. وانظر: عنان، محمد عبد الله، دولة الإسلام في الاندلس، العصر الأول، القسم الأول، ص ١٥ ـ ١٦.

(٢٨) الطبري. م. ن. جـ ٤ : ٢٥٨ وابن الأثير، م. ن. جـ ٣ : ٩٥.

القلوب، وأن تحرك ازاغ العقول، يزداد فيه اليقين قلة، والشك كثرة، هم فيه كدود على عوذ، إن مال غرق، وإن نجا برق»، عندها قال عمر: «لا والذي بعث محمداً بالحق لا أحمل فيه مسلماً أبداً»[٢٩].

فلما كان عهد الخلفية عثمان (رضي) اعاد معاوية الكرة طالباً من الخليفة الجديد الأمر نفسه فسمح له بذلك، فغزاها معاوية ومعه جماعة من الصحابة «فيهم أبو ذر وعبادة بن الصامت ومعه زوجته أم حَرام (وقد توفيت في قبرص ودفنت فيها) وأبو الدرداء وشداد بن أوس»[٣٠]، ولاقاه إليها عبد الله بن سعد من مصر (وكان قد خلف عمرو بن العاص في ولايتها) واجتمعوا عليها، «فصالحهم أهلها على جزية سبعة آلاف دينار كل سنة»[٣١].

سادساً: الفكر العسكري عند الإمام علي كرم الله وجهه (في كتابه: نهج البلاغة[٣٢]، ومن خلال معاركه الثلاث: الجمل، وصفين، والنهروان):

لقد حالت الظروف المضطربة لخلافة الامام علي (كرم الله وجهه) دون أن يظهر كفاياته القيادية العسكرية، كخليفة، في الفتوح الإسلامية، لذا، رأينا أن نرجع إلى الأثر الفكري الذي خلفه وهو كتابه «نهج البلاغة» وإلى معاركه الثلاث الشهيرة: الجمل، وصفين، والنهروان، حيث نجد ما يغني من هذه الوجهة، عن التساؤل والبحث، وفيما يلي نماذج من هذا الفكر:

١ ـ الحض على الجهاد وذم القاعدين عنه:

قال (كرم الله وجهه) في إحدى خطبه عن الجهاد وذم القاعدين عنه: «إن الجهاد باب من أبواب الجنة فتحه الله لخاصة أوليائه، وهو لباس التقوى ودرع الله الحصينة وجُنته[*] الوثيقة، فمن تركه رغبة عنه ألبسه الله ثوب الذل وشملة

(٢٩) الطبري، م. ن. ض. ن. وابن الأثير، م. ن. ص. ن.
(٣٠) ابن الأثير، م. ن، ص. ن، والسيوطي، تازيخ الخلفاء، ص ١٤٥.
(٣١) ابن الأثير، م. ن، ص ٩٥ ـ ٩٦، والطبري، المصدر السابق، جـ ٤ : ٢٦٢.
(٣٢) وهو مجموع ما اختاره الشريف الرضي من كلام أمير المؤمنين عليه السلام، وقد انتهى من جمعه عام ٤٠٠هـ.
(*) وجُنته (بالضم): أي وقايته. (ص ٦٧ حاشية ٤).

البلاء. . . ألا وإني قد دعوتكم إلى قتال هؤلاء القوم ليلاً ونهاراً، سراً وإعلاناً، وقلت لكم أغزوهم قبل أن يغزوكم، فوالله ما غُزي قوم في عقر دارهم إلا ذُلوا، فتواكلتم وتخاذلتم حتى شُنت الغارات عليكم ومُلكت عليكم الأوطان. . . . . فيا عجباً والله يميت القلب ويجلب الهم من اجتماع هؤلاء القوم على باطلهم وتفرقكم عن حقكم، فقبحاً لكم وتَرَحاً(*) حين صرتم غرضاً يُرمى، يُغار عليكم ولا تَغيرون، وتُغزون ولا تَغزون، ويُعصى الله وترضون. . . يا أشباه الرجال ولا رجال، حُلوم الأطفال وعقول ربات الحجال(*)، لوددت أني لم أركم ولم أعرفكم. . . قاتلكم الله، لقد ملأتم قيحاً وشحنتم صدري غيظاً. . . وافسدتم عليّ رأيي بالعصيان والخذلان حتى لقد قالت قريش إن ابن أبي طالب رجل شجاع ولكن لا علم له بالحرب. لله أبوهم، وهل أحد منهم أشد لها مراساً وأقدم فيها مقاماً مني، لقد نهضت فيها وما بلغت العشرين. وها أنذا قد ذرَّفت(*) على الستين، ولكن لا رأي لمن لا يطاع»[33].

ـ وقال، في خطبة أخرى، يخاطب جماعته: «تقولون في المجالس كيت وكيت، فإذا جاء القتال قلتم حيدي حِياد(*). . . أيَّ دار بعد داركم تمنعون، ومع أي امام بعدي تقاتلون. المغرور والله من غرَرتموه، ومن فاز بكم فقد فاز والله بالسهم الأخيب(*)، ومن رمى بكم فقد رمى بأفْوَق ناصل(*)، أصبحت والله لا أصدق قولكم، ولا أطمع في نصركم، ولا أوعد العدو بكم»[34].

وقال، في خطبة أخرى، وهو يحض أنصاره على القتال: «أين القوم الذين

(*) ترحا: هماً وحزناً. (ص ٦٩ حاشية ٤).

(*) ربات الحجال: النساء.

(*) ذرفت: زدت (ص ٧٠ حاشية ١ و٥).

(٣٣) نهج البلاغة، جـ ١ : ٦٧ ـ ٧٠،

(*) حيدي حياد: كلمة يقولها الهارب كأنه يسأل الحرب أن تتنحى عنه.

(*) السهم الأخيب: أي الذي لاحظ له باصابة الهدف.

(*) السهم الأفوق: أي مكسور الفوق وهو موضع الوتر منه. والناصل: العاري عن النصل. والمعنى: إن من رمى بكم فكأنما رمى بسهم لا يثبت في الوتر كي يُرمى، وإن رمي به لم يصب مقتلاً إذ لا نصل له. (ص ٧٤ حاشية ١ ـ ٥).

(٣٤) م. ن. جـ ١ : ٧٣ ـ ٧٥،

دُعوا إلى الإسلام فقبلوه، وقرأوا القرآن فأحكموه، وهيجوا إلى القتال فولهوا له ولَهَ اللِّقاح(*) إلى أولادها، وسلبوا السيوف أغمادها، وأخذوا بأطراف الأرض زحفاً زحفاً وصفاً صفاً(*)»[35]، وقال أيضاً، متوعداً خصومه: «إنهم لن يزولوا عن مواقفهم... حتى يُرموا بالمناسر(*)، ويُرجموا بالكتائب تقفوها الحلائب(*)، وحتى يُجَرَّ ببلادهم الخميس يتلوه الخميس(*)، وحتى تدعق(*) الخيول في نواحر أرضهم، وبأعنان مساربهم(*) ومسارحهم»[36].

٢ ـ الصفات التي يجب أن تتوافر لدى القائد والمقاتل:

أ ـ صفات القائد:

ـ أن يكون رجلاً محارباً من أهل البلاء والتجربة والمشورة، لا يخشى سقوطه وضعفه، ولا يبطىء عندما يلزم الإسراع أو يسرع عندما يلزم الإبطاء.

ـ أن يكون ذا منزلة عند الجند بمساعدته لهم وحدبه عليهم.

ـ أن يكون نصوحاً، نقي الجيب، حليماً، يرأف بالضعفاء، ويقوى على الأقوياء.

ـ أن يكون متحدراً من بيت صالح ونسب معروف، وموصوفاً بالنجدة والشجاعة والسخاء والسماحة.

وقد حدد (كرم الله وجهه) هذه الصفات في مواضع عدة:

(*) اللقاح: جمع لقوح وهي الناقة.
(*) زحفاً زحفا وصفاً صفاً: إشارة إلى قتال الزحف والصف عند المسلمين.
(٣٥) م. ن. جـ١ : ٢٣٤،
(*) المناسر: جمع مِنْسَر وهي القطعة من الجيش تكون أمام الجيش الأعظم.
(*) الكتائب: جمع كتيبة، من المائة إلى الألف. والحلائب: جمع حلبه، وهي الجماعة من الخيل.
(*) الخميس: الجيش العظيم، وقيل إنه من ٤ آلاف إلى ١٢ ألفاً (ص ٤ حاشية ٨، وانظر: الثعالبي، فقه اللغة، ص ٣٢٩)، أو هو الجيش الكبير المؤلف من خمسة أقسام: المقدمة والمؤخرة والقلب والميمنة والميسرة، ولذا سمي خميساً (المؤلف).
(*) دعق الطريق: وطئها وطئاً شديداً.
(*) المسارب: مذاهب الرعي (ص ٤ حاشية ٩).
(٣٦) م. ن. جـ٢ : ٤،

الأول: عندما استشاره الخليفة عمر (رضي) في حربه مع الروم وهل يخرج إليهم بنفسه فأشار عليه بما يلي: «إنك متى تسر إلى هذا العدو بنفسك فتلقهم بشخصك فتُنكب لا تكن للمسلمين كانفةٌ(*) دون أقصى بلادهم، ليس بعدك مرجع يرجعون إليه. فابعث إليهم رجلاً مِحرباً(*) واحفز معه أهل البلاء والنصحية، فإن أظهر الله له فذاك ما تحب، وإن تكن الأخرى كنت رِدءاً(*) للناس ومثابة(*) للمسلمين»[37].

والثاني: في كتاب منه (كرم الله وجهه) إلى أميرين من أمراء جيشه، حيث قال لهما: «قد أمرّت عليكما وعلى من في حيّزكما(*) مالك بن الحارث الأشتر، فاسمعا له وأطيعا، وأجعلاه درعاً ومجناً(*)، فإنه ممن لا يُخاف وهنه ولا سقطته ولا بطؤه عما الإسراع إليه إحزم، ولا إسراعه إلى ما البطء عنه أمثل»[38].

والثالث: في عهده (كرم الله وجهه) للأشتر النحعي لما ولاه على مصر وأعمالها، إذ كتب إليه يقول: «فولِّ من جندك أنصحهم في نفسك لله ولرسوله ولإمامك، وأنقاهم جيباً(*)، وأفضلهم حلماً ممن يبطىء عن الغضب، ويستريح إلى العذر، ويرأف بالضعفاء وينبو على الأقوياء(*)، وممن لا يثيره العنف ولا يقعد به الضعف. ثم ألصق بذوي الأحساب(*) وأهل البيوتات الصالحة والسوابق الحسنة، ثم أهل النجدة والشجاعة والسخاء والسماحة، فإنهم جماع من الكرم وشُعَب من

(*) كانفة: عاصمة يلجأون إليها.

(*) محرباً: أي محارباً.

(*) ردءاً: ملجأ.

(*) مثابة: أي مرجعاً. (ص ١٨ حاشية ٢ ـ ٤).

(٣٧) م. ن. جـ٢ : ١٨،

(*) حيزكما: مقر سلطتكما.

(*) مجنا: ترساً (ص ١٤ حاشية ٢ و٣).

(٣٨) م. ن. جـ٣ : ١٤،

(*) نقي الجيب: طاهر الصدر والقلب.

(*) ينبو على الأقوياء: يشتد عليهم ويمنعهم عن ظلم الضعفاء.

(*) ألصق بذوي الاحساب: تبيين للقبيل الذي يؤخذ منه الجند ويكون منه رؤساؤه...

العُرْف(*)، ثم تفقد من أمورهم ما يتفقده الوالدان من ولدهما، ولا يتفاقمن في نفسك شيء قوَّيتهم به(*) ولا تَحقِرن لطفاً تعهدتهم به(*)»[39]. ويتابع، (كرم الله وجهـه)، في العهد نفسه: «وليكن آثر رؤوس جندك عندك منْ واساهم في معونته، وأفضلَ عليهم من جِدَته(*) بما يسعهم ويسع من وراءهم من خُلوف(*) أهليهم حتى يكون همهم واحداً في جهاد العدو، فإن عطفك عليهم يعطف قلوبهم عليك، وإن أفضل قرة عين الولاة استقامة العدل في البلاد وظهور مودة الرعية»[40].

ب ـ صفات المقاتل:

- الرغبة والاختيار
- الطاعة والاندفاع وعدم التخاذل والتقاعس
- الذود عن الدين، والحفاظ على الأمن والرعية، والاخلاص للولاة.

وقد حدد (كرم الله وجهه) ذلك في أوامره إلى بعض قادة جيشه، فقال: «فإن عادوا (أي أعداؤك) إلى ظل الطاعة فذلك الذي نحب، وإن توافت الأمور بالقوم إلى الشقاق والعصيان، فانهد بمن أطاعك إلى من عصاك، واستغنِ بمن انقاد معك عمن تقاعس عنك، فإن المتكاره مغيبه خيرٌ من شهـوده، وقعوده أغنى من نهوضه»[41].

كما خص (كرم الله وجهه) الجنود بالوصف التالي: «فالجنود بإذن الله حصون

(*) شعب: جمع شعبه، والعرف: المعروف (ص ٩١ حاشية ٢ ـ ٤).

(*) لا يتفاقمن في نفسك شيء قويتهم به: أي لا تعد شيئاً قويتهم به زائداً عما يستحقون فكل شيء قويتهم به واجب عليك وهو يستحقونه (ص ٩٢ حاشية ١).

(*) ولا تحقرن لطفاً تعهدتهم به: أي لا تعد شيئاً من تلطفك معهم حقيراً فتتركه لحقارته، بل كل تلطف وأن قلّ فله موقع في قلوبهم (ص ٩٢ حاشية ٢).

(٣٩)م. ن. جـ٣: ٩١ ـ ٩٢،

(*) الجدة: السعة والغنى.

(*) الخلوف: مفردها خلف، وهو من يبقى في الحي من النساء والعجزة بعد سفر الرجال (ص ٩٢ حاشية ٣).

(٤٠) م. ن. جـ٣: ٩٢،

(٤١) م. ن. جـ٣: ٦. وشهوده: وجوده وحضوره.

الرعية وزين الولاة وعز الدين وسبل الأمن وليسّ تقوم الرعية إلا بهم»[٤٢].

٣ ـ آداب القتال:

حدد (كرم الله وجهه) آداب القتال بما يلي:

ـ عدم البدء بالقتال.

ـ عدم قتل الفارين والعجزة والمرضى.

ـ عدم إيذاء النساء.

ـ عدم رفض الصلح مع العدو إذا كان منه مصلحة للمسلمين، مع الحذر من غدره.

ـ الوفاء بالعهود وعدم الغدر.

ـ العفو عند المقدرة.

وذلك في وصيته (كرم الله وجهه) لجنده قبل صفين، إذ قال: «لا تقاتلوهم حتى يبدأوكم فإنكم بحمد الله على حجه، وترككم إياهم حتى يبدأوكم حجة أخرى لكم عليهم. فإذا كانت الهزيمة بإذن الله فلا تقتلوا مدبراً ولا تصيبوا معوراً[*] ولا تجهزوا على جريح ولا تهيجوا النساء بأذى وإن شتمن أعراضكم وسببن أمراءكم فإنهن ضعيفات القوى والأنفس والعقول»[٤٣].

وفي كتابه للأشتر النخعي عندما ولاه على مصر إذ قال له:

«ولا تدفعن[*] صلحاً دعاك إليه عدوك ولله فيه رضى، فإن في الصلح دعة[*] لجنودك وراحة من همومك وأمناً لبلادك. ولكن الحذر كل الحذر من عدوك بعد صلحه، فإن العدو ربما قارب ليتغفل[*]، فخذ بالحزم واتهم في ذلك

---

(٤٢) م. ن. جـ٣: ٩٠ (من العهد نفسه الذي وضعه للأشتر النخعي والذي سبق ذكره).

(*) مُعوِرا: عاجزاً (ص ١٥ حاشية ١).

(٤٣) م. ن. جـ٣ : ١٤ ـ ١٥.

(*) تدفعن: ترفضن.

(*) دعة: راحة.

(*) ليتغفل: ليأخذك في غفلة منك غدراً.

حسن الظن. وإن عقدت بينك وبين عدوك عقدة أو ألبسته منك ذمة فحِط(*) عهدك بالوفاء وآرع ذمتك بالأمانة، واجعل نفسك جُنة(*) دون ما أعطيت، فإنه ليس من فرائض الله شيء الناس أشد عليه اجتماعاً مع تفرق أهوائهم وتشتت آرائهم من تعظيم الوفاء بالعهود... فلا تغدر من بذمتك، ولا تخيسنّ(*) بعهدك، ولا تختلنّ(*) عدوك»(٤٤).

كما أوصى (كرم الله وجهه) أحد قادته بقوله: «إذا قدرت على عدوك فاجعل العفو عنه شكراً للقدرة عليه»(٤٥).

٤ ـ التعامل بين القائد الأعلى والقادة والجند:

وقد حدد (كرم الله وجهه) ذلك في كتاب منه إلى قادته أصحاب المسالح، قال فيه: «لكم عندي أن لا احتجز دونكم سراً إلا في حرب(*)، ولا أطوي دونكم أمراً إلا في حكم(*)، ولا أؤخر لكم حقاً عن محله، ولا أقف به دون مقطعه(*)، وأن تكونوا عندي في الحق سواء، فإذا فعلت ذلك وجبت لله عليكم النعمة ولي عليكم الطاعة، وأن لا تنكصوا عن دعوة(*) ولا تفرطوا في صلاح، وأن تخوضوا الغمرات إلى الحق(*) فإن أنتم لم تستقيموا على ذلك لم يكن أحد أهون علي ممن اعوّج منكم، ثم أُعظم له العقوبة، ولا يجد فيها

(*) حِط: أحفظ.

(*) جُنة: حماية ووقاية.

(*) تخيسنّ: تنقضنّ.

(*) تختلنّ: تخدعن (ص ١٠٦ حاشية ١ ـ ٨).

(٤٤) م. ن. جـ٣: ١٠٥ ـ ١٠٦،

(٤٥) م. ن. جـ٤: ٤.

(*) أن لا احتجز دونكم سراً إلا في حرب: أي أن لا أكتم عنكم سراً إلا في حرب لأن الحرب خدعة.

(*) ولا أطوي دونكم أمراً إلا في حكم: أي لا أدع مشاورتكم إلا في حكم صرح به الشرع.

(*) دون مقطعه: أي دون الحد الذي قطع به أن يكون لكم.

(*) لا تنكصوا عن دعوة: لا تتأخروا إذا دعوتكم (ص ٧٩ حاشية ٣ ـ ٦).

(*) الغمرات: الشدائد (ص ٨٠ حاشية ١).

عندي رخصة. فخذوا هذا من أمرائكم،وأعطوهم من أنفسكم ما يصلح الله به أمركم»[٤٦].

وهو، (كرم الله وجهه)، يلوم أحد قادته (كُمَيْل بن زياد النخعي، عامله على هيت) وينكر عليه تجاوزه مهمته في الدفاع عن المسالح بالإغارة على قرقيسيا، فيكتب إليه قائلاً: «إن تعاطيك الغارة على أهل قرقيسيا(*) وتعطيلك مسالحك التي وليناك، ليس بها من يمنعها ولا يرد الجيش عنها، لرأي شَعاع(*) فقد صرت جسراً لمن أراد الغارة من أعدائك على أوليائك، غير شديد المنكب(*) ولا مهيب الجانب، ولا سادٍ ثُغرة، ولا كاسرٍ شوكة، ولا مغنٍ عن أهل مصره(*) ولا مجزٍ عن أميره»[٤٧].

٥ ـ تقنية التعليم الفردي للمقاتل:

أ ـ أوصى (كرم الله وجهه) ابنه محمد بن الحنفية، لما أعطاه الراية يوم الجمل، بقوله: «عضّ على ناجذك(*)، أعِرِ الله جمجمتك(*)، تِدْ في الأرض قدمك(*)، آرمِ ببصرك(*) أقصى القوم(*)، وغضَّ بصرك(*)، واعلم أن النصر من عند الله سبحانه»[٤٨].

---

(٤٦) م. ن. جـ٣ : ٧٩ ـ ٨٠

(*) قرقيسيا: بلد على الفرات.

(*) المسالح: جمع مسلحة، أي الثغور ومواضع السلاح، وهي هنا، مواضع الحامية على الحدود.

(*) رأي شعاع (بفتح الشين): رأي متفرق وليس برأي صالح مجمع عليه.

(*) غير شديد المنكب: أي ضعيف.

(*) غير مغن عن أهل مصره: أي غير قادر على حماية أهل المصر من غارات الأعداء. (ص ١١٨ حاشية ١ ـ ٣).

(٤٧) م. ن. جـ٣ : ١١٨،

(*) النواجذ: أقسى الأضراس أو كلها، أو الأنياب، والناجذ: أحدها. قيل: إذا عض الرجل على أسنانه اشتدت أعصاب رأسه وعظامه، ولهذا يوصى به عند الشدة ليقوى.

(*) أعر الله جمجمتك: أي أبذل جمجمتك إلى الله فلا تسأل عنها، بمعنى: أطلب الشهادة في سبيل الله.

(*) تد قدمك: من وتد يتد، أي ثبتها في الأرض كالوتد.

(*) آرم ببصرك أقصى القوم: أي أحِط ببصرك القوم جميعهم واحص عليهم حركاتهم.

(*) غض البصر: أي غض الطرف عما يخيفك منهم فلا يهولنك منهم هائل (ص ٤٣، حاشية ٤ ـ ٦).

(٤٨)م. ن. جـ١ : ٤٣ ـ ٤٤،

ب ـ وأوصى (كرم الله وجهه) جنده في أيام صفين بقوله:

«استشعروا الخُشية وتجلببوا السكينة(*)، وعضّوا على النواجذ فإنه انبى للسيوف عن الهام(*)، وأكملوا اللامة(*)، وقلقلوا السيوف في أغمادها قبل سلِّها(*)، والحَظوا الخزر(*)، واطعُنوا الشَّزَرَ(*)، ونافحوا بالظُّبا(*)، وصِلوا السيوف بالخُطا(*)، واعلموا أنكم بعين الله ومع ابن عم رسول الله (صلعم)، فعاودوا الكّر واستحيوا من الفر، فإنه عار في الأعقاب ونار يوم الحساب... وامشوا إلى الموت مشياً سُجُحا(*)، وعليكم بهذا السواد الأعظم والرواق المطنَّب(*)، فاضربوا ثَبَجه(*) ...»(٤٩).

ج ـ وكان (كرم الله وجهه) يوصي أصحابه عند الحرب بقوله: «لا تشتدن عليكم فرَّةٌ بعدها كرّة(*)، ولا جولةٌ بعدها حمله، واعطوا السيوف حقوقها، ووطّئوا(*) للجنوب مصارعها، واذمروا(*) أنفسكم على الطعن الدعسي(*) والضرب الطلحَفي(*)»(٥٠).

(*) استشعروا الخشية: أي ألبسوا خوف الله. وتجلببوا السكينة: أي الهدوء.

(*) انبى، من (نبا) السيف، إذا دفعته الصلابة عن موقعه فلم يقطع، والهام: الرؤوس (مفردها هامة).

(*) اكملوا اللامة: أي اكملوا الدروع بأن تضيفوا إليها لوازمها.

(*) قلقلوا السيوف: أي هزوها خشية أن تعصى عليكم عند سلها.

(*) الخزر (بالتحريك)، أي النظر كأنه من أحد الشقين، وهو علامة الغضب.

(*) اطعنوا الشزر، أي اطعنوا في الجوانب يميناً وشمالاً.

(*) نافحوا: كافحوا، والظبا: طرف السيف وحدّه (مفردها ظُبّة).

(*) صلوا السيوف بالخطا: أي اجعلوا سيوفكم متصلة بخطى أعدائكم وأن قصرت فصلوها بخطاكم (ص ١١٤ حاشية ٢ ـ ٩).

(*) سجحا (بضمتين): أي سهلاً.

(*) السواد الأعظم: جمهور أهل الشام. والرواق المطنب: أي رواق معاوية.

(*) الثبج (بالتحريك): الوسط (ص ١١٥ حاشية ١ ـ ٥).

(٤٩) م. ن. جـ١ : ١١٤ ـ ١١٥،

(*) لا تشتدن عليكم... حمله: أي لا يشق عليكم الأمر إذا انهزمتم ثم عدتم بعدها للهجوم.

(*) وطئو للجنوب مصارعها: أي مهدوا لها أماكن سقوطها، والجنوب: جمع جنب.

(*) واذمروا أنفسكم: أي احرصوا.

(*) الطعن الدعسي: الطعن الشديد.

(*) الضرب الطلحفي: أشد الضرب (ص ١٦ حاشية ١ ـ ٣).

(٥٠) م. ن. جـ٣ : ١٦،

ـ إلا أن أروع ما قاله (كرم الله وجهه) في هذا المجال، ملخصاً، بابداع، مبادىء التعليم الفردي للمقاتل، هو ما أوصى به جنده قبل القتال، في أحد أيام صفين، إذ قال: «[٥١]. . . فقدِّموا الدارع وأخرِّوا الحاسر(*) وعضّوا على الأضراس فإنه أنبى للسيوف عن الهام، والتووا على أطراف الرماح فإنه أمْوَر للأسنّة(*)، وغضوا الأبصار فإنه اربط للجأش وأسكن للقلوب، وأميتوا الأصوات فإنه أطرد للفشل، ورايتكم فلا تميلوها ولا تُخلّوها، ولا تجعلوها إلا بأيدي شجعانكم والمانعين الذِّمار(*) منكم، فإن الصابرين على نزول الحقائق(*) هم الذين يحفّون براياتهم ويكتنفون حِفَافَيْها: وراءها وأمامها، ولا يتأخرون عنها فيسلّموها، ولا يتقدمون عليها فيفردوها»[٥٢]. وفي ذلك تحريض للمقاتلين على حماية رايتهم والذود عنها، فقد كان سقوط الراية يعني، في ذلك الحين، هزيمة الجيش.

٦ ـ أسس اختيار بقعة نزول الجيش والحذر في المعسكر:

وذلك في وصيته (كرم الله وجهه) إلى بعض قادة جيشه، إذ قال: «فإذا نزلتم بعدو أو نزل بكم فليكن معسكركم في قُبِل الأشراف(*) أو سفاح الجبال، أو أثناء الأنهار كيما يكون لكم ردءاً ودونكم مردّاً. ولتكن مقاتلتكم من وجهٍ واحدٍ أو آثنين. وآجعلوا لكم رقباء في صياصي(*) الجبال ومناكب(*) الهضاب لئلا يأتيكم

---

(٥١) وفي رواية أخرى «فسووا صفوفكم كالبنيان المرصوص» (تاريخ ابن خلدون، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٥٦ ـ ١٩٥٧، جـ ١ : ٤٨٧).

(*) الدارع: لابس الدرع، والحاسر: من لا درع له.

(*) الووا: اميلوا جانبكم لتنزلق الرماح ولا تنفذ فيكم اسنتها. وأمور: أشد فعلاً للمور وهو الاضطراب الموجب للانزلاق وعدم النفوذ.

(*) الذمار: ما يلزم الرجل حفظه وحمايته من ماله وعرضه (ص ٣ حاشية ١ ـ ٤).

(*) الحقائق: جمع حاقة، وهي النازلة الثابتة، وحفا فيها: جانبيها (ص ٣ حاشية ١ ـ ٥) وعند ابن أبي الحديد: «ويكتنفونها: حفافيها، ووراءها وأمامها. . .» وهو الأصح لغوياً، (انظر ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، مجلد ٢ : ٧٩٧ ـ ٧٩٨).

(٥٢) م. ن. جـ ٢ : ٣. وفي رواية أخرى ينتهي النص بعبارة «واستعينوا بالصدق والصبر فإنه بقدر الصبر ينزل النصر» (تاريخ ابن خلدون، جـ ١ : ٤٨٧).

(*) الأشراف: جمع شرف، أي العلو. وقُبيل الأشراف: أي قدام الجبال (ص ١٢ حاشية ٤).

(*) صياصي: أعالي.

(*) مناكب: مرتفعات.

العدو من مكان مخافة أو أمن. وآعلموا أن مقدِّمة القوم عيونهم، وعيون المقدِّمة طلائعهم. وإياكم والتفرق، فإذا نزلتم فانزلوا جميعاً، وإذا آرتحلتم فارتحلوا جميعاً، وإذا غشيكم الليل فاجعلوا الرماح كِفَّةً(*)، ولا تذوقوا النوم إلا غِراراً أو مضمضة(*)»(٥٣).

٧ ـ السلوك الواجب اتباعه في السير نحو العدو:

وذلك في وصيته (كرم الله وجهه) لمعقل بن قيس الرياحي حين أنفذه إلى الشام للقتال بجيش عديده ثلاثة آلاف مقاتل، قال: «لا تقاتلن إلا من قاتلك. وسر البَرْدين(*). وغوِّر بالناس(*). ورفِّه بالسير(*). ولا تسر أول الليل فإن الله جعله سَكَناً وقدَّره مُقاماً ولا ظَعْناً(*). فأرِحْ فيه بدنك وروِّحْ ظهرك. فإذا وقفت حين ينبطح(*) السَّحر أو حين ينفجر الفجر فسر على بركة الله. فإذا لقيت العدو فقف من أصحابك وسطاً، ولا تدنُ من القوم دنو من يريد أن يُنشِب الحرب، ولا تَبَاعَدْ عنهم تباعد من يهاب البأس حتى يأتيك أمري، ولا يحملنّكم شنآنهم(*) على قتالهم قبل دعائهم والإعذار إليهم»(٥٤).

٨ ـ سلوك الجيش في البلدان التي يحتلها،والبلدان التي يمر بها:

حدد (كرم الله وجهه) سلوك جيش المسلمين في البلدان التي يحتلها أو البلدان التي يمر بها وذلك في كتبه إلى جباة الخراج وعمال تلك البلاد، فقال: «إني قد

(*) اجعلوا الرماح كِفَّة: أي اجعلوها مستديرة حولكم كأنها كِفة الميزان.

(*) الغرار (بكسر الغين): النوم الخفيف. والمضمضة: أن ينام ثم يستيقظ تشبيها بمضمضة الماء في الفم يأخذه ثم يمجه (ص ١٣ حاشية ١ ـ ٢).

(٥٣) م. ن. جـ٣ : ١٢ ـ ١٣،

(*) سر البردين: أي سر الغداة والعشي. (ص ١٣ حاشية ٣).

(*) غور بالناس: أي آنزل بهم في الغائرة وهي القائلة ـ أو القيلولة ـ ونصف النهار أي وقت شدة الحر.

(*) رفه بالسير: أي هوّن ولا تتعب نفسك ودابتك.

(*) ظعناً: سفراً

(*) ينبطح: ينبسط (ص ١٣ حاشية ٤ و٥).

(*) شنآنهم: بغضاؤهم.

(*) الإعذار إليهم: تقديم ما يُعذرون به في قتالهم (ص ١٤ حاشية ١).

(٥٤) م. ن. جـ٣ : ١٣ ـ١٤،

سيّرت جنوداً هي مارة بكم إن شاء الله، وقد أوصيتهم بما يجب لله عليهم من كف الاذى وصرف الشذى(*). وأنا أبرأ إليكم وإلى ذمتكم من معرّة(*) الجيش إلا من جَوْعة المضطر لا يجد عنها مذهباً إلى شبعه(*). فنكّلوا من تناول منهم شيئاً ظلماً عن ظلمهم(*). وكفوا أيدي سفهائكم عن مضادتهم والتعرض لهم فيما استثنيناه منهم(*). وأنا بين أظهر الجيش فادفعوا إلي مظالمكم(*). وما عراكم مما يغلبكم من أمرهم ولا تطيقون دفعه إلا بالله وبي فأنا أغيّره بمعونة الله إن شاء الله»(٥٥). كما قال في حديث آخر له وهو يشيّع جيشاً أرسله في غزو: «أعذِبوا عن النساء ما استطعتم»(٥٦).

٩ ـ ما يدعو إلى الإعداد للحرب والمصابرة وتعاون الجند فيما بينهم في أثناء القتال:

قال (كرم الله وجهه) في إحدى خطبه داعياً إلى الإعداد للقتال والمصابرة: «خذوا للحرب أهبتها، وأعدوا لها عدتها، فقد شبّ لظاها، وعلا سناها، واستشعروا الصبر فأنه ادعى إلى النصر»(٥٧). وقال في خطبة أخرى داعياً جنده إلى التعاون فيما بينهم والتآزر في أثناء القتال: «وأي امرىء منكم أحسَّ من نفسه رباطة جأش عند اللقاء، ورأى من أحد من إخوانه فشلاً، فليذبَّ عن أخيه

(*) الشذى: الشر

(*) معرّة: أذى.

(*) إلا من جوعة المضطر لا يجد عنها مذهباً إلى شبعه: أي أنه يستثني حالة الجوع المهلك فإن للجيش فيها حقاً أن يتناول ما يسد رمقه.

(*) فنكلوا من تناول منهم شيئاً ظلماً عن ظلمهم: أي أوقعوا النكال والعقاب بمن تناول شيئاً من أموال الناس وهو غير مضطر.

(*) فيما استثنيناه منهم: أي حالة الاضطرار.

(*) وأنا بين أظهر الجيش فادفعوا إليّ مظالمكم: أي أنني موجود فيه فما عجزتم عن دفعه فردوه إليّ أكفكم ضره وشره (ص ١١٧ حاشية ١ ـ ٥).

(٥٥) م. ن. جـ٣ : ١١٦ ـ ١١٧.

(٥٦) م. ن. جـ٤ : ٦٠، واعذبوا: اعرضوا وابتعدوا، ووردت عند ابن أبي الحديد (اعزبوا)، ومعناه: «اصدفوا عن ذكر النساء وشغل القلب بهن، وامتنعوا من المقاربة لهن، لأن ذلك يفت في عضد الحميه، ويقدح في معاقد العزيمة، ويكسر عن العدو، ويلفت عن الإبعاد في الغزو» (م. ن. ص. ن) وانظر: ابن أبي الحديد، المصدر السابق، مجلد ٥ : ٥٤٤ ـ ٥٤٥.

(٥٧) م. ن. جـ١ : ٦٧.

بفضل نجدته التي فُضِّل بها عليه كما يذبّ عن نفسه»[٥٨]. وقال: «إن أكرم الموت القتل»[٥٩].

١٠ ـ دور الجيش في حياة الأمة أو الدولة:

ويحدده (كرم الله وجهه) كما يلي:

أ ـ **الأمن الخارجي**: وذلك بالدفاع عن حدود الدولة ضد أي عدوان خارجي.

ب ـ **الأمن الداخلي**: وذلك في حماية الأمة أو الدولة ونظمها وقوانينها وشرائعها الاجتماعية والسياسية والدينية ضد أية فتنة داخلية أو اضطراب أو تمرد داخلي، قال (كرم الله وجهه)، (وقد سبق وأوردنا القول نفسه في حديثنا عن صفات المقاتل): «فالجنود، بإذن الله، حصون الرعية، وزين الولاة، وعز الدين، وسبل الأمن، وليس تقوم الرعية إلا بهم»[٦٠] ولكن ذلك يرتب على الدولة مستلزمات مادية يتطلبها إنشاء الجيش وتكوينه وضرورة استمراره وتطوره لتأمين هذه المهمات، ولا يرى، (كرم الله وجهه) مورداً لتأمين هذه المستلزمات سوى «الخراج» فيقول: «ثم لا قوام للجنود إلا بما يُخرج الله لهم من الخراج الذي يقوون به في جهاد عدوهم، ويعتمدون عليه فيما يصلحهم، ويكون من وراء حاجتهم»[٦١].

١١ ـ عوامل النصر في القتال:

حدد (كرم الله وجهه) عوامل النصر في القتال كما يلي:

أ ـ الإيمان بالله وبعقيدة الإسلام.

ب ـ الصدق في القتال والاصرار عليه.

ورغم ما يعتري هذا التحديد من نقص، كإهمال عنصر المناورة، وهو من

---

(٥٨) م. ن. جـ٢ : ٢.

(٥٩) م. ن. ص. ن.

(٦٠) م. ن جـ٣ : ٩٠.

(٦١) م. ن. ص. ن. ويكون من وراء حاجتهم: أي يكون محيطاً بجميع حاجاتهم ودافعاً لها (ص ٩٠ حاشية ٢).

أهم عوامل النصر في القتال، تظل العوامل التي ذكرها الإمام ذات تأثير كبير وحاسم في المعركة.

أ ـ **الإيمان بالله وبعقيدة الإسلام:**

وذلك في كلام له عندما استشاره الخليفة عمر (رضي) في أمر الشخوص لقتال الفرس بنفسه إذ قال له:

«إن هذا الأمر لم يكن نصره ولا خذلانه بكثرة ولا قلة. وهو دين الله الذي أظهره، وجنده الذي أعده وأمدّه، حتى بلغ وطلع حيث طلع. ونحن على موعود الله، والله منجزٌ وعده وناصرٌ جنده». ثم أشار عليه أن لا يذهب لقتال الفرس بنفسه لأن «مكان القيّم بالأمر مكان النظام من الخرز يجمعه ويضمه، فإن انقطع النظام تفرق وذهب، ثم لم يجتمع بحذافيره أبداً»[٦٢].

ب ـ **الصدق في القتال والإصرار عليه:**

وذلك في قوله: «ولقد كنا مع رسول الله صلى الله عليه وآله نقتل آباءنا وأبناءنا وأخواننا وأعمامنا. ما يزيدنا ذلك إلا إيماناً وتسليماً ومُضيّاً على اللَّقَم[*]، وصبرا على مضض الألم وجداً في جهاد العدو. . . فلما رأى الله صدقنا أنزل بعدونا الكبت[*] وانزل علينا النصر حتى استقر الإسلام ملقياً جِرانه[*]. ومتبوئاً أوطانه»[٦٣]. كما يظهر إصراره على القتال في وصيته لجنده أن «لا تشتدن عليكم فرة بعدها كره، ولا جولة بعدها حمله، الخ. . .»[٦٤].

سابعاً: الأسلوب القتالي في معارك الامام علي (كرم الله وجهه):

لقد اشتهر الإمام علي (كرم الله وجهه)، في الحروب التي خاضها، بشجاعته

---

(٦٢) م. ن. جـ٢ : ٢٩.

(*) اللَّقَم: جادة الطريق

(*) الكبت: الخذلان

(*) القاء الجران: كناية عن التمكن.

(٦٣) م. ن. جـ١ : ١٠٤ ـ ١٠٥،

(٦٤) م. ن. جـ٣ : ١٦ وقد مر معنا هذا القول في مكان سابق.

الخارقة وبطولته الفذة، فقد عرف مقاتلاً جلداً وقوياً أكثر منه قائداً عسكرياً، سواء في الحروب التي خاضها تحت راية النبي ﷺ أو في المعارك التي قادها دفاعاً عن حقه في الخلافة، وفيما يلي استكشاف للأسلوب القتالي الذي اتبعه في معاركه الهامة الثلاث: الجمل وصفين والنهروان.

أ ـ **الحشد والتعبئة**: حشد الامام علي لقتال عائشة أم المؤمنين(رضي) ومعها طلحة والزبير، في وقعة الجمل (٣٦هـ) نحو عشرين ألف مقاتل[٦٥] من المدينة والكوفة ومن بكر بن وائل من أهل البصرة[٦٦] ومن ربيعة ومضر واليمن[٦٧] ومن كنانة واسد وتميم والرباب ومُزينة وسبُع وتغلب ومذحج وأنمار وخثعم والأزد[٦٨] وعبد القيس[٦٩]، وقد عبأ جيشه تعبئة القتال مقدمة ومجنبتين (ميمنة وميسرة) وقلباً، فجعل على مقدمته (في أثناء مسيره من المدينة إلى البصرة) أبا ليلى عمر بن الجراح وعلى الميمنة عبد الله بن عباس، «وعلى الميسرة عمر بن أبي سلمة أو عمرو بن أبي سفيان بن عبد الأسد» وسلم الراية إلى ابنه محمد بن الحنفية[٧٠]، وقد وصل علي إلى ذي قار بعشرة آلاف مقاتل وانضم إليه فيها عشرة آلاف آخرون[٧١] فجعل لكل جماعة رئيساً ولكل نفر من المقاتلين رئيساً كذلك، ومن رؤساء الجماعة: القعقاع بن عمرو وسعد[٧٢] بن مالك وهند بن عمرو والهيثم بن شهاب، ومن رؤساء النفار: زيد بن صُوحان والأشتر بن مالك وعدي بن حاتم والمسيّب بن نجبة[٧٣] ويزيد بن

---

(٦٥) الطبري تاريخ الرسل والملوك، جـ ٤ : ٥٠٥، وابن الأثير، الكامل في التاريخ، جـ ٣ : ٢٤٢.

(٦٦) الطبري، المصدر السابق، جـ ٤ : ٥٠٥ ـ ٥٠٦.

(٦٧) م. ن. ص ٥٢٨.

(٦٨) ابن الأثير، المصدر السابق، جـ٣ : ٢٣١ ـ ٢٣٢.

(٦٩) الطبري، المصدر السابق، جـ ٤ : ٥٠٥ وقد ذكر الطبري أن عبد القيس كانت باسرها «في الطريق بين علي وأهل البصرة ينتظرون مرور علي بهم، وهم آلاف» (م. ن. ص ٤٨٧).

(٧٠) م. ن. ص ٤٧٩ ـ ٤٨٠.

(٧١) م. ن. ص ٥٠٥.

(٧٢) وردت «سعر» عند الطبري (م. ن. ص ٤٤٨) والأصح سعد.

(٧٣) وردت «نَجْبَبَه» عند الطبري (م. ن. ص. ن)، والأصح نجبه.

قيس[٧٤]، كما جعل أهل الكوفة على رؤسائهم وأهل عبد القيس على رؤسائهم وكذلك أهل هَجَر وبكر بن وائل وغيرهم[٧٥].

وحشد (كرم الله وجهه)، لقتال معاوية في صفين (٣٦ هـ)، نحو مائة وخمسين ألف مقاتل من أهل العراق[٧٦] وسار إلى صفين في تعبئة وقد جعل على مقدمته الأشتر بن الحارث النخعي وعلى ميمنته زياد بن النضر وعلى ميسرته شريح بن هاني[٧٧]، وعقد في صفين الألوية وأمّر الأمراء وكتّب الكتائب، فجعل:

- عمار بن ياسر: على الخيل، وعبد الله بن بديل بن ورقاء الخزاعي: على الرجاله، والأشعث بن قيس: على الميمنة، وعبد الله بن عباس: على الميسرة، وسليمان بن صرّد الخزاعي: على رجّالة الميمنة، والحارث بن مرة العبدي: على رجّالة الميسرة. أما القبائل فرتبها في ساحة القتال كما يلي:

- في الميمنة: قبائل اليمن، وفي الميسرة: ربيعة، وفي القلب: مضر الكوفة والبصرة. وعقد الوية القبائل «فأعطاها قوماً منهم بأعيانهم جعلهم رؤساءهم وامراءهم»[٧٨].

وحشد لقتال الخوارج في النهروان (٣٧ هـ)[٧٩] «ثمانية وستين ألفاً ومايتي رجل» من أهل العراق، خمسة وستين ألفاً من أهل الكوفة، وثلاثة آلاف ومايتي رجل من أهل البصرة[٨٠]، وسار إلى النهروان في تعبئة، فجعل:

- حُجر بن عدي: على الميمنة، وشَبَث بن ربعي (أو معقل بن قيس الرياحي): على الميسرة، وأبا أيوب الأنصاري: على الخيل، وأبا قتادة

(٧٤) ابن الأثير، المصدر السابق، جـ٣ : ٢٣٢.
(٧٥) الطبري، المصدر السابق، جـ٤ : ٥٠٥.
(٧٦) ابن مزاحم المنقري، نصر، وقعة صفين، ص ١٥٦.
(٧٧) م. ن. ص ١٥٣.
(٧٨) م. ن. ص ٢٠٥
(٧٩) ذكرها المسعودي عام ٣٨هـ (المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، جـ٣ : ١٥٥).
(٨٠) الطبري، المصدر السابق، جـ٥ : ٨٠، وابن الأثير، المصدر السابق، جـ٣ : ٣٤٠.

الأنصاري: على الرجّالة، وعلى أهل المدينة (وهم بين سبعمائة وثمانمائة رجل): قيس بن سعد بن عباده[٨١].

ب ـ عدم المبادرة بالقتال:

أمر الإمام علي قادة جيشه، في وقعة الجمل، أن «لا يبدؤوهم بقتال ولا يرموهم بسهم ولا يضربوهم بسيف ولا يطعنوهم برمح» حتى جاءه عبد الله بن بُديل بن ورقاء الخزاعي، من الميمنة، ومعه أخوه وقد قتل، ثم جاءه قوم من الميسرة، ومعهم آخر قد قتل، فقال كرم الله وجهه: «اللهم آشهد، أعذروا إلى القوم» فتقدم عمار بن ياسر بين الصفين ليحاور عائشة وهي في هودجها فبادروه بالسهام «وتواتر عليه الرمي واتصل» فعاد إلى أمير المؤمنين يقول له: «ما تنتظر يا أمير المؤمنين وليس لك عند القوم إلا الحرب»، فقام كرم الله وجهه وخطب بجيشه قائلاً «يا أيها الناس إذا هزمتموهم فلا تجهزوا على جريح ولا تقتلوا أسيراً ولا تتبعوا مولِّياً ولا تطلبوا مُدبراً ولا تكشفوا عورة ولا تمثلوا بقتيل ولا تهتكوا ستراً ولا تقربوا شيئاً من أموالهم إلا ما تجدونه في عسكرهم من سلاح أو كراع أو عبد أو أَمَة وما سوى ذلك فهو ميراث وَرَثَتهم على كتاب الله تعالى»[٨٢].

وأوصى، كرم الله وجهه، جنده، في صفين، بقوله: «لا تقاتلوا القوم حتى يبدؤوكم فأنتم بحمد الله عز وجل على حجة، وتركُكم إياهم حتى يبدؤوكم حجة أخرى لكم»[٨٣]. وأوفد إلى أهل الشام رسولاً يقول لهم: «إني قد احتججت عليكم بكتاب الله تعالى ودعوتكم إليه، وإني قد نبذت إليكم على سواء، إن الله لا يهدي كيد الخائنين» فكان جوابهم: «السيف بيننا وبينك حتى يهلك الأعجز منا»[٨٤].

ودعا، في النهروان، خصومه من الخوارج إلى «الرجوع والتوبة» بعد أن كان رتب جيشه وأعده للقتال، ولكن الخوارج أبوا ذلك وبادروه بالرمي فقال أصحاب له «قد رمونا» فأجابهم «كفّوا» وكرروا عليه القول مرات ثلاث وهو يأمر

---

(٨١) ابن الأثير، المصدر السابق، جـ٣ : ٣٤٥ وانظر: الطبري، المصدر السابق، جـ٥ : ٨٥.
(٨٢) المسعودي، المصدر السابق، جـ٣ : ١٠٦ ـ ١٠٧.
(٨٣) الطبري، المصدر السابق، جـ٥ : ١٠ ـ ١١.
(٨٤) المسعودي، المصدر السابق، ص ١٢٤.

بالكف عن مبادلتهم الرمي إلى أن أتي إليه برجل من جيشه وقد قتل بسهام الأعداء فقال عندئذ: «الله أكبر، الآن حلّ قتالهم» وأمر قادته أن «آحملوا على القوم»[٨٥].

ج ـ **المبارزة**: غالباً ما كان الامام علي (كرم الله وجهه) يبدأ القتال بالمبارزة، وكان كثيراً ما ينبري للخصم بنفسه يبارزه، أو يأمر واحداً من الرجال الشجعان في جيشه ليتولى هذه المهمة، ففي صفين:

ـ خرج الإمام علي (كرم الله وجهه)لمبارزة عروة بن داود الدمشقي فضرب علي عروة ضربة واحدة «قطعة قطعتين، سقطت إحداهما يمنة والأخرى يسرة»، وخاطبه علي قائلاً: «اذهب يا عروة فاخبر قومك،أما والذي بعث محمداً بالحق لقد عاينت النار وأصبحت من النادمين». وخرج لمبارزة بسر بن أرطأة فكاد يصرعه لولا أن عمد بسر إلى كشف عورته «فانصرف عنه علي عليه السلام مستدبراً له»[٨٦].

ـ وخرج حجر بن عدي من أصحاب علي لمبارزة ابن عمه حجر بن يزيد بن عدي من أصحاب معاوية فانهزم حجر بن يزيد من وجه حجر بن عديّ، وفر هارباً[٨٧].

ـ وخرج شمّر بن ذي الجوشن من أصحاب علي لمبارزة أدهم بن محرز من أصحاب معاوية، وتبادلا الطعان دون أن يقضي أحدهما على الآخر.

ـ وخرج أبو العمرّطة قيس بن عمرو بن يزيد من أصحاب علي لمبارزة آبن عمه سويد بن قيس بن يزيد من أصحاب معاوية، وكان لا يعرف أحدهما الآخر، فتعارفا، ثم افترقا بلا قتال[٨٨].

ـ وخرج ابن العقدية مالك بن الجُلاح من أصحاب علي لمبارزة بشر بن المزني من أصحاب معاوية فصرع بشر مالكا[٨٩].

---

(٨٥) م. ن. ص ١٥٦.
(٨٦) ابن مزاحم، المصدر السابق، ص ٤٥٨ وص ٤٦١.
(٨٧) م. ن. ص ٢٤٣.
(٨٨) م. ن. ص ٢٦٨.
(٨٩) م. ن. ص ٢٦٩.

ـ وخرج الحارث بن منصور من أصحاب علي لمبارزة ابن عمه ذي نواس بن هذيم بن قيس العبدي من أصحاب معاوية «فاضطربا بسيفيهما وانتميا إلى عشائرهما فعرف كل منهما صاحبه فتاركا».

ـ وخرج مالك بن يسار الحضرمي من أهل الكوفة ومن أصحاب علي لمبارزة الجون بن مالك الحضرمي من أهل الشام ومن أصحاب معاوية، «فقتل الشاميُّ الكوفيَّ».

ـ وخرج زياد بن النضر الحارثي من أصحاب علي لمبارزة رجل من أهل الشام من بني عقيل، «فلما عرفه انصرف عنه»(٩٠).

ـ وخرج رجل من أهل العراق ومن أصحاب علي لمبارزة رجل من أهل الشام ومن أصحاب معاوية فتقاتلا قتالاً شديداً، واعتنق العراقيُّ الشاميَّ، ووقع الاثنان تحت قوائم فرسيهما، وغلب العراقيُّ الشاميَّ وقعد على صدره «وكشف المغفر يريد ذبحه» فإذا هو «أخوه لأبيه وأمه» فاستأذن الإمام علياً بتركه فإذن له(٩١). وقد جرى في هذه الوقعة العديد من المبارزات غير ما ذكرنا(٩٢).

د ـ المناورة: لم يعرف عن الامام علي (كرم الله وجهه) أنه اتقن فن المناورة في المعارك التي قادها بنفسه، إلا أن ما يمكن استنتاجه من دراسة معاركه الثلاث: الجمل وصفين والنهروان، هو أن الامام قد تميز بحس قيادي مع مصابرة في القتال وجلد فيه واصرار عليه، وهي عناصر اتاحت له النصر إلاّ أنه لم يكن يجيد استثمار هذا النصر بشكل يؤمن له ولجيشه الخاتمة السعيدة التي تتناسب مع النصر العسكري الذي أحرزه.

لقد كان المقاتلون في جيش الامام من الصلابة والصدق في القتال والإصرار عليه بحيث لم تكن قوى الخصم قادرة على الوقوف في وجه هذا الجيش، فبالمبارزة تارة، وبهجوم المجنبتين (الميمنة والميسرة)، فالقلب، فالهجوم العام، تارة أخرى،

---

(٩٠) م. ن. ص ٢٧٠.

(٩١) م. ن. ص ٢٧١ ـ ٢٧٢.

(٩٢) انظر، م. ن. ص ٢٧٦ ـ ٢٧٩ وص ٤٥٠.

وبتحديد الهدف والإصرار على بلوغه، تارة ثالثة، كان الامام علي (كرم الله وجهه) يحرز النصر، إلا أنه لم يكن يجيد استثماره أو أنه كان يمتنع عن استثماره تقيداً بسماحة الإسلام وعملاً بتقوى الله (كما جرى بصفين)، وفي كلتا الحالتين، وبسبب ذلك، لم يتمكن الإمام علي من تحقيق الأهداف التي ناضل من أجلها طيلة مدة خلافته.

وفيما يلي بعض ما يمكن استكشافه من أساليب المناورة التي مارسها في معاركه:

أ ـ **تحديد الهدف والإصرار على بلوغه**: ففي وقعة الجمل، وبعد أن رأى أن أمد القتال سيطول وأن خسائر المسلمين، من كلا الطرفين، سوف تتفاقم، دون أن يصل أي من الجيشين المتصارعين إلى نتيجة حاسمة في القتال، حدد الإمام علي لجيشه هدفاً رئيساً كان ينبغي من تحقيقه إنهاء القتال لمصلحته، وهو: أن يصرع الجمل الذي يحمل السيدة عائشة أم المؤمنين (رضي) وكان في قلب الجيش، وفي ساحة القتال، أشبه بمركز القيادة الذي تسقط، بسقوطه، القيادة برمتها، فبادر أصحابه قائلاً:

«من رجلٌ يحمل على الجمل؟» فتداعى أصحاب علي (كرم الله وجهه) للوصول إليه، كما تداعى أصحاب عائشة (رضي) للذود عنها وعنه، ويروي الطبري أنه «أخذ الخِطام يوم الجمل سبعون رجلاً من قريش، كلهم يُقتل وهو آخذ بالخطام»[٩٣] ورام أصحاب علي الجمل وقالوا:

«لا يُزال القوم أو يُصرع، وأرِزت مجنبتاً علي فصارت في القلب»[٩٤] وتلاقى قلبا الجيش في قتال طاحن، جيش علي مهاجماً يبغي الوصول إلى الجمل، وجيش عائشة مدافعاً يذود عنها وهي محمولة على الجمل بهودجها، واشتد القتال بين الجيشين واستعر حتى قال القعقاع، وكان في جيش علي.

«ما رأيت شيئاً أشبه بشيء من قتال القلب يوم الجمل بقتال صفين، لقد

---

(٩٣) المصدر السابق، جـ ٤ : ٥٢٩ ـ ٥٣٠ وخِطام الجمل: حبل يُجعل في انف البعير ليُقتاد به.
(٩٤) م. ن. ص ٥١٧ وأرِزت: تجمعت وثبتت.

رأيتُنا ندافعهم بأسنتنا ونتكىء على ازجّتنا، وهم مثل ذلك، حتى لو أن الرجال مشت عليها لاستقلّت بها»[٩٥]، وقال عبد الله بن سنان الكاهلي: «لما كان يوم الجمل ترامينا بالنبل حتى فنيت، وتطاعنّا بالرماح حتى تشبّكت في صـدورنا وصدورهم، حتى لو سيّرت عليها الخيل لسارت»[٩٦]. وظل أصحاب علي مصرين على القتال لبلوغ الهدف الذي أرادوا بلوغه وهو إسقاط الجمل حتى تم لهم ذلك، فسقط الجمل (عقره رجل من بني ضبّة يدعى ابن دلجه)[٩٧]، فانتهت بسقوطه المعركة وانهزمت عائشة وجيشها.

وفي صفين تقاتل الجيشان قتالاً شديداً ولأيام طويلة دون أن يتمكن أحدهما من الآخـر، إلى أن كانت «ليلة الهرير» حيث استبسل أصحاب علي في القتال، واقتتل الناس في «تلك الليلة كلها حتى الصباح... حتى تقصفت الرماح ونفد النبل وصار الناس إلى السيوف»، وأخذ الامام علي (كرم الله وجهه) يجول بين الميمنة والميسرة، ولم يزل يفعل ذلك «حتى أصبح والمعركة كلها خلف ظهره، والأشتر في ميمنة الناس، وابن عباس في الميسرة، وعلي في القلب، والناس يقتتلون من كل جانب». وأخذ الأشتر يزحف بالميمنة ويقاتل فيها وهدفه معسكر معاوية، ويحث أصحابه على الزحف قائلاً: «ازحفوا قيد هذا الرمح» حتى إذا فعلوا قال لهم ثانية: «ازحفوا قاد هذا القوس»[٩٨]، وإذا فعلوا سألهم ذلك مرة أخرى، إلى أن انتهى بهم في معسكر أهل الشام الذين استبسلوا في الدفاع عن مواقعهم دون أن يتمكنوا من وقف زحف الأشتر ورجاله، فأسقط في أيديهم عندها اقترح عمرو بن العاص على معاوية رفع المصاحف حكماً بين الفريقين المتقاتلين، لأن ذلك «لا يزيدنا (إلا) إجتماعاً، ولا يزيدهم إلا فرقة»[٩٩]، وقد

---

(٩٥) م. ن. ص ٥٣٢ والازجّة: مفردها زُج،وهو المرفق أو الحديدة التي في أسفل الرمح، والزِّج: رمح قصير كالمزراق.

(٩٦) م. ن. ص. ن.

(٩٧) م. ن. ص ٥٣١.

(٩٨) الطبري، المصدر السابق، جـ ٥ : ٤٧، وقاد وقيد، معناهما: قدر.

(٩٩) م. ن. ص ٤٨، وقد سقطت (إلا) من النص. انظر: ابن الأثير، المصدر السابق، جـ ٣: ٣١٦.

صح ظن عمرو فاختلف أصحاب علي في الأمر بين موافق على التحكيم ومعارض له، مما أفقد الإمام أية قدرة على استثمار الانتصار العسكري الذي حققه.

ب ـ **الحركة الاطباقية**: وفي النهروان، يذكر الطبري وابن الأثير أن الامام علياً نفذ مناورة هجومية بارعة، فقد قسّم خيالته إلى فرقتين: فرقة في الميمنة، وأخرى في الميسرة، وأبقى القلب (رماة ورجّالة) في مواجهة الخوارج، ثم أمر خيالته بالالتفاف على صفوف الخوارج من المجنّبتين فـ «عطفت عليهم الخيل من الميمنة والميسرة» بينما «استقبلت الرماة وجوههم بالنبل» و «نهض إليهم الرجال بالرماح والسيوف، فما لبثوا أن أناموهم» وحاولت خيل الخوارج أن تفرّ من الطوق المحكم حولها، وكان عليها حمزة بن سنان، إلا أن الأسود بن قيس المرادي، قائد فرقة الخيالة الباقية، وكانت على مقربة من علي، سدت عليهم منافذ النجاة «فأهلكوا في ساعة، فكأنما قيل لهم موتوا فماتوا»[100]. فإذا صحت رواية كل من الطبري وابن الأثير، تكون هذه المناورة الهجومية البارعة كواحدة من أفضل المناورات في الفن العسكري الحديث، إذ تحقق فيها:

ـ الالتفاف السريع، بواسطة الخيالة، من المجنبتين: الميمنة والميسرة.

ـ اسناد القوات المهاجمة، وتغطيتها بواسطة الرماة، بهدف شل الخصم.

ـ تقدم القوات المهاجمة، أي خيالة المجنبتين، ورجّالة القلب، نحو الخصم، للقضاء عليه.

ـ سد منافذ النجاة لخيالة الخصم بواسطة فرقة من الخيالة بقيت في مركز القلب مع القائد الأعلى.

هذه بعض من نماذج الفكر العسكري عند الخلفاء الراشدين، وهي نماذج وضعت، إلى حد كبير، أهم أسس الفن العسكري الإسلامي، فكانت من أكثر مصادر هذا الفن أصالة وغنى.

---

(٩٩) م. ن. ص ٤٨، وقد سقطت (إلا) من النص. انظر: ابن الأثير، المصدر السابق، جـ ٣ : ٣١٦.

(١٠٠) ابن الأثير، المصدر السابق، جـ ٣ : ٣٤٦ وانظر: الطبري، المصدر السابق، جـ ٥ : ٨٦.

المقالة الرابعة

المصدر الرابع: أوامر القادة العسكريين وسلوكهم في القتال

كان للقادة العسكريين الذين انجزوا الفتوح الإسلامية، وخاصة في العهد الإسلامي الأول الذي تلا ظهورالدعوة الإسلامية، مباشرة، أثر كبير في ابراز الفن العسكري الإسلامي ووضع مبادىء وقواعد متطورة لهذا الفن. وإذا كان من الصعب أن نلم بكل انجازات هؤلاء القادة على الصعيد العسكري، نظراً لاتساع هذه الفتوح وشمولها وامتدادها في الزمان والمكان، فليس لنا إلا أن نقدم نماذج من المبادىء والقواعد التي أرساها هؤلاء القادة في حروبهم، والتي أدت إلى وضع الفن العسكري الإسلامي في إطار متطور ومتقدم في عصره، ومن أهم هذه النماذج:

أولاً ـ التجديد في فن المناورة والتكتيك العسكري:

يعتبر **خالد بن الوليد** أول مجدد في التكتيك العسكري في حروب المسلمين، إذ أنه كان على قدر كبير من العبقرية العسكرية، بحيث استطاع، في حروبه مع الفرس في العراق والروم في الشام، أن يستفيد من أساليبهم في القتال، فيتقنها بدوره، ويطبقها في حروبه ضدهم، وينتصر بها عليهم. فهو، على الرغم من محافظته على نظامي «الخميس والكراديس»[1] في تنظيمه لجيشه، وعلى الرغم من محافظته على قاعدة «الكر دون الفر» في تكتيكه[2] فإنه لم يكن جامد النظرة إلى

---

(١) انظر، لهذين النظامين، المؤلف نفسه، معارك خالد بن الوليد، ص ١٠٠ و١٠٣ ـ ١٠٤.

(٢) انظر، لهذه القاعدة، م. ن، ص ٩٩ ـ ١٠٠.

التنظيمات العسكرية القتالية، والمبادىء التكتيكية في القتال، بل كان يتصرف حيالها بحرية تامة، تاركاً لنفسه مجال المناورة واسعاً، وكان ماهراً في اتقان فن المناورة ضمن المبادىء العامة التي كانت سائدة في حروب ذلك العصر، ولم يتخلف عن خالد في براعة التكتيك والتجديد في أساليب القتال والمناورة، غيره من القادة الفاتحين المسلمين، سواء في العراق (سعد بن أبي وقاص)، أم في بلاد فارس (النعمان بن مقرِّن) أم في مصر (عمرو بن العاص) أم في الاندلس (طارق بن زياد)، وفيما يلي نماذج من تلك الأساليب:

١ ـ أسلوب (المبارزة)[٣]:

وقد استعمله خالد ضد القائد الفارسي «هرمز» في وقعة «ذات السلاسل» بالعراق (١٢ هـ)، إذ أنه ما كاد هرمز يدعو خالداً للمبارزة حتى لبى خالد دعوة خصمه، وتبارز الرجلان راجلين، واحتضن خالد، بحركة مفاجئة، خصمه، فاندفع جند هرمز يبغون الفتك بخالد، فما كان من «القعقاع بن عمرو» إلا أن هب لنجدته وحمل على جند هرمز فأزاحهم، وأعمل السيف، مع جنده، فيهم، ولم يشغل ذلك خالداً عن قتل هرمز فقضى عليه[٤].

٢ ـ أسلوب (المباغتة التكتيكية بالكمائن):

وقد استعمله خالد ضد الفرس في وقعة «الولجة» بالعراق أيضاً، (١٢هـ)، إذ قسم خالد جيشه ثلاث فرق، حيث واجه خصمه بالفرقة الأولى، وأمر الفرقتين الأخريين بأن يكمنا للعدو وينقضا عليه في وقت حدده لكل منهما، وهكذا، ما أن بدأ خالد قتاله مع عدوه، محاوراً ومداوراً، مدافعاً ومهاجماً ومراوغاً، حتى انقض الكمين الأول على هذا العدو مباغتاً جنده في ظهورهم، فهلع الفرس للمباغتة، وما كادوا يستفيقون منها حتى انقض عليهم الكمين الثاني من ناحية أخرى، وكر عليهم خالد بمن معه من الجند فإذا بالفرس يؤتون من بين أيديهم ومن خلفهم «فلا يرى الواحد منهم مقتل صاحبه»[٥].

(٣) أسلوب تقليدي قديم عرفه العرب في حروبهم في الجاهلية والإسلام.

(٤) المؤلف نفسه، المصدر السابق، ص ١٧٣، وانظر: الطبري، تاريخ الرسل والملوك، جـ٣ : ٣٤٩ وابن الأثير، الكامل في التاريخ، جـ٢ : ٣٨٥ ـ ٣٨٦.

(٥) المؤلف نفسه، المصدر السابق، ص ١٧٧ ـ ١٧٨، وانظر: الطبري، م. ن، جـ٣ : ٣٥٣ ـ ٣٥٤، وابن الأثير، م. ن، جـ٢ : ٣٨٧.

٣ ـ أسلوب (المباغتة التكتيكية بالمناورة):

وقد استعمله خالد ضد النبي محمد ﷺ في أُحد (٣هـ) وهي المعركة الوحيدة التي خاضها ضده، فقد اغتنم خالد الجاهلي، في هذه الوقعة، تخلي الرماة المسلمين عن مراكزهم في جبل أُحد، وهرعهم نحو مضارب قريش للاسهام في أخذ الغنائم، والتف على المسلمين بخيله من وراء الجبل وفاجأهم من الخلف، فقتل منهم الكثير، بينما ذعر المسلمون وتراجعوا منهزمين، وكانت مناورة خالد هذه سبباً في هزيمتهم[٦].

٤ ـ أسلوب (المباغتة الاستراتيجية) أو (الاقتراب غير المباشر):

وكما استعمل خالد أسلوب المباغتة التكتيكية بنجاح، فإنه استعمل كذلك أسلوب (المباغتة الاستراتيجية) بنجاح أيضاً، وذلك في مسيره من العراق إلى الشام (١٣هـ) حيث انطلق من «الحيرة» بالعراق سالكاً طريق: الحيرة ـ عين التمر ـ غرب كربلاء ـ قراقر ـ سوى ـ مصيخ بهراء ـ أرك ـ تدمر ـ القريتين ـ حوارين ـ غوطة ـ دمشق ـ القطيفة ـ بصرى (انظر الخارطة). ففاجأ الروم، بعد ثمانية عشر يوماً من السير المضني، في «اجنادين» بالشام[٧]. ويعتبر مسير خالد من العراق إلى الشام في مفازة صحراوية ـ ليباغت الروم من حيث لا يحتسبون ـ أبرع حركة استراتيجية كان يمكن أن يقوم بها قائد عسكري على الإطلاق في ذلك الحين. إنها تدخل في نطاق استراتيجية «الاقتراب غير المباشر» التي طلع بها المفكر الاستراتيجي البريطاني «ليدل هارت» بعد خالد بثلاثة عشر قرناً.

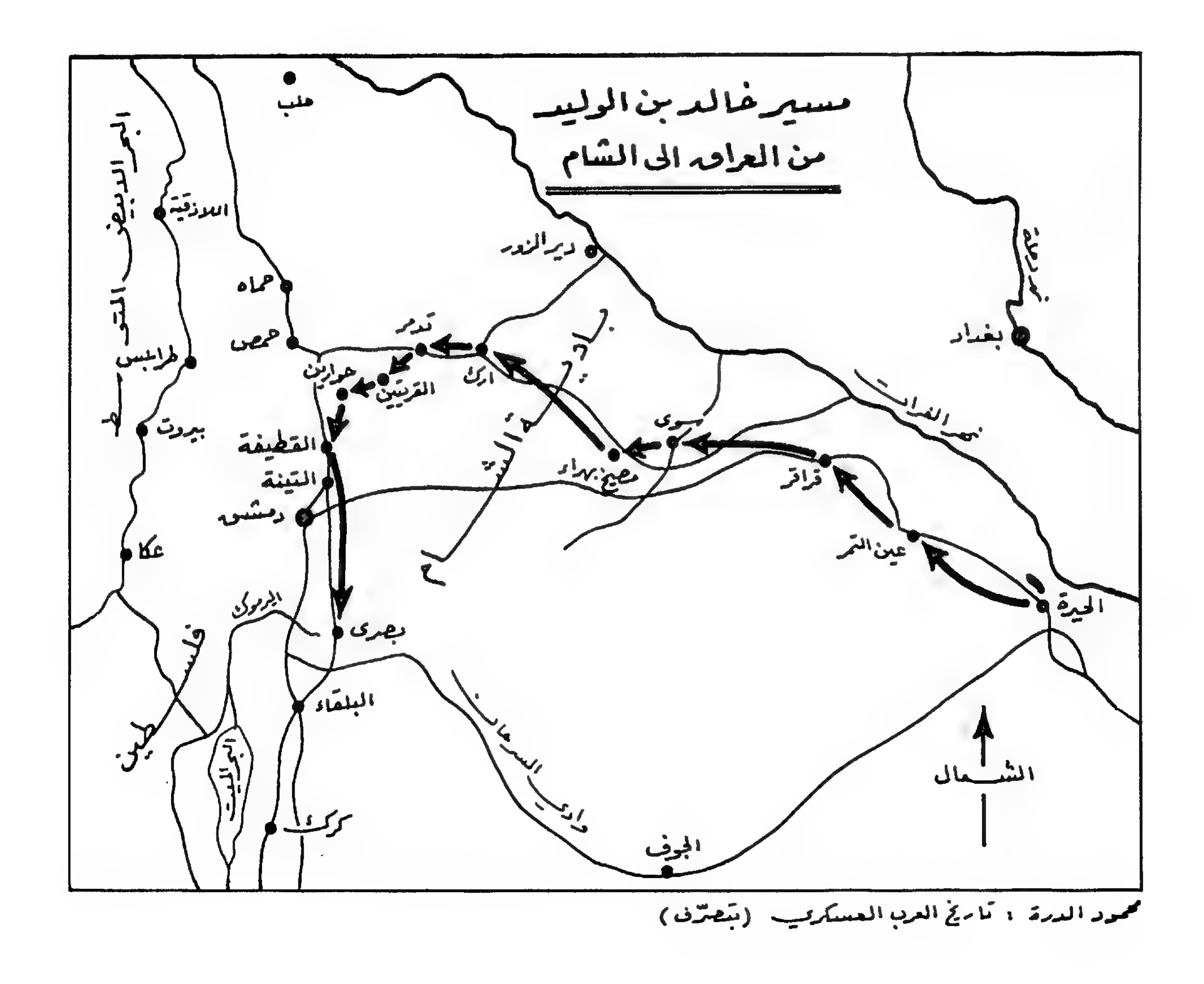
٥ ـ أسلوب (التضليل والمناورة التراجعية):

وقد استعمله خالد ضد الروم في مؤتة (٨هـ)، فقد تسلم قيادة جيش المسلمين في هذه المعركة بعد أن استشهد القادة الثلاثة الذين كان النبي ﷺ قد

---

(٦) المؤلف نفسه، المصدر السابق، ص ١٣٠ ـ ١٣٢ وانظر: الطبري، م. ن. جـ٢ : ٤٩٩ ـ ٥٣٣. وابن الأثير م. ن. ، جـ٢ : ١٤٨ ـ ١٦٣.

(٧) المؤلف نفسه، المصدر السابق، ص ٢٣٠ ـ ٢٣٩، وانظر: ابن الأثير م. ن. ، جـ٢ : ٤٠٧ ـ ٤١١.



محمود الدرة : تاريخ العرب العسكري (بتصرف)

عيْنهم، وكان على خالد أن يجنِّب المسلمين هزيمة محققة، إذ كانوا قلةً قبالة جيش من الروم يفوقهم عدداً وعدة، فعمد إلى أسلوب تضليلي رائع ومبتكر، وهو أنه انتظر حتى حلول الظلام، فغيّر مراكز المقاتلين بأن استبدل الميمنة بالميسرة والمقدمة بالمؤخرة، مصطنعاً، في أثناء ذلك، جلبة وضجيجاً، كي يوهم الأعداء أن مدداً يأتي إلى المسلمين في الليل، وما أن انبلج الفجر حتى أطلق على العدو هجمات سريعة متتالية، وفوجىء الروم عندما رأوا، في الصباح، أن الوجوه والرايات التي تقابلهم ليست هي نفسها التي كانت قبالتهم في المساء المنصرم، وباغتتهم هجمات المسلمين المتتالية، فدخل في روعهم أن مدداً قد أتى إلى المسلمين، وأن جيشاً جديداً نزل إلى ساحة المعركة، فذهلوا، واضطرب أمرهم، واغتنم خالد الفرصة فأمر «بفصم القتال» فوراً، وعمد إلى تنفيذ «مناورته التراجعية» التي كان أعدها مسبقاً، فسحب الجناحين بحماية القلب، ولما أصبح الجناحان بمنأى عن العدو، عمد إلى سحب القلب، إلى أن تمكن من فصم القتال وضمان سلامة الانسحاب كلياً[8].

٦ ـ أسلوب (التنافس في القتال بالتمييز بين المقاتلين المسلمين بدلاً من جمعهم وتوحيدهم):

وهو الأسلوب الذي استخدمه خالد في قتاله ضد مسيلمة الكذاب في حروب الردة (معركة عقرباء أو حديقة الموت ـ ١١هـ)، إذ أنه، لما رأى صعوبة في الانتصار على مسيلمة، وأن ميزان القوى يميل لمصلحة هذا الأخير، وأن المسلمين على وشك أن ينهزموا أمام جيش مسلمة، لمعت في خاطره فكرة عبقرية انقذت جيش المسلمين من الهزيمة، فأصدر أمره التالي: «إمتازوا أيها الناس، لنعلم بلاء كل حي، ولنعلم من أين نؤتى»، وبسرعة مذهلة، امتازت كل فرقة عن الأخرى، فقاتل المهاجرون والأنصار في جهة، والاعراب في جهة أخرى، واشتد القتال، واشتد التنافس بين المسلمين، وبلغت الحماسة بين الفرق المتنافسة إلى حد أن كانت كل منها

---

(٨) المؤلف نفسه، المصدر السابق، ص ١٤٣ ـ ١٤٩، غلوب، جون باجوت، الفتوحات العربية الكبرى، تعريب: خيري حماد، ص ١٣٥، وابن كثير، البداية والنهاية، جـ٤ : ٢٤٧، والواقدي، المغازي، جـ٢ : ٧٦٤.

تريد أن تحرز النصر قبل حليفتها، ولكن أمد القتال طال وامتد، ولم يصل أي من الفريقين المتحاربين إلى نتيجة حاسمة، عندها بدل خالد خطته وقرر أن يدعو خصمه مسيلمة إلى المبارزة، فبارزه وكاد أن يقضي عليه لولا أن لاذ بالفرار، وفر جند مسيلمة خلفه ولكن خالداً لحق به وقضى عليه[٩].

٧ ـ **أسلوب (شل رماة العدو)**، الذي استخدمه خالد في قتاله ضد الفرس في وقعة «ذات العيون» بالأنبار (١٢هـ)، فقد حاصر بجيشه الفرس الذين تحصنوا في «الأنبار» وحفروا حول الحصن خندقاً يمنع وصول المهاجمين إليهم، وركزوا مهرة رماتهم في مشارف الحصن يرمون بنبالهم المسلمين، عندها أمر خالد مهرة رماته بقوله: «إني أرى قوماً لا علم لهم بالحرب، فارموا عيونهم ولا توخّوا غيرها» ويقول المؤرخون إن رماة المسلمين رموا عيون الفرس بالنبل «فأصابوا ألف عين» وتصايح الفرس قائلين: «ذهبت عيون أهل الأنبار» وهكذا شل خالد «رماة» العدو مما سهّل له التقدم إلى الحصن واحتلاله، وذلك بعد أن طمر المواضع الضيقة من الخندق بالابل الهزيلة التي نحرها وجعل من أجسادها جسوراً عبر المسلمون المهاجمون عليها[١٠].

٨ ـ **وكانت ذروة البراعة في التكتيك العسكري عند خالد تلك (الحركة الافراجية)**، التي نفذها في معركته الشهيرة ضد الروم في «اليرموك» (١٣هـ)، فإنه، بعد قتال عنيف بين جيش المسلمين بقيادته، وجيش الروم، بقيادة ماهان، وكان جيش الروم يفوق جيش المسلمين عدة وعدداً، رأى خالد أنه لن يتمكن من قهر ذلك الجيش إلا إذا فصل بين مشاته وخيالته، فأطبق بجيشه على الروم وحصرهم بين «وادي اليرموك ونهر الرقاد، وهو المنفذ الوحيد لهم»، وأخذ يضغط عليهم حتى تمكن من الفصل بين مشاتهم وخيالتهم، ثم أمر خيالته بأن

---

(٩) المؤلف نفسه، المصدر السابق، ص ١٥٨ ـ ١٦٦، وانظر: الطبري، المصدر السابق، جـ٣ : ٢٩٣ ـ ٢٩٥. وابن الأثير، المصدر السابق، جـ٢ : ٣٦٣ ـ ٣٦٥.

(١٠) المؤلف نفسه، المصدر السابق، ص ١٩٣ ـ ١٩٦، وانظر: الطبري، م. ن، جـ٣ : ٣٧٣ ـ ٣٧٥، وابن الأثير، م. ن، جـ٢ : ٣٩٤.

يضغطوا على خيالة الروم حتى يرهقوهم ويهزموهم، فهزم خيالة الروم وأخذوا يتلمسون لهم مخرجاً، عندها أمر خالد «عمرو بن العاص»، وكان في ميمنة الجيش وقبالة خيالة الروم، بأن يفرج عنهم ويتيح لهم سبل الهرب، ففعل، وهرب خيالة الروم متفرقين في أنحاء البلاد أشتاتاً، ثم انقض خالد على مشاتهم فهزمهم وأهلك قسماً كبيراً منهم[11].

٩ ـ أسلوب (التكتيك المتغير)، وفقاً لكل حالة قتالية، وهو الأسلوب الذي اعتمده **سعد بن أبي وقاص** ضد الفرس في وقعة «القادسية» بالعراق (١٥هـ ـ ٦٣٦م) فقد اعتمد سعد، في هذه المعركة، نظام «التميّز بالقبائل» فقاتلت كل قبيلة بقيادة رؤسائها وزعمائها. وكان يبدّل أسلوبه القتالي، خلال المعركة، وفقاً لمقتضيات المعركة وظروفها، معتمداً «التكتيك المتغير» وفقاً للأوضاع القتالية التالية:

أ ـ **كان الهدف الرئيس لسعد، في اليوم الأول، هزيمة مدرعات العدو (أي الفيلة)**، التي كانت تتقدم جيش ذلك العدو، فعمد **عاصم بن عمر والتميمي** إلى حيلة بارعة هزم بها تلك الفيلة، إذ أمر زمرة من مقاتليه أن تحميه ثم تقدم بزمرة أخرى، فاستدبر الفيلة ثم قطع وضنها (أي أسرجتها المحزَّمة) بعد أن رماها من معه بنبالهم، فرمت الفيلة من كان على ظهورها من الرجال ومضت تضجّ وتعوي كالخنازير، وفتك عاصم ومن معه بمن وقع من رجال الفرس أرضاً.

ب ـ وكان **الهدف الرئيس لسعد، في اليوم الثاني، مناورة العدو**، ريثما يصل إليه المدد الآتي من الشام، فاعتمد أسلوب «المبارزة»، ونزل **القعقاع بن عمرو**، فور وصوله إلى ساحة القتال، يطلب قادة العدو للمبارزة، وكانت فيلة الفرس غائبة، فحمل على العدو ثلاثين حملة وقتل ثلاثين واحداً منهم، بينما كان يصل المدد لجيشه إلى ساحة القتال تباعاً، وفي هذه الأثناء، كان رجال القعقاع يعدّون «حيلة تكتيكية» بارعة يهزمون بواسطتها خيالة الفرس، فجللوا الإبل

(١١) انظر البحث الثاني من هذا الكتاب، المقالة الأولى: معركة اليرموك.

وبرقعوها، تشبهاً بالفيلة، ثم أطلقوها في صفوف العدو، فجفلت خيولهم وجرت جزعاً، ودب الهلع والذعر في تلك الصفوف.

ج ـ **وكان الهدف الرئيس لسعد، في اليوم الثالث، هزيمة فيلة العدو وخيالته**، وكان الفرس قد غيّروا أسلوب مناورتهم فدفعوا إلى ساحة القتال فيلتهم محمية بخيالتهم ومشاتهم، ففتكت في صفوف المسلمين فتكاً ذريعاً، فاعتمد سعد «مبارزة الفيلة» موكلاً إلى بعض رجاله مهمة القضاء على أكبرها وأضخمها وهما «الفيل الأبيض والفيل الأجرب»، ففقأ رجال سعد عيون ذينك الفيلين بنبالهم ثم قطعوا مشافرهما بسيوفهم فوليا هاربين وتبعهما باقي الفيلة، فتساوى المسلمون والفرس في حربهم بلا «مدرعات».

د ـ **وكان الهدف الأخير لسعد، في اليوم الرابع، القضاء على جيش العدو وإنهاء المعركة**، ورأى أن الهجوم العام هو الوسيلة الوحيدة لذلك، فعبأ صفوفه وزحف نحو العدو زحفة واحدة، وتخلخلت صفوف العدو وانكشف قلبه، ورأى المسلمون الفرصة سانحة للقضاء على «رستم» قائد جيش العدو، لأن القضاء عليه يعني إنهاء القتال وحسم المعركة، فعمد «القعقاع»، أجرأ قادة المسلمين وأكثرهم بسالة وأشدهم بأساً، إلى اختراق صفوف الفرس بقصد قتل «رستم»، ولكن هلال بن علّفة كان أسبق منه إليه، فقتله، وما أن علم الفرس بمقتل قائدهم حتى انهزموا لا يلوون على شيء[١٢].

١٠ ـ **أسلوب (استدراج العدو)**، وقد اعتمده **النعمان بن مقرّن** في معركته ضد الفرس في «نهاوند» (٢١هـ ـ ٦٤١م)، فقد تشبث الفرس بمراكزهم الحصينة في المدينة بعد أن أعدوها وحصنوها للقاء حاسم مع المسلمين، ورأى النعمان أنه يستحيل على المسلمين زحزحتهم من مواقعهم أو الاستيلاء على المدينة بالقوة، فعمد إلى مناورة بارعة اقتاد بواسطتها الفرس من وراء أسوار مدينتهم ومن مراكزهم، إذ أرسل فرقة نحو الأسوار تنشب القتال مع حماتها ثم تتقهر أمامهم، فترك هؤلاء مراكزهم وأسوار مدينتهم وانطلقوا يطاردون الفرقة المتظاهرة بالهزيمة،

---

(١٢) انظر البحث الثاني من هذا الكتاب، المقالة الثانية: معركة القادسية.

فما كان من النعمان إلا أن هاجمهم بقواته وهم خارج معتصماتهم فهزمهم ودخل المدينة منتصراً[١٣].

١١ ـ أسلوب (الحصار)، وقد اعتمده **عمرو بن العاص** في قتاله ضد الروم في مدينة الاسكندرية بمصر (٢١هـ ـ ٦٤١م)، وكان الروم قد تحصنوا بداخلها وركزوا فيها أضخم معداتهم القتالية وحموها بأقدر رجالهم، ورأى عمرو أن سقوط المدينة قتالاً لن يكون بالأمر اليسير، خاصة وأنها محصنة بالرجال والسلاح من البر، ومحمية بالاسطول الرومي من البحر، فضرب حولها حصاراً محكماً استمر طيلة أربعة أشهر سقطت بعدها المدينة وتم دخول المسلمين إليها صلحاً[١٤].

١٢ ـ وتقدم لنا معارك طارق بن زياد في الاندلس، نماذج حية لتطور الفن العسكري الإسلامي في ذلك الحين، إذ طبق طارق، في هذه المعارك وبالفطرة الذكية، أحدث مبادىء الفن العسكري من عمليات **الاستطلاع والاستكشاف والتحشد وإقامة رأس جسر** على الشاطىء الاندلسي المقابل لافريقيا وتعزيز رأس الجسر وتحصينه للانطلاق منه والتوغل في عمق بلاد الاندلس، وتوزيع المهمات على القادة لاحتلال مواقع العدو الاستراتيجية الهامة، وتأمين الاتصال بين أولئك القادة وبين قيادته من جهة، وبينه وبين القيادة العامة (موسى بن نصير) في افريقيا من جهة أخرى، ففي معركة «وادي لكه» (٩٢هـ ـ ٧١٠م) كان طارق هو الذي اختار أرض المعركة وتوقيتها وفرضها على الخصم (لذريق)، وكان اختياره لأرض المعركة أحد أهم أسباب انتصاره فيها، فقد انحاز طارق بجيشه، عبر أرض كثيرة المستنقعات، إلى سهل يقع بين «وادي برباط» (Berbate) شمالاً وغرباً، وبين بحيرة «خاندا» (Lago de Janda) الممتدة عدة كيلو مترات والتي يصب فيها نهر «برباط» الذي يمر بوادي برباط، أو وادي لكه، شرقاً، وجبال «سيِّرادي ريتينا» جنوباً،

(١٣) انظر البحث الثاني من هذا الكتاب، المقالة الثالثة: معركة نهاوند.

(١٤) انظر البحث الثاني من هذا الكتاب، المقالة الرابعة: من عين شمس إلى الاسكندرية. وفي العام ٢٥هـ (٦٤٥م) عاد الروم فاحتلوا الإسكندرية إلا أن عمرو بن العاص أخرجهم منها بالقوة ودخلها حرباً، ثم استقرت نهائياً بيد المسلمين بعد ذلك.

فأسند ميمنة جيشه إلى بحيرة «خاندا» شرقاً وميسرة هذا الجيش إلى الوادي المذكور غرباً، كما أسند مؤخرة الجيش إلى جبال «ريتينا» العالية جنوباً، وهكذا فرض على خصمه أن يواجهه من الشمال، ولم يعد لهذا الخصم أي خيار غير ذلك(١٥).

ثانياً - التجديد في التنظيمات القتالية (الكراديس والخميس والتعبئة الخالدية)

كان **خالد بن الوليد** أول قائد مسلم استخدم نظام الكراديس الذي كان مستخدماً في جيوش الروم، وعبأ جنده على أساس هذا النظام بعد أن طوره وجدد فيه ،حيث مزج بينه وبين «الخميس» وهو نظام للجيوش كان العرب يستخدمونه(١٦)، حتى اعتبر المؤرخون عمله هذا فتحاً جديداً في الفن العسكري الإسلامي، وسميت التعبئة التي عبأ خالد جيشه على أساسها باسمه «التعبئة الخالدية».

ويتلخص هذا التنظيم القتالي (أو التعبئة الخالدية) بما يلي:

١ - يوزع الجيش كراديس، كل كردوس كناية عن كتيبة تضم ألف مقاتل (عند الروم ستماية) وتنقسم هذه الكتيبة أجزاء عشرية، فالعريف يأمر عشرة رجال، وآمر الأعشار يأمر عشرة عرفاء أي ماية رجل، وقائد الكردوس يأمر عشرة من أمراء الأعشار، أي ألف رجل، وكانت هذه الكراديس تجتمع في فرق قوام كل منها ما بين ١٠ و٢٠ كردوسا.

٢ - يرتب الجيش، في وضع القتال، على شكل قمر في يومه التاسع أو العاشر، وفقاً لنظام «الخميس» أي أنه يقسم خمس فرق:

الأولى: طليعة الجيش، أو مقدمته، وهي للمراقبة والانذار كـي لا يؤخذ الجيش مباغتة.

---

(١٥) انظر البحث الثاني من هذا الكتاب، المقالة الخامسة: معركة وادي لكه.

(١٦) الكردوس، كلمة ذات أصل يوناني (Koortis)، ويعتقد أن الروم أخذوا هذا التنظيم العسكري عن اليونان، ثم أخذه خالد عن الروم فطوّره وقاتلهم وانتصر عليهم به. أما في الخميس، فكان الجيش يقسم خمسة أقسام: الطليعة والقلب والميمنة والميسرة والمؤخرة أو الساقة (أنظر: المؤلف نفسه، معارك خالد، ص ١٠٠ و١٠٣ - ١٠٤).

الثانية: القلب، وهي القوة الضاربة في الجيش، وتنتظم في ثلاثة صفوف متتابعة.

الثالثة: الميمنة، وهي من الخيالة والرماة.

الرابعة: الميسرة، وهي مثل الثالثة. وكانت هذه الفرق مرتبة، بدورها، بشكل كراديس.

الخامسة: المؤخرة، وفيها الظعن وحماته.

٣ - يكون مركز القائد في وسط الجيش، وأمامه راية الجيش، وحوله أهل النجدة فيه وأركان حربه(١٧).

وقد عبأ خالد جيشه هذه التعبئة، لأول مرة، في قتاله ضد الروم باليرموك، إذ قسمه ثمانية وثلاثين كردوسا(وقيل أربعين) مع المحافظة على نظام «الخميس» في ترتيب الجيش، ثم وزعه بين قلب (١٨ كردوسا) وميمنة (١٠ كراديس) وميسرة (١٠ كراديس) وطليعة، ومؤخرة(١٨)، ولم يتخل المسلمون، في معاركهم بعد اليرموك، عن نظامي «الخميس والكراديس» مجتمعين.

---

(١٧) م. ن، ص ١٠١ - ١٠٤.

(١٨) انظر البحث الثاني من هذا الكتاب، المقالة الأولى: معركة اليرموك.

المقالة الخامسة

المصدر الخامس: أوائل المفكرين المسلمين

لقد عني المفكرون المسلمون - الأقدمون خاصة - بفن الحرب، واستنبطوا من مختلف المعارك التي خاضها المسلمون، ومن المصادر الأساسية التي سبق وتحدثنا عنها، نظريات ومبادىء وأحكاماً في هذا الفن تضمنتها مؤلفات لا بد أن نذكر نماذج منها، على سبيل المثال لا الحصر:

١ - الشيباني (محمد بن الحسن)، في كتابه (السير).

٢ - أبو يوسف (يعقوب بن ابراهيم)، في كتابه (الخراج).

٣ - الشافعي (أبو عبد الله محمد بن ادريس)، في كتابه (الأم).

٤ - الدينوري (أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة)، في كتابه (عيون الأخبار).

٥ - ابن عبد ربه الاندلسي (أبو عمر أحمد بن محمد)، في كتابه (العقد الفريد).

٦ - الهرثمي، صاحب المأمون، في كتابه (مختصر سياسة الحروب).

٧ - الماوردي (أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب البصري البغدادي)، في كتابه (الأحكام السلطانية).

٨ - الطرسوسي (مرضي بن علي بن مرضي)، في كتابه (تبصرة أرباب الالباب في كيفية النجاة في الحروب من الأسواء، ونشر أعلام الأعلام في العدد والآلات المعينة على لقاء الأعداء).

٩ - النويري (شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب)، في كتابه (نهاية الأرب).

١٠ - ابن القيم الجوزية (شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب)،

في كتابه (الفروسية).

١١ ـ ابن خلدون (عبد الرحمن بن محمد بن خلدون المغربي) في (مقدمته).

وفيما يلي بعض ما ورد في هذه المؤلفات:

١ ـ الشيباني (محمد بن الحسن)[١]، الذي خصص في كتابه **(السير)**[٢] عدة أبواب عن الحرب وأدابها وقوانينها، ويشكل كتاب الشيباني هذا في «السير» جزءاً من مؤلف فقهي كبير له يعرف باسم «كتاب الأصل» أو «كتاب المبسوط»، ويسمى «أبواب السير في أرض الحرب» وهو مؤلف من خمسة وأربعين باباً تتحدث في معظمها عن آداب القتال وقسمة الأخماس في الفيء والغنائم، وتتضمن تشريعات تحدد السلوك الذي يجب على المقاتل المسلم اتباعه في أرض الحرب، وأحكاماً تتعلق بالسبايا من نساء العدو، والشراء والبيع في داري الإسلام والحرب، وإقامة الحدود على الجند في أثناء الغزو وفي أرض الحرب، وغير ذلك من الأحكام المتعلقة بمختلف أنواع التعامل مع العدو الذي احتل المسلمون أرضه أو أقاموا صلحاً معه، أو كان مع المسلمين في حكم الموادعة أو الاستئمان، وكذلك أحكام نكاح أهل الحرب، وأحكام أهل البغي إذا قاتلوا المشركين مع المسلمين، فكان كتاب (السير) هذا جامعاً لكل الأحكام الفقهية والتشريعية اللازمة للمسلمين سواء في حروبهم أو في علاقاتهم مع الأمم الأجنبية في البلدان التي يحتلونها[٣]. والجدير بالذكر أن معظم هذه الأحكام والتشريعات، إن لم تكن كلها، تستند إلى أحكام الامام أبي حنيفة أساساً، ثم إلى أحكام تلميذيه أبي يوسف والشيباني نفسه.

---

(١) ولد في بلدة (واسط) بالعراق بين الكوفة والبصرة، عام ١٣٢هـ (٧٥٠م) وتوفي عام ١٨٩هـ (٨٠٤م).

(٢) انظر: القانون الدولي في الإسلام (كتاب السير للشيباني)، تحقيق وتقديم وتعليق الدكتور مجيد خدوري، الدار المتحدة للنشر، بيروت، ط ١: ١٩٧٥.

(٣) حدد «السرخسي» (توفي سنة ٤٣٠هـ ـ ١١٠١م) في شرحه لكتاب «السير الكبير» للشيباني، تعريف مصطلح «السير» كما يلي: «إعلم أن السير جمع سيره، وبه سمي هذا الكتاب لأنه يبين فيه سيرة المسلمين في المعاملة مع المشركين من أهل الحرب ومع أهل العهد منهم من المستأمنين وأهل الذمة ومع المرتدين الذين هم أخبث من الكفار بالانكار بعد الإقرار، ومع أهل البغي الذين حالهم دون حال المشركين وإن كانوا جاهلين، وفي التأويل مبطلين» (خدوري، القانون الدولي في الإسلام، ص ٥٤ ـ ٥٥، عن السرخسي، كتاب «المبسوط»، المجلد العاشر، ص ٢).

٢ ـ **أبو يوسف (يعقوب بن ابراهيم)**[٤] صاحب الامام أبي حنيفة، في كتابه (الخراج)[٥] وأول أبواب هذا الكتاب في «قسمة الغنائم» التي يصيبها المسلمون من العدو، وذلك عملاً بالآية الكريمة ﴿واعلموا أنما غنمتم من شيء فإن لله خمسه وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل﴾. ويقول ابو يوسف في هذا في هذا الامر أن ما يصيبه المسلمون من عساكر أهل الشرك من متاع وسلاح وكراع فإن فيه الخمس «لمن سمى الله عز وجل في كتابه العزيز» وأربعة أخماس للجند الذين غنموا ذلك من أهل الديوان وغيرهم «يضرب للفارس منهم ثلاثة أسهم: سهمان لفرسه وسهم له، وللراجل سهم على ما جاء في الأحاديث والأخبار»، مستنداً في اجتهاده هذا على أن رسول الله ﷺ قسم غنائم بدر «للفارس سهمان وللراجل سهم»[٦]. ويبحث ابو يوسف في قسمة الغنائم في هذا الباب بالتفصيل مستنداً في أحكامه إلى الأحاديث النبوية الشريفة، ومقدماً، من حين لآخر، أحكاماً لصاحبه وأستاذه الامام أبي حنيفة[٧].

وخصص الجزء الثاني لما «عُمل به في السواد»[٨] في فتح العراق، وذكر روايات عن معركة القادسية[٩] وعن معركة نهاوند[١٠] ثم ما عُمل «في أرض الشام والجزيرة» متحدثاً في ذلك عن فتح بلاد الشام (وكانت مع الروم) وعن فتح الجزيرة (وكانت موزعة بين الروم والفرس)[١١]، وقد تم فتحها في عهد الخليفة

(٤) عاش في عهد الخليفة العباسي هارون الرشيد، في النصف الثاني من القرن الثاني الهجري، (النصف الثاني من القرن الثامن الميلادي).

(٥) وضعه بطلب من الخليفة العباسي هارون الرشيد، المطبعة السلفية ومكتبتها، الطبعة الثانية، القاهرة، ١٣٥٢هـ.

(٦) الخراج، ص ١٨ .

(٧) م. ن. ص ١٨ ـ ٢٣ .

(٨) السواد: قرى بالعراق وضياعها المحدودة من حديثة الموصل إلى عبادان طولاً، ومن العذيب بالقادسية إلى حلوان عرضاً، وهي التي فتحها المسلمون في عهد عمر بن الخطاب، (ياقوت، معجم البلدان، جـ٣ : ٢٧٢).

(٩) الخراج، ص ٢٩ ـ ٣٢.

(١٠) م. ن. ص ٣٢ ـ ٣٥.

(١١) كانت الجزيرة قبل الإسلام موزعة بين الروم والفرس «فكانت رأس العين فما دونها إلى الفرات للروم، ونصيبين وما وراءها إلى دجلة لفارس، وكان سهل ماردين ودارا إلى سنجار وإلى البرية لفارس، وجبل ماردين ودارا وطور عابدين للروم» (م. ن. ص ٣٩).

عمر بن الخطاب (رضي).

ثم ذكر أبو يوسف، في فصل خاص، كيف حدد الخليفة عمر (رضي) الأعطيات لأصحاب رسول الله ﷺ[12] وخصص فصلاً لأحكام المرتدين «إذا حاربوا ومنعوا الدار»[13]، وفصلاً آخر لأحكام من «مر بمسالح الإسلام من أهل الحرب وما يؤخذ من الجواسيس»[14] مثال ذلك أن الجواسيس إذا وجدوا «وهم من أهل الذمة أو أهل الحرب أو من المسلمين، فإن كانوا من أهل الحرب أو من أهل الذمة ممن يؤدي الجزية من اليهود والنصارى والمجوس، فاضرب أعناقهم، وإن كانوا من الإسلام معروفين فأوجعهم عقوبة واطل حبسهم حتى يحدثوا توبة»[15].

وخصص أبو يوسف الفصل الأخير من كتابه لأحكام «قتال أهل الشرك وأهل البغي»[16] مستنداً في أحكامه جميعها إلى الأحاديث النبوية الشريفة وسنة رسول الله ﷺ.

٣ ـ الشافعي (أبو عبد الله محمد بن ادريس)[17] في كتابه (الأم)[18]

أفرد الامام الشافعي في الجزء الأول من كتابه هذا كتاباً خاصاً[19] بصلاة الخوف يقيمها المسلمون وهم في مواجهة العدو، ووضع لهذه الصلاة أحكاماً شرعية مستمدة من أحكام القرآن الكريم وسنة رسول الله ﷺ، وذلك وفقاً للآية الكريمة ﴿وإذا كنت فيهم فأقمت لهم الصلاة فلتقم طائفة منهم معك وليأخذوا أسلحتهم فإذا سجدوا فليكونوا من ورائكم ولتأت طائفة أخرى﴾ الآية، ثم روى أن النبي ﷺ صلى يوم «ذات الرقاع» هذه الصلاة فصفّت طائفة معه وظلت طائفة مواجهة للعدو، فصلى بالذين معه ركعة ثم «ثبت قائماً وأتمّوا لأنفسهم» ثم انصرفوا

---

(١٢) م. ن. ص ٤٢ ـ ٤٣.

(١٣) م. ن. ص ٦٧ ـ ٦٨.

(١٤) م. ن. ص ١٨٧ ـ ١٩٠.

(١٥) م. ن. ص ١٨٩ ـ ١٩٠ ويوجه أبو يوسف حديثه هنا إلى أمير المؤمنين الخليفة هارون الرشيد.

(١٦) م. ن. ص ١٩١ ـ ٢١٧.

(١٧) عاش من عام ١٥٠هـ وحتى ٢٠٤هـ.

(١٨) مكتبة الكليات الأزهرية، شركة الطباعة الفنية المتحدة، القاهرة، ١٣٨١هـ ـ ١٩٦١م.

(١٩) الأم. جـ١ : ٢١٠ ـ ٢٢٧.

وصفّوا في مواجهة العدو بينما جاءت الطائفة الأخرى فصلى بهم الركعة التي بقيت عليه ثم «ثبت قائماً، واتموا لأنفسهم»، ثم انصرفوا وصفوا في مواجهة العدو بينما جاءت الطائفة الأخرى فصلى بهم الركعة التي بقيت عليه ثم «ثبت جالساً واتموا لأنفسهم» ثم سلّم بهم[٢٠]. وروى أيضاً أن رسول الله ﷺ صلى كذلك صلاة الخوف «بعسفان» وعلى المشركين خالد بن الوليد وهم بينه وبين القبلة، فكبّر رسول الله ﷺ فصف المسلمون خلفه صفين ثم ركع فركعوا ثم رفع فرفعوا جميعاً ثم سجد والصف الذي يليه فلما رفعوا سجد الأخرون مكانهم[٢١]. وشرح، في مكان آخر، هذه الآية فقال إن على المقاتل المسلم أن يأخذ من سلاحه «ما لا يمنعه من الصلاة ولا يؤذي الصف أمامه وخلفه» مثل «السيف والقوس والجعبة والجفير والترس والمنطقة وما أشبه هذا» ولا يأخذ الرمح لطوله «إلا أن يكون في حاشية ليس إلى جنبه أحد فيقدر على أن ينحّيه حتى لا يؤذي به من أمامه ومن خلفه»[٢٢]. وهكذا نجد أن الإسلام قد وضع حلولاً لكل المشاكل التي يمكن أن تحول بين المقاتل المسلم وبين تأديته للفرائض الدينية في أثناء القتال.

وجاءت أحكام الإسلام، في هذا المجال، مرنة ومتسامحة إلى حد كبير، فسمحت للمقاتلين المسلمين إذا طلبهم الأعداء وكانوا قد «تحرفوا لقتال أو تحيزوا إلى فئة فقاربوهم» أن يصلوا صلاة الخوف «ركباناً ورجالاً يومئون إيماء» سواء كانوا متوجهين نحو القبلة أو لم يكونوا[٢٣]، وغير ذلك من الأحكام التي تسهل للمقاتل المسلم أداء الشعائر الدينية وهو في ميدان القتال.

وأفرد الشافعي كذلك، في الجزء الرابع من كتابه، قسماً خاصاً[٢٤] بأحكام «الفيء والغنائم» والأنفال التي ينالها المسلمون من جراء حروبهم مع الأعداء، وذلك وفقاً لقوله عز وجل ﴿واعملوا أنما غنمتم من شيء فإن لله خمسه﴾ الآية،

---

(٢٠) م. ن. جـ١ : ٢١٠.
(٢١) م. ن. جـ١ : ٢١٥.
(٢٢) م. ن. جـ١ : ٢١٩.
(٢٣) م. ن. جـ١ : ٢٢٥.
(٢٤) م. ن. جـ٤ : ١٣٩ ـ ١٥٨.

وقوله عز وجل ﴿وما أفاء الله على رسوله منهم﴾ الآية، وقول رسول الله ﷺ: «من قتل قتيلاً له عليه بيّنة فله سلبه». وذكر أن رجلاً من المسلمين يسمى «سير بن علقمة» قال: «بارزت رجلاً يوم القادسية فقتلته فبلغ سلبه اثني عشر ألفاً فنفلنيه سعد بن أبي وقاص»[٢٥]، وللانفال (أو السلب) أحكام أوردها الشافعي في هذا القسم بالتفصيل.

وذكر، في باب آخر[٢٦] أن النبي ﷺ «عرّف عام حنين على كل عشرة عريفاً، وجعل ﷺ للمهاجرين شعاراً وللأوس شعاراً وللخزرج شعاراً، وعقد ﷺ الألوية عام الفتح فعقد للقبائل قبيلةً قبيلةً حتى جعل في القبيلة ألويةً كل لواء لأهله، وكل هذا ليتعارف الناس في الحرب وغيرها»[٢٧].

وكان للقتال والجهاد حظ كبير في كتاب الشافعي، فقد خصهما بقسم وافر من الجزء نفسه (الرابع)[٢٨] فتحدث عن بدء الإذن للمسلمين بالقتال وشرح الآية الكريمة ﴿أُذن للذين يقاتَلون بأنهم ظُلموا وإن الله على نصرهم لقدير. الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق﴾، الآية، ثم الآية الكريمة ﴿وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين. وآقتلوهم حيث ثقفتموهم﴾ الآية، وذكر أن هذه الآيات نزلت في أهل مكة لأنهم كانوا «أشد العدو على المسلمين». إلا أنه يعود فيذكر أن هذا قد نسخ كله بقوله عز وجل ﴿وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة﴾[٢٩] الآية. وتحدث بعد ذلك عن الجهاد كفريضة على المسلمين، وذلك بقوله عز وجل ﴿كتب عليكم القتال وهو كره لكم وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم﴾ وقوله أيضاً ﴿إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم﴾ الآية، وقوله ﴿فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب حتى إذا اثخنتموهم فشدوا الوثاق﴾ الآية، وقوله: ﴿وجاهدوا في الله حق جهاده﴾

---

(٢٥) م. ن. جـ ٤ : ١٤٣.

(٢٦) باب تقويم الناس في الديوان على منازلهم (م. ن. جـ ٤ : ١٥٨ ـ ١٥٩).

(٢٧) م. ن. جـ ٤ : ١٥٨.

(٢٨) م. ن. جـ ٤ : ١٦٠ ـ ١٧٢ وص ٢١٤ ـ ٢٢٩ وص ٢٨٧ وغيرها.

(٢٩) م. ن. جـ ٤ : ١٦٠ ـ ١٦١.

الآية، إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة التي تفرض على المسلمين القتال والجهاد في سبيل الله [٣٠]، محدداً من لا يجب عليه الجهاد، ومن له عذر بالضعف والمرض والزمانة في تركه، وغير هذه الحالات التي تعفي المسلم، اضطراراً، من الجهاد[٣١].

ومن أهم ما ذكره الشافعي، في هذا الكتاب، من الوجهة العسكرية، هو «تحريم الفرار من الزحف»[٣٢] عملاً بقوله تعالى ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفاً فلا تولوهم الأدبار﴾ وقوله: ﴿ومن يولهم يومئذ دبره إلا متحرفاً لقتال أو متحيزاً إلى فئة فقد باء بغضب من الله ومأواه جهنم وبئس المصير﴾، ويأمر الله عز وجل نبيه الكريم بتحريض المسلمين على القتال، فيقول له: ﴿يا أيها النبي حرّض المؤمنين على القتال إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين﴾ ولكنه يرى أن فيهم ضعفاً فينزل الآية الكريمة «الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفاً فإن يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين»، وهكذا أمر الله المسلمين:

١ ـ أن لا يفروا إطلاقاً من وجه العدو ولو كانوا قلة.

٢ ـ يسمح للمسلمين بأن ينحرفوا عن اتجاه العدو، للمناورة فقط، أو للاتحاد بفئة أخرى حليفة لهم.

٣ ـ أمر الله، في البدء، أن يثبت عشرون مقاتلاً من المسلمين في وجه مئتين من الأعداء، ولما رأى في المسلمين ضعفاً عاد فأمر بأن يثبت مئة منهم مقابل مئتين من الأعداء، ولا يسمح لهم أبداً بالفرار أو التراجع أمام العدو، تحت طائلة عقاب التكفير وغضب الله.

وتحدث عن العهود بين المسلمين وبين غيرهم من الأمم حسب قوله تعالى ﴿يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود﴾ وقوله ﴿واوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ولا تنقضوا الايمان بعد توكيدها﴾ ووصفه تعالى للمسلمين بقوله: ﴿يوفون بعهد الله

---

(٣٠) م. ن. جـ ٤ : ١٦١.
(٣١) م. ن. جـ ٤ : ١٦٢ ـ ١٦٧.
(٣٢) م. ن. جـ ٤ : ١٦٩ ـ ١٧٢.

ولا ينقضون الميثاق﴾، وشرح الشافعي العقود بين المسلمين وسواهم على اختلافها، مثل عقود الموادعة والجزية وعقود الصلح والمهادنة، وأعطى أمثلة عليها ووضع أحكاماً لها وفق كتاب الله وسنة رسوله[٣٣].

وخصص بعد ذلك، وفي الجزء الرابع نفسه، كتاباً عن قتال أهل البغي وأهل الردة[٣٤]، فذكر من يجب قتاله من أهل البغي مفسراً في ذلك الآية الكريمة ﴿وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فاصلحوا بينهما فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله فإن فاءت فاصلحوا بينهما بالعدل واقسطوا إن الله يحب المقسطين﴾، كما فسر أحكام قتال أهل الردة كذلك وذكر أمثلة على قتال الخليفة أبي بكر لهم[٣٥]، ثم خصص الكتاب الأخير في الجزء نفسه «للحكم في قتال المشركين ومسألة مال الحربي»[٣٦](والحربي هو الذي يقاتل المسلمين)، ومن أحكامه في هذا المجال أن «من كان من أهل الكتاب من المشركين المحاربين قوتلوا حتى يسلموا أو يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون، فإذا أعطوها لم يكن للمسلمين قتلهم ولا إكراههم على غير دينهم»[٣٧] وذلك لقوله تعالى: ﴿قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرّمون ما حرّم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين اوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون﴾، ثم أعطى أمثلة على ذلك من أحاديث الرسول ﷺ وسنته. وأعطى أحكاماً في مسائل عديدة أخرى في هذا الكتاب مثل: مسألة مال الحربي، وأحكام الأسرى، وأحكام المستأمن في دار الحرب، وأحكام الغلول، وافتداء الأسرى، ثم الاستعانة بأهل الذمة في قتال العدو، ويقول الشافعي في ذلك أن رسول الله ﷺ ردّ «مشركاً أو مشركين في غزاة بدر وأبى أن يستعين إلا بمسلم، ثم استعان رسول الله ﷺ بعد بدر بسنتين في غزاة خيبر بعدد من يهود بني قينقاع كانوا أشداء، واستعان رسول الله ﷺ في غزاة حنين سنة ثمان بصفوان بن أمية وهو مشرك »ويفسر الشافعي ردّ

---

(٣٣) م. ن. جـ ٤ : ١٨٤ - ٢١٤.
(٣٤)م. ن. جـ ٤ : ٢١٤ - ٢٢٩.
(٣٥) م. ن. جـ ٤ : ٢١٥ - ٢١٦.
(٣٦) م. ن، جـ ٤ : ٢٣٨ - ٢٩٣.
(٣٧) م. ن، جـ ٤ : ٢٣٨.

الرسول ﷺ للمشرك في غزوة بدر بأن «له الخيار أن يستعين بمشرك أو يردّه»[٣٨].

ومن أحكام الشافعي في هذا الكتاب أنه «لا يجوز لأحد من الجيش أن يأخذ شيئاً دون الجيش مما يتموله العدو إلا الطعام خاصة والطعام كله سواء، وفي معناه الشراب كله، فمن قدر منهم على شيء له أن يأكله أو يشربه ويعلفه ويطعمه غيره ويسقيه وليس له أن يبيعه، وإذا باعه ردّ ثمنه في المغنم»[٣٩]، وغير ذلك من الأحكام المتعلقة بالطعام والشراب والعلف وأحكام السبي والنكاح في دار الحرب، وأحكام أخرى غيرها، ومن هذه الأحكام ما يتعلق بالحصون التي يغلقها الأعداء على النساء والأطفال والأسرى المسلمين، هل يحق للمسلمين أن يرموها بالمنجنيق؟ يقول الشافعي في ذلك:

«إذا كان في حصن المشركين نساء وأطفال وأسرى مسلمون فلا بأس بأن ينصب المنجنيق على الحصن دون البيوت التي فيها الساكن إلا أن يلتحم المسلمون قريباً من الحصن فلا بأس أن ترمى بيوته وجدرانه، فإذا كان في الحصن مقاتلة محصنون رميت البيوت والحصون، وإذا تترسوا ـ أي الأعداء ـ بالصبيان المسلمين أو غير المسلمين والمسلمون ملتحمون فلا بأس أن يعمدوا لمقاتلة دون المسلمين والصبيان وإن كانوا غير ملتحمين أحببت لهم الكف عنهم حتى يمكنهم أن يقاتلوهم غير مترسين»[٤٠]. وأما ما يتعلق «بقطع الشجر وحرق المنازل» في بلاد العدو فيرى الشافعي أنه «لا بأس بقطع الشجر المثمر وتخريب العامر وتحريقه في بلاد العدو، وكذلك لا بأس بتحريق ما قدر لهم عليه من مال وطعام لا روح فيه لأن رسول الله ﷺ حرق نخل بني النضير وأهل خيبر وأهل الطائف»[٤١] وذلك لقوله تعالى: ﴿ما قطعتم من لينته أو تركتموها قائمة على أصولها فبإذن الله﴾ وهو يرى رأي أبي حنيفة في هذا، إلا أن الشافعي يعود فيقول في مكان آخر:

---

(٣٨) م. ن. جـ ٤ : ٢٦١ وقد وردت في المتن (بمسلم) ولاحظ المحقق ذلك في الحاشية بقوله: لعله «بمشرك» فتأمل، والأصح (بمشرك).

(٣٩) م. ن. جـ ٤ : ٢٦١ ـ ٢٦٢.

(٤٠) م. ن. جـ ٤ : ٢٨٧.

(٤١) م. ن. ص. ن.

«وقال الأوزاعي: أبو بكر يتأول هذه الآية وقد نهى عن ذلك وعمل به أئمة المسلمين». ويرد الشافعي على ذلك بقوله: «يقطع النخل ويحرق وكل ما لا روح فيه كالمسألة قبلها، ولعل أمر أبي بكر بأن يكفوا عن أن يقطعوا شجراً مثمراً إنما هو لأنه سمع رسول الله ﷺ يخبر أن بلاد الشام تفتح على المسلمين فلما كان مباحاً له أن يقطع أو يترك اختار الترك نظراً للمسلمين، وقد قطع رسول الله ﷺ يوم بني النضير فلما أسرع في النخل قيل له: قد وعدكها الله فلو استبقيتها لنفسك، فكفّ القطع استبقاءً لا أن القطع محرّم، فإن قال قائل: قد ترك في بني النضير، قيل: ثم قطع بالطائف، وهي بعد هذا كله وآخر غزاة لقي فيها قتالاً»، ذكر الشافعي ذلك في كتاب خاص من الجزء السابع من كتابه (الأم) سمّاه (كتاب سير الأوزاعي)[٤٢] وتحدث فيه عن أحكام الامام أبي حنيفة في كثير من الأمور المتعلقة بالحرب[٤٣] فكان يورد حكماً لأبي حنيفة في مسألة ما ثم يعطف عليه اجتهاداً للامام الأوزاعي في المسألة نفسها، وأحياناً لأبي يوسف، من ذلك:

- «قال أبو حنيفة رحمه الله تعالى: إذا غنم جند من المسلمين غنيمة في أرض العدو من المشركين فلا يقتسمونها حتى يخرجوها إلى دار الإسلام ويحوزوها. وقال الأوزاعي: لم يقفل رسول الله ﷺ من غزوة أصاب فيها مغنماً إلا خمّسه وقسّمه قبل أن يقفل، من ذلك غزوة بي المصطلق وهوازن ويوم حنين وخيبر..»[٤٤].

- «قال أبو حنيفة-رحمه الله تعالى: لا بأس أن يأخذ الرجل السلاح من الغنيمة إذا احتاج إليه بغير إذن الامام فيقاتل به حتى يفرغ من الحرب ثم يرده في المغنم. وقال الإوزاعي: يقاتل ما كان الناس في معمعة القتال ولا ينتظر برده الفراغ من الحرب فيعرّضه للهلاك وانكسار سنّه من طول مكثه في دار الحرب، وروي أن رسول الله ﷺ قال: إياك وإيا الغلول، أن تركب الدابة حتى يحسر قبل

---

(٤٢) م. ن. جـ٧: ٣٥٦، ولكن النبي ﷺ نهى، كما نهى خلفاؤه بعده، عن التعرض لأموال العدو، فقد أوصى زيد بن حارثة، قائد جيشه في مؤتة، بقوله «لا تقربوا نخلاً ولا تقطعوا شجرة ولا تهدموا بناء»، كما أوصى أبو بكر أسامة بن زيد بن حارثة قائد أول حملة إلى الشام بقوله «لا تعقروا نخلاً ولا تحرقوه، ولا تقطعوا شجرة مثمرة».

(٤٣) م. ن. جـ٧ : ٣٢٣ ـ ٣٦٨.

(٤٤) م. ن. جـ٧ : ٣٢٣.

أن يؤدي إلى المغنم أو تلبس الثوب حتى يخلق قبل أن ترده إلى المغنم، قال أبو يوسف: قد بلغنا عن رسول الله ﷺ ما قال الأوزاعي»[٤٥].

ـ «قال أبو حنيفة (رضي): يضرب للفارس بسهمين سهم له وسهم لفرسه، ويضرب للراجل بسهم. وقال الاوزاعي: أسهم رسول الله ﷺ للفرس بسهمين ولصاحبه بسهم واحد والمسلمون بعد لا يختلفون فيه. . . قال أبو يوسف (رضي): كان أبو حنيفة رحمه الله تعالى يكره أن تفضّل بهيمة على رجل مسلم ويجعل سهمها في القسم أكثر من سهمه»[٤٦].

ـ «قال أبو حنيفة (رضي) في الرجل يكون معه فرسان: لا يسهم له إلا لواحد. وقالَ الاوزاعي يسهم للفرسين ولا يسهم لأكثر من ذلك، وعلى ذلك أهل العلم وبه عملت الأئمة. قال أبو يوسف: لم يبلغنا عن رسول الله ﷺ ولا عن أحد من أصحابه أنه أسهم للفرسين إلا في حديث واحد وكان الواحد عندنا شاذاً لا نأخذ به. . . »[٤٧].

ـ «قال أبو حنيفة رحمه الله تعالى: إذ حصر المسلمون عدوهم فقام العدو على سورهم ومعهم أطفال المسلمين يتترسون بهم قال: يرمونهم بالنبل والمنجنيق يعمدون بذلك أهل الحرب ولا يتعمدون بذلك أطفال المسلمين، قال الاوزاعي: يكف المسلمون عن رميهم فإن برز أحد منهم رموه فإن الله عز وجل يقول: ﴿ولو لا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات﴾ حتى فرغ من الآية، فكيف يرمي المسلمون من لا يرونه من المشركين. قال أبو يوسف رحمه الله تعالى: تأول الاوزاعي هذه الآية في غير، ولو كان يحرّم رمي المشركين وقتالهم إذا كان معهم أطفال المسلمين لحرم ذلك أيضاً منهم إذا كان معهم أطفالهم ونساؤهم، فقد نهى رسول الله ﷺ عن قتل النساء والأطفال والصبيان، وقد حاصر رسول الله ﷺ أهل الطائف وأهل خيبر وقريظة والنضير واجلب المسلمون عليهم فيما بلغنا أشد ما قدروا عليه وبلغنا أنه نصب على أهل الطائف المنجنيق، فلو كان يجب على المسلمين الكف عن المشركين

(٤٥) م. ن. جـ٧ : ٣٣٦.
(٤٦) م. ن. جـ٧ : ٣٣٧.
(٤٧) م. ن. جـ٧ : ٣٤٢ ـ ٣٤٣.

إذا كان في ميدانهم الأطفال لنهى رسول الله ﷺ عن قتلهم لم يقاتَلوا لأن مدائنهم وحصونهم لا تخلوا من الأطفال والنساء والشيخ الكبير الفاني والصغير والأسير والتاجر وهذا من أمر الطائف وغيرها مشهور محفوظ من سنة رسول الله ﷺ وسيرته»[٤٨].

ـ «قال أبو حنيفة رحمه الله تعالى: وإذا أصاب المسلمون غنائم من متاع أو غنم فعجزوا عن حمله ذبحوا الغنم وحرقوا المتاع وحرقوا لحوم الغنم كراهية أن ينتفع بذلك أهل الشرك. وقال الاوزاعي: نهى أبو بكر أن تعقر بهيمة إلا لمأكلة وأخذ بذلك أئمة المسلمين وجماعتهم»[٤٩] وغير ذلك من الأحكام التي لا يتسع المجال لذكرها جميعاً.

٤ ـ الدينوري (أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة)[٥٠] في كتابه(عيون الأخبار)[٥١].

وقد أفرد الدينوري في المجلد الأول من كتابه هذا جزءاً خاصاً بالحرب أسماه (كتاب الحرب)، ويتضمن كتاب الحرب هذا أحاديث وروايات عن «آداب الحرب ومكايدها»، وأراء في هذا المجال أخذت من كتب الهند والعجم، ولا شك في أن المسلمين استفادوا من هذه الأراء في حروبهم، فمن ذلك:

«... وينبغي، على كل حال، أن يُخلّى بين المنهزمين وبين الذهاب ولا يُحبسوا، وإن كان الجند قد نزلوا على ماء وأراد العدو أن ينالوا من الماء فليس من الرأي أن يُحال بينهم وبينه لئلا يُحرجوا إلى الجد في محاربتهم. وإن كان العدو قد نزلوا بماء واراد الجند غلبتهم عليه فإن وقت طلب ذلك عند ريّ العدو من الماء وسقيهم دوابهم منه وعند حاجة الجند إليه، فإن أسلس ما يكون الانسان عن الشيء عند استغنائه عنه وأشد ما يكون طلباً للشيء عند حاجته إليه... وليس ينبغي للجند أن يقاتلوا عدواً إلا أن تكون عدتهم أربعة أضعاف عدة العدو أو

---

(٤٨) م. ن. جـ٧ : ٣٤٩ ـ ٣٥٠.
(٤٩) م. ن. جـ٧ : ٣٥٥.
(٥٠) ولد عام ٢١٣هـ وتوفي عام ٢٧٦هـ.
(٥١) مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة، ١٣٤٣هـ ـ ١٩٢٥م.

ثلاثة أضعافهم، فإن غزاهم عدوهم لزمهم أن يقاتلوهم بعد أن يزيدوا على عدة العدو مثل نصف عدتهم، وإن توسط العدو بلادهم لزمهم أن يقاتلوهم وإن كانوا أقل منهم، وينبغي أن ينتخب للكمين من الجند أهل جرأة وشجاعة وتيقظ وصرامة وليس بهم أنين ولا سعال ولا عطاس ويختار لهم من الدواب ما لا يصهل ولا يغنث(٥٢) ويختار لكمونهم مواضع لا تُغشى ولا تؤتى»(٥٣)، ومن بعض كتب العجم أن بعض الحكماء سئل عن أشد الأمور تدريباً للجند فقال: إستعادة القتال وكثرة الظفر، وأن تكون لها موادُ من ورائها وغنيمة فيما أمامها، ثم الإكرام للجيش بعد الظفر والإبلاغ للمجتهدين بعد المناصبة والتشريف للشجاع على رؤوس الناس»(٥٤)، وعن «المدائني» أنه قال: «كان عظماء الترك يقولون: القائد العظيم ينبغي أن تكون فيه خصال من أخلاق الحيوان: شجاعة الديك، وتحنّن الدجاجة، وقلب الأسد، وحملة الخنزير، وجمع الذرّة وبكور الغراب. وكان يقال: أصلح الرجال للحرب المجرب الشجاع الناصح»(٥٥).

ويتضمن الكتاب كذلك أحاديث وروايات في «الأوقات التي تُختار للسفر والحرب»، فقد ذكر أن أحب الأيام إلى رسول الله ﷺ أن يعقد فيه رايته يوم الخميس، وأن النعمان بن مقرّن قال لأصحابه:

«إني لقيت مع رسول الله ﷺ فكان من أحب ما يَلقى فيه، إذا لم يُلق في أول النهار، إذا زالت الشمس وحلت الصلاة وهبت الرياح ودعا المسلمون»، وقالت العجم: «أخّر الحرب ما استطعت، فإن لم تجد بداً فاجعل ذلك آخر النهار»(٥٦)،

---

(٥٢) لعل الصواب «ينهت» والنهات هو النفس بأنين أو الزحير. وغنث: تنفس بعد الشرب.

(٥٣) عيون الإخبار. المجلد الأول، ص١١٣، وقد ورد ذلك في «الآيين» وهي كلمة فارسية بمعنى «القانون والعادة»، وقد عرّبت، وذكر صاحب «الفهرست» أن ابن المقفع ألّف كتاباً بهذا الاسم، وربما يكون الدينوري قد أخذ عنه، (م. ن. ص٨ حاشية ١).

(٥٤) م. ن. ص ١١٥.

(٥٥) م. ن. ص. ن وزيد في النسخة الالمانية المخطوطة من الكتاب (وبعد كلمة: الخنزير): «وروغان الثعلب وختل الذئب، وكان يقال في صفة الرجل الجامع: له وثبة الأسد وروغان الثعلب وختل الذئب».

(٥٦) م. ن. ص ١٢٢.

كما يتضمن أحاديث في «الدعاء عند اللقاء» أي عند لقاء العدو، وفي «الصبر وحض الناس يوم اللقاء عليه»[٥٧].

ويتبع ذلك، في الكتاب، أقوال في «ذكر الحرب»، وفي «العدة والسلاح» و «آداب الفروسية» ثم «المسير في الغزو والسفر» و «التفويز» (أي السير في مفازة كسير خالد بن الوليد من العراق إلى الشام).

ويفرد المؤلف في كتابه هذا باباً «في الخيل» ثم باباً «في الابل» ولا ينسى أن يذكر روايات عن «أخبار الجبناء» يليها باب عن «أخبار الشجعاء والفرسان وأشعارهم» ثم باب عن «الحيل في الحروب وغيرها»، من ذلك ما قاله ابن اسحق: «لما خرج رسول الله ﷺ إلى بدر، مرّ حتى وقف على شيخ من العرب فسأله عن محمد وقريش وما بلغه من خبر الفريقين، فقال الشيخ: لا أخبركم حتى تخبروني ممن انتم. فقال رسول الله ﷺ: إذا أخبرتنا أخبرناك، فقال الشيخ: خبّرت أن قريشاً خرجت من مكة وقت كذا، فإن كان الذي خبّرني صدق فهي اليوم بمكان كذا، للموضع الذي به قريش، وخُبّرت أن محمداً خرج من المدينة وقت كذا، فإن كان الذي خبّرني صدق فهو اليوم بمكان كذا، للموضع الذي به رسول الله ﷺ. ثم قال: من أنتم؟ فقال رسول الله ﷺ: نحن من ماء، ثم انصرف. فجعل الشيخ يقول: نحن من ماء! من ماء العراق أو ماء كذا أو ماء كذا»[٥٨]ومنه أيضاً: «قال الهيثم: أراد عمر رحمه الله قتل الهرمزان، فاستسقى فأتي بماء فأمسكه بيده واضطرب، فقال له عمر: لا بأس عليك، إني غير قاتلك حتى تشربه. فألقى القدح من يده وأمر عمر بقتله، فقال، أولم تؤمّني؟ قال: كيف أمنتك؟ قال: قلت، لا بأس عليك حتى تشربه، ولا بأس أمان، وأنا لم أشربه. فقال عمر: قاتله الله، أخذ أماناً ولم نشعر به. قال أصحاب رسول الله ﷺ: صدق»[٥٩]، وغير ذلك من الروايات.

---

(٥٧) م. ن. ص ١٢٣ ـ ١٢٤.
(٥٨) م. ن. ص ١٩٤.
(٥٩) م. ن. ص ١٩٥ ـ ١٩٦.

وختم الدينوري «كتاب الحرب» بباب عن «أخبار الدولة والمنصور والطالبيين» وآخر عن «ذكر الأمصار»[٦٠].

٥ ـ ابن عبد ربه الاندلسي (أبو عمر أحمد بن محمد)[٦١] في كتابه (العقد الفريد)[٦٢].

وقد أفرد ابن عبد ربه في الجزء الأول من هذا الكتاب فصلاً أسماه (كتاب الفريدة في الحروب ومدار أمرها)، وتضمن أبحاثاً «في الحروب ومدار أمرها، وقود الجيوش وتدبيرها، وما على المدبر لها من أعمال الخدمة، وانتهاز الفرصة، والتماس الغرّة، واذكاء العيون، وافشاء الطلائع، واجتناب المضايق، والتحفظ من الدسيسات: هذا بعد معرفة أحكامها، وإحكام معرفته، وطول تجربته لمقاسات الحروب ومعاناة الجيوش، وعلمه أن لا درع كالصبر، ولا حصن كاليقين، ثم نذكر كرم اليقين، ومحمود عاقبته، ولؤم الفرار، ومذموم مغبته»[٦٣]. وقد تحدث في أول هذه الأبحاث عن «صفة الحروب»، و «العمل في الجروب» ومنه ما ورد من الأكثم بن صيفي أنه قيل له: صف لنا العمل في الحرب، فقال: «أقلّوا الخلاف على امرائكم، فلا جماعة لمن اختُلف عليه، واعلموا أن كثرة الصياح من الفشل فتثبتوا، فإن أحزم الفريقين الركين، ورب عجلة تعقب ريثاً، وادّرعوا بالليل فإنه أخفى للويل، وتحفظوا من البيات»[٦٤]. وما ورد عن النعمان بن مقرّن أنه قال لأصحابه عند لقاء العدو: «إني هازٌّ لكم الراية فليصلح كل رجل منكم من شأنه، وليشدّ على نفسه وفرسه، ثم أني هازّها لكم الثانية فلينظر كل رجل منكم موقع سهمه، وموضع عدوه، ومكان فرصه، ثم أني هازّها لكم الثالثة، وحاملٌ فاحملوا على اسم الله»[٦٥]. ثم تحدث عن « الصبر والاقدام في الحرب»، وعدّد «فرسان

---

(٦٠) م. ن. ص ٢٠٤ ـ ٢٢٢، والطالبيون: الذين شايعوا الامام علياً (كرم الله وجهه)، والأمصار: جمع مصر، أي الأقطار.

(٦١) شهاب الدين أحمد المعروف بابن عبد ربه الاندلسي، ولد عام ٢٤٦هـ وتوفي عام ٣٢٧هـ.

(٦٢) المطبعة الأزهرية بمصر، الطبعة الثانية، ١٣٤٦هـ ـ ١٩٢٨م.

(٦٣) العقد الفريد. جـ١ : ٤٨ ـ ٤٩.

(٦٤) م. ن. ص ٥٠ ـ ٥١. والريث: التريث، والبيات: المباغتة ليلاً.

(٦٥) م. ن. ص ٥١.

العرب في الجاهلية والإسلام»، وتحدث عن «المكيدة في الحرب». ومما ذكره في هذا المجال أن سؤالاً وجه إلى «بعض أهل التمرين بالحرب» عن: أي المكائد فيها؟ فقال: «إذكاء العيون وإفشاء الغلبة واستطلاع الأخبار وإظهار السرور وإماتة الفَرَق والاحتراس من المكائد الباطنة، من غير استقصار لمستنصح ولا استناد لمستغش واشتغال الناس عماهم فيه من الحرب بغيره»، وأنه ورد في كتاب للهند: «الحازم يحذر عدوه على كل حال، يحذر المواثبة إن قرب والغارة إن بعد والكمين إن انكشف والاستطراد إن ولى»[٦٦].

وتحدث بعد ذلك عن «وصايا امراء الجيوش» فذكر بعضاً منها عن النبي ﷺ وأبي بكر (رضي)، ومما ذكره عن الخليفة أبي بكر أنه قال لخالد بن الوليد: «سر على بركة الله، فإذا دخلت أرض العدو فكن بعيداً من الحمله، فإني لا آمن عليك الجولة، واستظهر بالزاد، وسر بالادلاء، ولا تقاتل بمجروح فإن بعضه ليس منه، واحترس من البيات فإن في العرب غرّة، واقلل من الكلام... وآقبل من الناس علانيتهم، وكِلهم إلى الله في سريرتهم»[٦٧]. وذكر بعضاً منها كذلك عن الخليفة عمر بن الخطّاب (رضي)، فقد ذكرانه كتب إلى سعد بن أبي وقاص يقول له: «إذا وطئت أرض العدو فاذكِ العيون بينك وبينهم، ولا يخفّ عليك أمرهم، وليكن عندك، من العرب أو من أهل الأرض، من تطمئن إلى نصحه وصدقه، فإن الكذوب لا ينفعك خبره وإن صدقك في بعضه، والغاشّ عين عليك وليس عينا لك، وليكُن منك، عند دنوك من أرض العدو، أن تكثر الطلائع وتبث السرايا بينك وبينهم، فتقطع السرايا إمدادهم ومرافقهم، وتتبع الطلائع عوراتهم، وتنقّ للطلائع أهل الرأي والبأس من أصحابك وتخيّر لهم سوابق الخيل، فإن لقوا عدواً كان أول ما تلقاهم القوة من رأيك، واجعل أمر السرايا إلى أهل الجهاد، والصبر على الجلاد، ولا تخصّ بها أحداً بهوى، فتضيّع من رأيك وأمرك أكثر مما حابيت به أهل خاصتك، ولا تبعثن طليعة ولا سرية في وجه تتخوف فيه غلبة، أو ضيعة ونكاية، فإذا عاينت العدو فاضمم إليك أقاصيك وطلائعك وسراياك، واجمع إليك

---

(٦٦) م. ن. ص ٦٣.
(٦٧) م. ن. ص ٦٧.

مكيدتك وقوتك، ثم لا تعاجلهم المناجزة ما لم يستكرهك قتال، حتى تبصر عورة عدوك ومقاتلته، وتعرف الأرض كلها كمعرفة أهلها فتصنع بعدوك كصنعه بك، ثم أذكِ حرّاسك على عسكرك وتيقظ من البيات جهدك، ولا تؤتى بأسير ليس له عقد إلا ضربت عنقه، لترهب به عدو الله وعدوك، والله ولي أمرك ومن معك، وولي النصر لكم على عدوكم والله المستعان»[٦٨].

وذكر، كذلك، وصايا أخرى عديدة، عن عبد الملك بن مروان والوليد بن عبد الملك، وقتيبة بن مسلم الذي كان يقول لأصحابه: «إذا غزوتم فاطيلوا الاظفار وقصوا الشعر والحظوا الناس شزراً وكلموهم رمزاً وأطعنوهم وخزاً»[٦٩].

وتحدث، بعد ذلك، عن «المحاماة عن العشيرة ومنع المتسجير» ثم عن «الجبن والفرار» وعن «فضائل الخيل» و «صفة جياد الخيل» فذكر أن رسول الله ﷺ كان «يستحب من الخيل الشقر»[٧٠]، وعن «سوابق الخيل» وعن «الحلبة والرهان».

ولم يهمل ابن عبد ربه «وصف السلاح» فذكر أن درع الامام علي (كرم الله وجهه) كانت «صدراً لا ظهر لها» ولما سئل عن ذلك قال: «إذا تمكن عدوي من ظهري فلا أبقى عليّ». ثم ذكر روايات عن دروع قادة مسلمين آخرين وعن سيوفهم، فذكر أن عمر بن الخطاب طلب إلى عمرو بن معد يكرب أن يبعث إليه بسيفه المعروف «بالصمصامة» فبعث به إليه، فلما ضرب به وجده دون ما كان يبلغه عنه فكتب إليه في ذلك فرد عليه: «إنما بعثت إلى أمير المؤمنين بالسيف ولم أبعث بالساعد الذي يضرب به»[٧١]، ثم تحدث عن الرمي أو «النزع بالقوس» وروى روايات عديدة في ذلك.

وأفرد ابن عبد ربه، أخيراً، باباً في «مداراة العدو» ثم في «التحفظ من العدو إن أبدى لك المودة».

---

(٦٨) م. ن. ص ٦٧ ـ ٦٨.
(٦٩) م. ن. ص ٦٩.
(٧٠) م. ن. ص ٧٩.
(٧١) م. ن. ص ٩٠.

٦ ـ الهرثمي[٧٢] صاحب المأمون، في كتابه (مختصر سياسة الحروب)[٧٣]،

وهو مختصر من كتاب كبير للمؤلف نفسه يسمى «الحيل في الحروب» ذكره ابن النديم في معجمه «الفهرست» إلا أنه لم يعثر لهذا الكتاب على أثر فيما بعد، ويبدو أنه فقد في زمن غزو التتار للعراق وإحراق المكتبة الشهيرة ببغداد، كما يعتقد أن الهرثمي ألف كتابه هذا بناء لطلب صاحبه الخليفة العباسي «المأمون» وكان قائداً من قادة الجيش في عهده[٧٤].

يتضمن «مختصر سياسة الحروب» أربعين باباً تتحدث جميعها عن الفن العسكري الإسلامي من مختلف جوانبه، وتبين، بشكل لا يدع مجالاً لأي شك، ما وصل إليه هذا الفن في تلك الحقبة وما سبقها من الزمن، من تطور وتقدم، وفيما يلي أهم ما ررد في هذا الكتاب من أبحاث:

ـ يحدد المؤلف (في الباب الثالث) فضائل الرئيس في الحرب بمعرفته لخمسة وعشرين مبدءاً هي التي تشكل شروط القيادة أو صفات القائد في الحرب، منها:

التحضيض (أي الحض على القتال)، والتشجيع، والتزاحف (أي الزحف نحو العدو)، والازدلاف (أي التماس به)، والمشاولة (أي رفع السلاح بوجهه)، والمساورة (أي الوثوب عليه)، والعطف بعد الحملة (أي رجوع الجند إلى مواقعهم بعد الهجوم)، والطلب بعد الهزيمة، والركوب للمنهزمين والالحاح عليهم (وهو ما يسمى اليوم باستثمار النصر أو متابعة العدو ومطاردته بعد احتلال مواقعه)[٧٥]. ويؤكد، في الوقت نفسه، أن أفضل الرؤساء في الحرب «أبصرهم بتدبير الحرب ومواضعها، ومواضع الفرص والحيل والمكايدة، وأحسنهم تعبئة لأصحابه في أحوال التعبئة، وتسييرهم أوان المسير، وانزالهم أوان النزول الخ...»[٧٦].

---

(٧٢) «أبو سعيد الشعراني الهرثمي» كما ورد اسمه في «فهرست» ابن النديم، وقد عاش في النصف الأول من القرن الثالث الهجري، في عهد الخليفة العباسي «المأمون».

(٧٣) الهرثمي صاحب المأمون، مختصر سياسة الحروب، تحقيق عبد الرؤوف عون، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والطباعة والنشر، القاهرة، لات.

(٧٤) مختصر سياسة الحروب، ص ٥ ـ ٩

(٧٥) م. ن. ص ١٧ ـ ١٨.

(٧٦) م. ن. ص ١٧.

- ويتحدث (في الباب الرابع) عن وجوب الحذر أمام العدو وكتمان السر واذكاء العيون والجواسيس، مع وجوب الاناة والرفق (الباب الخامس) ناصحاً بتجنب «طلب الظفر باللقاء ما وجدت إلى الحيلة سبيلاً»(٧٧) كما ينصح الرؤساء بوجوب الاستشارة وترك الاستبداد بالرأي (الباب السادس) وحفظ السر وصيانته (الباب السابع).

- ويخصص المؤلف (الباب التاسع) للتحدث عن «العيون والجواسيس» لأن الجواسيس «رأس أمر الحرب وتدبير مكايدة العدو»(٧٨) ويعلق أهمية كبرى على عمل هؤلاء الذين يجب أن يكونوا «ممن تثق بصدقه ونصيحته، فإن الظنين لا ينفعك خبره وإن كان صادقاً، والمتهم عين عليك لا لك»(٧٩).

- ويهتم الهرثمي، إلى حد كبير، بأمور تعبئة الجيوش وتنظيمها وتسييرها، فهو إذ يوصي بالتعبئة يقول: «إذا كان العدو منك على خمس مراحل أو نحوها، فلا يكونن مسيرك ونزولك إلا على تعبئة»(٨٠) (الباب العاشر)، ويسمي «أصول أجزاء التعبئة» وهي: «القلب (ويسمونه الجمهور) والميمنة والميسرة، (ويسمونهما الجنبين) وطرفا كل جزء من هذه الأجزاء (جناح)»(٨١) ثم يزيد على هذه الأصول أصنافاً كثيرة من التعبئة تبلغ الثلاثين (الباب الحادي عشر)، وينظم الجيوش في سرايا (تخرج في الليل) وسوارب (تخرج في النهار)، ويراوح عديد كل منها بين ٣٠٠ و٥٠٠ مقاتل، ومياشر (بين ٥٠٠ و٨٠٠ مقاتل)(٨٢) ثم الجيش الحسحاس(٨٣) (بين ٨٠٠ و١٠٠٠ مقاتل)، والجيش الازلم (ألف مقاتل)(٨٤) والجيش الحجفل

---

(٧٧) م. ن. ص ٢١.
(٧٨) م. ن. ص ٢٣.
(٧٩) م. ن. ص ٢٤.
(٨٠) م. ن. ص ٢٥.
(٨١) م. ن. ص ٢٦.
(٨٢) المياشر: تصحيف لكلمة «مناسر» جمع منسر (كمجلس أو منبر) وهو قطعة من الجند تمر قدام الجيش الكثير (م. ن. ص ٢٨ حاشية ٤ نقلاً عن القاموس المحيط والمخصص).
(٨٣) الحسحاس: الجيش المبيد المهلك، وهي للسيف أصلاً (م. ن. ص. ن. حاشية ٥ عن القاموس المحيط والمخصص).
(٨٤) الازلم: الذي يقطع أعداءه (م. ن. ص. ن حاشية ٦)

(٤آلاف مقاتل)، والجيش الجرار (١٢ ألف مقاتل)، (الباب الثاني عشر). ثم يؤكد على «التحرز ـ أي الاحتراس ـ عند الترحل وفي المسير» فيقول: «إذا أردت الرحيل من منزل إلى منزل، فقدِّم بعض طلائعك ونوافضك وصاحب مقدمتك..» ثم «ليكن خلف ساقتك رجل جَلْد في قوة من أصحابه، يحشر الجند إليك ويلحقهم بك، ولا يرخّص لأحد منهم في التخلف عنك»[٨٥] (الباب الثالث عشر). وينصح بعدم مسير الجيش إلا وهو على تعبئة فيقول في «التعبئة عند وقوع الخوف في المسير» أي «عند توقع الخوف وانتظاره» (الباب الرابع عشر): «إذا كان الخوف في المسير أمام العسكر، فليسر نصف الميسرة أمام الصفوف، ونصف الميمنة بالأثر، ثم القلب بالأثر، ثم نصف الميسرة بالأثر، ثم نصف الميمنة بالأثر.

«إذا كان الخوف في المسير مما يلي الميمنة، فلتسر الميمنة أمام الصفوف، ثم القلب، ثم الميسرة.

«إذا كان الخوف في المسير مما يلي الميسرة، فلتسر الميسرة أمام الصفوف، ثم القلب، ثم الميمنة.

«إذا لم يعرف الخوف من المسير من أي نواحي العسكر هو، فليبثّ النوافض والطلائع في أرباع نواحي العسكر، والناس على مراتبهم ومراكزهم، وصاحب الجيش في وسط القلب والاثقال والأسواق، والجماعات في خيل كثيفة خلف الصفوف»[٨٦].

كما ينصح بوجوب التحرز (أي الاحتراس) عند النزول والمقام (أي العسكره)، (الباب الخامس عشر) فيقول:

«بثّ الطلائع من معسكرك بالنهار في الطرق والمواضع المخوفة وصيّر النوافض بدلاً منهم في الليل.

...»

---

(٨٥) م. ن. ص ٢٩، وهذا ما يعرف اليوم بمفرزة الطليعة (Détachement Précurseur) ومفرزة الساقة (Serre-file).

(٨٦) م. ن. ص ٣٠.

«أقم الحراس بالليل رجّالة حول عسكرك مع كل برج من المصاف (والبرج فيه سبعة رجال) وليرفعوا بتحرّسهم أصواتهم.

«أقم الدرّاجة بالليل فرساناً من وراء الحرس غير بعيد، يتردد كل جوق (جماعة) منهم في حده، ويرفعون أصواتهم بالتهليل والتكبير.

«أقم الاعساس بالليل على قدر نصف غلوه (والغلوة رمية سهم) من العسكر، يدورون به وهم سكوت»[٨٧].

ويرى أن على القائد أن يختار هو مكان لقاء العدو (أي ساحة القتال) بحيث يسند ظهور أصحابه إلى موضع يأمن أن لا هجوم للعدو منه، وأن تكون الريح والشمس من وراء ظهره (الباب السادس عشر). ثم يحدد أشكال الصفوف التي يمكن للجيش أن يلاقي بها الأعداء، فيسمي الصف المستوي (وهو الأوفق والمستحب)، والصف الهلالي، والصف المعطوف، ثم يقول:

«كانوا يحبون في التعبئة التراصف وانضمام بعضهم إلى بعض مع استواء الصفوف»[٨٨](الباب السابع عشر).

ويتحدث الهرثمي عن «التعبئة الخمسية» وهي تعبئة «الزحف الأعظم» كما يسميها، وتتألف هذه التعبئة من خمسة أحيان[٨٩]، الحَيْنُ الأول: القلب والميمنة والميسرة، والثاني: وراء الأول، وهو أيضاً ثلاثة أجزاء وراء القلب والميمنة والميسرة ويسمى«ردء القلب»، ويأتي الحين الثالث، وهو الأثقال، وراء الثاني، ويأتي الرابع وراء الثالث وهو «ردء الأثقال»، ثم الخامس وهو الساقة (الباب التاسع عشر). ويعين «من يوضع من أصناف الجند في مواضعهم من الأحيان الخمسة» مشاة وفرساناً وأصحاب أعلام وحرساً وخدماً وأصحاب الطبول والخراج والقاضي والشرطة والبريد، ثم الطلائع والجواسيس والأطباء والفعلة والتجار والحريم ،ثم

---

(٨٧) م. ن. ص ٣٢ ـ ٣٣ ويكون الحراس مشاة والدراجة فرساناً.

(٨٨) م. ن. ص ٣٤ ـ ٣٥.

(٨٩) مفردها حَيْن (بفتح الحاء وتسكين الياء)، وهو الخط العسكري المؤلف من قلب وميمنة وميسرة (م. ن. ص ٣٦ حاشية ٣)، وتختلف هذه التعبئة عن الجيش (الخميس) الذي سبق وتحدثنا عنه.

الأشراف وأبناء القواد وكذلك خيل النوافض والطلائع والخيل المانعة (كراديس في الميمنة والميسرة) والخيل الممدة (أي الاحتياط أو المدد) والكمائن، والخيل المترخية (قرب ظهر الميمنة ومهمتها أخذ عسكر العدو المنهزم)، (الأبواب ٢٠ و٢١ و٢٢).

ـ ولا يهمل الهرثمي صنوف المناورة الواجب اتباعها عند الزحف للقاء العدو أو عندلقائه، فهو يشرح باسهاب ما يتوجب على الجيش أن يقوم به من حركة «عند ترائي العدو في الزحف للقاء» (الباب الثالث والعشرون)، ثم ما يتوجب عليه أن يعمل «عند التقاء الزحفين» (الباب الرابع والعشرون)، ثم عند «استعلاء العدو في الزحف» (الباب الخامس والعشرون) ثم «عند انهزام العدو» (الباب السادس والعشرون)، ويتحدث عن «الطلائع» ومهماتها وكيفية عملها (الباب السابع والعشرون) وعن الكمائن (الباب الثامن والعشرون)، والبيات (أي الغارات الليلية) (الباب التاسع والعشرون) وعن التأهب لرد البيات إذا أتت من العدو (الباب الثلاثون).

ـ ويعود الهرثمي فيخصص أبواباً يتحدث فيها عن وجوب معرفة الرئيس لمرؤوسيه وقيمة كل منهم في الحرب (الباب الحادي والثلاثون) وكذلك لمذاهبهم وأصنافهم وأخلاقهم، فينصح الرئيس بأن «أعرف الحافظ للسر، أعرف المساعد على الأمر، أعرف ذا الرأي الأصيل، أعرف الناصح الشفيق، أعرف السامع المطيع، أعرف الوادّ المحب، أعرف الذكي الوفي، أعرف الصدوق اللهجة، أعرف السليم الناحية، أعرف الصبور على الشدة، أعرف الدائم الطريقة ـ أي الثابت على خلق واحد ـ»[٩٠]، كما ينصحه بأن يعرف المضاد لكل خصلة من هذه الخصال (الباب الثاني والثلاثون).

ـ ولا ينسى الهرثمي أن يحدد «الذنوب والجرائم» العسكرية التي تستوجب «الأدب والعقوبة» (الباب الثالث والثلاثون).

ويخصص الهرثمي كذلك، في كتابه، بابين لقتال الحصون (حصارها ومهاجمتها والدفاع عنها) (البابان الرابع والثلاثون والخامس والثلاثون)، ثم

---

(٩٠) م. ن. ص ٥٤ ـ ٥٥.

يخصص الأبواب الأخيرة من الكتاب (من الباب ٣٦ إلى الباب ٤٠) لأمور شتى من الحرب ومذاهب الناس وشيمهم فيها، وغير ذلك من الأمور الأخرى المتعلقة بالناس والقتال.

٧ ـ الماوردي (أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب البصري البغدادي)[٩١]،

وقد خصص في كتابه (**الأحكام السلطانية**)[٩٢]، بابين (الرابع والخامس) تحدث فيهما عن «صفات المقاتل المسلم» وعن «واجبات القائد عند تسيير الجيوش» وعن «تدبير الحرب ونزال العدو وقتاله»، وعن «قتال أهل الردة وأهل البغي وقطاع الطرق» بالإضافة إلى أحكام أعطيات الجند في الفيء والغنائم.

وقد خصص الماوردي الباب الرابع للبحث في «تقليد الإمارة على الجهاد» وبمعنى آخر «شروط القيادة على الجيوش»، وقد اعتبرها على نوعين، الأول: الإمارة الخاصة، وهي تقتصر على «سياسة الجيش وتدبير الحرب»، والإمارة العامة، وتتعلق بتفويض الأمير أحكام الغنائم، وعقود الصلح في الحرب[٩٣].

وسنحاول، فيما يلي، توضيح صلاحيات القائد المسلم وواجباته حسب هاتين الإمارتين، وقد حدد الماوردي هذه الواجبات والصلاحيات بستة أحكام:

أولاً ـ تسيير الجيش، وعليه في هذا، سبعة حقوق:

١ ـ أن يرفق بهم في السير «الذي يقدر عليه أضعفهم وتحفظ به قوة أقواهم»

٢ ـ أن يتفقد خيلهم «التي يجاهدون عليها وظهورهم التي يمتطونها»

٣ ـ أن يراعي المقاتلين مرتزقة كانوا أم متطوعة.

٤ ـ أن يعرِّف عليهم العرفاء وينقّب النقباء.

٥ ـ أن يجعل لكل طائفة منهم شعاراً يتميزون به ويجتمعون حوله.

---

(٩١) ولد عام ٣٦٤هـ وتوفي عام ٤٥٠هـ.

(٩٢) مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي واولاده، مصر، ط ١، ١٣٨٠هـ ١٩٦٠م.

(٩٣) الاحكام السلطانية . ص ٥٣ .

٦ ـ أن يتفحص جيشه باستمرار فيخرج منه المرجفين والمتخاذلين والجواسيس.

٧ ـ أن لا يمالىء «من ناسبه أو وافق رأيه ومذهبه على من باينه في نسب أو خالفه في رأي ومذهب»[٩٤].

ثانياً ـ تدبير الحرب: وعليه، في هذا، أن يميز بين صنفين من المشركين في دار الحرب:

الأول: الذين بلغتهم دعوة الإسلام «فامتنعوا عنها وتأبّوا عليها» فهو مخير بين أن يقاتلهم دون انذار أو أن يقاتلهم بعد أن ينذرهم ويدعوهم للقتال، ويفعل في هذا ما يراه «الأصلح للمسلمين وأنكأ للمشركين».

الثاني: الذين لم تبلغهم دعوة الإسلام، فعليه أن لا يقاتلهم إلا بعد أن يدعوهم، لذا، فقد «حرّم» عليه أن يقاتلهم «غرّة وبياتاً»، أو أن يبادرهم بالقتال «قبل إظهار دعوة الإسلام لهم»[٩٥].

ثالثاً ـ سياسة الجند: وعليه، في هذا، عشرة أشياء:

١ ـ أن يحرسهم «من غرّة يظفر بها العدو منهم» فيحتاط من مكامن العدو ويحيط عسكره بحرس يأمنون إليه ويستكينون لحمايته في وقت الراحة من القتال.

٢ ـ أن يختار لهم مكان نزولهم للقتال، بحيث يكون الموضع «أوطأ الأرض مكاناً وأكثر مرعى وماء وأحرسها اكنافاً وأطرافاً».

٣ ـ أن يهيء لهم ما يحتاجون إليه من «زاد وعلوفة تفرّق عليهم في وقت الحاجة».

٤ ـ أن يتنسم أخبار عدوه ليسلم من مكره وكيده ومفاجأته.

٥ ـ أن يرتب الجيش في الحرب ترتيباً مناسباً يضمن النصر في القتال، ويتفقد الصفوف ويعزز «كل جهة يميل العدو عليها بمدد يكون عوناً لها».

---

(٩٤) م. ن. ص ٣٥ ـ ٣٧.

(٩٥) م. ن. ص ٣٧.

٦ ـ أن يقوّي معنويات جنده ويبعث في نفوسهم الأمل بالنصر والظفر.

٧ ـ أن يجزي كلا منهم الجزاء الملائم لطموحه وأهوائه فيعد «أهل الصبر والبلاء منهم بثواب الله لو كانوا من أهل الآخرة، وبالجزاء والنفل من الغنيمة إن كانوا من أهل الدنيا».

٨ ـ أن يستشير أولي الرأي منهم ويعتمد على أولي الحزم، «ليأمن الخطأ ويسلم من الزلل فيكون من الظفر أقرب».

٩ ـ أن يطبق حكم الله فيهم، فيعطيهم ما أوجبه الله لهم من حقوق، وينزل بهم ما أمر الله به من حدود (أي عقوبات) حتى لا يكون هناك «تجوّر في دين ولا تحيّف في حق».

١٠ ـ أن لا يدعهم ينشغلون عن الجهاد ومصابرة العدو بتجارة أو زراعة ينصرفون بها عن قتاله [٩٦].

رابعاً: حقوق الجهاد: أي ما يلزم المجاهدين، مع أميرهم، من حقوق الجهاد، وهي نوعان:

الأول: ما هو حق لله عليهم، وفيه أربعة أشياء:

١ ـ مصابرة العدو في القتال «بأن لا ينهزم عنه من مثليه فما دونه»، وقد حُرّم على المسلم أن «ينهزم من مثليه» إلا لأحدى حالتين: «إما أن يتحرف لقتال فيولي لاستراحة أو لمكيدة ويعود إلى قتالهم، وإما أن يتحيز إلى فئة أخرى يجتمع معها على قتالهم» [٩٧].

٢ ـ أن يكون هدف القتال «نصرة دين الله تعالى وإبطال ما خالفه من الأديان».

٣ ـ أن يكون أميناً في توزيع الغنائم وفقاً لأحكام الله تعالى، ولا يغلّ منها

---

(٩٦) م. ن. ص ٤٣ ـ ٤٤.

(٩٧) وذلك لقوله تعالى «ومن يولهم يومئذ دبره إلا متحرفاً لقتال أو متحيزاً إلى فئة فقد باء بغضب من الله» الآية (م. ن. ص ٤٥).

شيئاً، فتقسم «بين جميع الغانمين مُن شهدالواقعة وكانوا على العدو يداً لأن لكل واحد منهم فيها حقاً»[٩٨].

٤ ـ أن لا يمالىء ذا قربى من المشركين «ولا يحابي في نصرة دين الله ذا مودة»[٩٩].

والثاني: ما هو حق للأمير على جنده، وفيه أربعة أشياء:

١ ـ أن يلتزم الجند طاعة اميرهم ويدخلوا في ولايته.

٢ ـ أن يفوضوا إليه أمرهم ويكلوا إليه تدبير شؤونهم «حتى لا تختلف آراؤهم فتختلف كلمتهم ويفترق جمعهم».

٣ ـ أن يمتثلوا لأوامره ويقفوا عند نهيه وزجره، وإلا فعليه تأديبهم ومعاقبتهم.

٤ ـ أن لا ينازعوه في الغنائم عند تقسيمها عليهم، ويرضوا بقسمته دون جدل أو مناقشة[١٠٠].

خامساً: مصابرة الأمير قتال العدو:

وعليه، في هذا، أن يصابر العدو في قتاله مهما طال أمد القتال وأن لا يولّي عنه ما دام فيه قوة، وذلك عملاً بقوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون﴾.

سادساً: السلوك في قتال العدو:

حيث يجوز للأمير أن ينصب، في حصار العدو، العرادات والمجانيق[١٠١]، ويجوز له أن يهدم على الأعداء منازلهم ويقطع نخلهم وأشجارهم «ويضع عليهم البيات والتحريق» ليرغمهم على الاستسلام أو الدخول في الصلح، ولا يفعل ذلك

---

(٩٨) وفقاً لقوله تعالى «وما كان لنبي أن يغلّ ومن يغلل يأت بما غل يوم القيامة» (م. ن. ص ٤٧).

(٩٩) م. ن. ص. ن.

(١٠٠) م. ن. ص ٤٨ ـ ٤٩.

(١٠١) العرادات: مفردها عرادة، وهي منجنيق صغير. والمجانيق: مفردها منجنيق. وهما آلتان لرمي الحجارة يرمى بهما الأعداء في أثناء الحصار، وتستعملان كذلك لرمي السهام أو لإحراق أماكن العدو بالنفط (أنظر: للمؤلف نفسه، معارك خالد، ص ٥٩).

إلا إذا رأى فيه صلاحاً ، وإلا فلا يفعل[١٠٢] . وهكذا ، يمكننا أن نلخص الشروط التي يجب تتوافر في القائد المسلم، حسب الماوردي، بما يلي:

١ ـ مؤهلات تسيير الجيوش (أي قيادتها وإدارتها) .

٢ ـ مؤهلات تدبير الحرب (أي قيادة المعركة وإدارتها).

٣ ـ مؤهلات سياسة الجند (أي إدارتهم وتوجيههم والسهر عليهم).

٤ ـ مؤهلات الجهاد (أي الالتزام بحقوق الجهاد وأهدافه وتمسك القائد بحقه في طاعة الجند له وخضوعهم لأوامره).

٥ ـ المؤهلات النفسية والبدنية التي تجعله قادراً على تحمل حرب طويلة الأمد مع العدو.

٦ ـ المؤهلات التقنية والتكتيكية التي تجعله قادراً على استعمال أنواع الأسلحة ومؤهلاً لمناورة العدو في مختلف مراحل القتال وأنواعه.

يضاف إلى ذلك شروط أخرى هي ما يجب أن يتوافر في المقاتل المسلم من شروط حددها الماوردي في الباب الثامن عشر (وضع الديوان وذكر أحكامه)، وفي الفصل المتعلق (بديوان السلطنة) الذي يشتمل على أربعة أقسام أحدها مختص بالجيش وهو (ديوان الجيش)[١٠٣]، فذكر أنه لا يجوز أن يثبّت في ديوان الجيش من المقاتلين إلا من توافرت فيه الشروط المادية والمعنوية للمقاتل المسلم، وهي خمسة:

١ ـ **البلوغ**، أي أن لا يكون صبياً، وقد اعتبر معظم الفقهاء سن الخامسة عشرة سناً محددة لقبول المسلم في صفوف المقاتلين (يقابله تحديد سن التطوع في الجيوش العصرية بالسن القانونية للأهلية وهي الثامنة عشرة).

٢ ـ **الحرية**، فلا يكون مملوكاً (وقد الغي هذا الشرط بالغاء الرق في الإسلام).

---

(١٠٢) الأحكام السلطانية، ص ٥٢.

(١٠٣) م. ن. ص ٢٠٣ ـ ٢٠٤.

٣ ـ **الإسلام فلا يكون ذمياً أو مرتداً (ويعبر عنه اليوم بالجنسية).**

٤ ـ **السلامة من الأفات المانعة من القتال، وهذه الأفات نوعان:**

بدنية وعقلية، وكلاهما يمنعان المسلم من أن يكون مقاتلاً،فلا يقاتل من كان زَمِناً أو أعمى أو مجنوناً أو أقطع، ويجوز أن يكون أخرس أو أصم، أما الأعرج فيكون فارساً فقط (يقابل ذلك اليوم: الأهلية البدنية والعقلية، وهي شرط أساسي من شروط التطوع في الجيوش).

٥ ـ **الإقدام على الحروب والمعرفة بالقتال**[١٠٤]، فقد كان يطلب من المسلم، لكي يقبل في صفوف المقاتلين، أن يكون مقداماً، أي شجاعاً، وأهلاً للقتال، وذا معرفة بأصوله، أي أن يكون قد أتقن الفروسية والرمي والمناورة، ذلك لأنه لم يكن لدى المسلمين، في ذلك الحين، معاهد عسكرية تؤهل المقاتلين، فكان على كل مسلم أن يؤهل نفسه للقتال بوسائله الخاصة، وعلى حسابه الخاص (يقابل ذلك، في أيامنا هذه، خضوع الجندي لفترة تدريب يحكم عليه، بعدها، إن كان قد تلاءم مع الحياة العسكرية وتكيف مع بيئتها، وتعتبر ملاءمة الحياة العسكرية والتكيف معها شرطاً اساسياً من شروط بقاء الجندي في الخدمة العسكرية، أما التدريب فيجري، حالياً، على عاتق الجيوش نفسها).

أما (الباب الخامس) فقد خصصه الماوردي للبحث في (الولاية على حروب المصالح)، وقد قسم هذه الحروب ثلاثة أقسام:

ـ **الأول:** قتال أهل الردة. ـ **الثاني:** أهل البغي. **الثالث:** قتال المحاربين[١٠٥].

---

(١٠٤) م. ن. ص ٢٠٤.

(١٠٥) أهل الردة: قوم حكم باسلامهم سواء ولدوا مسلمين أم أسلموا عن كفر، ثم ارتدوا عن الإسلام إلى الشرك أو الكفر أو أي دين انتقلوا إليه (اليهودية أو النصرانية أو الزندقة أو الوثنية) (م. ن. ص ٥٥).

ـ أهل البغي: الذين يخالفون رأي الجماعة وينفردون بمذهب ابتدعوه (م. ن، ص ٥٥)

ـ المحاربون: طائفة من أهل الفساد اجتمعت على شهر السلاح وقطع الطريق وأخذ الأموال وقتل النفوس ومنع السابله (م. ن. ص ٥٨).

وحدد، لقتال كل فئة من هذه الفئات الثلاث، أحكاماً يجب على المسلمين أن يتقيدوا بها ولا يتعدوها، فهي مستمدة من أحكام الشريعة الإسلامية ومستندة إليها.

٨ ـ الطرسوسي (مرضي بن علي بن مرضي)[١٠٦]، في كتابه (**تبصرة أرباب الألباب في كيفية النجاة في الحروب من الأسواء، ونشر أعلام الأعلام في العُدد والآلات المعينة على لقاء الأعداء**)، الذي ألفه بناء لطلب القائد المسلم الشهير «صلاح الدين الأيوبي»، وقد عني بتحقيقه ونشره المستشرق الفرنسي «كلود كاهين»[١٠٧]. يقع هذا البحث في نحو ٢١ صفحة من القطع الكبير، ويتضمن أحد عشر بنداً (كل بند منها في فصول) ويتحدث عن مختلف أنواع الأسلحة المستعملة في الحروب في ذلك الحين وهي:

١ ـ السيف وأنواعه،
٢ ـ والقوس وأنواعه،
٣ ـ والرمح وأنواعه،
٤ ـ والتراس (مفردها ترس) وأنواعها،
٥ ـ والدروع والجواشن[١٠٨] وأنواعها
٦ ـ واللّت[١٠٩] والعمود والدبوس وأنواعها،
٧ ـ والمنجنيقات وأنواعها (العربي، والفارسي وهو التركي، والرومي وهو الأفرنجي)[١١٠] وأنواعها،
٨ ـ والدبابات والأبراج والستائر وأنواعها،

---

(١٠٦) توفي عام ٥٨٩هـ.

(١٠٧) Claude Cahen, extrait de «Bulletin d'études orientales ».T.XII, années 1947-1948- Beyrouth 1948.

(١٠٨) مفردها (جوشن) وهي آلة من صنع العجم، تصنع من الواح صغار من الحديد أو من القرن أو الجلود، وتلبس كالدروع، لا تنفذها سهام ولا تعمل فيها سنان ولا حسام (تبصرة ارباب الالباب ص ١٤).

(١٠٩) اللت: الفأس العظيم، وهي فارسية.

(١١٠) م. ن. ص ١٧.

٩ ـ والمثلثات[١١١] وأنواعها،

١٠ ـ والنفوط (مفردها نفط) وأنواعها (ما يرمى منها بالنشاب، وما يرمى منها في قشر البيض، وما يرمى منها بالمنجنيق، وما يمشي منها على الماء ويصلح لحرق المراكب الخ. . .)،

١١ ـ ويخصص البند الأخير، وهو الحادي عشر، لذكر «ترتيب الجيوش» فيتحدث عن «الأصول كالفروض الواجبة، والفروع كالنوافل الغير لازبه»، أما الأصول، أو الفروض فمثل «الخميس، له قلب وميمنة وميسرة»، وأما الفروع أو النوافل، فمثل «الجنحة ـ أي الأجنحة ـ والطلائع والكمناء»[١١٢]، ثم يتحدث عن «تعبية المصافّات» وحاجتها إلى «تكردس الأجناد كراديساً وترتيب الفرسان علماً علماً وخميساً وخميساً»[١١٣]. ثم ينتقل إلى فصل، في البند نفسه، هو الفصل الأخير، لم يرد فيه إلا عبارة واحدة جاء فيها: «يجب على المقدم[١١٤] أن يبث العيون في عسكر عدوه. . .»[١١٥].

٩ ـ النويري (شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب)[١١٦] في كتابه **(نهاية الارب في فنون الأدب)**[١١٧]. وقد تضمن السفر السادس من هذا الكتاب باباً خاصاً «بقادة الجيوش والجهاد ومكايد الحروب ووصف الوقائع والرباط وما قيل في أوصاف السلاح»[١١٨]، وإذا كان النويري قد استند في أبحاثه بهذا الباب على كل من الحليمي في كتابه المسمى «المنهاج»[١١٩]، وعلى الماوردي في كتابه «الأحكام

---

(١١١) ذات ثلاث شوكات، واحدة قائمة دائماً واثنتان ثابتتان في الأرض كيفما رميتها، وقد تكون مسدسة، وتسمى أيضاً (الحسك الشائك) أنظر: المؤلف، معارك خالد، ص ٦٩ ـ ٧٠ .

(١١٢) م. ن. ص ٢٣.

(١١٣) م. ن. ص ٢٤.

(١١٤) أي مقدم الجيش، وقد وردت هذه التسمية في الصفحة نفسها (٢٤).

(١١٥) م. ن. ص. ن.

(١١٦) توفي عام ٧٣٣هـ.

(١١٧) مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة، الطبعة الأولى، ١٣٤٥ هـ ١٩٢٦ م .

(١١٨) الباب العاشر، جـ ٦ : ١٥١ ـ ٢٤٧.

(١١٩) هو الشيخ الامام أبو عبد الله الحسين بن الحسن بن محمد بن حليم الحليمي الجرجاني الشافعي (نهاية الأرب، جـ٦: ١٥١).

السلطانية» وعلى غيرهما من المفكرين والباحثين المسلمين، فإن ذلك لا ينقص من قيمة هذه الابحاث كمصدر من مصادر الفن العسكري الإسلامي .

بدأ النويري ابحاثه هذه بذكر «ما قيل في قادة الجيوش وشروطهم وأوصافهم ووصاياهم وما يلزمهم»، فذكر، عن «الحليمي» ما معناه: «إذا أنفذ الامام جيشاً أو سرية فينبغي أن يؤمّر عليهم رجلاً صالحاً أميناً محتسباً، لأن القوم إليه ينظرون»[١٢٠] ثم أورد ما ذكره «الماوردي» عن الأحكام اللازمة لأمير الجيش في قيادته، وأورد بعد ذلك بعض وصايا الخلفاء إلى قادة الجيوش، وقد رأينا معظمها في أبحاث سابقة. وقد عمد النويري بعد ذلك إلى ذكر «ما يقوله قائد الجيش حين يشاهد العدو إلى انفصال الحرب والظفر بعدوهم»، مورداً، عن «الحليمي» أيضاً، آية من آيات القرآن الكريم لكل حالة من حالات القتال أو ظرف من ظروفه، كأن يقول المسلمون إذا رماهم العدو «وما رميت إذا رميت ولكن الله رمى وليبلي المؤمنين منه بلاء حسناء»[١٢١]، وأن يقولوا إن رماهم العدو بالمنجنيق:

«إن الله يدافع عن الذين آمنوا»[١٢٢]، وإن حمل العدو عليهم فليقولوا: «يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة»[١٢٣] وغير ذلك من الآيات المناسبة لكل حالة.

وبحث النويري، بعد ذلك، في «ما قيل في المكيدة والخداع في الحروب وغيرها» فأورد أحاديث وروايات مختلفة في هذا المجال معظمها مروي عن النبي ﷺ وعن الخلفاء والصحابة التابعين وعن القادة المسلمين، وهي تظهر إلى أي مدى كان المسلمون يستخدمون الحيلة والمكيدة في حروبهم عملاً بقول رسول الله ﷺ: «الحرب خدعة».

وتضمن هذا الباب، كذلك، بحثاً في «ذكر ما ورد في الجهاد وفضله، وترتيب الجيوش وأسمائها في القلة والكثرة، وأسماء مواضع القتال، وما قيل في

(١٢٠) م. ن. ص. ن.
(١٢١) م. ن. ص ١٧١.
(١٢٢) م. ن. ص ١٧٥.
(١٢٣) م. ن. ص ١٧٣.

الحروب والوقائع، وما وصفت به» فأورد، في الجهاد وفضله، آيات من القرآن الكريم، وأحاديث نبوية شريفة، ثم أورد تعاريف مجددة لكل وحدة من الوحدات العسكرية التي كانت معروفة في ذلك العصر وما سبقه، فقال:

«الكتيبة: ما جمع فلم ينتشر. والحضيرة: العشرة فمن دونهم، والمِقنَب والمَنسَر: من الثلاثين إلى الأربعين، والهيضلة: جماعة غير كثيرة، والرمّازة: التي تموج من نواحيها. والجحفل: الجيش الكثير. والمَجْر: أكثر ما يكون»[١٢٤] ونقل عن الثعالبي في كتابه «فقه اللغة» تحديدات أخرى نقلها هذا الأخير بدوره عن أبي بكر الخوارزمي عن ابن خالويه فقال: «أقل العساكر الجريدة، ثم السرية وهي من الأربعين إلى خمسين، ثم الكتيبة وهي من مائة إلى ألف، ثم الجيش وهو من ألف إلى أربعة آلاف، وكذلك الفيلق والجحفل، ثم الخميس وهو من أربعة آلاف إلى آثني عشر ألفاً، والعسكر يجمعها»[١٢٥].

وبعد أن ذكر بعض «ما قيل في الحروب والوقائع»، وعن «الغزو في البحر» و «ما ورد في المرابطة»، بحث بحثاً مستفيضاً في «ذكر ما قيل في السلاح وأوصافه» فذكر « ما قيل في السيف من الأسماء والنعوت والأوصاف» و «مما يضاف إلى السيف» و «ما وصفته الشعراء به» و «ما قيل في الرمح من الحديث والأسماء والنعوت والأوصاف» و «ما وصفته الشعراء به» و «ما قيل في القوس العربية» و «أسماء القوس ونعوتها» و «أصواتها» و «ما قيل في تركيبها ومبدأ عملها» و «ما قيل في السهم» وفي «اسمائها وصفاتها ونعوتها» و «ما قيل في الجُنَّة» أي ما اتقي بها كالتراس والبيضة والدرع، فتحدث عن كل من هذه الآلات ذاكراً أسماءها ووصفها وما قيل فيها.

ولم يهمل النويري «ديوان الجيش» فتحدث عن «ما يحتاج إليه كاتب الجيش على ما أستقر في زماننا هذا من المصطلح»[١٢٦] مؤكداً أن ما يذكره في هذا المجال إنما هو «القواعد التي استقرت» في زمانه[١٢٧]، ثم تحدث، باسهاب، عن عمل هذا

---

(١٢٤) م. ن. ص ١٨٩.

(١٢٥) م. ن. ص ١٨٠.

(١٢٦) م. ن. جـ٨ : ٢٠٠.

(١٢٧) م.ن. جـ٨: ٢٠٨. وزمان النويري هو النصف الأول من القرن الثامن الهجري كما مر معنا.

الديوان وخاصة ما يتعلق «باجناد الحلقة السلطانية» مما لا يدخل في مجال بحثنا باعتباره يتعلق بعهود متأخرة جداً عن العهد الذي نحن بصدده أي عهد الفتوح الإسلامية الأولى.

١٠ ـ ابن القيّم (شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أبي بكر ابن أيوب الزرعي الدمشقي المعروف بابن القيم إمام الجوزية)[١٢٨]، في كتابه (الفروسية)[١٢٩].

وأهم ما نجده في هذا الكتاب، من وجهة الفن العسكري، هو ما يلي:

ـ **أنواع القسي**، وهي في الأصل نوعان: قوس يد، وقوس رجل. وقوس اليد ثلاثة أصناف: عربية، وفارسية، وتركية. والعربية نوعان: حجازية وواسطية (وسميت كذلك لتوسطها بين القسي الحجازية والفارسية، وليس نسبة إلى واسط). وقوس الرجل صنفان: تركية، وقوس الجرخ وهي قوس لها جوزة ومفتاح ويستعملها أهل المغرب، [١٣٠]. ويتابع ابن القيم وصف كل من هذه القسي والمفاضلة بينها[١٣١].

ـ **أنواع الفروسية**، وهي أربعة: ركوب الخيل والكر والفر بها، والرمي بالقوس، والمطاعنة بالرماح، والمداورة بالسيوف، «فمن استكملها استكمل الفروسية، ولم تجتمع هذه الأربعة على الكمال إلا لغزاة الإسلام وفوارس الدين وهم الصحابة رضي الله عنهم»[١٣٢].

ـ **أصول الرمي وفروعه**: أصول الرمي خمسة، وقد اجتمعت في بيتين من الشعر هما:

---

(١٢٨) ولد عام ٦٩١هـ وتوفي بدمشق عام ٧٥١هـ.

(١٢٩) مطبعة الأنوار، دمشق، الطبعة الثانية، عام ١٣٦١ هـ ـ ١٩٤٢ م .

(١٣٠) الفروسية، ص ١٠٢ ـ ١٠٣ والجرخ: جمعها جروخ، من أدوات الحرب ترمى عنها السهام والحجارة (محيط المحيط).

(١٣١) م. ن. ص ١٠٣ ـ ١٠٧.

(١٣٢) م. ن. ص ١٠٧.

الرمي أفضل ما أوصى الرسول به / وأشجع الناس من بالرمي يفتخر
أركانه خمسة: القبض أولها / والعقد، والمد، والاطلاق والنظر[133]

وجعلها بعضهم أربعة فقال:

يا سائلي عن أصول الرمي أربعة / العقد والقبض والاطلاق والنظر[134]

أما فروع الرمي فهي تسعة:

«١ ـ المد على استواء وترفع.
«٢ ـ معرفة قدر قوسه ليكون على بصيرة من الرمي.
«٣ ـ معرفة مقدار سيّته.
«٤ ـ معرفة مقدار فُوق السهم وهو الغرض الذي يُجعل في الوتر.
«٥ ـ معرفة مقدار السهم.
«٦ ـ معرفة قدر قوته في نفسه.
«٧ ـ هيئات الجلوس والوقوف.
«٨ ـ قصد الإصابة لا البعد.
«٩ ـ النكاية»[135].

وكمال الرمي خصلتان هما: «ملاك أمره، فالصبر والتقى». وقال بعضهم إن أركان الرمي أربعة: «السرعة، وشدة الرمي، والإصابة والاحتراز». أما ما يحتاجه المرء لكي يتعلم الرمي «فاثنا عشر شيئاً: ثلاثة شداد، وثلاثة لينة، وثلاثة ساكنة، وثلاثة مستوية.

«ـ فأما الثلاثة الشداد: فالقبض بالشمال، والعقد باليمين، والمد بالذراع والساعد.

«ـ وأما الثلاثة اللينة: فالسبابة من اليد اليمنى، والسبابة من اليد اليسرى، ولين السهم في حال الجبذ.

---

(١٣٣) م. ن. ص ١٠٨.
(١٣٤) م. ن. ص. ن.
(١٣٥) م. ن. ص. ن. وسيّتا القوس: طرفاه المحنيان، وفُوق السهم: موضع الوتر منه.

«ـ وأما الثلاثة الساكنة: فالرأس، والعنق، والقلب.

«ـ وأما الثلاثة المستوية: فالمرفق، والنصل، والفُوق»[١٣٦].

ـ **آداب الرمي**: وما ينبغي للرامي أن يعتمده[١٣٧].

ـ **الخصال التي بها كمال الرمي**: وتشمل تعليم الرامي وضع الجسم وكيفية مسك القوس وكيفية التسديد وإطلاق السهم[١٣٨]. وهي أشبه ما يكون بعلم استعمال السلاح في عصرنا الحاضر.

ويستطرد ابن القيّم بعد ذلك في شرح أسرار الرمي[١٣٩] وأوضاعه، كوضع القيام (وهو على ثلاثة أوجه) ووضع الجلوس (وهو على عشرة أوجه)[١٤٠]، وطب الرمي وعلاج علله وآفاته وهي كثيرة يشرحها ابن القيّم بالتفصيل ويذكر علاج كل علة أو آفة[١٤١]. ويختم ابن القيّم بحثه هذا بشرح مفصل لأصول الرمي (أو أركانه) الخمسة (القبض والعقد والمد والإطلاق والنظر)، وصفة كل من هذه الأصول واختلاف الرأي حولها[١٤٢].

١١ ـ ابن خلدون (عبد الرحمن بن محمد بن خلدون المغربي)[١٤٣] في (مقدمته)[١٤٤].

حيث خصص فصلاً للحديث عن «الحروب ومذاهب الأمم وترتيبها» ومذاهب أهل الكر والفر، ومصاف الجند والتعبئة وما وراء العسكر من حيوانات

---

(١٣٦) م. ن. ص ١٠٨ ـ ١٠٩.. والجبذ: الجذب.
(١٣٧) م. ن. ص ١٠٩ ـ ١١٠.
(١٣٨) م. ن. ص ١١٠ ـ ١١١.
(١٣٩) م. ن. ص ١١٣.
(١٤٠) م. ن. ص ١١٣ ـ ١١٤.
(١٤١) م. ن. ص ١١٤ ـ ١١٨.
(١٤٢) م. ن. ص ١١٩ ـ ١٢٦.
(١٤٣) توفي عام ٨٠٨هـ.
(١٤٤) تاريخ العلامة ابن خلدون، المجلد الأول، مكتبة المدرسة ودار الكتاب اللبناني، ط ٣ بيروت ١٩٦٧. وقد انتهى المؤلف من وضع مقدمته هذه في منتصف عام ٧٧٩هـ (المقدمة، ص ٥٨٨).

ومتاع، وحرب الخنادق[145]. ويقدم ابن خلدون نظرة فلسفية في الحروب وأسبابها فيقول: «واعلم أن الحروب وأنواع المقاتلة لم تزل واقعة في الخليقة منذ براها الله وأصلها إرادة انتقام بعض البشر من البعض... وسبب هذا الانتقام في الأكثر إما غيرة ومنافسة وإما عدوان وإما غضب لله ودينه وإما غضب للمُلك وسعي في تمهيده...»[146]. ويعتبر «الجهاد» أحد أسباب الحروب إذ يقول: «والثالث - أي ثالث هذه الأسباب - هو المسمى في الشريعة بالجهاد». إلا أنه يميز بين الصنفين الأولين من هذه الحروب (أي تلك التي تكون بسبب الغيرة والمنافسة أو بسبب العدوان) فيعتبرها «حروب بغي وفتنة»، وبين الصنفين الآخرين (أي تلك التي تكون بسبب الغضب لله ودينه أو بسبب الغضب للمُلك والسعي في تمهيده) فيعتبرها «حروب جهاد وعدل»[147]، ثم يصنف أساليب الحروب عند الأمم فيجعلها نوعين هما: «نوع بالزحف صفوفاً ونوع بالكر والفر، أما الذي بالزحف فهو قتال العجم كلهم على تعاقب أجيالهم، وأما الذي بالكر والفر فهو قتال العرب والبربر من أهل المغرب» ثم يقرر أن «قتال الزحف أوثق وأشد من قتال الكر والفر، وذلك لأن قتال الزحف ترتب فيه الصفوف وتسوّى كما تسوّى القِداح أو صفوف الصلاة ويمشون بصفوفهم إلى العدو قُدُماً فلذلك تكون أثبت عند المصارع وأصدق في القتال وأرهب للعدو»[148].

ويتحدث ابن خلدون، بعد ذلك، عن تشكيل الجيوش «كراديس» ويعلل ذلك بالكثرة البالغة لأعداد الجند المحشودة في الجيوش حتى لا يختلط الأمر على المقاتلين في تدافعهم للقتال دون أن يعرف بعضهم بعضاً، لذلك «كانوا يقسمون

---

(١٤٥) المقدمة، الباب الثالث، الفصل السابع والثلاثون، ص ٤٧٩ - ٤٩٣.

(١٤٦) م. ن. ص ٤٧٩.

(١٤٧) م. ن. ص ٤٨٠.

(١٤٨) م. ن. ص. ن. ولكن قتال الكر والفر عند العرب كان في جاهليتهم وليس في إسلامهم حيث أصبح القتال عند العرب المسلمين قتالاً بالصفوف المسوّاة عملاً بالآية الكريمة ﴿إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص﴾ كما سبق وقدمنا.

العساكر جموعاً ويضمون المتعارفين بعضهم لبعض ويرتبونهم قريباً من الترتيب الطبيعي . . . ويسمون هذا الترتيب التعبئة، وهو مذكور في أخبار فارس والروم والدولتين صدرَ الإسلام»[149] ويصف، في أثناء حديثه عن «التعبئة»، تشكيل الجيش ميمنة وميسرة وقلب ومقدمة وساقة، وهو ما يسمى «الخميس».

ويتحدث بعد ذلك عن «المصافّ وراء العسكر» من الجمادات والحيوانات كدريئة للخيالة «في كرهم وفرهم»، ويذكر استعمال الفرس للفيلة في الحروب، كما في القادسية، حيث كانت، بما عليها من أبراج خشبية «أمثال الصروح مشحونة بالمقاتلة والسلاح والرايات، ويصفّونها وراءهم في حومة الحرب كأنها حصون»[150]. وقد عمد «الروم وملوك القوط بالاندلس وأكثر العجم» إلى اعتماد الأسرَّة ينصبونها لملوكهم في ساحة الحرب حيث «ترفع الرايات في أركان السرير ويحدِّق به سياج آخر من الرماة والرجّالة» إضافة إلى الحاشية والخدم والجنود الذين يحيطون بسرير مليكهم يذودون عنه سهام الأعداء وحرابهم[151].

وقد استعاض «أهل الكر والفر من العرب وأكثر الأمم البدوية الرحّالة» عن الفيلة والأسرَّة الملكية بالابل «والظهر الذي يحمل ظعائنهم فيكون فئة لهم» ويسمونها «المجبوذة»[152]، وقد تحوّلت هذه الابل فيما بعد إلى حاملة للأثقال حيث تشحن خلف القلب فيما يسمى «الساقه».

ويعود ابن خلدون فيذكر أن العرب تبنوا «قتال الزحف» أول الإسلام، وقد حملهم على ذلك أمران: «أحدهما أن أعداءهم كانوا يقاتلون زحفاً فيضطرون إلى مقاتلتهم بمثل قتالهم، والثاني أنهم كانوا مستميتين في جهادهم . . . والزحف إلى الاستماتة أقرب»[153]. ويذكر أن أول من أبطل قتال الصف في الإسلام وعبّأ جيشه

---

(١٤٩) م. ن. ص ٤٨١

(١٥٠) م. ن. ص ٤٨٢ - ٤٨٣.

(١٥٠) م. ن. ص. ن.

(١٥٢) م. ن. ص ٤٨٤، والمجبوذة: بمعنى «المجذوبة» وقد سميت الابل كذلك لأنها مجذوبة إلى الجيش ومشدودة إليه.

(١٥٣) م. ن. ص. ن.

كراديس هو «مروان بن الحكم في قتال الضحاك الخارجي والجبيري بعده»[١٥٤].

وتحدث بعد ذلك عن أساليب القتال عند «ملوك المغرب» و «أمم الترك»[١٥٥]، وعن استعمال الخنادق في الحروب، فذكر أن من أساليب الأُوَل في حروبهم «حفر الخنادق على معسكرهم عندما يتقاربون للزحف» وذلك «حذراً من البيات والهجوم على العسكر بالليل» لذلك فقد كانوا «يديرون الحفائر نطاقاً عليهم من جميع جهاتهم حرصاً أن يخالطهم العدو بالبيات»[١٥٦]. ويشيد ابن خلدون بوصية الامام علي (كرم الله وجهه) لجنده يوم صفين (وقد مرت معنا في أثناء حديثنا عن أسلوب الامام علي في التعليم الفردي للمقاتل) فيقول في ذلك «وانظر وصيّة علي (رضي الله عنه) وتحريضه لأصحابه يوم صفين تجد كثيراً من علم الحرب ولم يكن أحد أبصر بها منه»[١٥٧].

ويرى ابن خلدون أن «التثاقل في الحرب أولى من الخفوف»[١٥٨] ويستشهد على ذلك بوصية الخليفة عمر (رضي) لأبي عبيدة بن مسعود الثقفي لما ولاه حرب فارس والعراق إذ قال له: «إسمع وأطع من أصحاب النبي ﷺ وأشركهم في الأمر ولا تجيبن مسرعاً حتى تتبين، فإنها الحرب، ولا يصلح لها إلا الرجل المكيث الذي يعرف الفرصة والكف»[١٥٩]. كما يرى أن الغلبة في الحرب لا تكون باجتماع الأسباب الظاهرة لهذه الغلبة فحسب وهي: «الجيوش ووفورها وكمال الأسلحة واستجادتها وكثرة الشجعان وترتيب المصاف ومنه صدق القتال وما جرى مجرى

---

(١٥٤) م. ن. ص. ن ولكننا نعلم أن خالد بن الوليد كان أول من استخدم نظام الكراديس في اليرموك، ويستند ابن خلدون على الطبري في قوله هذا (م. ن. ص ٢٧٤). حيث قال: «قاتلهم مروان بعد ذلك بالكراديس وابطل الصف من يومئذ» ويتابع ابن خلدون: «فتنوسي قتال الزحف بابطال الصف ثم تنوسي الصف وراء المقاتلة»، وقول الطبري، كما قول ابن خلدون، لا يعنيان أن قتال الكراديس لم يكن معروفاً عند المسلمين قبل مروان بن الحكم.

(١٥٥) م. ن. ص ٤٨٥ ـ ٤٨٦.

(١٥٦) م. ن. ص. ٤٨٧.

(١٥٧) م. ن. ص. ن.

(١٥٨) م. ن. ص ٤٨٩ ـ ٤٩٠ أي أن التأني في الحرب أفضل من التسرع والخفة.

(١٥٩) م. ن. ص ٤٨٩.

ذلك»[١٦٠] وإنما هنالك أمور خفية تسهم في تأمين الغلبة لأي جيش، وهي: «إما من خداع البشر وحيلهم» كاحتلال المرتفعات ونصب الكمائن والتواري عن أنظار العدو ثم مباغتته، أو أن تكون «أموراً سماوية لا قدرة للبشر على اكتسابها» كما جرى في الفتوح الإسلامية «فإن الله سبحانه وتعالى تكفل لنبيه بالقاء الرعب في قلوب الكافرين حتى يستولي على قلوبهم فينهزموا معجزة لرسوله ﷺ فكان الرعب في قلوبهم سبباً للهزائم في الفتوحات الإسلامية كلها إلا أنه خفيٌّ عن العيون»[١٦١].

هذا بعض من كثير مما كتبه أوائل المفكرين المسلمين في شؤون الفن العسكري الإسلامي، وخاصة في أصوله ومبادئه، وكيفية ممارسة هذه الأصول والمبادىء في حروب المسلمين وفتوحهم، ويعتبر ما كتبه هؤلاء المفكرون من أهم مصادر الفن العسكري في الإسلام. ونحن، إذا لا ندعي، على الاطلاق، إننا جمعنا في هذه المقالة، كل ما كتبه السلف في هذا المجال، نعتبر أن ما أوردناه فيها إن هو ألا دليل متواضع للباحثين في هذا الحقل يستعينون به كمصدر من مصادر الفن العسكري الإسلامي.

---

(١٦٠) م. ن. ص ٤٩٠.
(١٦١) م. ن. ص ٤٩١.

المبحث الثاني

دراسة تطبيقية نموذجية
لمعارك العبور في الفتوح الإسلامية

مدخل الى البحث

التكتيك العسكري الإسلامي: أصوله ونشأته

إذا أردنا أن نحدد «للتكتيك» تعريفاً بمعناه العسكري لقلنا إنه «فن ترتيب الجند واستعماله على أرض المعركة» أو «فن القتال والمناورة» أو «فن إدارة المعركة». وانطلاقاً من هذا التعريف لا بد وأن يتضمن كل عمل عسكري قتالي تكتيكاً معيناً.

وانطلاقاً، كذلك من هذا المبدأ، يمكننا القول، خلافاً لآراء سابقة، أن عرب الجاهلية عرفوا، في حروبهم، تكتيكاً معيناً، وإن كان ساذجاً وبدائياً وبسيطاً، هو تكتيك «الكر والفر» في الوقت الذي كان باقي الأمم المتقدمة كالفرس والروم يستخدمون تكتيك «الزحف والصف» وهو «أوثق وأشد من قتال الكر والفر» كما مر معنا من قول ابن خلدون[1].

ومن خصائص التكتيك الجاهلي في «الكر والفر» أنه يعتمد على المبدأ القائل «أتقنوا الكرّة بعد الفرّة»، فهو يبدأ، عادة، بمبارزة بين رجال يختارهم كل من الفريقين المتحاربين، وغالباً ما تقرر المبارزة مصير المعركة وتحسمها، أما إذا لم يتم ذلك، أو لم تجر مبارزة، فتصبح المعركة كناية عن سلسلة من عمليات كر وفر بين المتقاتلين دون أية فكرة مناورة، بحيث «يكر» كل فريق على خصمه حتى يصبح في متناول سهامه فيرشقه بها، أو يلتحم معه بالسيف، حتى إذا أحس وهناً أو ضعفاً،

---

(١) ابن خلدون، المجلد الأول (المقدمة) ص ٤٨٠، وقد سبق وذكرنا ذلك.

انسحب من المعركة ثم عاد إليها من جديد بعد أن يستجمع قواه ويلتقط أنفاسه، وهكذا لم يكن من الممكن أن يحسم أي فريق المعركة لصالحه، وهذا ما يفسر استمرار القتال بين القبائل العربية فترات طويلة تحسب بالشهور، أو بالسنوات كما في حرب داحس والغبراء.

ويتميز تكتيك «الكر والفر» بالأمور التالية:

١ ـ لم يكن للقتال، وفقاً لهذا التكتيك، أهداف عسكرية محددة، بل كان العرب يقاتلون كراً دون نظام أو قاعدة أو هدف، حتى ييأسوا أو يكلوا، ثم يفرون ليكروا من جديد.

٢ ـ لم يكن ينتج عنه خسائر كبيرة في الأرواح، إلا ما ندر، كأن يصبح القتال اقتحاماً والتحاماً بالسيوف.

٣ ـ كان المقاتلون يضعون خلف صفوفهم ظعنهم وحيواناتهم فيتخذون منها ملجأ ودريئة في كرهم وفرهم بغية حث مقاتليهم على الثبات والصمود، ومنعهم من الفرار، فيكون ذلك «أدوم للحرب وأقرب إلى الغلب»[٢].

٤ ـ لم يكن المقاتلون يخضعون، في نظام الكر والفر هذا، إلى تشكيل قتالي معين، لذا يمكن القول إن حروب العرب في الجاهلية كانت أقرب ما يكون إلى المنازعات والمناوشات منها إلى الحروب الكلاسيكية المنظمة، فقد كانت تجري، في معظم الحالات، بين فريقين لا يزيد عدد الواحد منهم عن المائة مقاتل، باستثناء ما عرفنا من حروب كبيرة مثل حرب البسوس وحرب داحس والغبراء وحروب الغساسنة والمناذرة.

وإذا كان العرب، في جاهليتهم، قد اعتمدوا تكتيك «الكر والفر» في حروبهم القبلية خاصة، فذلك لا يعني، على الاطلاق، أنهم لم يعرفوا، من فنون القتال، غير هذا التكتيك البدائي، وقد سبق وبينّا، في مقالة سابقة[٣]، كيف كان

---

(٢) ابن خلدون، م. ن. ص. ٤٨٢ ـ ٤٨٣.

(٣) انظر: المدخل إلى البحث الأول: الفن العسكري الإسلامي: أصوله ونشأته.

الغساسنة، بحكم تحالفهم مع الروم، والمناذرة، بحكم تحالفهم مع الفرس، يتقنون أساليب القتال التي كان كل من الروم والفرس يتقنونها، وكان هؤلاء قد بلغوا، في فن الحرب، مرحلة متقدمة، فاكتسبت تلك القبائل، بحكم ارتباطها بهم ومحالفتها لهم، الكثير من الخبرة في مجال التكتيك والتنظيم العسكريين، وأتيح لها أن «تعبىء» جيوشها وفقاً لنظامي «الخميس والكراديس» وتعتمد في قتالها تكتيك «الزحف والصف» بدلاً من تكتيك «الكر والفر» تماماً كما كان الروم والفرس يفعلون.

ويمكننا أن نلاحظ، كذلك، أن قريشاً اعتمدت في حربها مع النبي ﷺ في وقعة أحد (٣هـ) تكتيكاً مغايراً لتكتيك الكر والفر المعتمد عند عرب الجاهلية، إذ أنها عبأت جيشها في «قلب وميمنة وميسرة ومؤخرة» ثم اعتمدت أسلوب المناورة في حركة الالتفاف البارعة التي قام بها خالد بن الوليد (وكان لا يزال في صفوف الجاهلية في قريش) وذلك عندما لاحظ تخلي رماة المسلمين عن مراكزهم قبالة جيش قريش وعلى جبل أحد، فالتف على المسلمين من وراء الجبل، وكانوا قد توغلوا في صفوف قريش حتى مضاربها، فقضى على من بقي من رماتهم، وانقضّ عليهم من الخلف، وكانت ظهورهم قد انكشفت له، فباغتهم، وشتت جيشهم وقتل كثيراً منهم، وقلب بمناورته هذه، هزيمة القرشيين، إلى نصر كبير[٤].

ولا ريب في أن الفضل في هذه المناورة وفي التكتيك الذي اتبعه خالد في هذه الوقعة، يعود إليه وحده، دون سواه من قادة قريش، وسوف تظهر عبقرية هذا القائد الفذ في حروبه مسلماً، كما ظهرت في حربه هذه وهو مشرك ضد النبي ﷺ.

مقابل تكتيك الكر والفر عند عرب الجاهلية، كان هناك تكتيك «الزحف والصف» عند الروم والفرس، جيران العرب في شبه الجزيرة، وأول من سوف يخوض المسلمون ضدهم معارك الفتوح في كل من العراق والشام.

كان الفرس والروم امبراطوريتين كبيرتين ومتقدمتين في فنون الحرب

---

(٤) انظر، لوقعة أحد، المؤلف نفسه، معارك خالد، ص ١٣٠ - ١٣٩.

والقتال، فكانوا يعتمدون نظام «الكراديس» وقتال «الزحف والصف» وقد سبق وشرحناهما في مقالات سابقة، وكانوا، لذلك، يعتمدون المناورة في حروبهم بدلاً من أسلوب الكر والفر الذي لا يعرف المناورة على الاطلاق، ويصف ابن خلدون ذلك النوع من القتال كما يلي: «ترتب فيه الصفوف وتسوّى كما تسوّى القداح أو صفوف الصلاة ويمشون بصفوفهم إلى العدو قُدُماً فلذلك تكون أثبت عند المصارع وأصدق في القتال وأرهب للعدو»[٥].

وجاء الإسلام ليغير تغييراً جوهرياً وجذرياً أسس التكتيك القبلي المتبع عند عرب الجاهلية، بل ويناقضه، بأن يعتمد نظام «الزحف والصف» ونظام «الكر دون الفر» أساساً للتكتيك في قتال المسلمين.

وإذا أردنا أن نفلسف أسباب انتقال العرب من تكتيك «الكر والفر» في جاهليتهم إلى تكتيك «الزحف والصف» و«الكر دون الفر» في إسلامهم لعزونا ذلك إلى سبب وحيد وهام يلخص كل أسباب ابداع المسلمين في حروبهم وفتوحهم وهو غاية القتال في الإسلام، فبينما لم يكن لعرب الجاهلية أي داع سماوي أو أي هدف مقدس يدعوهم إلى القتال، أوجد الإسلام لهؤلاء العرب، بعد إسلامهم، دعوة سماوية وهدفاً مقدساً يقاتلون لأجلهما، وهذان الدعوة والهدف هما «الجهاد في سبيل الله ونشر دينه».

وهكذا نستطيع القول إن) عرب الجاهلية، في معظم حروبهم، لم يكونوا مدفوعين بأسباب عقيدية سامية تجعلهم يُقبلون على الموت برضى واطمئنان، بل كانت معظم هذه الحروب إما حروباً ثأرية أو حروباً تستهدف السلب والغزو والغنائم، فكان من الطبيعي أن يتحاشى البدوي الموت في سبيل هذه المنافع الزائلة والأهواء الدنيوية، وما أن أتى الإسلام بمبادئه السامية مع ما اقترن بها من أفكار في الجهاد والاستشهاد في سبيل الله وابتغاء مرضاته، حتى كان طبيعياً أن يتغيّر أسلوب القتال بتغيّر أهدافه، فكان أن اعتمد المسلمون هذا النوع الجديد من التكتيك العسكري الذي يرتكز على مبدأ «القتال دون أدنى فكرة تراجع»، فكان هذا

---

(٥) ابن خلدون، م. ن. ص ٤٨٠.

التكتيك منبثقاً ولا شك من فكرة «الجهاد» في الإسلام، ومن الإيمان العميق بجوهر الإسلام ومبادئه، وخاصة من اعتبار الشهادة في القتال أقصى ما يمكن أن يطمح إليه أي مسلم، فكان «القتال دون فكرة تراجع» أو «القتال حتى الاستشهاد» أو «الكر دون الفر» هو البديل الصحيح للتكتيك القديم «الكر والفر» الذي اعتاده عرب الجاهلية.

ثم إن «نشر دين الله» يتطلب قتالاً خارج حدود الجزيرة العربية حيث يجب أن تُنشر الدعوة، فأرسلت جيوش المسلمين للقتال خارج هذه الحدود بدءاً بالعراق والشام، حيث كان الفرس والروم، وكان لا بد للمسلمين أن يواجهوا خصومهم بالأسلحة والأساليب القتالية نفسها التي يستعملها هؤلاء الخصوم، فكان أن أخذوا عنهم أسلحتهم وأساليبهم القتالية فصنعوها بدورهم وطوّروها واستعملوها ضد خصومهم وانتصروا بها عليهم، وقد قال في ذلك ابن خلدون: «كان الحرب أول الإسلام كله زحفاً، وكان العرب إنما يعرفون الكر والفر، لكن حملهم على ذلك (أي على الزحف) أول الإسلام أمران: أحدهما أن أعداءهم (وهم الفرس والروم) كانوا يقاتلون زحفاً فيضطرون (أي المسلمون) إلى مقاتلتهم بمثل قتالهم، والثاني: أنهم كانوا مستميتين في جهادهم لما رغبوا فيه من الصبر ولما رسخ فيهم من الإيمان، والزحف إلى الاستماتة أقرب»[٦]. ثم إن الإسلام، نفسه، فرض على المسلمين، صراحة وبلا مواربة، «التكتيك العسكري» الذي يجب أن يتبعوه في قتالهم، فهو فرض عليهم «قتال الزحف والصف» وقتال «الكر دون الفر» تحت طائلة التكفير وغضب الله، كما فرض عليهم «الجهاد» وزين لهم «الاستشهاد» في سبيل الله.

ـ ففي قتال «الصف» نزلت الآية الكريمة ﴿إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص﴾.

ـ وفي قتال «الزحف» و «الكر دون الفر» نزلت الآية الكريمة: ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفاً فلا تولوهم الأدبار»، والآية: ﴿يا أيها الذين

---

(٦) ابن خلدون، م. ن. ص ٤٨٤.

آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون﴾.

- وفي فرض المناورة في القتال ووضع الفارين من وجه العدو بمرتبة الكافرين نزلت الآية الكريمة: ﴿ومن يولِّهم يومئذ دبره إلا متحرفاً لقتال أو متحيزاً إلى فئة فقد باء بغضب من الله ومأواه جهنم وبئس المصير﴾ وقال رسول الله ﷺ: «الحرب خدعة».

- وفي فرض الجهاد على المسلمين كافة نزلت الآية الكريمة ﴿أنفروا خفافاً وثقالاً وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون﴾.

- وفي تزيين الشهادة للمسلمين نزلت الآية الكريمة ﴿فليقاتل في سبيل الله الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة ومن يقاتل في سبيل الله فيُقتل أو يَغلب فسوف نؤتيه أجراً عظيماً﴾وقول رسول الله ﷺ «ما من أحد يدخل الجنة يحب أن يرجع إلى الدنيا وأن له ما على الأرض من شيء غير الشهيد فإنه يتمنى أن يرجع فيُقتل عشر مرات لما يرى من الكرامة ». وغير ذلك من الآيات الكريمة والأحاديث النبوية الشريفة في هذا المعنى كثير[٧]، وليس هناك أدل من هذه الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة، وأكثر صراحة منها، للاستشهاد بها على الأمر السماوي الكريم الذي أمر الله به المسلمين في اختياره الاسلوب الذي يجب أن يتبعوه في قتالهم مع المشركين، وهو أمر يضاهي أكثر الأوامر العسكرية في عصرنا الحديث دقة واختصاراً وشمولاً ووضوحاً. ولا شك في أن ما أظهره المسلمون من سرعة في استيعاب الأسلوب الجديد في القتال واعتمادهم التكتيك الجديد بسهولة ويسر فائقين، فاجأ خصومهم. فقد كان القادة المسلمون يرتبون صفوفهم للقتال كما يرتبونها للصلاة، ثم يتقدمون نحو العدو صفوفاً متراصة، ويتكردسون في مواجهته «كراديس» في ترتيب معين ونظام محدد، وما أن يشتبكوا معه في القتال حتى يوغلوا في التقدم غير عابئين بما يتساقط عليهم من نبال أعدائهم أو ما يصيبهم من ضربات سيوف أولئك الأعداء، فيناورون يمنة ويسرة وقلباً كأفضل ما تكون المناورة، ويستعملون

---

(٧) سبق وفصلنا ذلك في مقالتين سابقتين (الأولى والثانية من البحث الأول)، فارجع إليهما.

قواتهم في القتال ببراعة وحنكة فائقتين، كأفضل ما يمكن أن يستعمل أي قائد ناجح قواته في قتال، يضاف إلى ذلك ما منحتهم عقيدة الإسلام من إيمان بالله وثقة بالنفس واستخفاف بالحياة وطلب للشهادة حيث تظل هذه القيم السامية والمثل العليا العامل الأهم والأساسي في أي انتصار أحرزه المسلمون في حروبهم.

وكانت وقعة «بدر» (٢هـ) أول وقعة طبق المسلمون فيها هذا التكتيك الجديد في القتال، ويذكر أن النبي ﷺ استعرض الصفوف يوم بدر فأشار إلى أحد المقاتلين وهو «سواد بن غُزية» وقد ظهر ناتئاً أمام صفّه فقال له «إستوِ يا ابن غُزية». وقد قاتل المسلمون في «بدر» معتمدين التكتيك الجديد فزحفوا نحو العدو في صفوف متراصة «ودون فكرة تراجع»، جاعلين خلفهم ابلهم ونساءهم وأولادهم كحاجز مادي ونفسي يمنعهم من الفرار أو التقهقر، فكان الغاء فكرة «الفر» في القتال إلغاءً تاماً، في التكتيك الإسلامي، مفاجأة صاعقة لخصوم المسلمين.

واعتمد المسلمون المناورة في القتال وبرعوا بها، ففي «مؤتة» (٨هـ) كان جيش المسلمين لا يتجاوز الثلاثة آلاف مقاتل، وكان جيش الروم يفوق جيش المسلمين أضعافاً (ماية ألف من الروم وأخرى من القبائل المستعربة من لخم وجذام والقين وبهراء وبلى)، وكانت الحرب قد فرضت على المسلمين، في هذه الوقعة، فرضاً، ولم يكن ممكناً لتلك القلة منهم أن تنتصر على هذه الكثرة من الروم، فما أن بادر الفريقان للقتال حتى استشهد القادة الثلاثة الذين عينهم النبي ﷺ لقيادة الجيش وهم بالتتالي: زيد بن حارثة، وجعفر بن أبي طالب، وعبد الله بن رواحة، فتسلم خالد بن الوليد قيادة جيش المسلمين وكانت أول معركة يخوضها وهو مسلم، وكانت مهمته إنقاذ هذا الجيش من هلاك محتم، فقام بمناورة بارعة أدت إلى إنقاذ المسلمين بعد فصم القتال مع الروم، وتعتبر مناورة خالد في مؤتة من أروع المناورات التضليلية التي قام بها قائد في حرب[٨].

---

(٨) انظر، لغزوة مؤتة، كتاب «معارك خالد» للمؤلف، ص ١٤٣ ـ ١٤٩ وقد شرحنا هذه المناورة في مقالة سابقة (المقالة الرابعة من البحث الأول).

لم تعوز المسلمين إذن، بداهة المناورة وعبقريتها، في تكتيكهم العسكري، وخـلال حروبهم كافة، ونجد في التاريخ العسكري الإسلامي، منذ بدء القتال في سبيل نشر دعوة الإسلام وخـلال الفتوح، شواهد كثيرة على العبقرية العسكرية لدى القادة المسلمين في المناورة وفن القتال.

ومما لا شك فيه أن التكتيك العسكري عند المسلمين قد تطور منذ بدء الدعوة وحتى نهاية الفتوح تطوراً كبيراً، فتكتيك المسلمين في حروبهم داخل الجزيرة العربية وضد قبائل العرب المشركين والمرتدين هو غيره في حروبهم ضد الفرس والروم خارج حدود هذه الجزيرة، ثم خارج حدود القارة الآسيوية بكاملها، في إفريقيا وأوروبا، إذ كان المسلمون، كلما تقدموا في فتوحهم، أمعنوا في الحرب مراساً وازدادوا لفن الحرب اتقاناً، مستفيدين، من جهة، من التكتيك الذي يواجههم به خصومهم والذي كان ولا شك متقدماً على التكتيك الذي يعتمدونه هم (إذ أنهم كانوا يقاتلون دائماً أمما متقدمة عليهم)، ومستفيدين، من جهة أخرى، من تجاربهم المتكررة في القتال.

وهكذا نرى أن التكتيك العسكري عند المسلمين لم يكن جامداً بل كان مرناً وخاضعاً لما تتمخض به عبقرية القائد في فن المناورة والحيل في الحروب، إذ كان كل قائد يدخل على التكتيك الذي يتبعه في المعركة تعديلات تفرضها ظروف المعركة واحتياجاتها، فيحرك قواته ويناور بها بكل حرية وبلا عقد، فبينما هو يقاتل في نظام «الصفوف» إذا به ينتقل إلى نظام «الكراديس» ثم إلى نظام «الكراديس والخميس» مجتمعين أو إلى نظام «استثنائي» يميز فيه، خلافاً لكل قاعدة، بين المسلمين، فتقاتل كل قبيلة على حدة، تحريضاً للقبائل على التنافس في القتال كما جرى في وقعة عقرباء، ضد مسيلمة الكذاب، عندما أمر خالد بن الوليد المقاتلين من المسلمين بأن «امتازوا أيها الناس لنعلم بلاء كل حي، ولنعلم من أين نُؤتى» فامتاز المهاجرون والأنصار عن بقية الأعراب، وهو أسلوب جديد في القتال لم نألفه عند أحد من القادة قبل خالد[9]. وهكذا كان المسلمون يقاتلون في مختلف

---

(٩) انظر لهذه الوقعة، كتاب «معارك خالد» للمؤلف، ص ١٥٨ - ١٦٣ .

تنظيمات القتال ، في نظام الصفوف أو نظام الخميس أو في كليهما مجتمعين، وفي كراديس وكتائب يتألف منها الجيش بكـامله . ويناور القـائد بجيشـه ،من خلال هذه التنظيمات والتشكيلات العسكرية ، بسهولة ويسر .

وقد عرف المسلمـون، في هذه الفـترة من نضالهم العقيـدي، التعبئة بنوعيهـا[١٠] : العامة والخاصة، فكان المسلمون يعبأون جميعهم للقتال، إذا دعت الحاجة، دون أن يتخلف أحد منهم، فكانوا يمثلون، في الواقع «أمة مسلحة»، كما كانوا يخوضون ما يسمى «بالحرب الجماعية» أو «حرب الأمة المسلحة»، وكان ذلك يتطلب من المسلمين «تعبئة عامة». أما «التعبئة الخاصة أو الجزئية» فكانت تتم على جزء من المسلمين أو فئة منهم، كأن يجهز النبي ﷺ، أو أحد خلفائه، سرية، أو أكثر، لمهمة عسكرية محدودة.

ولم تكن المعارك التي جرت في جزيرة العرب، وبعد فتح مكة، تحتاج، غالباً، إلى «تعبئة جماعية» للمسلمين، بل كانت السرايا تجهز لقتال القبائل التي لم تدخل بعد في الإسلام، وما أن توفي النبي ﷺ وتولى أبو بكر (رضي) الخلافة بعده، وبدأت حركة الارتداد عن الإسلام في شبه الجزيرة العربية، حتى جيَّش الخليفة الجيوش لمحاربة المرتدين، وما أن فرغ من ذلك حتى سيّرها للفتوح في كل من العـراق والشام ، وفي كلتـا الحالتـين ، أي في حروب الـردة وحـروب الفتـوح ، كانت تعبئة المسلمين «عامة» ، إلا أنها ، في أي حال ، لم تكن إجبارية .

ولئن كان خالد بن الوليد يعتبر أول مجدد في التكتيك العسكري في حروب المسلمين، باستخدامه لنظام «الكراديس» الذي أخذه عن البيـزنطيـين في الشام، وطوّره وفقاً لأوضاع جيشه (كان الكردوس في الجيش البيزنطي مؤلفاً من ستمائة مقاتل بينما كان في الجيش الإسلامي وفي عهد خالد يتألف من ألف مقاتل على القاعدة العشرية)، وبتعبئة هذا الجيش «تعبئة خالدية» لم يعرفها العرب من قبل [١١] وخاصة في معركة اليرموك بالشام، فقد أسهم غيره كذلك، من قادة الفتوح في

(١٠) المقصود بكلمة «التعبئة» هنا هو المعنى الحديث لها أي «الحشد Mobilisation» وقد كانت تعني في عهد الفتوح الإسلامية «تنظيم الجيوش وترتيبها في أثناء السير للقتال وفي القتال» .

(١١) سبق وتحدثنا عن ذلك في مقالتين سابقتين (الثالثة والرابعة من البحث الأول) فارجع إليهما.

الإسلام، في تطوير هذا التكتيك وتجديده، سواء في العراق، أم في بلاد فارس، أم في مصر بافريقيا، أم في بلاد الأندلس، وهو ما سوف نراه في دراستنا التطبيقية النموذجية لبعض معارك المسلمين في هذه الفتوح.

المقالة الأولى

اليرموك
أو
معركة العبور إلى بلاد الشام
"١٣هـ - ٦٣٤م"

اليرموك، واد بناحية الشام في طرف الغور، يجري فيه نهر اليرموك الذي يصب في نهر الأردن، ثم يمضي إلى البحر الميت، وقد جرت المعركة المسماة باسمه بين الروم بقيادة ماهان (أوباهان) ملك أرمينيا[١]، والمسلمين بقيادة خالد بن الوليد، وأهمية هذه المعركة أنها كانت حاسمة في إنهاء حكم الروم بالشام وفتح المسلمين لتلك البلاد، وقد بدأت في ١٢ رجب عام ١٣هـ الموافق لـ ١١ أيلول ٦٣٤م، واستمرت خمسة أيام كاملة[٢].

(١) الواقدي، فتوح الشام، جـ ١ : ٩٧، وذكر الطبري (تاريخ الرسل والملوك، جـ ٣ : ٣٩٣) أن هرقل أمّر على الناس «التذارق» أي «تيودور» أخاه، وأن خالداً نزل في «رواق تذاوق» في اليرموك عندما انتصر على الروم (ص ٤٠١)، كما ذكر ابن الأثير (الكامل في التاريخ، جـ ٢ : ٤١٣) أن خالداً «نزل في رواق تذاوق» بعد انتصاره في اليرموك. ولكننا لا نجد أي أثر لتذارق في هذه المعركة على الإطلاق، بعكس «ماهان» الذي يجعله الواقدي دائم الحضور في قيادته للمعركة طيلة أيامها دون أن يأتي على أي ذكر لتذارق، إضافة إلى أن الطبري وابن الأثير يذكران مقتل «التذارق» أو «خليفة هرقل» في أجنادين.

(٢) يجدر بنا، قبل البحث في معركة اليرموك، أن نشير إلى رأي أورده المؤرخ جورج مرعي حداد في كتابه (فتح العرب للشام، ص ٤٢ ـ ٤٧) نقلاً عن المستعرب الهولندي ميخائيل دي غويي Michael Jan De Goeje (١٨٣٦ ـ ١٩٠٩)، وهو أن أجنادين، حيث جرت المعركة التي سميت باسمها، والتي سبق أن تحدثنا عنها، لم يعين موقعها بالضبط، فيقول ابن اسحق (الطبري) أن أجنادين واقعة بين الرملة وبيت جبرين، ويقول البكري أنها واقعة بين الرملة والخليل. وبين هذه المدن نجد مدينة قديمة اسمها (يرموث) أو (يرموتشا). إذن يمكن القول أن هنالك معركتين تدعيان «اليرموك»: الأولى هي (يرموك أو يرموث)، وهي معركة أجنادين التي جرت سنة ١٣هـ، والتي سبق أن تحدثنا عنها، والثانية هي (يرموك أو هيروماكس)، وهي معركة اليرموك التي نحن بصددها الآن، والتي =

١ ـ الوضع العسكري في بلاد الشام عشية اليرموك:

أ ـ الروم: كانت قوات الروم في بلاد الشام، وعشية دخول المسلمين إلى هذه البلاد، تبلغ نحو ثلاثماية ألف جندي موزعين على جيشين:

الأول: في فلسطين، بقيادة «سرجيوس» وعديده ماية ألف جندي.

والثاني: في باقي بلاد الشام بقيادة «تيودور» أخي هرقل وعديده مايتا ألف جندي.

وكانت قيادة الجيش الأول في فلسطين، وقيادة الجيش الثاني في انطاكية، أما القيادة العامة للجيوش الرومية في بلاد الشام فكانت في انطاكية كذلك.

وقد تمركزت هذه القوات في جميع أنحاء البلاد في مواقع وحصون أنشئت خصيصاً لذلك ووفقاً لاستراتيجية دفاعية محكمة، وربطت بين هذه المراكز

= استعارت من نهر اليرموك اسمها والتي يعتقد بعض المؤرخين (الواقدي) أنها جرت سنة ١٥هـ.

ويعتقد «دي غويي» أن سبب الإختلاف في تحديد تاريخ معركة اليرموك الأخيرة (وهي الكبرى) هو الوقوع في خطأ عدم التفريق بين أخبار المعركتين في رواية سيف (الطبري)، أي أنه عرف بحدوث معركة أسمها اليرموك، ولكنه لم يميز بينها وبين سابقتها (يرموث)، فروى أخبار يرموث (أي أجنادين) معتقداً أنها (هيروماكس) أي اليرموك الشهيرة.

ويرى المؤرخ حداد أنه لا بأس من قبول هذه النظرية «لما فيها من الفائدة»، ويحاول تأكيد صحتها بالاستناد إلى تاريخ متفق عليه هو تاريخ وفاة الخليفة أبي بكر (رضي) في جمادي الثاني سنة ١٣هـ (١ب ٦٣٤م) أي بعد وقعة أجنادين بوقت قصير. وبما أن البلاذري وسيف يضعان معركة اليرموك بعد أجنادين فهما يقولان إن خبر وفاة أبي بكر قد وصل إلى المسلمين في أثناء معركة اليرموك. ويعود حداد إلى تحليل التواريخ فيقول: «وبما أن أبا بكر توفي في أواخر جمادي الثاني فإن خبر وفاته يجب أن يكون وصل إلى المسلمين في شهر رجب لأن العهد لم يكن عهد برقيات لاسلكية. لذا وجب أن تكون المعركة حدثت في شهر رجب إذا صدقنا أقوالهم من أن خبر وفاة أبي بكر وصل في أثناء المعركة. فإذا حدثت المعركة في رجب، ونحن نعلم أن معركة اليرموك حدثت في رجب عام ١٥هـ، فقد يكون سيف وأصحابه قد ضلوا فوضعوا معركة اليرموك (هيروماكس) بدل يرموك (يرموث) التي حدثت عام ١٣هـ وبالفعل فإن البلاذري يعود فيذكر اليرموك ثانية في رجب عام ١٥هـ بعد أن ذكرها عام ١٣هـ». (انتهى تحليل المؤرخ حداد).

ورغم أننا لا نرى موجباً للأخذ بهذا التحليل، انطلاقاً من اقتناعنا بصحة الرأي الآخر الذي يحدد سنة ١٣هـ تاريخاً لمعركة اليرموك، فإننا نترك للمؤرخين المحدثين أمر مناقشة هذا الرأي واتخاذ موقف منه (المؤلف).

العسكرية طرق أعدت لتسهيل الاتصال فيما بينها من جهة وبينها وبين القيادة العامة بانطاكية من جهة أخرى. أما بلاد الشام كلها فكانت مقسمة إلى ست مناطق عسكرية رئيسة هي: انطاكية وقنسرين وحمص وعمان وأجنادين وقيسارية، وكان لكل منطقة من هذه المناطق حامية عسكرية يقودها قائد رومي.

وكانت الجيوش الرومية في بلاد الشام مجهزة بأحدث الأسلحة المعروفة في ذلك العصر، وتتبع أحدث الأساليب القتالية، كما كانت من أقوى جيوش ذلك العصر عدة وسلاحاً وآلات حرب ووسائل انتقال واتصال، يضاف إلى ذلك أنها تحارب في مواقعها وحصونها وعلى أرض تعرفها تماماً، وقريباً من مراكز تموينها، وباتصال مباشر فيما بينها ومع قيادتها العليا، الأمر الذي لم يكن متيسراً، على الاطلاق، للجيوش الإسلامية الغازية.

إلا أن الجندي الرومي، كان، بعكس المقاتل المسلم، بطيء الحركة، كثير الأحمال والأثقال، يصلح للدفاع أكثر منه للهجوم، ويؤثر الحرب على أرضه وبالقرب من قواعد تموينه.

وكانت خطة الروم تقضي بأن يستدرج المسلمون إلى داخل بلاد الشام حيث توكل إلى الجيش الأول مهمة مقاتلتهم في فلسطين، بينما توكل إلى الجيش الثاني مهمة مقاتلتهم في باقي البلاد، لذلك فإنهم تراجعوا بسرعة أمام المسلمين بعد أن تخلّوا عن البلدان المتاخمة لشبه الجزيرة العربية من الحدود الشامية، ثم وزع هرقل قواته، لمواجهة المسلمين، على الشكل التالي:

- أرسل أخاه تذارق (تيودور) لمواجهة عمرو بن العاص (في تسعين ألفاً).
- وبعث جرجة بن توذرا نحو يزيد بن أبي سفيان.
- وبعث الدارقص نحو شرحبيل بن حسنة.
- وبعث الفيقار بن نسطوس نحو أبي عبيدة (في ستين ألفاً)[3].

---

(٣) الطبري، المصدر السابق، جـ٣ : ٣٩٢ وابن الأثير، المصدر السابق، جـ٢ : ٤٠٦، وقد تخلى «تذارق» عن قيادة «الجيش الأول» في فلسطين وقبالة عمرو بن العاص، إلى «سرجيوس» وانتقل إلى انطاكية ليتسلم قيادة الجيش الثاني.

ب ـ **المسلمون**: دخلت الجيوش الإسلامية إلى بلاد الشام، في أواخر العام ١٢هـ، وفي أربع فرق:

ـ **الأولى**، بقيادة يزيد بن أبي سفيان، **وهدفها دمشق**.

ـ **الثانية**، بقيادة شرحبيل بن حسنة، **وهدفها بصرى عاصمة حوران**.

ـ **الثالثة**، بقيادة أبي عبيدة بن الجرّاح، **وهدفها حمص**.

ـ **والرابعة**، بقيادة عمرو بن العاص، **وهدفها فلسطين**.

وأبقى الخليفة، في المدينة، فرقة احتياط عديدها ٦ آلاف مقاتل، بقيادة عكرمة بن أبي جهل.

وكان عديد كل من الفرق الثلاث الأولى يراوح بين ٣ و٤ آلاف مقاتل، أما الفرقة الرابعة فكان يراوح عديدها بين ٦ و٧ آلاف مقاتل، فيكون عديد القوات الإسلامية التي دخلت بلاد الشام في بادىء الأمر ما بين ١٥ و ١٩ ألف مقاتل. ولكن هذا العدد ارتفع، فيما بعد، حتى بلغ نحو سبعة وعشرين ألف مقاتل، الحق بهم:

ـ ثلاثة آلاف من فلول خالد بن سعيد، وكان قد سيّره أبو بكر إلى الشام، ثم ردّه.

ـ وعشرة آلاف أتوا مع خالد بن الوليد من العراق.

ـ ثم تبعهم عكرمة بن أبي جهل مع احتياطه في المدينة وعديده ستة آلاف مقاتل[٤].

= ويذكر الطبري (جـ٣: ٤٠٢) أن هرقل أشار على قادته بأن لا يقاتلوا المسلمين، وأن يصالحوهم، إذ قال: «أرى من الرأي أن لا تقاتلوا هؤلاء القوم وأن تصالحوهم، فوالله لئن تعطوهم نصف ما أخرجت الشام وتأخذوا نصفاً وتقر لكم جبال الروم خير لكم من أن يغلبوكم على الشام ويشاركوكم في جبال الروم»، ولكن القادة عصوه وأصروا على القتال. ووردت بالمعنى ذاته عند ابن الأثير (المصدر السابق، جـ٢ : ٤٠٦).

(٤) الطبري، المصدر السابق، جـ٣ : ٣٩٤ ـ ٣٩٥ وابن الأثير، المصدر السابق، جـ٢ : ٤١٠. =

فيكون مجموع القوات الإسلامية التي دخلت بلاد الشام لفتحها نحو ستة وأربعين ألف مقاتل، منهم عشرة آلاف فارس، وهو أكبر عدد بلغته قوات المسلمين في هذه البلاد.

ولم تكن القوات الإسلامية التي دخلت بلاد الشام تتمتع بما كانت تتمتع به القوات الرومية في هذه البلاد من تفوق سواء من حيث العدد أو العدة أو السلاح أو وسائل الدفاع والانتقال والاتصال والتموين، هذا بالإضافة إلى أن الفرق الإسلامية كانت تقاتل بعيدة عن قيادتها العامة وعن مراكز تموينها ويصعب عليها الاتصال فيما بينها، وكان المقاتل المسلم يقاتل في أرض غير أرضه وبلاد غير بلاده وفي مناخ يختلف عن المناخ الصحراوي الذي ألفه واعتاد عليه، إلا أنه كان، بعكس الجندي الرومي، سريع الحركة، خفيف الأحمال والأثقال، يصلح للهجوم أكثر منه للدفاع، ينتقل بسرعة كبيرة، هينّ عليه شدّ الرحال والانتقال، بسهولة ويسر، من جبهة إلى أخرى، تماماً كما جرى مع خالد بن الوليد في انتقاله المدهش من جبهة العراق إلى جبهة الشام.

وما أن استقر قادة الفرق الإسلامية في بلاد الشام واكتشفوا خطة الروم لمواجهتهم حتى تكاتبوا فيما بينهم وقرروا وضع خطة معاكسة لخطة الروم تتلخص بما يلي:

الجلاء بأقصى سرعة عن المواقع التي احتلوها في داخل البلاد، والتراجع حتى بصرى مع تجنب الاشتباك بالعدو والانسياق إلى معركة غير متكافئة معه، ثم اجتماع الفرق الثلاث الأولى (يزيد وشرحبيل وأبو عبيدة) في جوار بصرى والاتصال بعمرو بن العاص في فلسطين، حيث يتم التشاور بعد ذلك لإعداد المرحلة المقبلة[٥].

= ويذكر الواقدي (المصدر السابق، جـ١ : ١١٠) أن الخليفة عمر ألحق بهذه القوات سبعة آلاف مقاتل (ستة آلاف من أهل اليمن وحضرموت وألف من مكة والطائف ووادي نخلة وثقيف) بقيادة سعيد بن عامر.

(٥) كان الرأي باجتماع الفرق لقائد فرقة فلسطين عمرو بن العاص، إذ أنه، لما استشير بالأمر، كتب إلى القادة الباقين يقول: «إن الرأي لمثلنا الاجتماع، فإن مثلنا إذا اجتمعنا لا نُغلب من قلة، فإن تفرقنا =

وكتبوا إلى الخليفة يستشيرونه بذلك ويستأذنونه فوافقهم على رأيهم وإذن لهم، عندها نفذ القادة الثلاثة الخطة بسرعة، فجلا أبو عبيدة عن حمص، وجلا يزيد عن الغوطة رافعاً الحصار عن دمشق، وجلا شرحبيل رافعاً الحصار عن بصرى، واجتمع الثلاثة مع فرقهم بجوار بصرى، بينما سار عمرو بمحاذاة الضفة الغربية للأردن ليقترب منهم ويتصل بهم.

ولكن الخليفة أبا بكر، وهو العالم بضآلة عدد المسلمين في الشام وكثرة عدد الروم وشدّة بأسهم، رأى أن يعزز قواته هناك بقائد صلب من قادته يسلمه زمام القيادة ويحمله عبء فتح هذه البلاد، ولم ير لذلك أفضل من خالد بن الوليد الذي كان قد أبلى في جبهة العراق، أحسن البلاء، فكتب إليه، وكان في الحيرة، يأمره بالتوجه بنصف جيشه للإنضمام إلى زملائه في الشام، فتوجه بعشرة آلاف مقاتل من العراق إلى الشام في مسيرة شاقة استمرت زهاء ١٨ يوماً قطع خلالها المسافة بين الحيرة وبصرى بما يشبه المعجزة.

٢ ـ الاستعداد للقتال:

٢١ ـ القوى المتقابلة:

أ ـ الروم: كان الجيش الرومي الأول قد هزم في معركة أجنادين التي خاضها ضد خالد فور وصوله إلى الشام (جمادي الأولى ١٣هـ ـ ٦٣٤)، وكان هرقل قد كتب إلى بطارقته فور علمه بدخول المسلمين إلى الشام، ان «اجتمعوا لهم وانزلوا بالروم منزلاً واسع العطن واسع المطّرد ضيق المهرب، وعلى الناس التذارق، وعلى المقدمة جرجه، وعلى مجنبتية باهان والدراقص، وعلى الحرب الفيقار، وابشروا فإن باهان في الأثر مدد لكم»[٦]، وكان هذا الجيش مؤلفاً من «مايتي ألف وأربعين ألف مقاتل، منهم ثمانون ألف مقيد وأربعون ألف مسلسل للموت وأربعون ألفاً

= لا يقوم كل فرقة له بمن استقبلها لكثرة عدونا» (ابن الأثير، م. ن. جـ٢ : ٤٠٦، وقارن: الطبري، م. ن. جـ٣ : ٣٩٢).

(٦) الطبري، م. ن. جـ٣ : ٣٩٣.

مرّبطون بالعمائم لئلا يفرّوا، وثمانون ألف راجل»[7]، وهم خليط من الروم والأرمن والعرب المتنصّرة بالشام، والروس والصقالبة والفرنجة[8].

ب ـ **المسلمون**: اجتمع خالد، فور وصوله إلى بصرى، بقادة الفرق الثلاث، فتدارس معهم الموقف من جميع جوانبه، وكان عليه أن يقرر[9] أحد أمرين:

الأول: أن يجمع المسلمين في بصرى، وذلك بعد أن يوعز إلى عمرو بالانضمام إليه، ثم ينتظر جيش الروم لينازله في موضعه.

والثاني: أن يسرع لنجدة عمرو في فلسطين فينضم إليه ويخوضون جميعاً معركة حاسمة ضد الروم في فلسطين حتى إذا انتصر تفرغ لقتالهم في اليرموك، فيضمن بذلك مؤخرته. واختار خالد الأمر الثاني، فكتب إلى عمرو يطلب إليه مشاغلة الروم ريثما يصل مع الفرق الثلاث، ثم انطلق مسرعاً لملاقاته. وكان اللقاء في «أجنادين» حيث خاض المسلمون، مجتمعين، معركة حاسمة ضد الجيش الرومي الأول فهزموه، وانطلقوا جميعاً، بقيادة خالد، إلى اليرموك، لملاقاة باهان، وذلك بعد أن اطمأنوا إلى أن الجيش الرومي الأول لن يتمكن من التقاط أنفاسه في وقت قريب بعد هزيمته بأجنادين، وأنهم سوف يلاقون باهان وجيشه، وهم مطمئنون أن لا عدو خلفهم[10].

---

(٧) ابن الأثير، م. ن. جـ٢ : ٤١٠.

(٨) الواقدي، م. ن. جـ١ : ٩٧. إلا أن الواقدي يذكر أن عدد جيش الروم هذا كان ثمانماية ألف مقاتل «غير التبّع» (م. ن. جـ١ : ١٠٧) ولكن هذا الرقم مبالغ فيه كثيراً.

(٩) يذكر الواقدي أن قائد جيش المسلمين في اليرموك كان أبا عبيدة (م. ن. جـ١ : ٩٩) إلا أن أبا عبيدة أمر أصحاب الرايات في الجيش (أي قادة الكراديس والفرق) أن يسمعوا لخالد ويطيعوا أمره (م. ن. جـ١ : ١١٨) فتسلم خالد قيادة الجيش بصورة فعلية بينما كان أبو عبيدة قائداً بالاسم فقط. ولكن الطبري (م. ن. جـ٣: ٣٩٨)، يخالف هذا الرأي عندما يذكر أنه، في أثناء القتال باليرموك، وصل كتاب من المدينة ينبىء بموت الخليفة أبي بكر ومبايعة عمر بالخلافة، وتأمير أبي عبيدة على الجيش، ويوافقه على ذلك ابن الأثير (م. ن. جـ٢ : ٤١٢). إلا أن ما يذكره الواقدي يتفق مع ما ذكره بأن معركة اليرموك جرت في عهد الخليفة عمر، في رجب عام ١٥هـ (م. ن. جـ١ : ١٣٦).

(١٠) اختلف المؤرخون فيمن اختار اليرموك مكاناً للمعركة (الروم أم المسلمون) فذكر الطبري (م. ن. =

٢٢ ـ دارسة أرض المعركة:

يقع سهل اليرموك بين بحيرة طبرية غرباً، ووادي اليرموك جنوباً، وجبل العرب شرقاً، ومنطقة القنيطرة شمالاً. وهي، من الناحية الجغرافية، المنطقة الأكثر انفتاحاً على هذا السهل واتصالاً به، إذ أنه محاط من الجهتين الغربية والجنوبية بمنحدرات حادة، فيحده: من الغرب، وادي الرقاد، الذي يتصل بنهر اليرموك عند الواقوصة (أو الياقوصة)، ثم بحيرة طبرية الواقعة غرب هذا الوادي، والتي تشكل حاجزاً طبيعياً بين هذا السهل وغرب بلاد الشام.

يبدأ وادي الرقاد على بعد ١١ ميلاً من مجرى اليرموك، شمالاً بشرق، وينحدر، في مسراه نحو مجرى النهر، وعلى حافتيه، انحداراً عميقاً وحاداً، ويشتد هذا الانحدار كلما اقترب الوادي من مجرى اليرموك، بحيث يشكل، في بعض هذا

جـ ٣ : ٣٩٢ ـ ٣٩٣) أن قادة المسلمين تواعدوا على الاجتماع باليرموك وكتبوا إلى أبي بكر بذلك فوافقهم قائلاً «واجتمعوا باليرموك متساندين وليصل كل رجل منكم باصحابه»، ويؤكد الواقدي (م. ن. جـ ١ : ١٠٠) نزول المسلمين باليرموك قبل الروم إذ يقول «وبلغ الخبر إلى قسطنطين بن الملك هرقل بأن المسلمين قد نزلوا باليرموك وأن ملوك الروم سائرون لقتالهم» ثم يقول «فلما نزل ماهان بعسكره بازاء المسلمين على نهر اليرموك» (م. ن. ص. ن)، ولكن الطبري يعود فيؤكد أن الروم نزلوا باليرموك بناء لتوجيهات هرقل إذ اختاروا موضعاً «واسع المطرد ضيق المهرب... فنزلوا الواقوصة وهي على ضفة اليرموك وصار الوادي خندقاً لهم» (م. ن. ص ٣٩٣) ويروي أمين سعيد في كتابه (حروب الإسلام والامبراطورية الرومية، ص ١١٢)، ناسباً ذلك إلى بعض المؤرخين دون أن يذكرهم، أنه بينما كان القادة المسلمون الثلاثة (يزيد وشرحبيل وأبو عبيدة) مجتمعين (في بصرى) دخل عليهم أبو سفيان بن حرب فشاوروه في الأمر فقال لهم: «إن معسكركم هذا ليس بمعسكر، إني أخاف أن يأتيكم أهل فلسطين والأردن فيحولوا بينكم وبين حدود المدينة فتكونوا بين عسكرهم، فارتحلوا حتى تجعلوا (هكذا وردت) أذرعات فيأتيكم المدد والذخيرة» وأذرعات هي (درعا) اليوم، فعملوا برأيه وارتحلوا إلى اليرموك.

ونسب الواقدي هذا الرأي إلى خالد بن الوليد، يقول الواقدي إن خالداً قال للمجتمعين: «والذي إشير به عليكم أن ترحلوا من منزلكم هذا وتجعلوا أذرعات خلف ظهوركم حتى ينزلوا اليرموك، ويكون المدد من أمير المؤمنين عمر بن الخطاب (رضي) قريباً منكم متلاحقاً بكم وأنتم على فتح لقتال عدوكم، وهي أرض واسعة لمجال الخيل» وأن أبا سفيان وافقه على ذلك (م. ن. ص ٩٩)، (وتجدر الإشارة إلى أن الواقدي جعل اليرموك في خلافة عمر وليس في خلافة أبي بكر، رضي الله عنهما).

ويقول الواقدي إن أبا عبيدة نزل باليرموك «وجعل أذرعات من خلفه» (م. ن. ص. ن).

المسرى، حواجز طبيعية يتعذر اجتيازها، إذ يراوح عمق هذه الانحدارات بين ماية وألف قدم.

ومن الجنوب، وادي اليرموك، الذي يجري فيه نهر اليرموك، ويبتدىء هذا الوادي من «جلين» شرقاً ثم يتجه متعرجاً غرباً وعلى مسافة نحو ١٥ ميلاً حتى يلتقي بوادي الرقاد عند «الواقوصة»، كما قدمنا، ويستمر النهر بجريانه حتى يصب في «نهر الأردن» جنوب بحيرة «طبرية».

ومن الشرق: سفوح جبل العرب من «أزرع» شمالاً حتى «درعا» أو «أذرعات» جنوباً، ولا يوجد بين سهل اليرموك وسفوح الجبل حواجز طبيعية تذكر، بل إن هذا السهل يمتد من وادي الرقاد إلى سفوح تلال «إزرع»، على مسافة تقارب الثلاثين ميلاً.

أما من الشمال: فيستمر امتداد السهل، شمالاً، وخلف وادي الرقاد، حتى يتصل بمجموعة من القرى والبلدان التي تشكل منطقة «القنيطرة»، وتعتبر هذه الجهة، من الوجهة الجغرافية، منفذ سهل اليرموك وبوابته إلى داخل بلاد الشام.

وأما سهل اليرموك، بحد ذاته، فهو سهل منبسط، بشكل عام، ينحدر انحداراً تدريجياً من الشمال إلى الجنوب، ويخترقه، بالإضافة إلى وادي الرقاد، ومن الشمال إلى الجنوب، واديان آخران هما:

- **وادي علان، أو وادي العلك**، ويجري فيه نهر «العلك» وهو يقع شرق وادي الرقاد ويبدأ من نقطة تقع غرب «نوى» شمالاً حتى يتصل بوادي «اليرموك» غرب قرية «حيط» جنوباً.

- **ووادي الهرير**، وهو يقع شرق وادي علان (أو العلك)، ويبدأ من نقطة تقع شمال شرقي «نوى» ثم ينحدر جنوباً بغرب، ماراً غرب أزرع، فغرب الشيخ مسكين، حتى يتصل بوادي اليرموك عند «أراضي الأشعري» شرق «جلين» جنوباً. ولم يكن هذان الواديان ليعيقان تحرك القوات المتقاتلة ومناوراتها.

- ويقع، كذلك، بالقرب من «نوى» جنوباً بغرب، تل يرتفع نحو ثلاثماية

قدم ويشرف على المنطقة المحيطة به، ويسمى هذا التل «تل الجموع» وذلك لأن قسماً من جيش المسلمين قد احتشد عليه في أثناء المعركة[11]. كما يقع جنوب نوى تل آخر يسمى «تل السمن» ويرجح أن خالداً حشد عليه نساء المسلمين وأوكل إليهن مهمة رد المنهزمين من المسلمين أمام العدو، ويقع هذا التل في القلب والمؤخرة بالنسبة إلى ميدان القتال.

وقد احتل ميدان المعركة الجزءين الغربي والأوسط من سهل اليرموك، ضمن مربع محدد بمحاذاة وادي الرقاد غرباً، ووادي الهرير شرقاً، ووادي اليرموك جنوباً، ثم من شرق نوى حتى منطلق وادي الرقاد شمالاً (انظر الخارطة).

٢٣ ـ التمركز (انظر الخارطة)

أ ـ الروم: قلنا إن هرقل كتب إلى بطارقته من قادة الجيش أن يجتمعوا لقتال المسلمين وأن ينزلوا موضعاً «واسع المطرد ضيق المهرب» وأن يكون أخوه «تذارق» على الناس وأن «باهان في الأثر مدداً» لهم. ويبدو أن ماهان (أوباهان) وصل، مع الجيش، إلى اليرموك، وتسلم قيادته، إذ لم نجد لتذارق من أثر بعدها، ولم نسمع عنه أنه تسلم قيادة المعركة أو أدارها أو قام بعمل عسكري ما طيلة معركة اليرموك، مما يؤكد أن «ماهان» كان، بالفعل، قائد الجيش الرومي في اليرموك[12]. ويظهر أن «ماهان» تولى قيادة جيش الروم في «اليرموك» بينما كان «تيودور» أو «تذارق» قائداً للجيش الرومي الثاني في بلاد الشام، أو كان قتل في «أجنادين» كما ذكر الطبري وابن الأثير.

---

(١١) أ. أكرم، سيف الله خالد بن الوليد، ص ٤٦١ ـ ٤٦٢، وانظر، لمتابعة دراسة أرض المعركة: خارطة سوريا ولبنان، مقياس ١/٧٥٠٠،٠٠٠، إنشاء وطبع إدارة المساحة العسكرية بدمشق، أيلول ١٩٦٩، وخارطتي إربد ودرعا، الخريطة العربية الموحدة، مقياس ١/١٠٠,٠٠٠ وخارطات اخرى لمنطقة القتال.

(١٢) يؤكد ذلك ما سبق وذكرناه من أن الطبري وابن الأثير لم يأتيا على ذكره في سياق حديثهما عن المعركة، بل يتحدث الطبري عن «باهان» فيقول: «وطلع باهان على الروم، وقد قدم قدّامه الشمامسة والرهبان والقسيسين» (جـ ٣ : ٣٩٣). ويذكر ابن الأثير كذلك أن باهان طلع على الروم «ومعه الشمامسة والقسيسون والرهبان يحرضون الروم على القتال، وخرج باهان كالمقتدر، فولّى خالد قتاله، وقاتل الأمراء من بازائهم» (جـ ٢ : ٤١٠). كذلك فإن الواقدي يذكر أن هرقل أوصى ملوك الجيش «أن صلبانكم تحت صليب ماهان وأمركم إليه فلا تصنعوا أمراً إلا بمشورته ورأيه» (جـ ١ : ٩٧).

وفي كل حال، اختار قادة الروم «اليرموك» موضعاً لنزال المسلمين وفقاً لتوجيهات هرقل، «فصار الوادي خندقاً لهم»، وتمركزوا شـرق «وادي علان أو العلك» ابتداء من الضفة الشمالية لليرموك ونحو الشمال، وانتشروا في العمق، غرباً، باتجاه وادي الرقاد، وامتد عسكرهم من اليرموك، جنوباً، مروراً «بسحم الجولان»، «فتسيل» حتى غرب «نوى» شمالاً[١٣]، بحيث استندت مؤخرتهم على الضفة الشرقية لوادي الرقاد، غرباً، واستندت ميمنتهم على الضفة الشمالية لنهر اليرموك جنوباً، أما ميسرتهم فظلت طليقة باتجاه الشمال. وهكذا بات الروم محصورين بين وادي الرقاد غرباً ووادي اليرموك جنوباً، إلا أنهم كانوا يتصلون، شمالاً، بمراكز تموينهم وتذخيرهم وبقيادتهم العليا في انطاكية؛ وكانت نقطة ضعفهم أنه كان من السهل على المسلمين الالتفاف على ميسرتهم وسدّ المنفذ الوحيد الذي يصلهم بداخل بلاد الشام وبالتالي بعاصمتهم وقيادتهم العليا في انطاكية[١٤]. وظل الجيش الرومي في مراكزه تلك طيلة شهر ونصف الشهر يحسن مراكز دفاعه ويحصّنها ويعّد العدة لقتال المسلمين.

ب ـ **المسلمون**: وصل خالد بجيشه إلى اليرموك فوجد الروم قد تمركزوا عليه «فنزل عليهم بحذائهم على طريقهم وليس للروم طريق إلا عليهم»[١٥] وقال عمرو بن العاص: «أيها الناس، أبشروا، حصرت والله الروم، وقل ما جاء محصور بخير»[١٦]. ثم انتقل، بناء لتوجيهات خالد، فسدّ على الروم منفذهم الوحيد الذي كان يمكن أن ينفذوا منه شمالاً

ثم أن خالداً تمركز بجيشه قبالة الروم، غرب وادي الهرير، أبتداء من الضفة الشمالية لليرموك، ونحو الشمال، وانتشر في العمق، شرقاً، باتجاه وادي الهرير، وامتد عسكره من «تل الأشعري» عند مجرى اليرموك، جنوباً، حتى غرب

(١٣) أكرم، المصدر السابق، ص ٤٦٢.
(١٤) يرى الواقدي أن الروم تمركزوا في المنطقة الواقعة بالقرب من الرمادة والجولان وجعلوا بينهم وبين المسلمين ٣ فراسخ طولاً وعرضاً (م. ن. ص ١٠٠).
(١٥) الطبري، م. ن. جـ٣ : ٣٩٣.
(١٦) م. ن. ص. ن.

«جلين» فشرق «سحم الجولان» فشرق «تسيل» «فنوى» شمالاً[17] بحيث استندت مؤخرته على «وادي الهرير» شرقاً، واستندت ميسرته على «اليرموك» جنوباً، أما ميمنته فظلت طليقة باتجاه شمال نوى[18].

ج ـ مقارنة بين الجيشين في وضع التمركز

ـ كان جناحا الجيشين جنوباً (أي ميسرة المسلمين وميمنة الروم) محميين باستنادهما إلى الضفة الشمالية لوادي اليرموك، أما جناحاهما شمالاً (أي ميمنة المسلمين وميسرة الروم) فكانا طليقين باتجاه الشمال.

ـ كان الروم محصورين بين الواديين: وادي الرقاد غرباً ووادي اليرموك جنوباً، وبالمسلمين قبالتهم شرقاً، أما المسلمون فكانوا طليقين في مؤخرتهم باتجاه القسم الشرقي من سهل اليرموك والسفوح الغربية لجبل العرب، وجنوباً بشرق باتجاه درعا والجزيرة العربية، مركز قيادتهم العليا وتموينهم، كذلك شمالاً باتجاه الداخل.

ـ كان انتشار جيش الروم، في العمق، أكثر من انتشار جيش المسلمين وأهم، إذ كانوا ـ أي الروم ـ يعدون ثلاثين صفاً، أما المسلمون فلم يتجاوز انتشارهم في العمق ثلاثة صفوف. ولكن بينما كان المسلمون يقاتلون خفافاً وسراعا، كان مشاة الروم يقاتلون وهم مقيدون بالسلاسل أو مربّطون بالعمائم، كل عشرة في سلسلة، كي لا يهربوا، أو كدليل على رغبتهم في الاستبسال بالقتال حتى الموت[19].

ـ كان يفصل بين الجيشين، في ساحة القتال، نحو ثلاثة فراسخ، حسب قول الواقدي[20]، إلا أن هذا التقدير مبالغ فيه.

---

(١٧) المرجح أن هذا التل يقع في أراضي الأشعري غرب وادي الهرير.

(١٨) نود أن نلفت القارىء إلى أن معظم القرى التي وردت أسماؤها في هذا الشرح هي حديثة العهد ولم تكن موجودة في عصر معركة اليرموك (باستثناء التاريخي منها) وإنما ذكرناها لتسهيل شرح المعركة.

(١٩) أكرم، المصدر السابق، ص ٤٦٢ ـ ٤٦٣.

(٢٠) الواقدي، المصدر السابق، ص ١٠٠.

٢٤ ـ ترتيبات القتال:

أ ـ **الروم**: عبأ ماهان جيشه، كعادة الروم في ذلك العهد، في كراديس، كل كردوس مؤلف من ستمائة جندي، وفي فرق، كل فرقة مؤلفة من عشرة كراديس، ورتب هذه الكراديس في ثلاثة خطوط: ٤ كراديس في الخط الأول، و٣ في كل من الخطين الثاني والثالث. ثم وضع الرماة في المقدمة، ووضع الخيالة في الجناحين، فأصبحت كراديس المشاة تشكل قلب الجيش الذي رُتب في ثلاثين صفاً[٢١]، وأوكل إلى كل من هذه القوى المهمات التالية:

ـ الرماة، ومهمتهم أن يتقدموا إلى المقدمة، فينشبوا القتال ثم ينسحبوا إلى ما وراء الجناحين.

ـ الخيالة، ومهمتهم أن يحموا الرماة عندما ينشب هؤلاء القتال وعند انسحابهم.

ـ المشاة، وهم قلب الجيش وقوته الضاربة، ومهمتهم الالتحام بالعدو ودحره[٢٢]، أما قادة الجيش في هذه المعركة فكانوا:

ـ ماهان، أو باهان، ملك أرمينيا، ويقود فرقة من الأرمن، بالإضافة إلى قيادة الجيش في المعركة.

ـ قناطير، ملك الروس، ويقود فرقة من الروس والصقالبة.

ـ جرجير (أو غريغوري)، ملك عمورية، ويقود فرقة من سائر الأجناس الرومية.

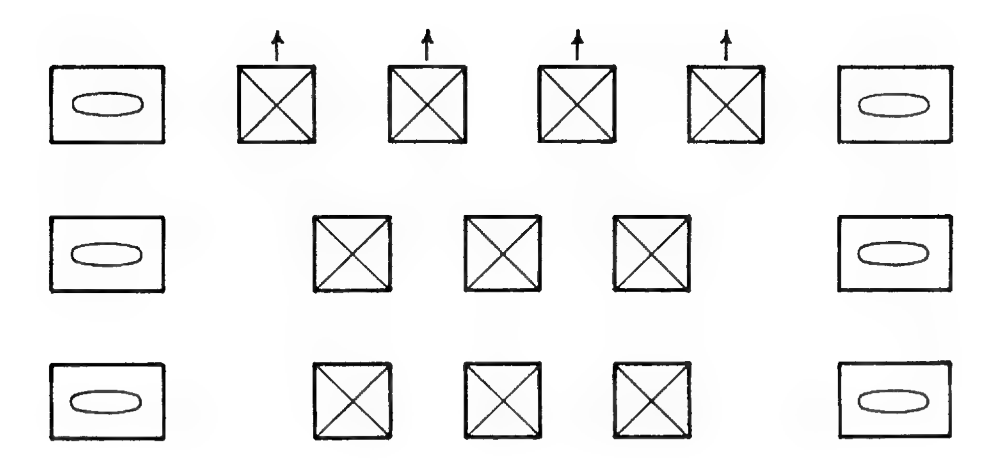
ـ الديرجان صاحب القسطنطينية، ويقود فرقة من الفرنجة.

ـ جبلة بن الأيهم، ملك الغساسنة، ويقود فرقة من العرب النصارى من غسان ولخم وجذام.

---

(٢١) الواقدي، م. ن. ص ١١٨.
(٢٢) أمين سعيد، المصدر السابق، ص ١٠٩.

تنظيم جيش الروم
في معركة اليرموك



مشاة رماة خيالة

ـ قورين، وقد خلف الديرجان بعد مقتله في المعركة.

وقد توزع هؤلاء القادة، في ترتيبات القتال، على الشكل التالي:

ـ في المقدمة: جبلة، ومهمته: تغطية الجيش ومناوشة العدو قبل المعركة.

ـ في الميمنة: جرجير (أو غريغوري) ومعه المسلسلون.

ـ في الميسرة: قناطير.

ـ في القلب: ماهان والديرجان.

ب ـ **المسلمون**: لم يكن للمسلمين، قبل اليرموك، تنظيم عسكري حديث بل كانوا يتبعون تنظيم (الخميس) وهو الذي عرفه العرب في حروبهم السابقة كافة، دون أن يعرفوا تنظيم (الكراديس).

ولكن خالداً، وهو الذي خبر الحرب مع الفرس في العراق، عرف، بفطنته العسكرية، أن جيشه بحاجة، لكي يقاتل الروم، إلى تنظيم جديد يضاهي تنظيمهم، فلم يجد أفضل من تنظيم الروم أنفسهم، لقتالهم به، وهكذا اعتمد خالد في اليرموك، ولأول مرة في تاريخ الحروب الإسلامية، تنظيم «الكراديس» مع تنظيم «الخميس» مجتمعين، وهو ما سمي «بالتعبئة الخالدية».

وعبّأ خالد جيشه، مشاة وخيالة، في كراديس (٣٨ كردوساً وقيل ٤٠)، كل كردوس مؤلف من ألف مقاتل، ثم في فرق، كل فرقة مؤلفة من عدد من الكراديس يراوح بين ١٠ و٢٠ كردوساً، ثم نشره في ساحة القتال، وفي طول للجبهة يساوي جبهة الروم[٢٣].

ووضع خالد، في المقدمة، النبالين (أي رماة النبل)، فالرماحين، فحملة السيوف، وأمام هذه المقدمة طليعة متحركة من الخيالة مهمتها المحافظة على التماس مع العدو ومراقبته وإشغاله ريثما تتهيأ صفوف المسلمين للقتال، حتى إذا ما بدأ العدو تقدمه بادره النبالون بنبالهم، فإذا استمر في التقدم صوّب إليه الرماحون رماحهم، وإن استمر كذلك، تصدى له المقاتلون بسيوفهم[٢٤].

وقد عمد خالد إلى تشكيل كراديسه وفرقه على أساس التجمعات القبلية، فجمع، مثلاً، في الميسرة، وفي كراديس موحدة، قبائل كنانة وقيس وخثعم وجذام وقضاعة وعاملة وغسان، وفي الميمنة قبائل الأزد ومذحج وحضرموت وحمير وخولان وزبيد ودوس (وعلى هذه الأخيرة عامر بن الطفيل)، وذلك لما يقاتل به العرب، مجتمعين، من روح عصبية قبلية لا تضاهى؛ ولم ينس خالد أن يبقي لديه احتياطاً من الخيالة المتحركة، وضعها بأمرته، ومعه ضرار بن الأزور. ورتب خالد هذه الكراديس والفرق في ساحة القتال على الشكل التالي:

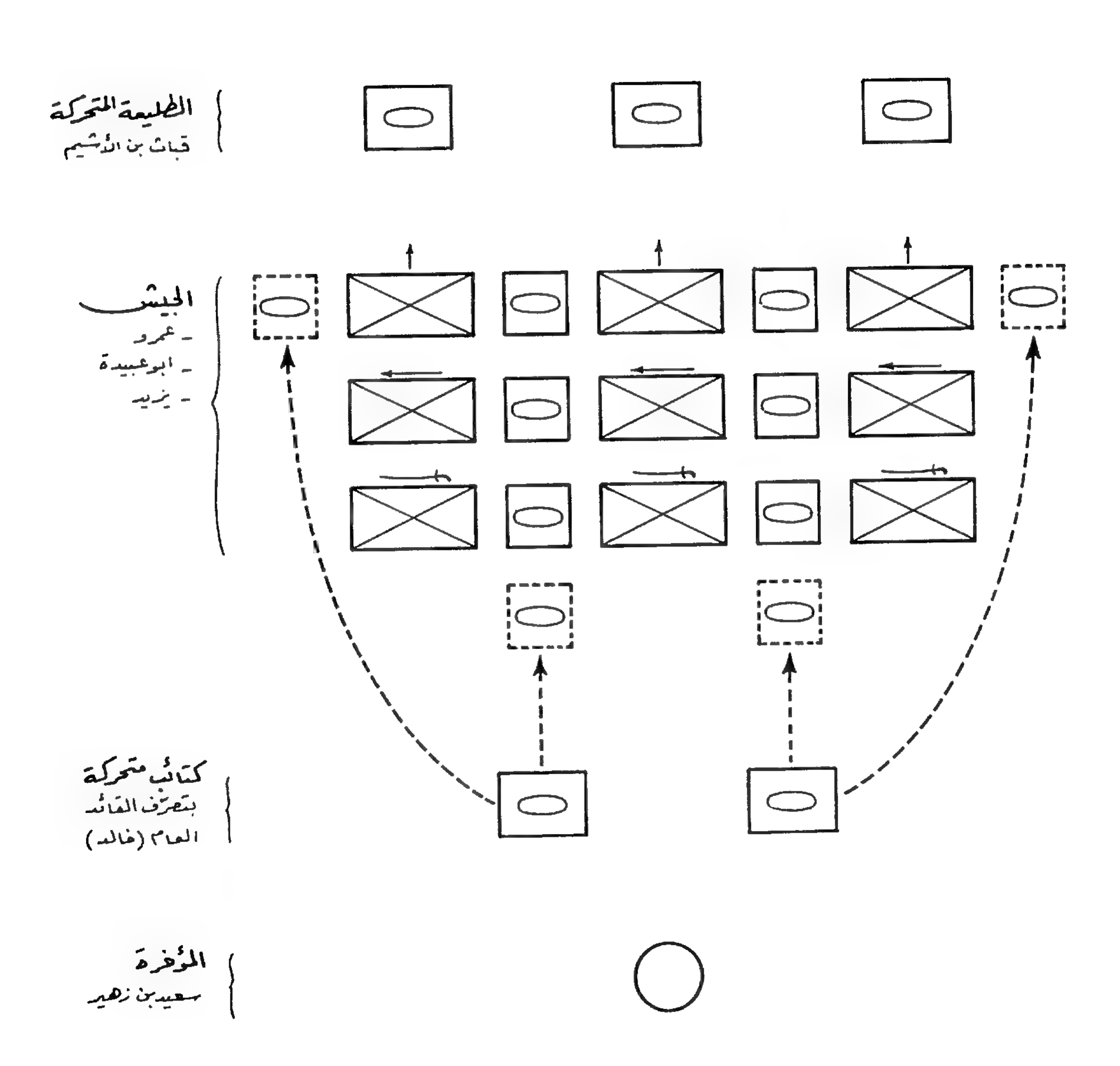
ـ فرقة القلب، وفيها ١٨ كردوساً، ويقودها أبو عبيدة بن الجراح ومعه عكرمة بن أبي جهل والقعقاع بن عمرو.

---

(٢٣) يقدر أكرم هذه الجبهة بـ ١١ ميلاً (م. ن. ص ٤٦٤).

(٢٤) أكرم، م. ن. ص ٤٦٥، وأنظر: الواقدي، المصدر السابق، جـ ١ : ١٢٥.

تنظيم جيش المسلمين
في معـركة اليرموك



خيالة　مشاة　نبالون　رماحون　سيافون　الظعن والأثقال

ـ فرقة الميمنة، وفيها ١٠ كراديس، ويقودها عمرو بن العاص ومعه شرحبيل بن حسنة.

ـ فرقة الميسرة، وفيها ١٠ كراديس، ويقودها يزيد بن سفيان.

ـ الطليعة أو المقدمة، من الخيالة، ويقودها قباث بن الأشيم، وهي عبارة عن فرق صغيرة مهمتها مراقبة العدو والمحافظة على التماس به.

ـ في المؤخرة، سعيد بن زهير، ومعه ٥٠٠ مقاتل، ومهمته قيادة الظعن وحمايته.

ومن قادة الكراديس في اليرموك: عبد الرحمن بن خالد بن الوليد وكان عمره ١٨ سنة، وزياد بن حنظلة، وهاشم بن عتبة، وصفوان بن أمية، وعيّاض بن غنم، وغيرهم. ثم عيّن «أركان حربه» وهم:

ـ قاضي الجيش أو القاضي العسكري، وهو أبو الدرداء، ومهمته القضاء بين جنود المسلمين وفقاً لشريعة الإسلام.

ـ ضابط المعنويات، أي القارىء، وهو المقداد، ومهمته أن يقرأ سورة الأنفال الخاصة بالقتال.

ـ الواعظ، أو خطيب الجيش، وهو أبو سفيان بن حرب، ومهمته أن يطوف بالصفوف يحث الجند على القتال.

ـ رئيس المؤونة أو ضابط الإدارة، وهو عبد الله بن مسعود، ومهمته تأمين حاجات الجيش وجمع الغنائم وتوزيعها[٢٥].

ـ وكان خالد، القائد العام، في وسط الجيش، وحوله كبار الصحابة وأقطاب المسلمين، وأمامه راية الجيش وهي (العقاب) أي راية النبي ﷺ التي نشرها خالد في ثنية العقاب يوم أطل على غوطة دمشق آتياً من العراق[٢٦].

---

(٢٥) الطبري، المصدر السابق، جـ٣ : ٣٩٦ ـ ٣٩٧، وابن الأثير، المصدر السابق، جـ٢ : ٤١١ ـ ٤١٢.

(٢٦) وكانت راية أبي بكر عبيدة وقد عقدها له يوم سفره إلى الشام، وهي راية للنبي صفراء سار بها إلى =

ـ وكانت النساء في المؤخرة وراء صفوف المقاتلين، على تل محصن لحمايتهن[٢٧] (ويرجح أنه «تل السمن» الذي سبق ذكره)، ومهمتهن العناية بالجرحى والمرضى، وسقاية المقاتلين في أثناء القتال، وتشجيع المقاتلين وإثارة حماستهم ورد الرجال الفارين إلى المعركة، والاشتراك بالقتال أحياناً.

ووزع خالد على قادته مهمات القتال على الوجه التالي:

ـ أبو عبيدة (القلب) ومهمته منازلة قلب العدو.

ـ يزيد (الميسرة) ومهمته منازلة ميمنة العدو.

ـ عمرو بن العاص ومعه شرحبيل (الميمنة) ومهمته منازلة ميسرة العدو. والقيام بحركة التفاف مموهة وسريعة ومباغتة على هذه الميسرة بقصد ضرب العدو في مجنبته وخلفه، ثم الوصول إلى قلب جيشه[٢٨].

أما الخيالة فقد قسمها أربعة أقسام وجعل على كل قسم واحداً من خيرة قادته وفرسانه، فعلى القسم الأول قيس بن هبيرة المرادي، وعلى القسم الثاني ميسرة بن مسروق العبسي، وعلى القسم الثالث عامر بن الطفيل الدوسي، ثم وضع هذه الخيالة في الطليعة (وعليها قباث بن الأشيم) وفي الفرجات بين الصفوف الثلاثة (وعليها غياث بن حرملة العاملي ومسلمة بن سيف اليربوعي والقعقاع بن عمرو التميمي)[٢٩] وفي الميمنة والميسرة والمؤخرة، محتفظاً لنفسه بقيادة

= خيبر (أمين سعيد، م. ن. ، ص ١١٣). ويقول بعض المؤرخين، ومنهم ابن الأثير (م. ن. ، جـ ٢ : ٤١٠)، إنه لما اجتمعت الفرق في اليرموك كانت كل فرقة مستقلة عن الأخرى استقلالاً تاماً، وأرادت أن تقاتل متساندة. فلما وصل خالد رأى أن من الأفضل اجتماعها كلها تحت قيادة واحدة، فجمع قادتها وشاورهم في الأمر وأقنعهم بذلك، فسلموه القيادة. ولكن الأرجح أن الخليفة أبا بكر أمرّ خالداً في كتابه إليه، وفي كتابه إلى أبي عبيدة، على الفرق كافة.

(٢٧) الواقدي، المصدر السابق، جـ ١ : ٩٩.

وروى بعض من شهدوا اليرموك أن بعض نساء المسلمين قد اشترك في القتال يومذاك، مثل أسماء بنت أبي بكر وخولة بنت الأزور وبنات عاصم الخولاني وسواهن. وكان المسلمون يأخذون معهم، في فتوحهم، نساءهم وأولادهم وذراريهم، آملين أن يستميت المقاتلون في قتالهم كي لا تسبى نساؤهم ويقتل أولادهم وتفنى ذراريهم، وفي ذلك حكمة كان لها أكبر النفع في حروب المسلمين.

(٢٨) الطبري، المصدر السابق، جـ ٣ : ٣٩٦ ـ ٣٩٧ وابن الأثير، المصدر السابق، جـ ٢ : ٤١١.

(٢٩) الواقدي، المصدر السابق، جـ ١ : ١١٨ و١٢٥.

القسم الرابع منها، وهي الخيالة المتحركة والمهيأة للانقضاض وسد الثغرات التي يمكن أن يحدثها العدو في صفوف المسلمين.

وأرسل خالد، قبل بدء القتال، إلى ماهان، وفداً يفاوضه للسلام، كعادة المسلمين قبل كل معركة، مبيناً شروطه المعروفة وهي الإسلام، أو الجزية، أو المنابذة (أي الحرب)، فاختار ماهان الحرب، وتأهب الفريقان للقتال.

٣ ـ أوامر القادة المسلمين إلى المقاتلين والنساء قبل البدء بالقتال:

كانت أوامر خالد وقادته إلى المقاتلين المسلمين غاية في التوجيه المعنوي وبث روح الصمود والاستبسال في نفوس المقاتلين، كما كانت توجيهاتهم لنساء المسلمين، وما قامت به النسوة وفقاً لذلك، ذات أثر كبير وهام في حسم المعركة لصالح المسلمين، وفيما يلي نماذج من هذه الأوامر والتوجيهات:

ـ أمر خالد جنده أن «اخلصوا جهادكم، وأريدوا الله بعملكم، فإن هذا اليوم له ما بعده، ولا تقاتلوا قوماً على نظام وتعبية، على تساند وانتشار، فإن ذلك لا يحل ولا ينبغي»، وفي مكان آخر: «. . . هلموا فإن هؤلاء قد تهيأوا، وهذا يوم له ما بعده، إن رددناهم إلى خندقهم اليوم لم نزل نردهم، وإن هزمونا لم نفلح بعدها. . .»(٣٠).

ـ وبينما كان خالد يطوف في صفوف المسلمين قال له رجل منهم: «ما أكثر الروم وأقل المسلمين» فقال له خالد: «ما أقل الروم وأكثر المسلمين، إنما تكثر الجيوش بالنصر وتقل بالخذلان، لا بعدد الرجال»(٣١).

ـ وأمر أبو عبيدة جنده أن «لا تزايلوا صفوفكم، ولا تنقضوا إنيتّكم، ولا تخطوا خطوة إلا وأنتم تذكرون الله، ولا تبدأوهم بالقتال حتى يبدأوكم، وشرِّعوا الرماح، واستتروا بالدرق، والزموا الصمت إلا من ذكر الله، ولا تحدثوا حدثاً حتى آمركم»(٣٢).

---

(٣٠) الطبري، المصدر السابق، جـ٣ : ٣٩٥ ـ ٣٩٦.
(٣١) م. ن. جـ٣ : ٣٩٧ ـ ٣٩٨.
(٣٢) الواقدي، المصدر السابق، جـ١ : ١٢٥.

ـ وأمر أبو عبيدة الرماة أن «الزموا مراكزكم»، فإن رأيتم القوم زحفوا إلينا فارشقوهم بالنبال، وآذكروهم عند رميكم، ولا تتركوها مفرّقة، ولتخرج سهامكم كأنها من كبد قوس واحدة، فإن هم زحفوا إليكم فآثبتوا مكانكم حتى يأتيكم أمري»[٣٣].

ـ وأمر أبو عبيدة النساء المحصّنات في التل أن «خذن بأيديكن أعمدة البيوت والخيام، واجعلن الحجارة بين أيديكن، وحرضن المؤمنين على القتال، فإن كان الأمر لنا والظفر، فكن على ما أنتنّ عليه، فإن رأيتن أحداً من المسلمين منهزماً فآضربن وجهه بأعمدتكن وآحصبنه بحجارتكن وارفعن إليه أولادكن وقلن له: قاتل عن أهلك وولدك وعن دين الإسلام»[٣٤].

ـ وطاف أبو سفيان بن حرب بالصفوف منادياً «معاشر العرب الكرام السادة العظام، قد أصبحتم في ديار الأعلاج منقطعين عن الأهل والأوطان، ووالله لا ينجيكم منهم إلا الطعن الصائب في أعينهم والضرب المتدارك في هاماتهم، وبذلك تبلغون أربكم وتنالون الفوز من ربكم... فاصدقوا القتال فإن النصر ينزل مع الصبر، فإن صبرتم ملكتم بلادهم وأمصارهم... وإن وليتم فليس بين أيديكم إلا مفاوز لا تنقطع إلا بالزاد الكثير والماء الغزير... فامنعوا بسيوفكم وجاهدوا في الله حق جهاده ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون»[٣٥].

ـ وخرج أبو سفيان من بين الصفوف وأقبل على التل حيث نساء المسلمين ومعهن أولادهن، وقال لهن: «حرّضن أزواجكن على القتال، ومن رجع منهم فاحصبن وجهه بالحجارة واضربن جواده بالعمد واظهرن أولادكن لأزواجكن حتى يرجعوا»[٣٦].

٤ ـ المعركة: (أنظر الخارطات).

يمكن تقسيم مراحل القتال في اليرموك إلى خمس مراحل:

---

(٣٣) م. ن. جـ ١ : ١٣٢.
(٣٤) م. ن، جـ ١ : ١٢٥.
(٣٥) م. ن، جـ ١ : ١٢٦.
(٣٦) م. ن. ص. ن.

اليوم الأول:

المرحلة الأولى: المرحلة التمهيدية للمعركة، أو مرحلة التعارف بالسلاح:

بدأت الحرب، في اليوم الأول، بمناوشات بين الجيشين لا تذكر، وبمبارزة بين قادة الجيشين أهمها تلك التي جرت بين عبد الرحمن بن أبي بكر وخمسة من قادة الروم قضى عليهم جميعاً كما قتل اثنين من فرسانهم، وانتهى اليوم الأول من القتال بهجوم شنه ماهان على المسلمين بأن «أمر عشرة من الصفوف أن تحمل على المسلمين بعد أن قتل عبد الرحمن (بن أبي بكر) من قتل»، ولكن هذا الهجوم الذي استمر «من قيام الشمس في قبة السماء إلى أن همّت بالغروب» لم يسفر عن نتيجة تذكر، ورجع كل من الفريقين إلى مواقعه الأساسية دون أي حسم[٣٧]، ويظهر أن هذا الهجوم الأول لم يكن أكثر من عملية استكشاف مادية وتعارف بالسلاح قام به ماهان لـقدر قـوة المسلمين في ميدان القتال، إذ أنه لم يحاول تعزيز الصفوف التي هاجم بهَا، كما أنه لم يحاول الاستمرار في القتال.

ـ **كمين ليلي في ميدان القتال**: إفتقد أحد قادة المسلمين «قيس بن هبيرة» ابن أخيه بعد انتهاء المعركة فلم يجده، فأخذ ثلة من المقاتلين وقصد ميدان القتال يفتش عنه بين القتلى والجرحى، وكان الوقت ليلاً، فشاهد مصابيح قادمة من جهة معسكر الروم، وأدرك أنهم آتون ليفتشوا، مثله، بين القتلى عن مفقودين لهم، فكمن مع أصحابه بين الجثث، وما أن وصلوا وتعرفوا إلى جثة أحد قادتهم وحملوها وحاولوا الانكفاء، حتى هبّ وأصحابه في وجوههم فذعروا ورموا الجثة وحاولوا الفرار، إلا أنه أدركهم ورفاقه بسيوفهم، وكان قيس كلما طعن واحداً منهم يقول: «هذا عن ابن أخي» وقد قتل منهم عدداً كبيراً[٣٨].

وقد مرّ تسعة أيام بعد اليوم الأول، لم يقاتل الروم المسلمين فيها، وسبب ذلك أن ماهان كتب إلى هرقل كتاباً يشرح له فيه الوضع العسكري وينتظر

---

(٣٧) الواقدي، م. ن. ص ١٢١.

(٣٨) الواقدي، م. ن. ص ١٢١ ـ ١٢٢. وقد وجد قيس ابن أخيه بين الجرحى فحمله إلى معسكر المسلمين حيث استشهد بين يديه.

توجيهاته، ولم يبادر المسلمون إلى قتالهم وذلك كي يكون البغي منهم[٣٩].

اليوم الثاني: (وهو اليوم العاشر الذي يلي اليوم الأول).

ـ المرحلة الثانية: هجوم ميسرة الروم على ميمنة المسلمين، وتراجع ميمنة المسلمين، والهجوم الإسلامي المعاكس

ـ اصطف المسلمون للقتال، فكان أصحاب الرايات في المقدمة، والأنصار والمهاجرون في القلب، والجند في ثلاثة صفوف، والخيالة في ثلاثة أقسام تتخلل الصفوف الثلاثة[٤٠]، واستقر أبو عبيدة في القلب، أما النساء فأقمن على التل خلف صفوف المسلمين وقد تهيأن لأداء مهمة ردع الفارين والمنهزمين.

ـ واصطف الروم للقتال، فكان المسلسلون في ميمنتهم، وقد اقترنوا بالسلاسل، كل عشرة في سلسلة «التماساً لحفظ عسكرهم»[٤١].

ـ حملت ميسرة الروم (وعليها قناطير) على ميمنة المسلمين (وعليها عمرو وفيها قبائل مذحج وحضرموت وخولان وحمير ودوس وزبيد والأزد) فصمدت في وجه المهاجمين وقاتلتهم قتالاً شديداً[٤٢].

ـ تكررت هجمات ميسرة الروم على ميمنة المسلمين بكتيبة ثانية وثالثة حتى تمكن الروم من دحر المسلمين وإزالتهم عن مواقعهم في الميمنة، فتراجعوا[٤٣].

ـ بتراجع ميمنة المسلمين انكشف قلب الجيش الإسلامي من جهة الميمنة وباتت هزيمة المسلمين وشيكة وذلك بعد أن تمكن الروم من احداث ثغرة في

---

(٣٩) م. ن. ص ١٢٣.

(٤٠) باستثناء الفرقة التي كانت بقيادة خالد، وكانت تناوش الروم في المقدمة بقصد تأخيرهم وإعطاء الفرصة للمسلمين كي ينظموا صفوفهم (م. ن. ص ١٢٥).

(٤١) الواقدي، م. ن. ص ١٢٦.

(٤٢) ذكر الواقدي (م. ن. ص ١٢٥) أن يزيد بن أبي سفيان كان على الميمنة وقيس بن هبيرة على الميسرة، ولكننا ذهبنا مذهب الطبري (جـ ٣: ٣٩٦) وهو أن عمرو بن العاص كان على الميمنة ويزيداً على الميسرة.

(٤٣) م. ن. ص ١٢٧.

صفوف المسلمين والتسلل منها إلى مؤخرتهم، وانحرفت الميمنة يساراً لتندمج بالقلب.

- في هذه اللحظات انبرى عمرو بن معد يكرب الزبيدي، زعيم قبيلة الأزد، ونادى قومه ليلتفوا حوله، فجمع منهم نحو خمسماية مقاتل، بين فارس وراجل، فحملوا على الروم المنتصرين، وحملت معهم قبائل حمير وحضرموت وخولان، كما حملت معهم قبيلة دوس بقيادة أبي هريرة صاحب رسول الله ﷺ، وقاتل الجميع قتالاً مريراً ولكن جموع الروم تكاثرت عليهم فدحرتهم وتقهقر المسلمون إلى معسكراتهم.

- تدخلت، في هذه الآونة، نساء المسلمين، وقد رأين الرجال منهزمين، وهن في مراكزهن على التل خلف صفوف المسلمين، فأخذن يرجمن المنهزمين من جند المسلمين بالحجارة ويضربن خيلهم بالأعمدة، ويعبن عليهم هربهم، ويهبن بهم أن يثبتوا في وجه العدو للدفاع عن شرفهم وعرضهم وعن كرامة الإسلام، ويقلن لهم: «قبح الله وجه رجلٍ يفرّ عن حليلته» كما كان النساء يقلن لأزواجهن «لستم لنا ببعولة إن لم تمنعوا عنا هؤلاء الأعلاج»، وخرجت هند بنت عتبة زوجة أبي سفيان بن حرب فرأت زوجها منهزماً فضربت وجه حصانه بعمود بيدها وقالت له: «إلى أين ابن صخر؟ إرجع إلى القتال ابذل مهجتك حتى تمحص ما سلف من تحريضك على رسول الله ﷺ»، عندها ارتد أبو سفيان، وارتد معه المسلمون جميعاً، للقتال[٤٤].

- ما أن رأى عمرو بن العاص، وهو في الميمنة، زعماء المسلمين وقبائلهم، وعلى رأسهم أبو سفيان بن حرب والزبير بن العوام وأبو هريرة، يرتدون للقتال بضراوة وبسالة، حتى اندفع، بدوره ومن معه، للقتال؛ وثبت مقاتلة الميمنة بعد أن كان الروم قد دحروهم، ثم أخذوا يكرّون على الروم الذين اضطربوا إلا أنهم لم ينهزموا، واضحى القتال سجالاً، بين كر وفر، بين الروم والمسلمين.

- ما أن رأى خالد ميمنة المسلمين مندحرة. «وقد وصلت إلى القلب»، حتى

---

(٤٤) م. ن. ص ١٢٧ - ١٢٨.

اقتحم بخيالته الروم المهاجمين واشتبك معهم في قتال ضار فتمكن من دحرهم واستعاد المسلمون مواقعهم التي سبق أن خسروها.

ـ اغتنم خالد فرصة تراجع الروم واستعادة مسلمي الميمنة والقلب المواقعهم، فقرر استثمار انتصاره هذا، وأخذ يطارد الروم المنهزمين «فانكسر الروم أمام خالد». عندها أمر خالد بشن هجوم عام معاكس، فحمل المسلمون على الروم «من كل جانب»، وكانت الحملة على ميمنتهم «فانكشفت انكشافاً قبيحاً» وظل المسلسلون في تلك الميمنة في مواضعهم يرمون المسلمين بسهامهم لكي يحموا رفاقهم المنهزمين، فانعطف خالد بخيالته على القلب وتوغل فيه حتى وصل إلى قائده «الديرجان» وقد لف رأسه بثوب من الديباج «فحمل عليه ضرار به الأزور فقتله»[٤٥].

اليوم الثالث

ـ المرحلة الثالثة: هجوم ميمنة الروم على ميسرة المسلمين، وتراجع ميسرة المسلمين، والهجوم الإسلامي المعاكس

ـ حملت ميمنة الروم (وعليها جرجير أو غريغوري) على ميسرة المسلمين (وعليها يزيد وفيها قبائل كنانة وقيس وخثعم وجذام وقضاعة وعاملة وغسان) فتراجعت ميسرة المسلمين، وانهزمت قبائل الميسرة حتى معسكراتها[٤٦].

ـ قامت نساء المسلمين بالدور نفسه الذي سبق وقمن به في المرحلة السابقة ولكن في وجه منهزمي الميسرة هذه المرة، فرشقن المنهزمين وخيلهم بالحجارة والعصي صارخات: «أين أين عز الإسلام والأمهات والأزواج» و«أين تنهزمون يا أهل الإسلام عن الأمهات والأخوات والبنين والبنات؟ اتريدون أن تسلمونا للأعلاج؟» فخجل المنهزمون بهزيمتهم، وارتدوا نحو العدو يقاتلون بضراوة وبأس شديدين محاولين استعادة ما فقدوا من مواقع.

---

(٤٥) م. ن. ص ١٢٨ ـ ١٢٩.

(٤٦) م. ن. ص ١٢٩.

رأى خالد ميسرة المسلمين منهزمة، ورجالها يحاولون استعادة مواقعهم، فانحاز إليهم بخيالته، وكانوا نحو ألفين، واشتبك الجميع مع الروم في قتال شديد استمر طويلاً ولم ينته إلى أية نتيجة.

المبارزة:

ـ وبرز، في هذه الأثناء، أحد قادة الميمنة من الروم، يطلب المبارزة، فبرز إليه غلام من الأزد فقتله الرومي، عندها برز عامر بن الطفيل الدوسي، زعيم قبيلة دوس، فبارز الرومي وقتله، وبرز لعامر جبلة بن الأيهم ملك الغساسنة وزعيم العرب المتنصّرة فبارز عامراً وقتله، ثم برز جندب بن عامر ليثأر لأبيه من جبلة فقتل هو أيضاً.

قبائل ميمنة المسلمين تحمل على العرب المتنصّرة، والهجوم الإسلامي المعاكس:

ـ حملت قبيلة دوس، بعد مصرع زعيمها عامر وابنه جندب، على العرب المتنصّرة من غسان ولخم وجذام، وتبعتها قبيلة الأزد، لمناصرتها ومساعدتها، ودار بين الفريقين قتال شديد كاد ينتهي بهزيمة المسلمين لولا أن بادر عمرو بن العاص وخالد إلى الدخول، بقواتهما، في القتال الذي استمر حتى الليل، حين تقهقر الروم إلى مواقعهم واستعاد المسلمون المواقع التي سبق أن فقدوها في ذلك اليوم(٤٧).

ـ «كان اليوم الثالث من اليرموك يوماً شديداً انهزمت فيه فرسان المسلمين ثلاث مرات كل مرة تردهم (نساء) المسلمين بالحجارة والعمد ويلوحون بالأطفال إليهم فيرجعون إلى القتال»(٤٨).

ـ استبسل في هذه المرحلة، من القادة المسلمين: سعيد بن زيد، الذي ما أن نظر إلى الروم يزحفون نحوه حتى جثا على ركبتيه ثم انتفض ثائراً في وجوههم،

---

(٤٧) م. ن. ص ١٣١.

(٤٨) م. ن. ص. ن وقد سقطت كلمة (نساء) من الأصل.

وانبرى الرجال يلتفون حوله، واندفعوا جميعاً نحو جند الروم يقاتلونهم. وكذلك يزيد بن أبي سفيان قائد ميسرة المسلمين وقد قاتل في هذه المرحلة قتالاً شديداً.

اليوم الرابع

المرحلة الرابعة: هجوم ميسرة المسلمين على ميمنة الروم ثم ميسرة الروم على ميمنة المسلمين، وتراجع ميمنة المسلمين. ثم الهجوم الرومي العام، والهجوم الإسلامي المعاكس:

- وصل الروم، في هذا اليوم، إلى ساحة القتال معبئين، وماهان على تل يشرف منه على جيشه ويعطي أوامره.

- تعبأ المسلمون للقتال وفقاً للترتيب الذي اتخذوه في الأيام السابقة، وتمركز الرماة في الميمنة والميسرة والقلب، خمسماية في كل منها، وقد تلقوا الأوامر بأن يلزموا مراكزهم وأن يرشقوا الأعداء بالنبال إن زحفوا نحو المسلمين، وأن يثبتوا في أماكنهم.

- شن يزيد، قائد ميسرة المسلمين، هجوماً على ميمنة الروم مما يجانب القلب، ودار بين الفريقين قتال عنيف لم يؤد إلى أية نتيجة لصالح أي من الفريقين.

- حملت ميسرة الروم، في هذه الأثناء، بعشرة آلاف فارس، على ميمنة المسلمين وفيها عمرو بن العاص، فدُحرت الميمنة وتقهقرت حتى معسكراتها، وطارد الروم المسلمين واخترقوا صفوفهم حتى دخلوا «في أوائل عسكر المسلمين مما يلي عمراً ومن معه»[49]، محاولين الفصل بين عمرو وشرحبيل (وكان في الميمنة مما يجانب القلب)، ثم القيام بعملية التفاف من جهة الميمنة وإلى الخلف. ولم يتمكن عمرو ومن معه من الصمود أمام الهجوم الرومي فتراجع وجنده، ودخل الروم معسكر المسلمين وكشفوهم «حتى ألصقوهم بالتل الذي عليه النساء وأحاطوا بالتل»[50].

---

(٤٩) الواقدي، م. ن. ص ١٣٢.
(٥٠) م. ن. ص. ن.

ـ اندفعت النساء المسلمات، عند رؤيتهن رجال المسلمين منهزمين حتى التل الذي هن عليه، فهبطن من مراكزهن وأخذن يدفعن بالرجال المنهزمين إلى المعركة دفعاً، صارخات في وجوههم وهن يضربنهم وخيلهم بالحجارة والعصي: «أين أنصار الدين؟ أين حماة المسلمين؟» وكان الزبير بن العوام، في خيمة زوجته يداوي عينيه من رمد، فسمع بما جرى للمسلمين، وهبّ عندها مشرعاً سيفه ومندفعاً لقتال الروم حتى قال فيه ليث بن جابر «لله در الزبير بن العوام لقد ردّ الروم بنفسه وحده وحمل عليهم وما كان معه من العرب أحد حتى ردّهم إلى عسكرهم»[٥١]. أما عمرو، وكانت ميمنته قد تراجعت أمام هجوم الروم، فما أن رأى الزبير مهاجماً، حتى استعاد حميته وبأسه، وصاح برجاله قائلاً «الحزم يا أهل الإسلام، الصبر، الصبر»[٥٢]، وحمل على الروم المهاجمين. وظل المسلمون يقاتلون الروم ويدفعونهم إلى أن تمكنوا من دحرهم واستعادة المواقع التي سبق وفقدوها.

ـ في هذه الأثناء حملت ميسرة الروم، من جديد، وفيها فرقة من الأرمن، على شرحبيل، في ميمنة المسلمين مما يجانب القلب، فهُزمت ميمنة المسلمين ولم يثبت منها إلا شرحبيل وجماعة من المقاتلين دون الخمسماية. ورأى قيس بن هبيرة، وكان على فرقة من الخيالة، هزيمة ميمنة المسلمين، وخيل شرحبيل وهي تتقهقر، فاندفع لمساندتها من اليسار بينما اندفع خالد لمساندتها من اليمين، وأصبح الروم بين فكي كماشة ذراعها الأول (قيس) من اليسار وذراعها الثاني (خالد) من اليمين. وما أن رأى شرحبيل اندفاع خيالة المسلمين في هجومهم نحو الروم حتى ارتد بدوره عليهم مهاجماً، فأصبحوا محاصَرين من جهات ثلاث: يميناً ويساراً ومواجهة، فاضطربوا وبدأوا يتقهقرون، واندفع المسلمون في أثرهم و«حملوا عليهم حملة عظيمة حتى قربوا من سرادقات ماهان»[٥٣] بعد أن استعادوا مواقعهم.

المبارزة

ـ تخلل هذه المرحلة مبارزة بين بعض قادة الروم وقادة المسلمين، وقد قتل

---

(٥١) الواقدي، م. ن. ص. ن.
(٥٢) م. ن. ص. ن.
(٥٣) م. ن. ص ١٣٣.

فيها أحد بطارقة الروم وهو صاحب نابلس على يد أحد فرسان بني حمير، وقتل مريوس ملك اللان على يد ضرار بن الأزور بعد أن بارزه شرحبيل فعجز عنه، كما بارز الزبير بن العوام أربعة من الروم فقتلهم، وبارز خالد ملك الروس (وهو غير قناطير) وقتله[٥٤].

يوم التعوير

إزاء ما جرى للروم من هزائم على يد المسلمين، أمر ماهان رماته فهبوا هبّة واحدة وأطلقوا نحو المسلمين ما يقارب «ماية ألف سهم» دفعة واحدة، «فكان النشاب يقع في عساكر المسلمين كسقوط البرد من السماء»،وكثرت جراح المسلمين من جراء ذلك، وكثرت عيونهم التي ذهبت حتى قيل إن رجال المسلمين فقدوا، في حرب السهام هذه، نحو سبعماية عين، لسبعماية رجل، فسمي هذا اليوم «يوم التعوير» وكان أبو سفيان بن حرب أحد المصابين[٥٥]. وهلع المسلمون لما أصابهم واضطربوا، وجفلت خيلهم وارتدت على أعقابها، فتراجعوا، مبتعدين، عن مرمى السهام.

الهجوم الرومي العام

اغتنم ماهان فرصة هلع المسلمين واضطرابهم وتراجعهم فأمر قادته بشن هجوم عام على المسلمين محاولاً «استثمار النصر» الذي أحرزه بواسطة رماته، فزحف الجيش الرومي، برمته، قلباً وميمنة وميسرة، نحو المسلمين المتقهقرين، وعلى رأس هذا الجيش قادته قورين وجرجير (غريغوري) وقناطير، وزاد الرماة في رميهم على المسلمين، وتقدم المسلسلون بخطى ثابتة وقد أشرعوا سيوفهم؛ وازداد المسلمون، أمام هذا الزحف الهائل، إمعاناً في التراجع والتقهقر، وازداد الروم إمعاناً في التقدم والتوغل في صفوف المسلمين، وقاتل المسلمون، في تقهقرهم، قتالاً شديداً، وقد أبلى قادتهم مثل أبي عبيدة ويزيد وعمرو وعبد الرحمن بن أبي بكر

(٥٤) م. ن. ص ١٣٣ ـ ١٣٥.

(٥٥) م. ن. ص ١٣٥. وهكذا ذكر الطبري إذ قال: «واصيبت يومئذ عين أبي سفيان، فاخرج السهم من عينه أبو حثمة»، (المصدر السابق، جـ٣ : ٤٠١)، وابن الأثير (المصدر السابق، جـ٢ : ٤١٤) أما البلاذري فقال إن عين أبي سفيان ذهبت يوم الطائف (فتوح البلدان، ص ١٨٥).

والفضل بن العباس، في هذا اليوم، بلاء حسناً، حتى قال عبد الله بن قرط الأسدي «شهدت القتال كله فلم أر قتالاً أشد من يوم التعوير»[٥٦]، ولكن المسلمين ظلوا يتراجعون مندحرين حتى وصلوا إلى مضارب النساء.

قتال النساء المسلمات والهجوم الإسلامي المعاكس

ما أن رأى النساء المسلمات رجالهن منهزمين حتى نزلن عن التل وقد حمل بعضهن السيوف ثم اشتركن بالقتال «فجعلن يقاتلن قتال الموت»، وانهزمت نساء لخم وجذام وخولان فبرزت لهن خولة بنت الأزور (أخت ضرار) وأم حكيم ابنة حكيم بن الحرث وسلمى بنت آوى «وجعلن يضربن في وجوههن ورؤوسهن بالعمد ويقلن: أخرجن من بيننا فانتن توهّن جمعنا، فرجعت نساء لخم وجذام يقاتلن قتال الموت، وقاتلت أم حكيم بنت الحرث أمام الخيل بالسيف»[٥٧]. وهبّ المسلمون للقتال عندما رأوا نساءهم يقاتلن قتالاً أشد من قتال الرجال، حتى قال فيهن عبد الله بن قرط كذلك: «لم أر امرأة من نساء قريش قاتلت بين يدي رسول الله ﷺ ولا في اليمامة مع خالد مثل ما قاتلت نساء قريش يوم اليرموك حين دهمهن القتال وخالط الروم المسلمين فضربن السيوف ضرباً وجيعاً»[٥٨]. وما أن رأى عكرمة بن أبي جهل والقعقاع بن عمرو، وكانا مع أبي عبيدة في القلب، نساء المسلمين وقد أشرعن سيوفهن يقاتلن، حتى دبت الحماسة فيهما، فوقف عكرمة، على رأس كردوسه، أمام فسطاط خالد وصاح: «قاتلت مع النبي ﷺ في كل موطن ثم أفرّ اليوم؟» ثم نادى: «من يبايعني على الموت؟»، «فبايعه الحارث بن هشام وضرار بن الأزور في أربعمائة من وجوه المسلمين وفرسانهم فقاتلوا قدّام فسطاط خالد حتى أثبتوا (أثيبوا) جميعاً جراحاً، فمنهم من برأ ومنهم من قتل». وجرح عكرمة وابنه عمرو فأتي بهما إلى خالد فوضع رأس عكرمة على فخذه ورأس عمرو على ساقه وأخذ يمسح وجهيهما ويقطر الماء في حلقيهما ويقول: «زعم ابن الحنْتَمة (أي عمر بن الخطاب) أنّا لا نُستشهد»[٥٩].

---

(٥٦) الواقدي، المصدر السابق، جـ١ : ١٣٥.
(٥٧) م. ن. ص ١٣٦.
(٥٨) م. ن. ص. ن.
(٥٩) ابن الأثير، المصدر السابق، جـ٢ : ٤١٣. والطبري، المصدر السابق، جـ٣ : ٤٠١.

وقد استمر القتال في يوم التعوير هذا من أول النهار حتى حلول الظلام، وصمد أبو عبيدة وخالد والقادة من حولهما حتى تمكنوا من دحر الروم وردّهم على أعقابهم، وما أن مالت الشمس نحو المغيب وفصل الظلام بين المتحاربين حتى كان المسلمون قد استعادوا مراكزهم ورجع كل قوم إلى «إصلاح شأنهم ومداواة جراحهم» وذلك بعد أن «جرت الدماء بينهم وفرشت الأرض بالقتلى»[٦٠].

اليوم الخامس:

المرحلة الخامسة : الهجوم الإسلامي العام ـ الحركة الإفراجية ـ الحسم ونهاية المعركة[٦١]:

بدأت هذه المرحلة بمبارزة بين (غريغوري) قائد ميمنة الروم، وبين (أبي عبيدة) قائد القلب في جيش المسلمين، وانتهت هذه المبارزة بمقتل القائد الرومي على يد القائد المسلم، مما أثار قائد الجيش ماهان فاندفع يطلب المبارزة، وبرز إليه مالك النخعي فما استطاع إليه سبيلاً بل أن ماهان استطاع أن ينال من مالك بضربة «شترت عينه» ثم ولى هارباً، ومنذ ذلك الحين سمي مالك «بالأشتر».

بعد هذه المبارزة أعطى خالد إشارة البدء بالهجوم العام، فتم ذلك على الشكل التالي:

ـ الهجوم الإسلامي العام:

ـ أمر خالد قادة الجيش في الميمنة والقلب والميسرة بالهجوم العام على قلب العدو وميمنته وميسرته، وترك لنفسه حرية المناورة بما لديه من خيالة متحركة (ومعه ضرار بن الأزور).

ـ أمر (خالد) قيس بن هبيرة (قائد فرقة من الخيالة) بالتعرض لخيالة ميسرة العدو والإشتباك معها. ثم قام، بخيالته، بحركة التفاف سريعة ومفاجئة على تلك الميسرة، في الوقت الذي كان قيس يشاغلها جانبياً، بخيالته.

---

(٦٠) الواقدي، المصدر السابق، جـ١ : ١٣٧.

(٦١) أنظر، لهذه المرحلة: اكرم، المصدر السابق، ص ٤٩١ ـ ٥٠١ والواقدي، المصدر السابق، جـ١ : ١٣٨ ـ ١٤١.

ـ كان الهجوم على ميسرة العدو من ثلاث جهات: جبهياً، بواسطة ميمنة المسلمين (عمرو)، وجانبياً، بواسطة خيالتهم (قيس)، وخلفياً، بواسطة خيالتهم أيضاً (خالد)، فوقعت ميسرة العدو ضمن كماشة مثلثة الأذرع، وكانت هذه الميسرة مؤلفة من فرقة مشاة تدعمها، من الخلف، فرقة خيالة، فتداخلت الفرقتان إحداهما بالأخرى تحت تأثير ضغط المسلمين عليهما، ثم انحرفتا معاً، متراجعتين، لتندمجا بالقلب.

ـ في هذه الأثناء، كان شرحبيل (في الميمنة بجانب القلب) وأبو عبيدة ويزيد، في مواجهة ميسرة العدو وقلبه وميمنته، وكان القتال بين الجيشين يدور عنيفاً دون أن يتمكن أي منهما من إحراز أي نجاح.

ـ الحركة الإفراجية الأولى:

ـ شن شرحبيل هجوماً جبهياً عنيفاً على من كان في مواجهته من ميسرة العدو، بينما شن عمرو (وهو في الميمنة بجانب شرحبيل) هجوماً جانبياً على تلك الميسرة، والتف خالد وقيس بخيالتهما على خيالة الميسرة من الخلف ليضغطا عليها من جديد، وما أن أحسّ خالد بعزم خيالة الروم على الهرب باتجاه الشمال حتى فسح لها في ذلك فانطلقت تجري مسرعة إلى داخل البلاد وهي لا تلوي على شيء.

ـ محاولة هجوم رومي معاكس ـ الحركة الإفراجية الثانية:

ـ في هذه الأثناء، كان ماهان (في القلب) يعد هجوماً معاكساً بخيالته على المسلمين، وقد بدأ ينظم، لذلك، صفوف الخيالة خلف صفوف المشاة؛ وتنبه خالد لذلك، فشن، ومعه قيس، على ماهان وخيالته، هجوماً جانبياً وخلفياً مفاجئاً، وذلك قبل أن يتمكن ماهان من تنظيم خيالته للهجوم. وفي هذه الأثناء، كان عمرو يطبق على ميسرة الروم بهجوم جانبي مماثل، حائلاً في الوقت نفسه، بين خيالة الروم وبين طريق النجاة شمالاً.

ودارت بين الفريقين رحى معركة عنيفة استبسل فيها ماهان وخيالته في وجه خالد وقيس وخيالتهما، ولكن الروم أنهكوا وأرهقوا، فمقاتلوهم وخيالتهم مثقلون بالعتاد والسلاح، لذلك فهم بطيئو الحركة قليلو المناورة، بينما يقاتل المسلم،

راجلاً وخيالاً، بخفة وسرعة لا مثيل لها. واشتد القتال بين الفريقين، واشتد ضغط خالد على ماهان وخيالته كما اشتد ضغط قيس على خيالة الميسرة، فأخذ ماهان يتلمس له ولخيالته مخرجاً، عندها أفسح خالد له ولخيالته طريق الهرب، وأمر عمراً فأفسح لهما الطريق كذلك، ففر ماهان وخيالته شمالاً (وكانوا أربعين ألفاً)، متفرقين في أنحاء البلاد أشتاتاً[٦٢]، تاركين مشاةالروم بلا تغطية وتحت رحمة سيوف المسلمين وحوافر خيلهم.

ـ الحسم ونهاية المعركة:

ـ كان خالد، في أثناء الليل الذي سبق المرحلة الأخيرة من المعركة[٦٣]، قد أمر ضرار بن الأزور أن يرابط بثلة من خيالته (خمسماية خيال) على المخاضة الوحيدة الواقعة على وادي الرقاد خاف صفوف الروم، والتي تشكل المنفذ الوحيد لهم باتجاه الغرب. ففعل ضرار ذلك وسدّ على الروم طريق الهرب من تلك الجهة، ثم انقض بخيالته، من الخلف، على مشاتهم ومن تبقى في ساحة القتال من خيالتهم بعد أن غادرها ماهان وخيالته، بينما اشتد عليهم الضغط الجانبي (من عمرو) والجبهوي (من شرحبيل وأبي عبيدة ويزيد)، فأصبح الروم محصورين من كل الجهات باستثناء جهة واحدة هي طريق المخاضة، فحاولوا ولوجها جماعات جماعات، ألا أن ضراراً كان بانتظارهم فهاجمهم وهم يعبرونها وأعمل ورجاله سيوفهم فيهم، فارتد الروم إلى الخلف هلعين مضطربين لا يعرفون أين يذهبون وكيف يسيرون، ورغم ذلك فقد ظل مقاتلوهم (في القلب) يقاومون ببسالة وضراوة، وخاصة خيالتهم، أما المشاة فقد لجأوا، وأكثرهم مسلسل أو مقيد، إلى خنادقهم، بَعد أن فقدوا التغطية التي كانت تؤمنها خيالتهم لهم.

ـ عندها، حمل خالد، بخيالته، من الخلف، على من تبقى من خيالة الروم، في القلب، فهزمهم، واتجه معظمهم نحو المخاضة، إلا أن ضراراً كان

---

(٦٢) انسحب ماهان ومعظم خيالته نحو دمشق فلحق بهم خالد وقاتلهم حتى هزمهم من جديد وقُتل ماهان، قتله رجل من المسلمين (الواقدي، م. ن. ص ١٤١).

(٦٣) م. ن. ص ١٣٨.

مترصداً لهم، فعاد من نجا منهم من سيوف ضرار ورجاله ليقع تحت سيوف خالد ورجاله، ثم عاد خالد فاقتحم، بخيالته، على المشاة خنادقهم وأخذ يقتلهم، فتراجع معظمهم حتى سقط في هوة وادي اليرموك (الواقوصة او الياقوصة)، وكان أحدهم إذ أراد الهرب من سيوف المسلمين ارتد جزعاً فسقط في الواقوصة وسقط معه من قُيِّد إليه بالسلاسل، فمن نجا منهم من سيوف المسلمين لقي حتفه في الهاوية(٦٤).

لقد كان الروم، في هذه اللحظات، أشبهْ بكتل بشرية ضخمة تدور على نفسها، لا تعرف من أن تؤتى، بينما كان قادتهم يغطون رؤوسهم ببرانسهم (وهي عادة متبعة عند إشرافهم) ويتقدمون للقاء الموت بشجاعة ورباطة جأش، فيأمر خالد بقطع أعناقهم.

وهكذا، لم تكد تغرب شمس ذلك اليوم، حتى كان آخر مقاتل رومي قد أخلى ساحة القتال إما هارباً أو جثة هامدة تحت حوافر خيل المسلمين أو في قاع الوادي السحيق.

٥ ـ الخسائر والنتائج:

أ ـ الخسائر:

ـ **الروم**: قدر كل من الطبري وابن الأثير خسائر الروم في هذه المعركة بماية وعشرين ألف قتيل، ثمانين ألف مقيد بالسلاسل وأربعين ألف مطلق بينهم معظم قادتهم (غريغوري والديرجان وماهان)، إلا أن البلاذري قدرها بسبعين ألف قتيل(٦٥).

---

(٦٤) الطبري، المصدر السابق، جـ٣ : ٤٠٠، وابن الأثير، المصدر السابق، جـ٢ : ٤١٣ والواقدي، المصدر السابق، جـ١ : ١٣٩.

(٦٥) الطبري، المصدر السابق، جـ ٣: ٤٠٠ وابن الأثير المصدر السابق، جـ ٢ : ٤١٣، والبلاذري، المصدر السابق، ص ١٨٤. أما الواقدي فيقول «فقتلوا ـ أي المسلمون ـ منهم زهاء ماية ألف وأسروا مثلها وغرق في الناقوصة منهم مثلها»، (المصدر السابق، جـ١ : ١٤١)، وهذا قول فيه الكثير من المبالغة. وفي كل حال، تجدر الملاحظة أننا لا نستطيع الخروج على ما قدّره المؤرخون من هذه الأرقام في معارك الفتوح، وإن كنا متيقنين أنها أرقام مبالغ بها، بل خيالية، إلى حد كبير، طالما أننا لم نعثر على أرقام أخرى غيرها تناقضها أو تدحضها (المؤلف).

ـ المسلمون: أما خسائر المسلمين فقدرت بثلاثة آلاف بين شهيد وجريح[٦٦]، ومن بين شهداء المسلمين معظم صحابة النبي ﷺ وشيوخ المسلمين وأقطابهم، (وكان عددهم يناهز المائة). وممن أصيب في هذه المعركة: عكرمة بن أبي جهل وابنه عمرو، وسلمة بن هشام، وعمرو بن سعيد، وابان بن سعيد، وجندب بن عمرو والطفيل بن عمرو وطليب بن عمير وهشام بن العاص وعياش بن أبي ربيعة وغيرهم[٦٧].

ب ـ النتائج:

كانت معركة اليرموك حاسمة في شأن مصير الروم ببلاد الشام، إذ أنها فتحت أمام المسلمين باب الانتصارات المتتالية في هذه البلاد، وما أن علم هرقل بهزيمة جيشه باليرموك، وكان بانطاكية، حتى غادر المدينة بعد أن أمرّ عليها واحداً من قومه، وودع هذه البلاد بقوله المشهور: «سلام عليك يا سوريا، سلاماً لا لقاء

---

(٦٦) ذكر الطبري (المصدر السابق، جـ٣ : ٤٠٢) وكذلك ابن الأثير (المصدر السابق، ج ٢ : ٤١٤) أن الذين (أصيبوا) من المسلمين في هذه المعركة «ثلاثة آلاف» أما الواقدي (المصدر السابق، جـ١ : ١٤١) فقدر عدد من قتل من المسلمين في هذه المعركة «بأربعة آلاف».

(٦٧) الطبري، م. ن، جـ٣ : ٤٠٢ وابن الأثير، م. ن. ص ٤١٤ ـ ٤١٥، ويذكر المؤرخون خبر جرجة، وهو قائد رومي اسمه «جرجة بن توذر»، وقيل: «بن تيودور»، وكان يتكلم العربية. وقد روى معظم المؤرخين (ومنهم الطبري وابن الأثير) أن جرجة، لما بدأ الاشتباك باليرموك، اقترب بدابته من دابة خالد ودار بينهما حوار طويل جاء فيه ما يلي: ـ جرجة: يا خالد، اصدقني القول ولا تكذبني فإن الحر لا يكذب: بالله هل أنزل الله على نبيكم سيفاً من السماء فاعطاكه، فلا تسلّه على قوم إلا هزمتهم؟ ـ خالد: لا ـ جرجة: ففيم سميت سيف الله؟ ـ خالد: إن الله بعث فينا نبيه، فدعانا، فنفرنا عنه ونأينا. ثم إن بعضنا باعده وكذبه، فكنت فيمن كذبه وباعده وقاتله. ثم آن الله أخذ بقلوبنا فهدانا به، فتابعناه، فقال: «أنت سيف من سيوف الله سلّه على المشركين»، ودعا لي بالنصر، فسميت سيف الله، وأنا من أشد المسلمين على المشركين. ـ جرجة: يا خالد، أخبرني إلى ما تدعوني؟ ـ خالد: إلى شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، والاقرار بما جاء من عند الله. ـ جرجة: فمن لم يجبكم؟ ـ خالد: فالجزية ونمنعه. ـ جرجة: فإن لم يعطها؟ ـ خالد: نؤذنه بحرب ثم نقاتله. جرجة: فما منزلة الذي يدخل فيكم ويجيبكم إلى هذا الأمر اليوم؟ ـ خالد: منزلتنا واحدة فيما افترض الله عليه شريفنا ووضيعنا، وأولنا وآخرنا. ـ جرجة: هل لمن دخل فيكم اليوم مثل ما لكم من الأجر والذخر؟ ـ خالد: نعم، وأفضل. قيل: ثم طلب جرجة من خالد أن يعلّمه الإسلام، فأخذه خالد إلى فسطاطه ووضأه، ثم صلى ركعتين وخرج ليحارب بجانب المسلمين، فقتل في المعركة نفسها (ابن الأثير، جـ٢ : ٤١٢، والطبري، جـ٣: ٣٩٨ ـ ٤٠٠).

بعده»، ولكن هرقل عاد بعدها لينظم في سوريا مقاومة ضد المسلمين إلا أنه فشل في ذلك فغادرها إلى القسطنطينية بلا رجعة.

الدروس المستخلصة
من معركة اليرموك

كانت اليرموك أول معركة خاضها المسلمون بجيش ذي تنظيم وتكتيك حديثين، لذا كانت التطبيق العملي لتطور التنظيم والتكتيك الذي اكتسبه المسلمون في حروبهم منذ ظهور الإسلام وحتى بدء الفتوح. وإن كانت اليرموك قد جرت بعد وفاة الرسول ﷺ بسنوات فلا شك في أن خالداً قد خاضها بجيش الرسول نفسه، جنداً وقادة وصحابةً أولي رأي ومشورة، مما يجعلنا ندرك أهمية هذه المعركة في إظهار ملامح العبقرية العسكرية التي تميز بها هذا القائد الفذ، في وقت لم يكن المسلمون قد أظهروا، في فن الحرب، تقدماً ملحوظاً. وفيما يلي بعض من لمحات التطور التنظيمي والتكتيكي التي ظهرت خلال هذه المعركة وكان لخالد بن الوليد فضل إظهارها:

١ ـ المناورة بالخطوط الداخلية:

كان خالد يتمتع، أمام الحلول المتعددة المختلفة، ببعد نظر شامل، وتفكير صائب واختيار ناجح للحل المناسب مع سرعة في تقرير هذا الحل وتنفيذه. فها نحن نراه، عند وصوله إلى الشام، أمام حلين: إما أن يلحق بعمرو بن العاص في فلسطين فينازل جيش الروم فيها (الجيش الرومي الأول)، ثم يتفرغ لجيش انطاكية، أو أن ينتظر جيش انطاكية في اليرموك فينازله قبل منازلته جيش فلسطين. فلا يتردد في اختيار الحل الأول، وكان مصيباً في اختياره.

ولا يغرب عن بالنا أن الأخذ بالحل الثاني كان يعني المحاذير التالية:

أ ـ أن يعتمد خالد خطة الدفاع بدلاً من الهجوم، فينتظر جيش انطاكية في مكانه. ولا يخفي ما في هذه الخطة من مخاطر على جيش ينتظر عدواً يفوقه عدداً (بستة أضعاف) ويفوقه عدة.

ب ـ أن يخسر خالد، في معركته الحاسمة باليرموك، قوة ضاربة لا يستهان بها، هي قوة عمرو بن العاص المتمركزة قبالة الجيش الرومي الأول في فلسطين.

ج ـ أن يتعرض خالد لاحتمال عدم تمكن عمرو من مواجهة الجيش الرومي الأول والصمود في وجهه، مما يؤدي إلى تقدُّم قُوات هذا الجيش لتقطع خطوط المواصلات التي تربط خالداً بالمدينة عاصمة الخلافة، وبمقر القيادة العليا ومركز التموين والتذخير.

لهذا قرر اعتماد الحل الأول والمناورة بالخطوط الداخلية، مستفيداً من بطء تقدم القوات الرومية التي لم يكن بوسعها اللحاق به إلى أجنادين بالنظر لما تحمله من دروع وأثقال.

٢ ـ التنظيم العسكري للجيش الإسلامي في المعركة:

سبق وتحدثنا، في سياق البحث، عن التنظيم العسكري الذي اعتمده خالد في معركة اليرموك، وهو تنظيم «الخميس والكراديس» مجتمعين، أو ما سمي «بالتعبئة الخالدية» وكان أول تنظيم من نوعه في الإسلام.

مكان الخيالة المسلمين في المعركة:

كان للخيالة، عند خالد، اهتمام خاص، إذ كانت القوة الضاربة وقوة الصدم في جيشه بالإضافة إلى كونها قوة مشاغلة ومناورة وانقضاض. لذا، نراه يقسِّم خيالته في اليرموك إلى فرق، على كل فرقة واحد من أفضل فرسانه وأشجعهم (قيس بن هبيرة، وميسرة بن مسروق، وعامر بن الطفيل، وغياث بن حرملة، ومسلمة بن سيف، والقعقاع بن عمرو، وقباث بن أشيم، وضرار بن الأزور)، ثم يوزع هذه الفرق بين الطليعة والميمنة والميسرة وصفوف القتال الثلاثة، ثم المؤخرة. فخيالة الطليعة للمشاغلة، وخيالة الجناحين للمناورة، وخيالة الصفوف للتدخل والصدم، وخيالة المؤخرة للانقضاض. وكان نصيبه دائماً (ومعه ضرار بن الأزور أشجع فرسان المسلمين وأفضلهم) خيالة الاحتياط المتحرك التي كانت حاضرة للانقضاض على العدو في أي مكان من المعركة يظهر فيه على المسلمين ضعف أو وهن.

وينسب عمر كحالة في كتابه «سيف الله خالد بن الوليد»، إلى خالد قوله في اليرموك: «قد رأيت أن أفرق خيلي فأكون في إحدى الخيلين وقيس بن هبيرة في الخيل الأخرى، ثم تقف خيلنا من وراء الميمنة والميسرة، فإذا حمل الناس ثبّت الله اقدامهم، وإن تكن الأخرى حملت خيولنا عليهم وهي حامية، وتكون الأعداء قد انتهت شدتهم وتفرقت جماعتهم، فأطلق الأعنة عند ذلك إلى أن يظفرنا الله بهم، ويجعل الدائرة عليهم»(٦٨).

٣ ـ الاستعداد للقتال وتوزيع المهمات:

وزع خالد، قبل القتال، المهمات على قادته، فوضع أبا عبيدة في القلب ومهمته منازلة قلب العدو. ووضع يزيد بن أبي سفيان في الميسرة، ومهمته منازلة ميمنة العدو. ووضع عمرو بن العاص، ومعه شرحبيل بن حسنة، في الميمنة، ومهمتها منازلة ميسرة العدو، ثم القيام بحركة التفاف مغطاة وسريعة ومباغته على هذه الميسرة بقصد ضرب العدو في مجنبته ومن خلفه ثم الوصول إلى قلب جيشه.

٤ ـ الاعداد المعنوي للجند:

سبقَ وتحدثنا، في سياق البحث، عن الأوامر التي أعطاها قادة المسلمين للمقاتلين والنساء قبل بدء القتال، مع ما فيها من حض للمسلمين على الصمود والثبات في وجه العدو، وما كان لذلك من تأثير معنوي على المقاتلين في أثناء القتال.

٥ ـ الحيطة في السير إلى المعركة:

ضمن خالد «الحيطة» في مسيره إلى القتال باليرموك، فقد وضع في طليعة جيشه أحد أكفأ قادته وأشجعهم وهو (قباث بن أشيم) فكانت طليعة قباث عيون ذلك الجيش ومخافره الأمامية. ووضع في مؤخرته «سعيد بن زيد» مع خمسماية مقاتل لحماية الظعن والمؤخرة. حتى أن معركة «أجنادين» نفسها يمكن أن تعتبر إحدى أهم

---

(٦٨) كحالة، عمر، سيف الله خالد بن الوليد، ص ١٤٨ ـ ١٤٩، إلا أن كحالة لم يذكر المصدر الذي أخذ عنه قول خالد هذا. وانظر أيضاً، لتوزيع الخيالة في اليرموك: الواقدي، المصدر السابق، جـ ١ : ١١٨ و١٢٥.

الوسائل التي استخدمها خالد لضمان «الحيطة» للمعركة العتيدة والحاسمة في اليرموك.

٦ ـ التجديد في تكتيك الجيش الإسلامي:

كانت اليرموك أول معركة خاضها الجيش الإسلامي ضد الروم بأسلوب حديث في القتال. فقد نجح خالد في اقتباس التنظيم العسكري عن جيوش الروم «نظام الكراديس والفرق» ومحاربتهم به وانتصاره عليهم قبل أن يدرب جنده عليه، كما نجح في تنفيذ «الحركة الإفراجية» التي اعتمدها مع خيالة الروم في أثناء المعركة، فكان ذلك تطوراً هاماً وحاسماً في التكتيك والتظيم العسكريين في الجيش الإسلامي، بل كانا (أي تنظيم الكراديس وتنفيذ الحركة الإفراجية) أهم تطورين في التنظيم والتكتيك في الجيش الإسلامي في ذلك الحين.

٧ ـ إختيار نقطة التمركز الخطرة في مواجهة الروم:

عندما وصل خالد إلى ميدان القتال رأى الروم قد تمركزوا في موضع «واسع المطرد ضيق المهرب» فوادي الرقاد خلفهم، ووادي اليرموك عن يمينهم، والمسلمون أمامهم، ولم يبق لهم إلا منفذ واحد باتجاه الشمال يصلهم بمقر قيادتهم العليا ومركز تموينهم وتذخيرهم في داخل الشام، وهو المنفذ الذي عمد خالد إلى سده بميمنته، عند ميسرتهم، فلما دارت رحى المعركة وضغط خالد بجنده على خيالة الروم لم يتمكن هؤلاء من التراجع في طريق مسدود، فلم يجدوا بداً من النفاذ باتجاه ميمنة خالد، ففتح لهم الطريق ليهربوا ويتشردوا في طول البلاد وعرضها.

٨ ـ إجبار الروم على ترك مواقعهم الدفاعية المحصنة:

رأينا أن خالداً وصل إلى ميدان القتال والروم متحصنون في مواقعهم، فعمم على قادته أن لا يبدأوا القتال، بل أن يتركوا الروم يهاجمونهم تاركين مواقعهم الدفاعية المحصنة، فكان له ما أراد. وقد استهدف الروم من هجومهم تطويق المسلمين، فشغلوا ميسرتهم ثم ضربوا ميمنتهم، ثم ضربوا ميسرتهم، ثم عادوا فضربوا ميمنتهم ثانية لعلهم يخترقونها وينفذون منها إلى مكان يطوقون منه جند خالد. ولكن المسلمين صمدوا وثبتوا، فارتد الروم على أعقابهم، وكرّ خالد عليهم بعد أن أرهقهم الهجوم فانتزع النصر منهم انتزاعاً.

٩ ـ دور النساء في المعركة:

لقد كان لنساء المسلمين في مختلف مراحل هذه المعركة دور أساسي وهام وحاسم كما سبق وقدمنا في أثناء شرحنا لمراحل المعركة، بل كن، بالفعل، سبباً لانتصارهم فيها، إذ كان لهن فضل كبير في تثبيت أقدام المسلمين في ميدان القتال وصمودهم وعودتهم إلى القتال بعد كل هزيمة كانوا يمنون بها. ولا عجب فقد ساهمت المرأة المسلمة، إلى حد كبير، وإلى جانب الرجل، في معظم حروب المسلمين وفتوحهم، بل وقاتلت إلى جانبه في كثير من المعارك كما فعلت في اليرموك.

١٠ ـ الفصل بين فرسان العدو ومشاته:

وهذه الخطة متبعة في الحروب الحديثة إذ يعمد الخصم أول ما يعمد إلى الفصل بين المشاة وما يحميها من مدرعات، وقد عمد خالد إلى ذلك ففصل بين مشاة الروم وفرسانهم ثم صرف الفرسان من المعركة ليتسنى له أن يسحق المشاة، وكان له ما أراد.

١١ ـ الحركة الإفراجية:

وهي أفضل حركات خالد في هذه المعركة وأكثرها ذكاء وعبقرية، إذ أفسح لخيالة الروم مجال الهرب من الفرجة التي تعتبر المنفذ الوحيد لهم، فانصرف الفرسان وبقي المشاة وحدهم في ميدان القتال، ولو لم يفعل خالد ذلك مع الفرسان لاستماتت هؤلاء في القتال وكلفوا المسلمين كثيراً من الجهد والدم للقضاء عليهم.

١٢ استخدام الاحتياط:

وككل قائد من قادة الحرب الحديثين احتفظ خالد لنفسه باحتياط من الخيالة المتحركة بقيادته، وكان يستخدمه كلما دعت الحاجة إلى ذلك.

١٣ ـ الحشد المادي والمعنوي في المعركة:

تعتبر اليرموك أفضل مثال على «حشد» القوى المادية والمعنوية في المعركة.

حشد القوى المادية : يظهر الحشد «المادي» للقوى في اليرموك في أقدام خالد على اتخاذ المبادرة بخوض المعركة ضد جيش سرجيوس الذي كان يرابط بمواجهة جيش عمرو بن العاص في أجنادين، وذلك كي يحرر جيش عمرو ويضمن لنفسه حرية العمل في المعركة الكبرى: اليرموك. كما يظهر في التنظيم الذي رتب خالد به جيشه (التنظيم بالكراديس)، وفي اختيار المكان الذي تمركز فيه (في نقطة سدت على العدو سبل الخروج كافة)، وفي جمعه الجيش الإسلامي، بفرقه الأربع، تحت قيادات منظمة ووضعها جميعاً بامرته، وأخيراً في حشد النسوة في مؤخرة الجيش لمهمة دقيقة (إعادة المنهزمين من جند المسلمين إلى الصفوف).

حشد القوى المعنوية: وقد بيّنا فيما سبق كيف أعد خالد جنده وقادته الإعداد المعنوي اللازم للقتال، وكيف أنه عيّن، في أركان حربه، خطيباً وواعظاً وقارئاً لسورة الأنفال (وهي سورة القتال والجهاد والشهادة في القرآن الكريم) وأتى بالنسوة ليرجمن الجند المنهزمين ويدفعنهم إلى القتال دفاعاً عن «عرضهم ودينهم» فيعودون إلى ساحة الحرب بروح لا أسمى ولا أعلى.

١٤ ـ المباغتة التكتيكية:

تعتبر الحركة الإفراجية التي نفذها خالد في اليرموك نموذجاً مثالياً للمباغتة التكتيكية في القتال، إذ بينما كان الروم يعانون من ضغط خالد وحصاره لهم رغب فرسانهم في الهرب، وبكل بساطة فتح خالد لهم الطريق فولوا الأدبار، وكان يهدف من عمله هذا الفصل بين فرسان الروم ومشاتهم، وكان له ما أراد، وعزل المشاة ثم حمل عليهم بجيشه حتى هزمهم بعد أن أهلك كثيراً منهم.

١٥ ـ الحشد الأقصى للقوى:

وقد ظهر ذلك في اليرموك عندما اشتد ضغط الروم على ميمنة المسلمين

حتى أزالوهم عن مواقعهم فأنبرى عمرو بن معد يكرب الزبيدي ونادى قومه أن «التفوا حولي» فالتف حوله ما يقارب الخمسمائة مقاتل، ثم برز أبو هريرة صاحب الرسول ﷺ ونادى قبيلة (الأزد) وكانت قد إزيلت عن مواقعها كذلك فالتف رجالها حوله. وكان عكرمة بن أبي جهل يقاتل أمام فسطاط خالد فرأى المسلمين في حرج فصاح «قاتلت مع رسول الله في كل موطن وأفرّ اليوم؟ من يبايع على الموت،؟» فبايعه أربعمائة مقاتل منهم ابنه عمرو وضرار بن الأزور والحارث بن هشام وغيرهم من أبطال المسلمين وفرسانهم، وكروا على الروم فأعادوهم إلى مواقعهم. أما النساء فلم يقصرن عن أداء دورهن كاملا في المعركة بل كن عاملاً هاماً من عوامل انتصار المسلمين في اليرموك. فيكون خالد قد حشد، بالفعل، في هذه المعركة، أقصى قواه المادية والمعنوية.

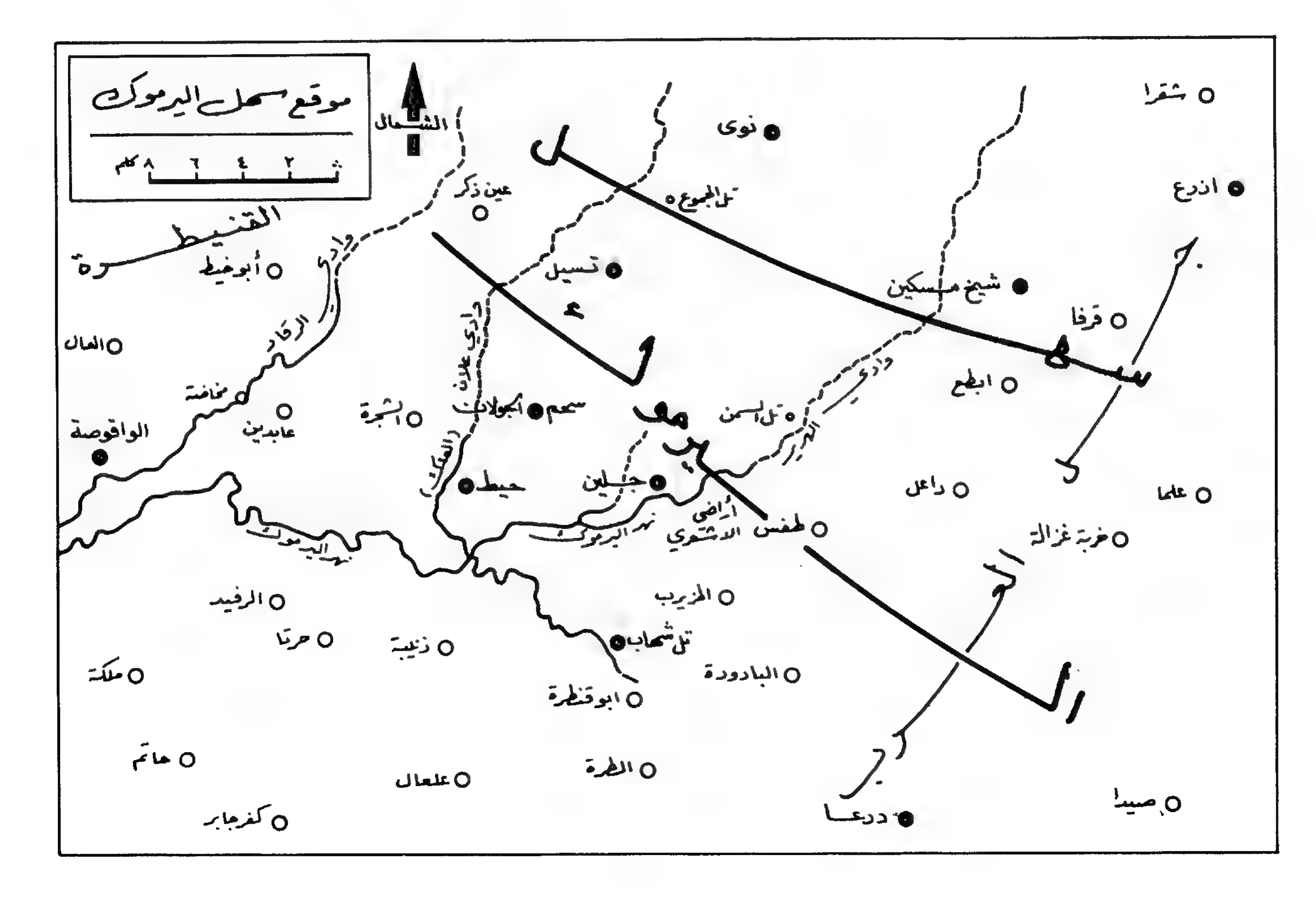
١٦ ـ تنسيق الجهد العسكري في المعركة:

كانت اليرموك نموذجاً رائعاً من نماذج التنسيق في الجهد العسكري والتعاون والتفاهم التامين بين القائد ووحداته في المعركة، إذ كان خالد يحرك كل وحدة من وحدات جيشه بدقة متناهية، فبينما القلب ينشب القتال تقف الميمنة ترد هجمات العدو، فينثني عليها القلب ليعضدها ويساندها، ثم تتراجع الميسرة أمام هجمات العدو فتقف النسوة في طريق المنهزمين تردهم إلى ساحة القتال فينحسر الروم عن مواقعهم وتتقدم ميسرة المسلمين نحوهم. ويلاحظ القائد سير المعركة ببصيرة نافذة حتى إذا ما رأى الروم يتراجعون في الميسرة والقلب والميمنة أمر بالهجوم العام، ففصل بين مشاتهم وفرسانهم ثم أفرج عن فرسانهم بحركة بارعة واقتحم على مشاتهم خنادقهم فأهلكهم.

١٧ ـ الاختيار الملائم للمكان والزمان:

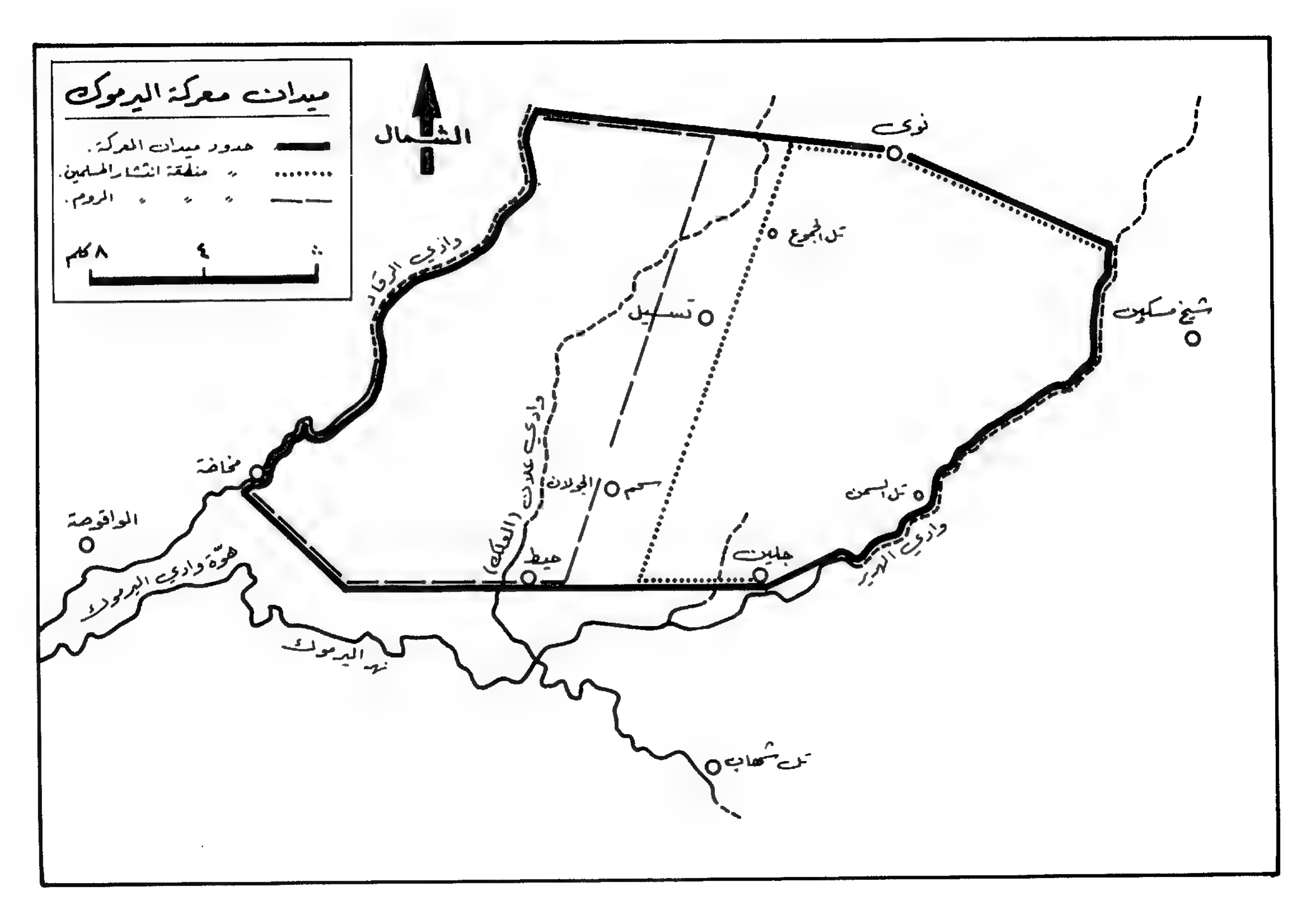
لقد احسن خالد اختيار مكان تمركز جيشه في مواجهة جيش الروم في اليرموك مستفيداً من أخطاء الروم في تمركزهم، فعوض بذلك عن قلة عديد جيشه بالنسبة إلى كثرة عديد جيشهم. ثم أحسن اختيار توقيت «الحركة الإفراجية» والهجوم العام على العدو فاستطاع بذلك أن يحرز النصر المبين في معركة حاسمة من أهم معارك التاريخ.

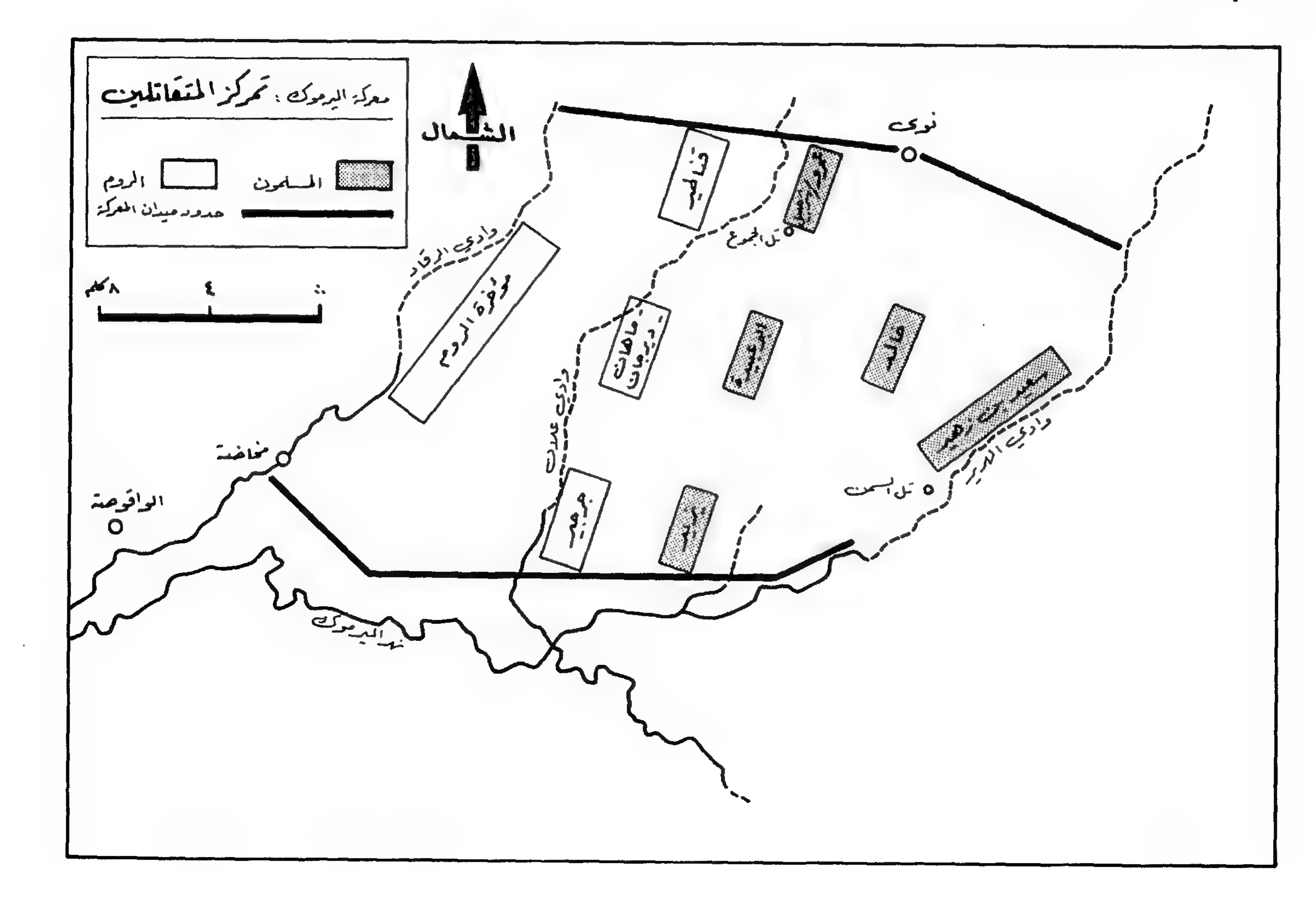
خارطة رقم (١)



موقع سهل اليرموك
٨ كلم
الشمال
القنيطرة
أبوخيط
عين ذكر
نوى
تل الجموع
شقرا
ازرع
تسيل
شيخ مسكين
قرفا
العال
مخاضة
الواقوصة
عابدين
الشجرة
سحم الجولان
تل السمن
ابطع
حيط
جلين
داعل
علما
طفس
خربة غزالة
نهر اليرموك
المزيريب
الرفيد
حرتا
زنيبة
تل شهاب
ملكة
البادودة
ابوقنطرة
حاتم
علعال
الطرة
كفرجابر
درعا
صيدا

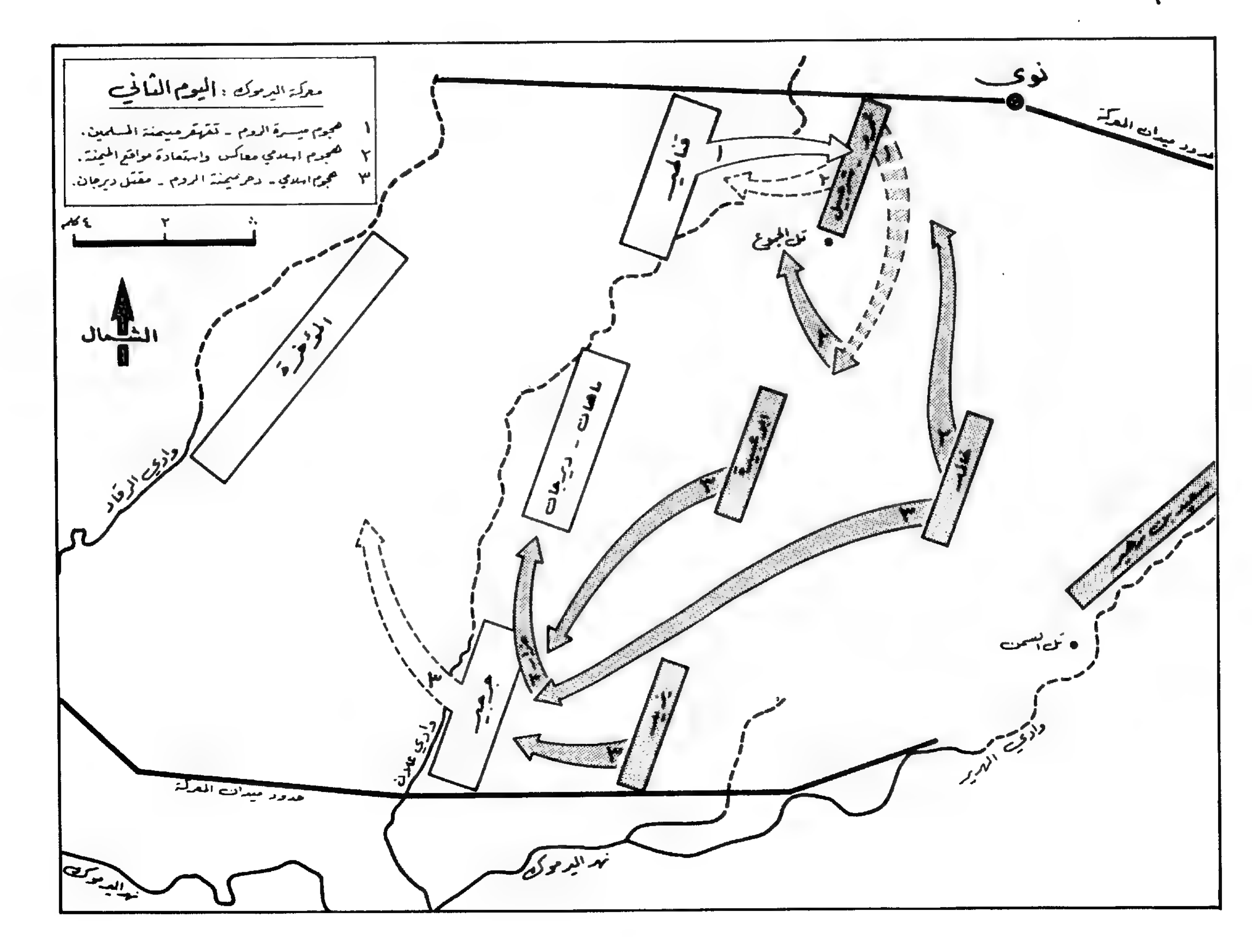
خارطة رقم (٢)


ميدان معركة اليرموك
حدود ميدان المعركة.
منطقة انتشار المسلمين.
الروم.
٨ كلم
٤
الشمال
نوى
تل الجموع
تسيل
سحم الجولان
حيط
جلين
تل السمن
شيخ مسكين
وادي الرقاد
وادي الحرير
مخافة
الواقوصة
هوة وادي اليرموك
نهر اليرموك
تل شهاب


معركة اليرموك : تمركز المتقاتلين
الروم
المسلمون
حدود ميدان المعركة
الشمال
٨ كلم
٤
٠
نوى
تل الجموع
قناطير
مؤخرة الروم
وادي الرقاد
وادي علان
خالد
جرجير
وادي الحرير
مخاضة
الواقوصة
نهر اليرموك

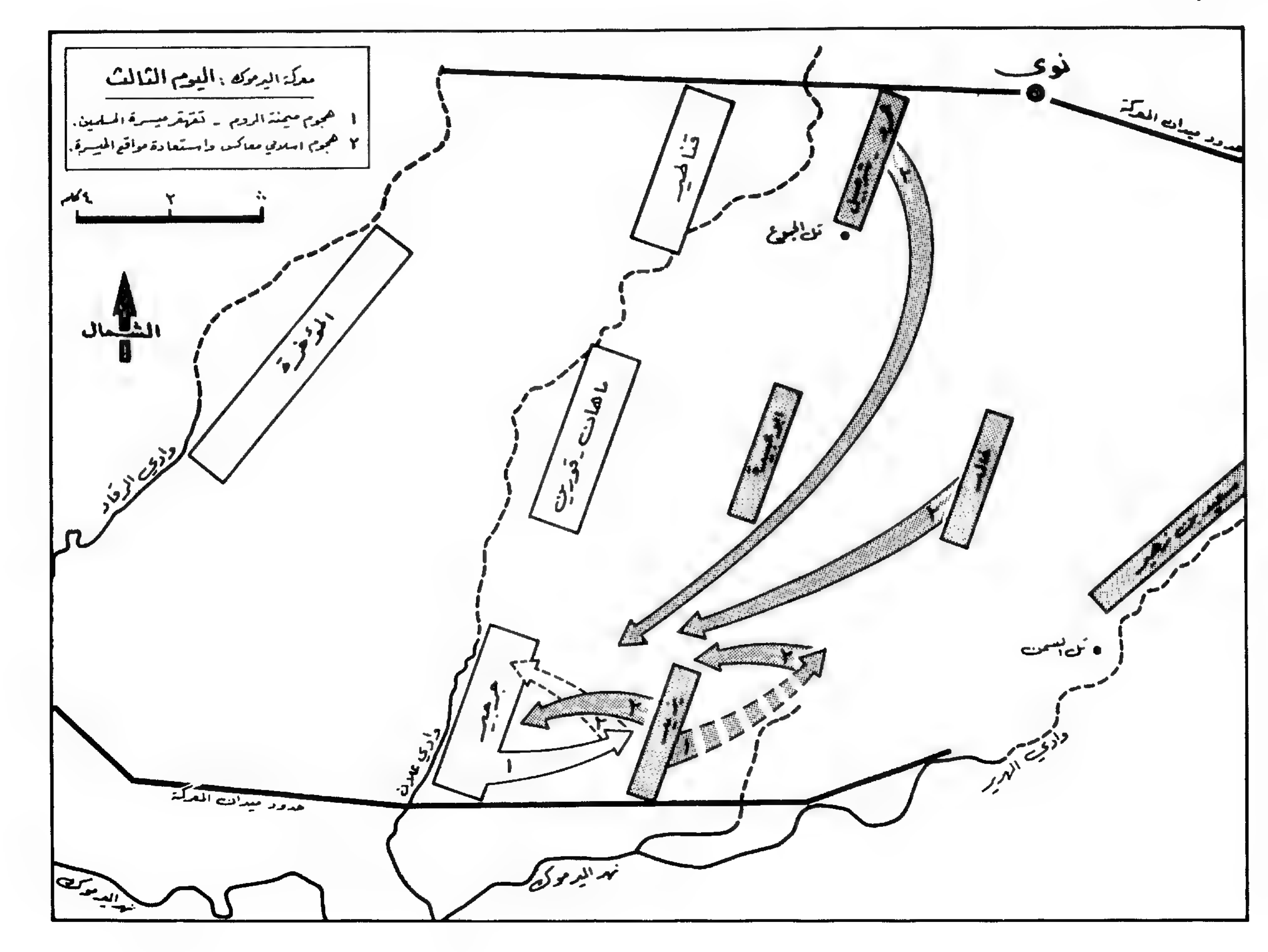
خارطة رقم (٣)

خارطة رقم (٤)



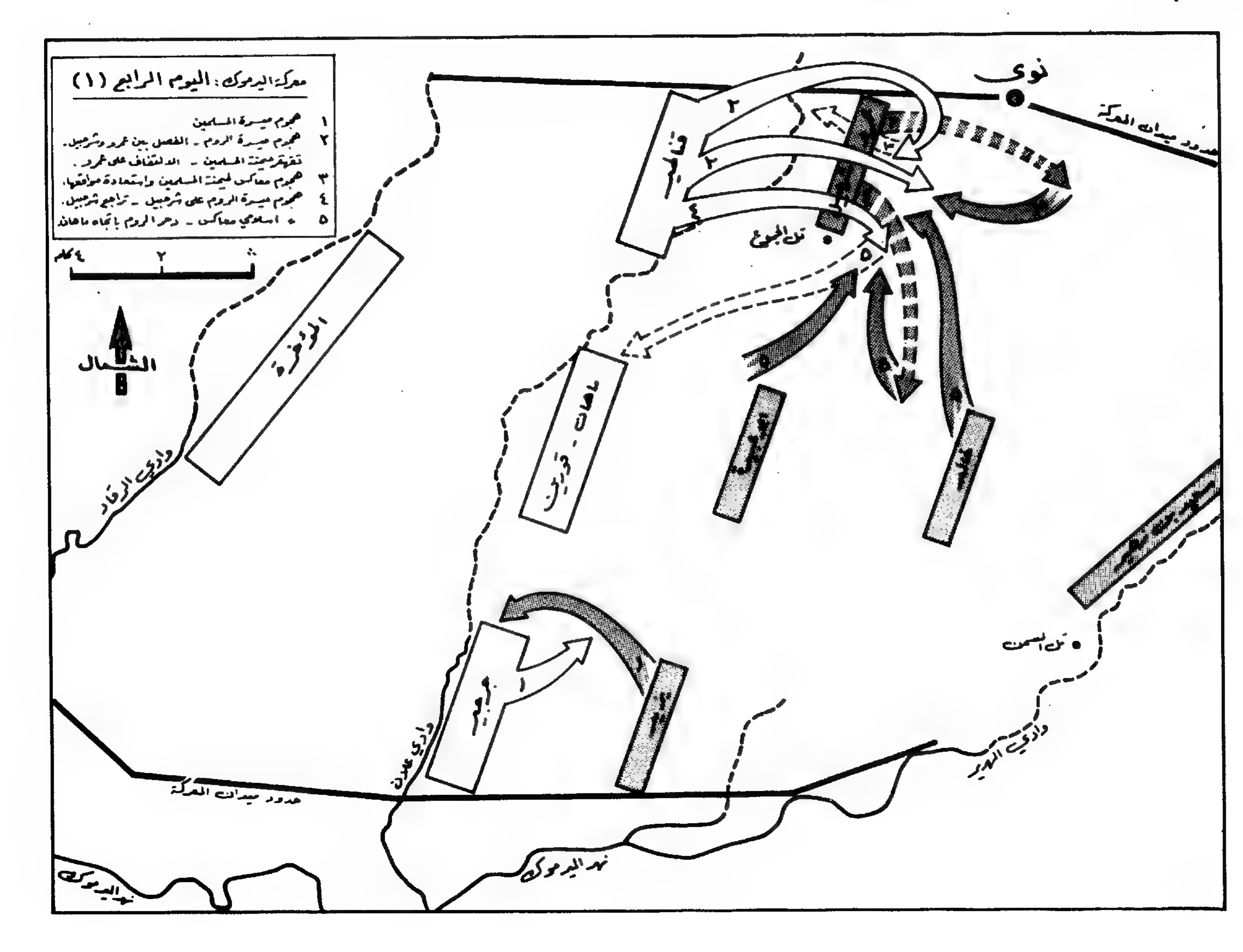
معركة اليرموك : اليوم الثاني
١ هجوم ميسرة الروم - تقهقر ميمنة المسلمين.
٢ هجوم اسلامي معاكس واستعادة مواقع الميمنة.
٣ هجوم اسلامي - دحر ميمنة الروم - مقتل ديرجان.
٠ ٢ ٤ كلم
الشمال
نوى
قناطير
تل الجموع
ماهان - ديرجان
المؤخرة
وادي الرقاد
وادي علان
وادي الحرير
تل السمن
حدود ميدان المعركة
حدود ميدان المعركة
نهر اليرموك
نهر اليرموك

خارطة رقم (٥)



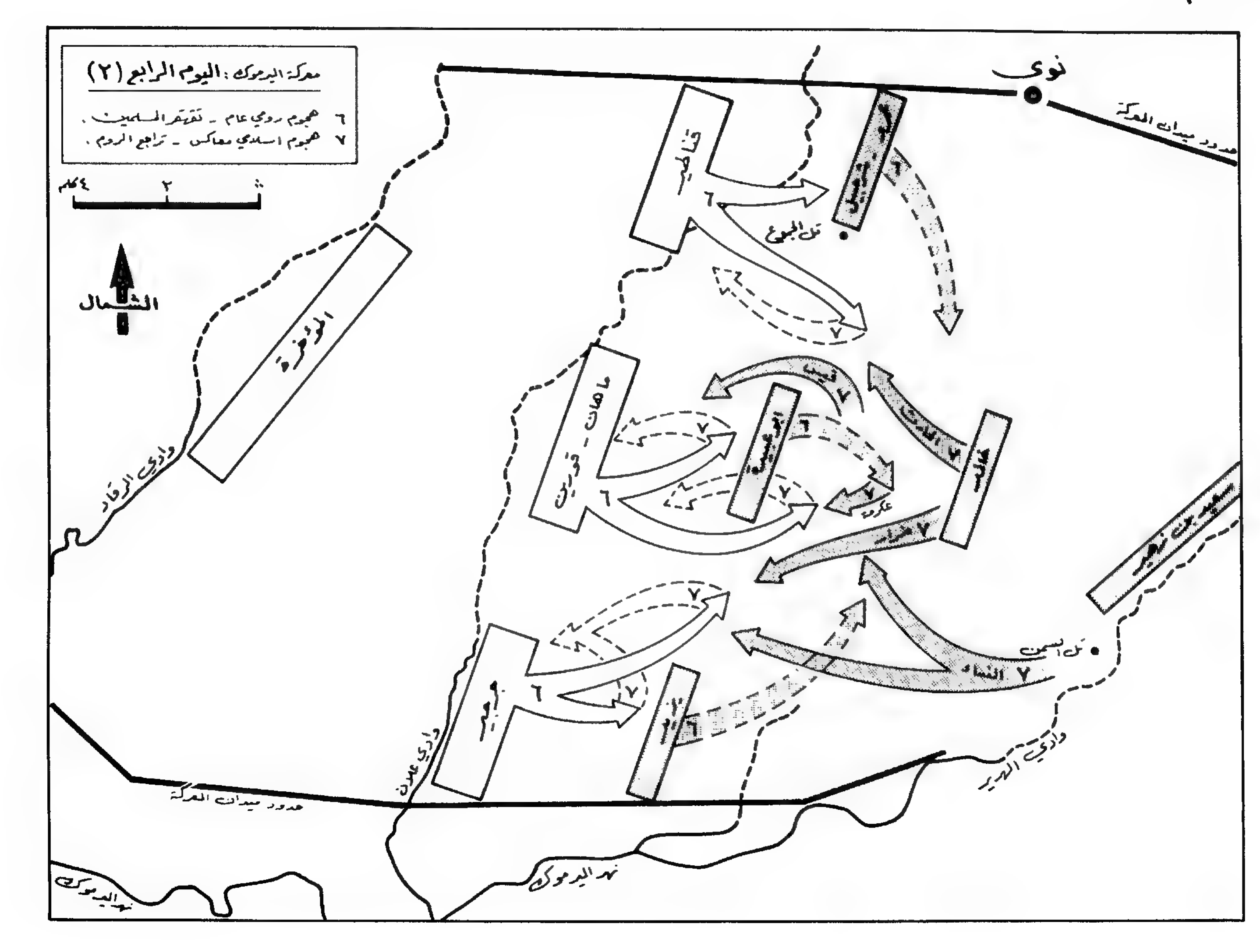
معركة اليرموك : اليوم الثالث
١ هجوم ميمنة الروم - تقهقر ميسرة المسلمين.
٢ هجوم اسلامي معاكس واستعادة مواقع الميسرة.
٤كم ٢ ٠
الشمال
نوى
حدود ميدان المعركة
قناطير
ماهان - قورين
المؤخرة
جرجير
تل الجموع
تل السمن
وادي الرقاد
وادي علان
وادي الحرير
نهر اليرموك

خارطة رقم (٦)



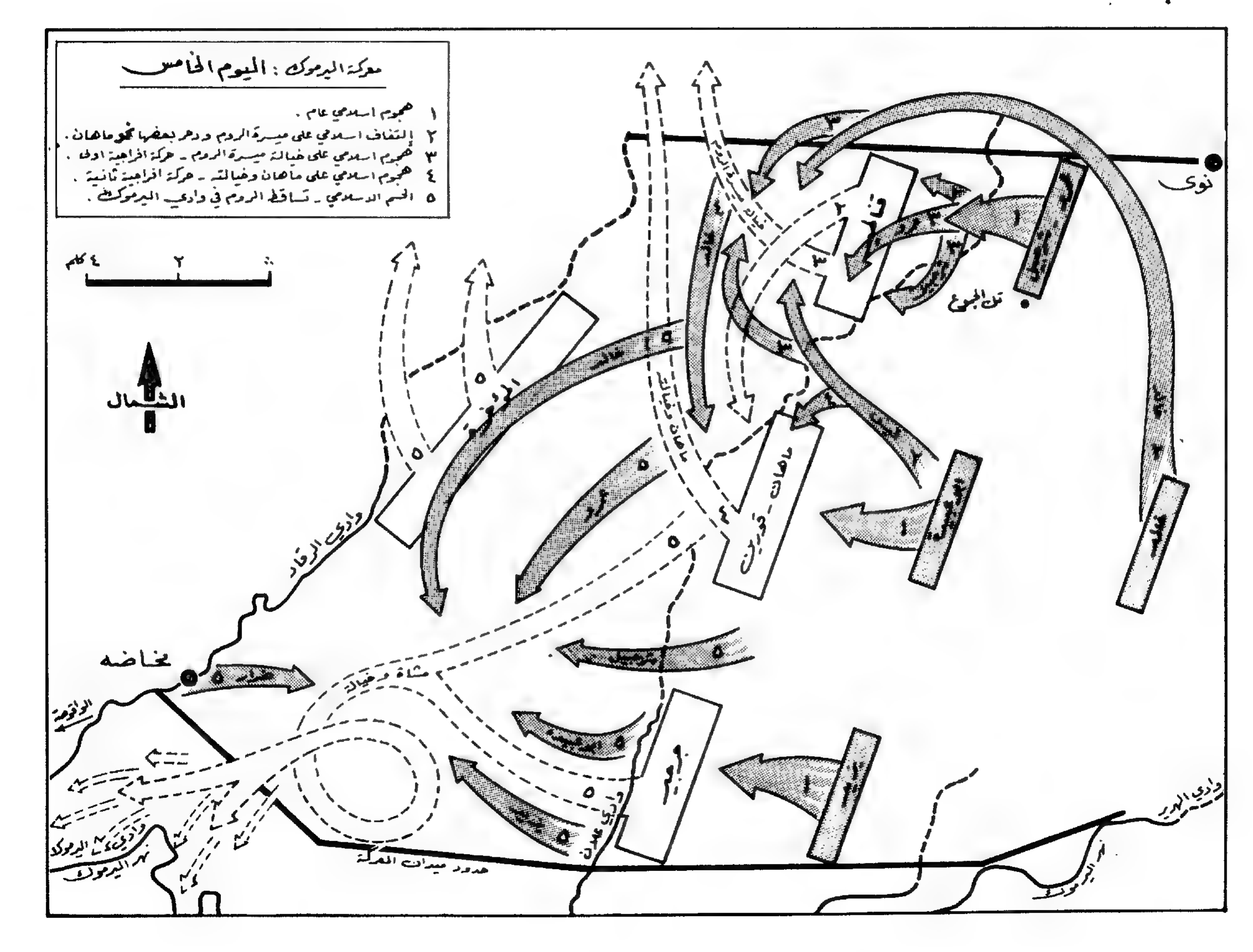
معركة اليرموك: اليوم الرابع (١)
١ هجوم ميسرة المسلمين
٢ هجوم ميسرة الروم - الفصل بين عمرو وشرحبيل. تقهقر ميمنة المسلمين - الالتفاف على عمرو.
٣ هجوم معاكس لميمنة المسلمين واستعادة مواقعها.
٤ هجوم ميسرة الروم على شرحبيل - تراجع شرحبيل.
٥ هجوم إسلامي معاكس - دحر الروم باتجاه ماهان
٠ ٢ ٤ كلم
الشمال
نوى
تل الجموع
تل السمن
ماهان - قورين
جرجير
وادي الرقاد
وادي علان
نهر اليرموك
حدود ميدان المعركة

خارطة رقم (٧)



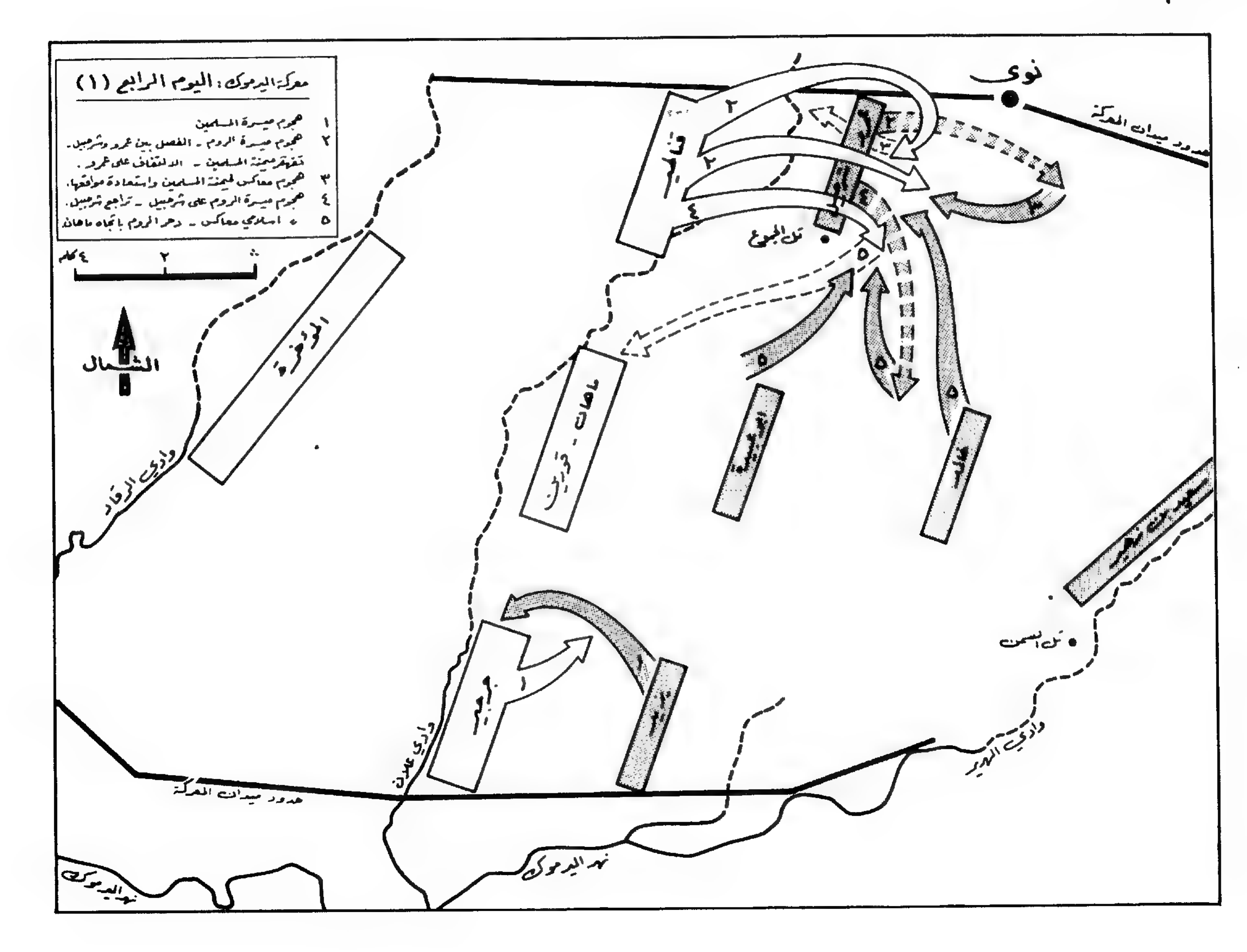
معركة اليرموك: اليوم الرابع (٢)
٦ هجوم رومي عام - تقهقر المسلمين.
٧ هجوم اسلامي معاكس - تراجع الروم.
٤كلم ٢ ٠
الشمال
المؤخرة
قناطير
ماهان - قورين
جرجه
عمرو - شرحبيل
ابو عبيدة
يزيد
خالد
سعيد بن زيد
عكرمة
ضرار
النساء
نوى
تل الجموع
تل السمن
حدود ميدان المعركة
وادي الرقاد
وادي علان
وادي الحرير
نهر اليرموك

خارطة رقم (٨)



معركة اليرموك : اليوم الخامس
١ هجوم اسلامي عام .
٢ إلتفاف اسلامي على ميسرة الروم ودحر بعضها نحو ماهان .
٣ هجوم اسلامي على خيالة ميسرة الروم ـ حركة الفراجية اولى .
٤ هجوم اسلامي على ماهان وخيالته ـ حركة الفراجية ثانية .
٥ الضم الاسلامي ـ تساقط الروم في وادي اليرموك .
٤ كلم
٢
الشمال
نوى
تل الجموع
ماهان ـ قورين
جرجه
غاده
وادي الرقاد
وادي العلان
وادي الهرير
نهر اليرموك
حدود ميدان المعركة

خارطة رقم (٦)



معركة اليرموك : اليوم الرابع (١)
١ هجوم ميسرة المسلمين
٢ هجوم ميسرة الروم - الفصل بين عمرو وشرحبيل. تقهقر ميمنة المسلمين - الالتفاف على عمرو.
٣ هجوم معاكس لميمنة المسلمين واستعادة مواقعها.
٤ هجوم ميسرة الروم على شرحبيل - تراجع شرحبيل.
٥ هجوم إسلامي معاكس - دحر الروم باتجاه ماهان
٤ كلم
٢
الشمال
نوى
حدود ميدان المعركة
قناطير
تل الجموع
ماهان - قوريق
المرزبة
خالد
سعيد بن زيد
تل السمن
وادي الرقاد
وادي علان
جرجير
وادي الهرير
نهر اليرموك
نهر اليرموك

المقالة الثانية

القادسيّة
أو
معركة العبور الى العراق
"شعبان ١٥هـ أيلول ٦٣٦م"

القادسية بلدة في العراق تقع جنوب النجف الأشرف، بينها وبين الكوفة خمسة عشر فرسخاً وبينها وبين العذيب أربعة أميال (والعذيب ماء لبني تميم على مرحلة من الكوفة)، أو كما وصفها سعد بن أبي وقاص للخليفة عمر بن الخطاب (رضي) أنها تقع «بين الخندق والعميق». أما الخندق فهو «خندق سابور» يقع غرب القادسية، وهو عبارة عن قناة ممتدة من «هيث» حتى «الكاظمة» وقد حفرت لحماية أرض السواد في العراق من عرب البادية في الجزيرة، وأقيم عليها عدد من المسالح لحمايتها، وأما العتيق فهو نهر يجري شرق القادسية. وقد جرت الوقعة المسماة باسمها بين المسلمين بقيادة سعد بن أبي وقاص والفرس بقيادة رستم بن الفرّخزاذ[1] وذلك سنة ١٥هـ الموافقة لسنة ٦٣٦م واستمرت أربعة أيام كاملة. وأهمية هذه الوقعة أنها فتحت، بانتصار المسلمين فيها، أبواب العراق، ومن ثم بلاد فارس، للفاتحين الجدد، فاستسلمت، بعدها المدائن عاصمة الفرس في العراق بلا قتال. وإذا كانت القسطنطينية، عاصمة الروم، قد صمدت في وجه الفاتحين المسلمين بعد اليرموك في الشام. فإن صروح الأمبراطورية الفارسية لم تتمكن من الصمود في وجه هؤلاء الفاتحين بعد القادسية في العراق.

---

(١) من أهل الري أو من أهل همذان (البلاذري، فتوح البلدان، ص٣٥٧). وذكر الطبري أن رستم أرمني (الطبري، تاريخ الرسل والملوك، جـ٣ : ٤٩٥)

١ ـ الوضع العسكري في العراق قبل القادسية:

أ ـ الفرس: بعد الهزائم المتتالية التي مني بها الفرس على يد المسلمين في العراق وخلال عامي ١٢ و١٣ هـ (٦٦٣ و٦٣٤م) وآخرها معركة البويب (رمضان ١٣هـ/تشرين الثاني ٦٣٤م) التي انتهت بانتصار ساحق للمثنى بن حارثة الشيباني، والتي أصبح المسلمون بعدها يشكلون تهديداً جدياً للوجود الفارسي في العراق، قرر الفرس التصدي للمسلمين الفاتحين في معركة حاسمة يأملون، بانتصارهم فيها، أن يضعوا حداً لتقدمهم وأن يردوهم بعد ذلك إلى حدود جزيرتهم، وأن يتوغلوا في هذه الجزيرة كي يحاربوهم داخل أرضهم وفي عقر دارهم[٢].

وكان الفرس، في هذه الأثناء، قد نصبوا يزدجرد، وهو يافع (٢١ عاماً) من أبناء شهريار بن كسرى، ملكاً عليهم. واجتمع قادة الفرس وأعيانهم يطالبون الملك الشاب بوقفة شجاعة في وجه المسلمين، وبأن يكون رستم، وهو قائد فارسي مجرب ومحنك، قائداً جيوشهم في المعركة الحاسمة المقبلة. وقال أهل فارس لرستم، «والمسلمون يمخرون السواد»: «ما تنتظرون والله إلا أن يُنزل بنا ونهلك، والله ما جرّ هذا الوهن علينا غيركم يا معاشر القواد، لقد فرقتم بين أهل فارس وثبطتموهم عن عدوهم، والله لولا أن في قتلكم هلاكنا لعجلنا لكم القتل الساعة، ولئن لم تنتهوا لنهلكنكم ثم نهلك وقد اشتفينا منكم»[٣]. وبدأ رستم يعد جيشه، في المدائن، لقتال المسلمين.

ب ـ المسلمون: علم المثنى بأمر اجتماع الفرس وتعاضدهم حول مليكهم يزدجرد وقائد جيشهم رستم، ونقلت إليه أنباء تحشد جندهم في المدائن عاصمة ملكهم بالعراق، وكان قد نزل بذي قار، فكتب إلى الخليفة عمر ينبئه بأمر تحشد

---

(٢) في أثناء المفاوضات قبل القادسية، وفي لقاء تم بين يزدجرد ملك الفرس ووفد من المفاوضين المسلمين، قال يزدجرد للوفد: «أرجعوا إلى صاحبكم ـ المثنى ـ فاعلموه أني مرسل إليكم رستم حتى بدفيكم ـ يدفنكم أو يقتلكم ـ ويدفيه في خندق القادسية وينكل به وبكم من بعد ثم أورد بلادكم حتى أشغلكم في أنفسكم بأشد مما نالكم من سابور» (الطبري، المصدر السابق، جـ٣: ٥٠٠ ـ ٥٠١).

(٣) الطبري، م. ن. جـ٣ : ٤٧٧.

الفرس واستعدادهم للقتال، فكتب عمر إليه يقول: «أما بعد فاخرجوا من بين ظهري الأعاجم وتفرقوا في المياه التي تلي الأعاجم عل حدود أرضكم وأرضهم، ولا تدعوا في ربيعة أحداً ولا مضر ولا حلفائهم أحداً من أهل النجدات ولا فارساً إلا اجتلبتموه فإن جاء طائعاً وإلا حشرتموه»[٤] ووعده بالمدد. وكان مع المثنى في العراق نحو ,ثني عشر الف مقاتـل «ستة آلاف من بكر بن وائل وألفان من سائر ربيعة» ومع هؤلاء أربعة آلاف من أهل اليمـن «ألفان من بجيلة وألفان من قضاعة وطيء»[٥]، فوزعهم بين الجُل وشَراف وغُضي (غضي حيان البصرة)، فكانوا «في أمواه الطّفّ من أولها إلى آخرها، مسالح بعضهم ينظر إلى بعض، ويغيث بعضهم بعضاً»[٦] أما هو فمكث في مركز قيادته بذي قار ينتظر المدد الذي سوف يرسله الخليفة إليه، وكان ذلك في شهر ذي القعدة عام ١٣هـ (كانون الأول عام ٦٣٤م). وهكذا يكون المثنى قد نفذ أوامر الخليفة بأن وزع جنده في مسالح على طول نهر الفرات الفاصل بين أرض السواد في العراق وبين صحراء الجزيرة، بحيث تكون هذه المسالح متصلة ومتساندة فيما بينها، ومتخذة وضع الدفاع بانتظار الأوامر.

٢ ـ فكرة المناورة:

أ ـ **الفرس**: كانت فكرة المناورة لدى الملك يزدجرد تختلف تماماً عن تلك التي كانت لدى قائده رستم، فبينما كان يزدجرد يرى أن يقابل الفرس المسلمين مجتمعين في معركة حاسمة وفاصلة، فيدحرونهم ثم ينطلقون بعد ذلك إلى داخل حدود الجزيرة ليشغلوهم فيها عنهم، كان رستم يرى عكس ذلك تماماً، فقد كان يرغب بشن حرب استنزاف للمسلمين وذلك بأن يفاجئهم بجيش بعد جيش مستخذماً، لذلك، قائداً إثر قائد، إلى أن يداهمهم، هو نفسه، في معركة أخيرة، وقد أنهكوا، فيقضي عليهم، ويدخل بلادهم. وكانت وجهة نظره هذه مبنية على

---

(٤) الطبري، م. ن. جـ٣ : ٤٧٨.

(٥) م. ن. جـ٣ : ٤٨٦.

(٦) م. ن. جـ٣ : ٤٧٨، والطّفّ: ما أشرف من أرض العرب على ريف العراق، أو مسالح للعرب كانت وراء خندق سابور (معجم البلدان).

أنه إذا نازل الفرس المسلمين بأفضل قادتهم وأكبر جيوشهم، وهزموا، فبأي قائد، بعدها، ينازلونهم، وبأي جيش يواجهونهم؟ وقد قال للملك في ذلك: «أيها الملك، لقد اضطرني تضييع الرأي إلى إعظام نفسي وتزكيتها، ولو أجد من ذلك بداً لم أتكلم به، فانشدك الله في نفسك وأهلك وملكك، دعني أقم بعسكري وأسرح الجالنوس، فإن تكن لنا فذلك وإلا فأنا على رِجْلٍ وأبعث غيره، حتى إذا لم نجد بداً ولا حيلة صبرنا لهم، وقد وهنّاهم وحسَّرناهم ونحن جامّون»[٧] ولا ريب في أن رستم كان أكبر قادة الفرس وأعظمهم وأكثرهم مهابة وشأناً في نظر العرب، وأن في هزيمته هزيمة لفارس كلها، ولكن يزدجرد رفض هذا الرأي رفضاً قاطعاً وتمسك برأيه وأبى إلا أن يكون رستم نفسه على رأس الجيش الذي سوف يدفن المسلمين وقائدهم (المثنى) في خندق القادسية، وأنه سوف ينكل بهم ويدخل بلادهم ليشغلهم في أنفسهم بأشد مما نالهم من الفرس في سابور[٨].

وهكذا، فقد كانت فكرة المناورة لدى يزدجرد كما يلي:

- منازلة المسلمين في القادسية، بجيش كبير، في معركة فاصلة.

- دحر المسلمين حتى الجزيرة العربية.

- مشاغلتهم داخل أرضهم «وفي أصلهم وبلادهم» إلى أن يرضخوا بما كانوا يرضون به قبل الإسلام[٩].

وقد أذعن رستم لأمر مليكه وبدأ يعدّ العدة، في المدائن، للقاء المسلمين في

---

(٧) الطبري، م. ن. جـ٣ : ٥٠٤، وفي رواية أخرى للطبري (عن شعيب عن سيف عن ابن الرفيل) أن رستم سأل الملك أن يمضي الجالنوس لقتال المسلمين «فإن ظفر فهو الذي نريد فإن تكن الأخرى وُجِّهتُ مثله ودفعنا هؤلاء القوم إلى يوم ما، فإني لا أزال مرجواً من أهل فارس، ما لم أهزَم ينشطون، ولا أزال مهيباً في صدور العرب، ولا يزالون يهابون ما لم أباشرهم، فإن باشرتهم اجترؤا آخر دهرهم وانكسر أهل فارس آخر دهرهم» (م. ن. جـ٣ : ٥٠٥).

(٨) م. ن. جـ٣ : ٥٠١.

(٩) م. ن. جـ٣ : ٥٠٤ ـ ٥٠٥ وقد ذكر يزدجرد ذلك في كلامه مع أحد وفود المسلمين الذين أتوه للمفاوضة قبل القادسية فقال: «قد كنا نوكل بكم قرى الضواحي فيكفوننا كم. لا تغزون فارس ولا تطمعون أن تقوموا لهم» ثم عرض على الوفد أنه «إن كان الجَهد دعاكم فرضنا لكم قوتاً إلى خِصبكم، وأكرمنا وجوهكم وكسوناكم، وملّكنا عليكم ملكاً يرفق بكم» (م. ن. جـ٣ : ٤٩٩).

القادسية، ثم انطلق من المدائن إلى ساباط حيث عسكر بجيشه هناك، وكرر من جديد محاولته مع الملك لعّله يقنعه برأيه وفكرته، إلا أن الملك ظل على أصراره ورفضه وعناد، فما كان على القائد الخبير المجرب إلا الإذعان لإرادة الملك المتهور الشاب، ولم يكن هذا الملك يدري، حقاً، أن هزيمة رستم، في القادسية، ستكون هزيمة له في كل أرض العراق.

ب ـ **المسلمون**: كانت فكرة المناورة لدى المسلمين كما يلي:

ـ لقاء الفرس على حدود أرضهم، أي على الحدود الفاصلة بين جزيرة العرب وأرض العراق.

ـ اختيار «القادسية» موقعاً لنزال العدو، واستدراجه إليه.

ـ عدم ترك المسلمين لمواقعهم واستدارجهم من قبل العدو لترك هذه المواقع مهما كانت الظروف.

وتستنج فكرة المناورة هذه مما يلي:

ـ لما كتب المثنى إلى الخليفة، بعد معركة البويب، ينبئه بتحشد الفرس في المدائن لقتال المسلمين،كتب إليه الخليفة يقول: «تنحَّ إلى البر، وآدعُ من يليك، وأقم منهم قريباً على حدود أرضك وأرضهم حتى يأتيك أمري»[10].

ـ كتب المثنى (وهو بذي قار) إلى سعد (وهو بزرود) يوصيه أن يقاتل عدوه من أهل فارس «على حدود أرضهم، على أدنى حجر من أرضِ العرب وأدنى مدرة من أرض العجم، فإن يظهر الله المسلمين عليهم فلهم ما وراءهم،وإن تكن الأخرى فاءوا إلى فئة، ثم يكونوا أعلم بسبيلهم، وأجرأ على أرضهم،إلى أن يرد الله الكرة عليهم»[11]. وقد أجاز الخليفة هذا الرأي ووافق المثنى عليه[12].

ـ كتب الخليفة إلى سعد (وهو بشراف) يقول له: «إذا انتهيت إلى القادسية،

---

(١٠) م. ن. جـ٣ : ٤٨٢.
(١١) م. ن. جـ٣ : ٤٩٠.
(١٢) م. ن. ص. ن.

والقادسية باب فارس في الجاهلية.... فتكون مسالحك على أنقابها، ويكون الناس بين الحجر والمَدَر، على حافّات الحجر وحافات المدر والجراع بينهما، ثم الزم مكانك فلا تبرحه، فإنهم إذا أحسّوك أنغضتهم ورموك بجمعهم الذي يأتي على خيلهم ورجلهم وحَدِّهم وجِدّهم، فإن أنتم صبرتم لعدوكم واحتسبتم لقتاله ونويتم الأمانة، رجوت أن تُنصروا عليهم... وإن تكن الأخرى كان الحجر في أدباركم، فانصرفتم من أدنى مَدَرة من أرضهم إلى أدنى حجر من أرضكم، ثم كنتم عليها أجرأ وبها أعلم، وكانوا عنها أجبن وبها أجهل، إلى أن يأتي الله بالفتح عليهم ويرد لكم الكرة»[١٣].

٣ ـ التعبئة والحشد ـ السير للقتال:

أ ـ الفرس: خرج رستم من المدائن إلى ساباط وبدأ يعدُّ جيشاً كبيراً لقتال المسلمين في القادسية، وأخذ يعبىء قواته جامعاً فلول الجيش الفارسي الذي سبق أن هزم في معارك عديدة ضد المسلمين، فأعلن التعبئة العامة في جميع أنحاء فارس والعراق، حتى بلغ جيشه بساباط نحو ماية وعشرين ألف مقاتل خلاف الأتباع، «وكانوا بأتباعهم أكثر من مايتي ألف»[١٤]، بالإضافة إلى ثلاثة وثلاثين فيلا تشكل مدرعات هذا الجيش الكبير.

وانطلق رستم، من ساباط، نحو القادسية، في التعبئة التالية:

ـ في المقدمة: الجالنوس، ومعه أربعون ألفاً، وأوصاه أن يزحف زحفاً وأن لا «ينجذب» إلا بأمره.

ـ في الميمنة: الهرمزان.
ـ وفي الميسرة: مهران بن بهرام الرازي } ومعهما ستون ألفاً.
ـ في الساقة: البيرزان، ومعه عشرون ألفاً.

وتقدم الجالنوس حتى بلغ الحيرة وضرب فسطاطه بالنجف، بينما بلغ رستم

---

(١٣) م. ن. جـ٣: ٤٩١.
(١٤) م. ن. جـ٣: ٥٠٥ والأتباع خدام لهم (م. ن. ص ٥١٤).

«كوثى» ثم تابع تقدمه حتى بلغ برس ـ فدير الأعور ـ فالملطاط، ثم عسكر بجيشه «مما يلي الفرات بحيال أهل النجف بحيال الخورنق إلى الغريين»[15]. وما أن بلغ الغريين حتى أمر طليعته (الجالنوس) بمتابعة التقدم، فتقدم الجالنوس حتى نزل (بين النجف والسيلحين)، أما هو (رستم) فتقدم بدوره حتى نزل بالنجف[16]. ولم يمكث رستم في النجف طويلاً بل تابع تقدمه حتى نزل السيلحين، بينما كانت طليعته (الجالنوس) قد بلغت القنطرة. ثم انتقل رستم إلى الخرّارة فالعتيق، بينما انتقل الجالنوس ليتمركز قبالة (حصن قديس) أي قبالة القلب من جيش المسلمين[17]. وهكذا يكون رستم قد اتبع في سيره إلى القادسية الطريق التالية: المدائن ـ ساباط ـ كوثى ـ برس ـ دير الأعور ـ الملطاط ـ الخورنق ـ الغريين ـ الحيرة ـ النجف ـ السيلحين ـ الخرارة ـ العتيق ـ القادسية، وقد استمرت مسيرته هذه، منذ خروجه من المدائن حتى مواجهته سعداً بالقادسية، نحو أربعة أشهر كاملة[18]. ومن المؤكد أن المسافة بين المدائن والقادسية لا تستوجب مثل هذا الزمن الطويل، إلا أن بعض المؤرخين يرى أن رستم تعمد إطالة أمد مسيرته هذه «رجاء أن يضجروا ـ أي المسلمون ـ بمكانهم، وأن يجهدوا فينصرفوا، وكره قتالهم مخافة أن يلقي ما لقي من قبله، وطاولهم لولا ما جعل الملك يستعجله ويُنهضه ويقدّمه حتى أقحمه»[19]. وبلغ رستم القادسية وهو في التعبئة التالية:

- في المقدمة: الجالنوس
- في المجنبتين: الهرمزان ومهران
- على المجردة (الخيل): ذو الحاجب (بهمن جاذويه)
- على الطلائع: البيرزان.
- على المشاة: زاذ بن بُهَيش.

---

(١٥) م. ن. جـ٣: ٥٠٨.
(١٦) م. ن. جـ ٣ : ٥١٠.
(١٧) م. ن. جـ ٣ ٥١٥.
(١٨) م. ن. جـ ٣ : ٥٠٩.
(١٩) م. ن. ص. ن. ويظهر أن رستم كان منجماً بالإضافة إلى كونه قائد عسكرياً، وأن النجوم قد أرته سوء طالعه إن نازل المسلمين، فتشاءم وتباطأ في بلوغ القدر المحتوم (م. ن. ص ٥٠٦).

والجدير بالذكر أن رستم نظم جهازاً للاتصال بينه وبين يزدجرد ما بين العتيق والمدائن، إذ وضع بينهما رجالاً يتصل أحدهما بالآخر بحيث تنقل أخبار الجيش بالصوت من نقطة وصوله إلى قصر يزدجرد بالمدائن. «فلما نزل رستم بساباط قال الذي بساباط: قد نزل، فقاله الآخر حتى قاله الذي على باب الإيوان، وجعل بين كل مرحلتين على كل دعوة رجلاً، فكلما نزل وارتحل أو حدث أمر قاله، فقاله الذي يليه حتى يقوله الذي يلي باب الإيوان»[٢٠].

ب ـ المسلمون:

ما أن تلقى الخليفة كتاب المثنى بصدد استعداد الفرس وتعبئتهم للقتال في القادسية حتى أعلن التعبئة العامة في صفوف المسلمين، فكتب إلى عماله في مختلف الأقاليم وإلى رؤساء القبائل أن «لا تدعوا أحداً له سلاح أو فرس أو نجدة أو رأي إلا انتخبتموه ثم وجهتموه إليّ، والعجل العجل»[٢١]، وجعل كلاً من مكة والمدينة مركزي تجمع للمحتشدين، وكذلك أمر القريبين من المثنى أن يلتحقوا به مباشرة، ثم خرج إلى مكان فيه ماء يدعى «صراراً» فعسكر فيه[٢٢] واستدعى إليه قادته وأولي الرأي والمشورة من المسلمين يستشيرهم في أمر القائد الذي سوف يوليه قيادة الحملة إلى العراق لنجدة المثنى، فاجتمع الرأي على أن يكون سعد بن أبي وقاص[٢٣] قائد هذه الحملة.

وخرج سعد من «صرار» بجوار المدينة، في أربعة آلاف رجل: ثلاثة من أهل اليمن والسراة، وألف من سائر الناس (وقيل من قيس بن عيلان وعليهم بشر بن عبد الله الهلالي)[٢٤]، وشيّعهم عمر من صرار إلى الأعوص حيث وقف مع

---

(٢٠) م. ن. جـ٣ : ٥٣٠.

(٢١) م. ن. جـ٣ : ٤٧٨ ـ ٤٧٩.

(٢٢) يذكر الطبري (م. ن. جـ٣ : ٤٨٠) أن عمر خرج إلى صرار في أول يوم من المحرم عام ١٤هـ (٢٥ شباط ٦٣٥م) وكان يرغب أن يقود الحملة بنفسه لولا أن أشار عليه الصحابة وأولي الرأي من المسلمين غير ذلك، فولى عليها سعداً.

(٢٣) خال رسول الله ﷺ وصاحبه (م. ن. جـ٣ : ٤٨٣) واحد الصحابة العشرة المبشرين بالجنة.

(٢٤) الطبري، م. ن. جـ٣ : ٤٨٥.

سعد يستعرض المقاتلين الذين كانوا يمرون أمامه وفقاً لانتمائهم القبلي[٢٥]، وما لبث عمر أن أمد سعداً بأربعة آلاف أخرى من اليمن ونجد (ألفي يماني وألفي نجدي) من غطفان وسائر قيس[٢٦]، فما أن بلغ سعد «زرود» حتى اجتمع لديه ثمانية آلاف. ولما بلغها نفذ ما أوصاه به الخليفة، وكان قد أوصاه بما يلي: «إذا انتهيت إلى زرود فانزل بها، وتفرقوا فيما حولها واندب من حولك منهم، وانتخب أهل النجدة والرأي والقوة والعدة»[٢٧]، وكان قد بلغها في أول الشتاء «فنزلها وتفرقت الجنود فيما حولها من أمواه بني تميم وأسد»[٢٨] ثم «انتخب من بني تميم والرِّباب أربعة آلاف: ثلاثة آلاف تميمي، وألف رِبي، وانتخب من بني أسد ثلاثة آلاف، وأمرهم أن ينزلوا على حد أرضهم بين الحَزْن والبسيطة، فأقاموا هنالك بين سعد بن أبي وقاص وبين المثنى بن حارثة»[٢٩]. ولبث سعد برزود فترة من الزمن[٣٠] يعبىء جيشه وينظمه، بينما كان المثنى في انتظاره بذي قار، إلا أن المثنى ما لبث أن أدركته المنية متأثراً بجراح أصيب بها في وقعة الجسر فخلفه على المسلمين بشير بن الخصاصية. وتابع سعد تقدمه حتى بلغ «شَراف» فاستقر فيها وقد انضم إليه في شراف الأشعث بن قيس في نحو ألفين من أهل اليمن (ألف وسبعماية بالتحديد)[٣١].

وكتب سعد، وهو بشراف، إلى الخليفة، يفيده عن وضعه وينبئه بوفاة المثنى ويستأمره، فكتب إليه الخليفة يأمره بمتابعة التقدم نحو القادسية، في يوم حدده له، لتسلّم قيادة المسلمين جميعاً، وأمره أن ينزل بجيشه «فيما بين عُذيب الهجانات وعُذيب القوادس»، وقال له: «إذا جاءك كتابي هذا فعشِّر الناس وعرِّف عليهم وأمِّر على أجنادهم وعبِّهم، ومُرْ رؤساء المسلمين فليشهدوا، وقدِّرهم وهم

---

(٢٥) م. ن. ص. ن.

(٢٦) م. ن. جـ٣ : ٤٨٦.

(٢٧) م. ن. جـ٣ : ٤٨٥.

(٢٨) م. ن. جـ٣ : ٤٨٦.

(٢٩) م. ن. ص. ن، والحَزْن موضع بين نجد والعراق، والبسيطة موضع بين الكوفة وحزن بني يربوع وقيل بين العذيب والقاع (معجم البلدان).

(٣٠) لم يحدد الطبري هذه الفترة، إلا أن البلاذري يذكر أن سعداً أقام بالثعلبية (قرب زرود) ثلاثة أشهر حتى لحق به أصحابه (البلاذري، المصدر السابق، ص ٣٥٦).

(٣١) الطبري، المصدر السابق، جـ٣ : ٤٨٧.

شهود، ثم وجههم إلى أصحابهم وواعدهم القادسية، وأضمم إليك المغيرة بن شعبة في خيله، واكتب إليّ بالذي يستقر عليه أمرهم»[٣٢]، فكتب سعد إلى المغيرة يأمره بالإنضمام إليه، ودعا إليه رؤساء القبائل فأتوه «فقدّر الناس وعبّأهم بشراف وأمّر امراء الأجناد وعرّف العرفاء فعرّف على كل عشرة رجلاً كما كانت العرافات أزمان النبي ﷺ. . . . وأمرّ على الرايات رجالاً من أهل السابقة»[٣٣] ثم سار نحو القادسية على تعبئة، وقد عبأ جيشه على الشكل التالي:

- في المقدمة: زهرة بن عبد الله بن قتادة بن الحوّية.
- في الميمنة: عبد الله بن المعتم
- في الميسرة: شرحبيل بن السمط بن شرحبيل الكِنْدى
- على الساقة: عاصم بن عمرو التميمي العَمْري
- على الطلائع: سواد بن مالك التميمي
- على المجردة (الخيل): سلمان بن ربيعة الباهلي
- على المشاة: حمال بن مالك الأسدي
- على الركبان (وهي الابل والظعن): عبد الله بن ذي السهمين الخثعمي.
- وجعل خليفته: خالد بن عُرفطة.
- كما عين للقضاء والأقباض وقسمة الفيء: عبد الرحمن بن ربيعة الباهلي
- والداعية والرائد: سلمان الفارسي

وقد بعث إليه عمر بالأطباء[٣٤].

---

(٣٢) م. ن. جـ٣ : ٤٨٨ وعشّر الناس: اجعلهم اعشاراً، كل وحدة من عشرة رجال، وعرّف عليهم: أي ضع على كل عشرة عريفاً، وأمّر أجنادهم: أي عين أمراء على الجند، ومُر رؤساء المسلمين أن يحضروا إليك وحدد لهم مسؤولياتهم ومهماتهم وأبعثهم إلى وحداتهم وواعـدهم القادسية.

(٣٣) م. ن. ص. ن.

(٣٤) م. ن. جـ٣ : ٤٨٩.

وكان التراتب في الجيش على الشكل التالي:

- أمراء التعبئة، ويلون الأمير، أي قائد الجيش.
- أمراء الأعشار، ويلون أمراء التعبئة
- أصحاب الرايات، ويلون أمراء الأعشار
- رؤساء القبائل، ويلون أصحاب الرايات والقواد[٣٥].

وجعل سعد زهرة بن الحوّية في المقدمة، فنزل زهرة بعُذيب الهجانات ثم لحقه سعد بالجيش إليها، وعاد سعد فأرسل زهرة في مقدمته حتى نزل القادسية «بين العتيق والخندق، بحيال القنطرة، وقُديس أسفل منها بميل»[٣٦]. وقد بلغ مجموع الذين التحقوا بسعد، منذ خروجه من صرار وحتى بلوغه القادسية، نحو سبعة عشر ألفاً.

وكان الخليفة قد كتب إلى أبي عبيدة يأمره بتسريح من أتى مع خالد من أهل العراق، ليلتحقوا، مع من يشتهي من المسلمين، بسعد في القادسية، فالتحق به، في اليوم الثاني من المعركة، نحو ستة آلاف[٣٧] بقيادة هاشم بن عتبة بن أبي وقاص (ابن أخي سعد). وهكذا فإن جميع من شهد القادسية من المسلمين «بضعة وثلاثون ألفاً»[٣٨] يمكن توزيعهم كالآتي:

- مع المثنى (أو خليفته بشير بن الخصاصية):	١٢	ألفاً
- مع سعد :	١٧	ألفاً
- مع هاشم بن عتبة بن أبي وقاص (من الشام):	٦	آلاف
المجموع:	٣٥	ألفاً[٣٩].

(٣٥) م. ن. ص. ن.

(٣٦) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، جـ٢ : ٤٥٤. والطبري، المصدر السابق، جـ٣ : ٤٩٢.

(٣٧) الطبري، المصدر السابق، جـ٣ : ٤٩٠. وكان الخليفة قد أمر أبا عبيدة «بصرف أهل العراق وهم ستة آلاف، ومن اشتهى أن يلحق بهم» ولم يذكر الطبري عدد الذين التحقوا طوعاً بأهل العراق، لذا آثرنا الإبقاء على العدد الأساسي وهو ستة آلاف.

(٣٨) م. ن. ص ٤٨٧.

(٣٩) يذكر الطبري بعض التفاصيل عن عدد المقاتلين من كل قبيلة من القبائل التي التحقت بسعد (م. ن. جـ٣ : ٤٨٤) فارجع إليه.

وهكذا يكون سعد قد اتبع، في سيره إلى القادسية، الطريق التالية:
صرار ـ الأعوص ـ زرود ـ شراف ـ العذيب ـ القادسية.

ولم يحدد أي من المؤرخين المدة التي قضاها سعد في طريقه هذه إلى القادسية، إلا أن ما ذكره الطبري هو أن سعداً انتظر في القادسية شهراً كاملاً دون أن يبادر الفرس إلى قتاله أو التحرش به[٤٠]، وقد حافظ سعد، عند نزوله بالقادسية، على التعبئة نفسها التي سار بها إلى ميدان القتال، فتمركز بجيشه على الضفة الشمالية لخندق سابور، عبد الله بن المعتم في ميمنته، وشرحبيل الكندي في ميسرته، وعاصم بن عمرو وزهرة بن الحوية في القلب، وكان مركزه هو، في القلب، عند حصن قديم هو «حصن قُديس».

ولم يغفل سعد «القنطرة» وهي المعبر الوحيد الذي كان يمكن للفرس أن يعبروا منه نهر العتيق باتجاه المسلمين، فأرسل إليها سرية من الخيالة وقفت قبالتها لتمنع العدو عنها. وقد فعل رستم، بعد ذلك، الشيء نفسه، عندما وصل إلى ميدان القتال، بغية منع المسلمين من عبورها بدورهم، نحوه.

٤ ـ دارسة أرض المعركة: (أنظر الخارطة)

ما أن وصل سعد إلى القادسية حتى أتاه كتاب من الخليفة يقول: «أكتب إلي أين بلغك جمعهم ـ أي الفرس ـ ومن رأسهم الذي يلي مصادمتكم، فإنه قد منعني من بعض ما أردت الكتاب به قلة علمي بما هجمتم عليه، والذي استقر عليه أمر عدوكم، فصف لنا منازل المسلمين والبلد الذي بينكم وبين المدائن صفةً كأني أنظر إليها، واجعلني من أمركم على الجلية»[٤١]. فكتب إليه سعد يقول: «إن القادسية بين الخندق ـ خندق سابور ـ والعتيق ـ نهر العتيق ـ ، وإن ما عن يسار القادسية بحر أخضر في جوف لاحّ إلى الحيرة بين طريقين، فأما أحدهما فعلى الظهر، وأما الآخر فعلى شاطىء نهر يدعى الحُضوض، يطلع بمن سلكه على ما بين الخورنق والحيرة، وما عن يمين القادسية إلى الوَلَجة فيض من فيوض مياههم. وإن جميع من

(٤٠) م. ن. جـ٣ : ٤٩٤.
(٤١) م. ن. جـ٣ : ٤٩١.

صالح المسلمين من أهل السواد قبلي أَلْبٌ لأهل فارس قد خفّوا لهم واستعدوا لنا. وإن الذي أعدّوا لمصادمتنا رستم في أمثال له منهم، فهم يحاولون إنغاضنا وإقحامنا، ونحن نحاول إنغاضهم وإبرازهم، وأمر الله بعد ماض وقضاؤه مسلم إلى ما قدر لنا وعلينا»(٤٢) وكتب إليه الخليفة من جديد يقول: «قد جاءني كتابك وفهمته، فأقم بمكانك حتى يُنغض الله لك عدوك، وآعلم أن لها ما بعدها، فإن منحك الله أدبارهم فلا تنزع عنهم حتى تقتحم عليهم المدائن، فإنه خرابها إنشاء الله»(٤٣).

من هذه الرسائل الثلاث، يتبين لنا كم كانت دراسة أرض المعركة والعدو مهمة بالنسبة إلى الخليفة، القائد الأعلى للجيوش الإسلامية، ومن وصف سعد لأرض المعركة ووضع العدو استطاع الخليفة أن يتخذ القرار المناسب وهو:

- أن يثبت سعد في مواقعه فلا يبارحها.

- أن لا يبادر العدو بالقتال بل يترك له أمر هذه المبادرة.

- أن يعمد إلى استثمار النصر ويطارد العدو حتى المدائن فيقتحمها عليه.

وإذا أردنا أن نفسر رسالة سعد إلى الخليفة، في وصف ميدان القتال، تفسيراً واقعياً، لاستخلصنا ما يلي:

يقع ميدان القتال بين نهر العتيق شمالاً وخندق سابور جنوباً، وهو محاط، عن يمين القادسية ويسارها، «ببحر أخضر» خلفته فيضانات نهر الفرات في تلك المنخفضات من الأرض أو ما يسمى «ببطائح العراق». فمن اليسار «منخفض الجوف» الذي ينتهي، شمالاً، إلى الحيرة والنجف، ومن اليمين «البطيحة العظمى» وهي فيض آخر من فيوض مياه النهر تنتهي، جنوباً، إلى الولجة. وهكذا

---

(٤٢) م. ن. جـ٣ : ٤٩٢.

(٤٣) م. ن. ص. ن، ويذكر الجنرال غلوب في كتابه «الفتوحات العربية الكبرى» تعريب خيري حماد، ص ٢٩٦ - ٢٩٧، أن الفرات كان يتفرع، في ذلك العهد، إلى عدة نهيرات، وكان العرب يطلقون على النهر الذي يفصل بين الجيشين اسم «الفرات العتيق».

يصبح ميدان القتال أشبه بمعبر جاف «يجتاز تلك الفيوض بين الصحراء والسواد»[٤٤].

إلا أن هذا التفسير لا يكفي لتبيان التفاصيل اللازمة لشرح المعركة في ميدان القتال هذا، لذا كان علينا أن نلجأ إلى الخارطة، لتبيان تلك التفاصيل[٤٥]:

- يسير نهر العتيق وخندق سابور وفقاً لخطين يكادان يكونان متوازيين لولا أنهما يقتربان من بعضهما عند القادسية جنوباً بشرق، ويبتعدان عن بعضهما بعد القادسية شمالاً بغرب.

- لنهر العتيق معبر واحد يقع في الجهة الشمالية الغربية من النهر ويدعى «القنطرة». أما الخندق فهو عبارة عن قناة اصطناعية تقع غرب نهر الفرات[٤٦] ويمكن عبوره من بعض النقاط بعد ردمها.

- في وسط الخندق، ومن الجهة الشمالية، يوجد حصن قديم يسمى «حصن قُديس» اتخذه سعد مركزاً لقيادته، وأشرف منه على سير المعركة، وكان قلب جيش المسلمين على موازاة هذا الحصن، الذي كان بعيداً عن القنطرة الواقعة على نهر العتيق مسافة ميل.

- قدر طول الجبهة بنحو ميل، وقدرت المسافة بين الجيشين المتواجهين بنحو ميل أيضاً.

٥ ـ تمركز الجيشين والاستعداد للقتال: (انظر الخارطة)

أ ـ الفرس:

كان سعد قد استقر في القادسية عندما علم أن يزدجرد عيّن رستم بن

---

(٤٤) كمال، احمد عادل، القادسية، ص ٢٢٠.

(٤٥) انظر: المصدر نفسه، ص ٢١٨ ـ ٢٢١، وخارطة العراق.

(٤٦) ينسب حفر هذا الخندق إلى نبوخذ نصر، وقد اعتمده سابور، الملك الساساني، (٣٠٩ ـ ٣٧٩م)، فحسنه وأصلحه وأجرى فيه الماء وبنى عليه المخافر الدفاعية ليرد بواسطته غارات العرب عن أرض العراق، وقد بلغ طول هذا الخندق نحو ٩ كلم وكان يبدأ من جنوب هيث بنحو ١٧ كلم وينتهي في البحر قرب نهر بوبيان على بعد ٣٠ كلم إلى الغرب من شط العرب، (خور عبد الله الحالي بين البصرة والزبير)، وإلى الشرق من جبل سنام. والجدير بالذكر أن كلا من النهر والخندق لا وجود لهما في الوقت الحاضر (كمال، المصدر نفسه، ص ٢١٩).

الفرّخزاذ للقائه، وأن هذا الأخير قد نزل بساباط وبدأ يعدّ جيشاً ضخماً لقتاله. وكتب سعد إلى عمر بذلك قائلاً «إن رستم قد ضرب عسكره بساباط دون المدائن وزحف إلينا» وفي رواية أخرى «وزحف إلينا بالخيول والفيول»[47]. وانتقل رستم بجيشه البالغ مائة وعشرين ألفاً، كما قدمنا، من ساباط إلى القادسية، في خلال أربعة أشهر، فتمركز «رستم بالنجف والجالنوس بين النجف والسيلحين وذو الحاجب (بهمن جاذويه) بين رستم والجالنوس، والهرمزان ومهران على مجنبتيه، والبيرزان على ساقته، وزاذ بن بُهيش صاحب فرات سِرْيا على الرجّالة وكنارَى على المجردة» وقد تسلسل قسم من جيشه بالسلاسل[48]. وحاول المسلمون أن يستحثوا سعدا للمبادرة بالقتال ولكنه زجر من استحثه وأبى ذلك[49]، أما رستم فلم ينتظر طويلاً في مواقعه بل تقدم بجيشه وبالترتيب الذي سبق ذكره (الجالنوس في المقدمة، والهرمزان ومهران في المجنبتين، وذو الحاجب على الخيل، والبيرزان على الطلائع، وزاذ بن بهيش على المشاة) ليأخذ مواقعه القتالية قبالة جيش المسلمين، وما أن وصل إلى نهر العتيق حتى نزل عليه «ونزّل الناس فما زلوا يتلاحقون وينزلهم فينزلون حتى أعتموا من كثرتهم، فبات بها تلك الليلة والمسلمون ممسكون عنهم»[50] وكان مع جيش رستم ثلاثة وثلاثون فيلاً أهمها «سابور الأبيض» الذي كان أعظم هذه الفيلة وأقدمها[51]، وقد وزعت هذه الفيلة بين القلب (١٨ فيلا) والمجنبتين (١٥ فيلاً)[52]. وما أن أصبح الصباح حتى طلب رستم رجلاً من المسلمين لمفاوضته، واستمرت المفاوضات فترة من الزمن بين المسلمين من جهة وبين رستم في القادسية ويزدجرد في المدائن من جهة أخرى. وظل المسلمون متمسكين بالمبدأ الشرعي الذي من أجله يقاتلون وهو تخيير العدو بواحد من ثلاث: الإسلام أو الجزية أو الحرب، ولم تسفر المفاوضات عن أية نتيجة، فتهيأ الفريقان للحرب، وسأل رستم المسلمين: «أتعبرون إلينا (نهر العتيق) أم نعبر

---

(٤٧) الطبري، المصدر السابق، جـ٣ : ٤٩٥.

(٤٨) م. ن. جـ٣ : ٥١٠.

(٤٩) م. ن. ص. ن.

(٥٠) م. ن. جـ٣ : ٥١٦.

(٥١) م. ن. ص. ن.

(٥٢) م. ن. ص. ن.

إليكم؟»، فقال المسلمون: «بل اعبروا إلينا»[٥٣]. وحاول رستم أن يعبر النهر عن القنطرة فمنعه المسلمون، عندها ردمه في نقطةٍ وسطٍ وقبالة «حصن قديس» تقريباً، وعبر بجيشه من تلك النقطة إلى الضفة الجنوبية للنهر ليتمركز عليها قبالة جيش المسلمين، فارتكب بهذا العبور خطأ تاريخياً حدد مصير جيشه وبالتالي مصير امبراطوريته، إذ حصر جيشه بين المسلمين من الأمام ونهر العتيق من الخلف. وكأني بسعد يتذكر، في هذا اليوم، ما قاله عمرو بن العاص بالنسبة إلى الروم، يوم اليرموك: «حصرت والله الروم، وقلما جاء محصور بخير».

ورتب رستم، جيشه، بعد العبور، على الشكل التالي:

- في القلب: ذو الحاجب (ومعه ١٨ فيلاً) عليها الصناديق والرجال.
- في الميمنة مما يلي القلب: الجالنوس.
- في الميمنة: الهرمزان (ومعه ٧ أو ٨ أفيال) عليها الصناديق والرجال.
- في الميسرة مما يلي القلب: البيرزان.
- في الميسرة: مهران (ومعه ٧ أو ٨ أفيال) عليها الصناديق والرجال.

وأرسل رستم فرقة من خيالته إلى القنطرة لتمنع المسلمين من عبورها نحو جيشه، فأصبحت القنطرة «بين خيلين من خيول المسلمين وخيول المشركين»[٥٤] وكان ترتيب الصفوف على الشكل التالي:

- الخيالة في الصفوف الأولى، يليها الفيلة، ثم المشاة.

ونصبت لرستم مظلة كبيرة استظل بها على سريره وجلس يراقب سير المعركة.

ب ـ **المسلمون**: نزل سعد بجيشه في القادسية وتمركز على الضفة الشمالية لخندق سابور، جاعلاً مركز قيادته وقلب جيشه عند «حصن قديس»، بينما نزل

---

(٥٣) م. ن. جـ٣ : ٥٢٩.

(٥٤) م. ن. جـ٣ : ٥٣٠ ـ ٥٤٣

زهرة بن الحوية «بحيال قنطرة العتيق في موضع القادسية اليوم»[٥٥]، وأقام سعد بالقادسية شهراً يعبىء جنده وينظم صفوفه دون أن يوجه إليه الفرس أحداً أو «يسندوا حرباً إلى أحد»[٥٦]. وكتب إلى عمر بذلك، ثم أخذ يقوم بغارات على بعض قرى العدو وضياعه بقصد التزود بالمؤن والأغذية واللحوم، ومن هذه الغارات ما سميت الأيام باسمائها تدليلاً على ما غنمه المسلمون في هذه الأيام، مثل: يوم الأباقر (نسبة إلى الأبقار الكثيرة التي غنمها المسلمون في هذا اليوم)، ويوم الحيتان (نسبة إلى الأسماك الكثيرة والكبيرة التي غنموها في هذا اليوم)[٥٧]، كما قام بغارات استكشافية على مسالح العدو ومراكز دفاعه بغية استنزافه وقدر قوته.

وما أن عبر رستم نهر العتيق قبالة المسلمين ورتب جيشه على الشكل الذي أوردناه حتى أخذ المسلمون مصافهم على الشكل التالي:

- في القلب : زهرة بن الحوية وعاصم بن عمرو التميمي (كان مع زهرة قبائل تميم وكنانة وأسد، ومع عاصم قبائل الرِّباب وبعض من بكر بن وائل).
- في الميمنة : عبد الله بن المعتم (وكان معه قبائل قيس عيلان وقضاعة وطيء وعبد قيس وبعض من بكر بن وائل).
- في الميسرة : شرحبيل بن السمط الكندي (وكان معه قبائل بجيلة ونخع وكندة والأزد وهمذان وخثعم وغيرها)[٥٨].
- على الطلائع: سواد بن مالك (ومهمته طراد العدو)
- في المؤخرة: عبد الله بن السهمين الخثعمي (ومعه الابل والظعن)
- وكان مركز سعد ونائبه خالد بن عُرفطة في القلب في حصن قديس، وكان سعد قد «خلط بين الناس في القلب والمجنبات» فرتب جيشه على الشكل التالي:

---

(٥٥) م. ن. جـ٣: ٤٩٤.

(٥٦) م. ن. ص. ن.

(٥٧) ابن الأثير، المصدر السابق، جـ٢ : ٤٥٥ و٤٥٨ وانظر: كمال، القادسية، ص ٥٣ و٧٩.

(٥٨) الطبري، المصدر السابق، جـ٣ : ٥٣٠ ـ ٥٣١.

ـ في كل جزء من أجزاء الجيش (الميمنة والقلب والميسرة) ثلاثة صفوف:

ـ الصف الأول: للطلائع (الخيالة)

ـ الصفان الثاني والثالث: للرماة والمشاة، بحيث يحمي الخيالة، في كل جزء من أجزاء الجيش وعلى مجنبتيه: الرماة في رميهم، والمشاة في زحفهم.

واستقر سعد في الحصن على وجهه لبثور ألمت بانحاء جسمه، فكان يوجه أوامره إلى الجيش بواسطة رقاع يرمي بها إلى خالد الذي كان في أسفل الحصن يتناول تلك الرقاع ويتلو ما فيها من أوامر على القادة لينفذوها[٥٩].

ولما كان زهرة قد ترك مركزه على القنطرة ليتمركز في قلب الجيش قبالة جيش الفرس، فقد أرسل سعد فرقة من خيالته إلى تلك القنطرة لكي يمنع الفرس من عبورها نحوه.

وهكذا كان الفرس على شفير العتيق وكان المسلمون على حائط قديس وعلى شفير الخندق، وكانت صفوف الفرس والمسلمين بين العتيق والخندق. وكان مع الفرس ثلاثون ألف مقاتل مسلسل وثلاثون فيلاً للقتال وثلاثة أفيال يركبها ملوكهم[٦٠].

وكان طول جبهة المسلمين، كطول جبهة الفرس، نحو ميل، وكانت المسافة بين الجيشين نحو ستماية متر، إلا أن كثافة جيش الفرس، في العمق، كانت أكثر من كثافة جيش المسلمين نظراً لكثرة عدد الأول وقلة عدد الثاني، أما عمق الخطوط في الجيشين فكان متشابهاً (مايتا متر تقريباً)[٦١]. وقد ردم المسلمون نقطة في الخندق تقع خلف حصن قديس، فكانت معبرهم الوحيد إلى الضفة الجنوبية لذلك الخندق.

٦ ـ القتال: (انظر الخارطات)

اختلف المؤرخون في تحديد التاريخ الذي جرت فيه معركة القادسية، فمنهم

(٥٩) م. ن. ص. ن.

(٦٠) م. ن. جـ٣ : ٥٣٥.

(٦١) كمال، المصدر السابق، ص ٢٢٠ ـ ٢٢١.

من ذكرها في أحداث عام ١٤هـ/٦٣٥م (الطبري وابن الأثير)، ومنهم من ذكر أنها جرت في آخر عام ١٦ هـ/٦٣٧م (البلاذري). ونحن، إذ نميل إلى الأخذ برواية الطبري وابن الأثير، نحاول تحديد الزمن الذي جرت فيه هذه المعركة بالضبط من خلال النصوص التي عثرنا عليها عند هذين المؤرخين، ويكفي أن نذكر أن سعداً مكث في القادسية، بعد فتحها، طيلة شهرين «في مكاتبة عمر في العمل عما ينبغي»[٦٢] وأن عمر أمره بالسير إلى المدائن لفتحها «ففعل ذلك وسار من القادسية لأيام بقين من شوال - ١٥هـ -»[٦٣] ليتأكد لدينا أن معركة القادسية قد جرت في أواخر شهر شعبان من العام المذكور (١٥ هـ/أيلول ٦٣٦م)[٦٤]. وقد استمرت المعركة أربعة أيام كاملة، وسميت هذه الأيام كما يلي:

اليوم الأول : يوم أرماث، من رمث الأمر، أي اختلط، وقد اختلط أمر المتقاتلين في هذا اليوم فلم يعرف من هو المنتصر بنتيجة القتال، وانتهى بليلة الهدأة، أي الليلة التي عم فيها الهدوء ولم يكن بها قتال.

اليوم الثاني : يوم أغواث، من الغوث، أي العون والمساعدة، وفيه وصلت قوات المسلمين الآتية من الشام لمؤازرة المسلمين في هذه المعركة، وقد انتهى بليلة السواد، وكانت ليلة شديدة على المقاتلين من الفريقين.

اليوم الثالث : يوم أعماس (أو عماس)، من عمس يومه، أي اشتد وأظلم واسود، لذا سميت ليلة هذا اليوم بليلة الهرير، لكثرة ما سمع فيها من صليل السيوف وضجيج الخيول، بينما تقاتل

---

(٦٢) الطبري، م. ن. جـ٣ : ٦١٩ وابن الأثير، الكامل، جـ٢ : ٥٠٥.

(٦٣) ابن الأثير، م. ن. جـ٢ : ٥٠٦ والطبري، م. ن. جـ٣ ٦١٩.

(٦٤) راجع تحليلاً مماثلاً ومفصلاً عند: كمال، القادسية، ص ٢٢٦ - ٢٣٢، ويذكر الطبري في إحدى رواياته أنه: «في آخر سنة خمسة عشرة قتل الله رستم بالعراق، وشهد أهل اليرموك حين فرغوا منه يوم القادسية مع سعد بن أبي وقاص» (م. ن. جـ٣ : ٥٧٢). أما البلاذري فيذكر أن سعداً قدم العذيب في سنة ١٥هـ/٦٣٦م (فتوح البلدان، ص ٣٥٦).

فيها المتقاتلون وهم صامتون فلم يسمع لهم ضجة ولا جلبة.

اليوم الرابع : **يوم القادسية**، وهو يوم الفتح، أو يوم النصر.

وفيما يلي تفصيل لهذه الأيام:

ـ **اليوم الأول: يوم أرماث**: بدأ القتال ظهر هذا اليوم دموياً عنيفاً، وقد بدأه المسلمون بعد صلاة الظهر وبعد أن تلى عليهم الداعون سورة الأنفال وهي سورة الجهاد، وأعطى سعد توجيهاته للقادة على الشكل التالي:

«إني مكبر تكبيرة فكبروا واستعدوا. . . .

«ثم إذا سمعتم الثانية فكبّروا ولتُسْتَتَم عدتكم،

«ثم إذا كبرت الثالثة فكبروا ولينشِّط فرسانكم الناس ليبرزوا وليطاردوا،

«فإذا كبرت الرابعة فازحفوا جميعاً حتى تخالطوا عدوكم وقولوا: لا حول ولا قوة إلا بالله».

وفي راوية أخرى أنه قال:

«إذا سمعتم التكبير فشدوا شسوع نعالكم،

«فإذا كبرت الثانية فتهيئوا،

«فإذا كبرت الثالثة فشدوا النواجذ على الأضراس واحملوا»[٦٥].

وكبر سعد الأولى «فتحشحش الناس»[٦٦]، ثم كبر الثانية «فاستتم الناس»[٦٧]. ثم كبر الثالثة فبرز أهل النجدات للقتال وقابلهم الفرس بمثله، فبرز من المسلمين غالب بن عبد الله الأسدي وتبعه عاصم بن عمرو، وبرز من الفرس هرمز وكان ملكاً من ملوكهم وتبعه رجل من أهل فارس هو خباز الملك، وتغلب غالب على

---

(٦٥) الطبري، المصدر السابق، جـ: ٥٣٥ ـ ٥٣٦.
(٦٦) أي تحركوا مستعدين للقتال ومتحمسين له.
(٦٧) أي استكملوا استعدادهم للقتال.

هرمز فقضى عليه، وتغلب عاصم على الخباز الذي فر هارباً نحو صفوف الفرس تاركاً خلفه بغلته المحملة عسلاً فغنمها عاصم وساقها إلى صفوف المسلمين[٦٨].

وبينما كان المسلمون ينتظرون التكبيرة الرابعة ليزحفوا نحو العدو وينشبوا القتال معه، برز رجل من الفرس يدعو للمبارزة فخرج إليه عمرو بن معد يكرب فبارزه ثم آحتضنه ورماه أرضاً وقضى عليه، عندها اهتاج الفرس واندفعوا للقتال فصدهم المسلمون، وصمد الفريقان مستبسلين، ولما رأى الفرس صمود المسلمين وبأسهم وجهوا نحو أشجع قبائلهم (وهي بجيلة)، وكانت في الميسرة، ثلاثة عشر فيلاً (وقيل ستة عشر) فاقتحمت الفيلة صفوف بني بجيلة (وكان يقودهم عبد الله بن جرير) فرمت الذعر في صفوفهم، وفرت الخيل جزعاً وبقي الرجال، وكادت الفيلة أن تبيد بني بجيلة عن آخرهم لولا أن أمر سعد بني أسد، وكانوا في القلب مما يلي الميسرة، إلى جانب بجيلة، فتقدموا لنجدة رفاقهم من بني بجيلة، وعلى رأسهم طليحة بن خويلد الأسدي وحمال بن مالك وغالب بن عبد الله والربيل بن عمرو، وكانوا في كتائبهم[٦٩]، فهاجموا الفيلة وتمكنوا، بعد جهد، من عزلها عن خيالة الفرس، إلا أن الفيلة عادت فارتدت لتهاجم بني أسد وكادت تفتك بهم، عندها أمر سعدٌ بني تميم أن يهبوا لنجدة بني أسد، وكان بنو تميم بقيادةِ عاصم بن عمرو، في القلب، إلى جانب بني أسد، فنزلوا إلى ساحة القتال حيث تصدى لهم الفرس بفيلتهم، ودارت بين الفريقين معركة عنيفة، وكاد الخطب يشتد على بني تميمٍ من الفرس وفيلتهم لولا أن كبر سعد التكبيرة الرابعةِ، فزحف المسلمون جميعاً للقتال. وحملت فيلة الفرس على ميمنة المسلمين وميسرتهم فسارت خيول المسلمين تحيد عنها وتفر من وجهها فيبقى المشاة في ساحة القتال بلا سند ولا معين. وكادت الدائرة تدور على المسلمين، عندها طلب سعد من عاصم بن عمرو أن يجد حيلة للخلاص من هذه الفيلة، فأمر عاصم رماته أن يذبوا الفيلة عن المسلمين بالنبل وأمر آخرين أن يستدبروا الفيلة ويقطعوا وُضُنها (مفردها وضين وهي الحزام المسرّج)، ففعلوا، وتمكنوا من الفيلة فاستدبروها

---

(٦٨) م. ن. جـ٣ : ٥٣٧.

(٦٩) م. ن. جـ٣ : ٥٣٨.

ورموها بنبالهم ثم قطعوا وضنها، فجرت تضج وتعـوى كالخنـازير وهي تلقي حمولتها من رجال الفرس من على ظهورها فيفتك المسلمون بهم ويقتلونهم، بينما كانت الفيلة تجري نحو النهر لا تلوي على شيء وتدوس من يقع في طريقها من رجال الفرس ومشاتهم. وقد استمر القتال في هذا اليوم حتى غروب الشمس وقتل من بني أسد نحو خمسماية مقاتل،[٧٠] ورجع الجيشان كل إلى مواقعه في آخر النهار، وكانت الليلة هادئة وسميت «ليلة الهدأة».

ـ اليوم الثاني: يوم أغواث:

أصبح المسلمون هذا اليوم على تعبئة، أما الفرس فقد أبقوا فيلتهم خارج المعركة بسبب تحطم الصناديق التي كانت تقل الرجال على ظهورها وانشغالهم باصلاح هذه الصناديق، لذا، كان القتال بين الفريقين متكافئاً، ولكن ما لبثت أن بدأت طلائع الجيش الذي أرسله أبو عبيدة من الشام، بعد تلقيه أوامر الخليفة، تظهر في أفق القادسية. وكان هذا الجيش، كما قدمنا، مؤلفاً من ستة آلاف مقاتل، خمسة من ربيعة ومضر، وألف من «أفناء اليمن من أهل الحجاز»[٧١] وعليهم هاشم بن عتبة بن أبي وقاص. وقد عبأ هاشم جيشه هذا كتائب على الشكل التالي:

ـ في المقدمة: القعقاع بن عمرو.

ـ في المجنبتين: قيس بن هبيرة المرادي والهزهاز بن عمرو العجلي.

ـ في المؤخرة: انس بن عباس[٧٢].

وصلت طليعة هذا الجيش إلى القادسية قي صبيحة يوم أغواث، وكان القعقاع قد قسم كتيبته أعشاراً (وكانت ألفاً، أي مئة عشرة)، ثم أخذ يطلقها عشرة إثر عشرة، وبين العشرة والأخرى مدى البصر، وكان القعقاع في طليعة العشرة الأولى، فكان هو أول الواصلين من كتيبته وبالتالي من جيش الشام، إلى

---

(٧٠) م. ن. جـ٣ : ٥٤٠.

(٧١) م. ن. جـ٣ : ٥٤٣.

(٧٢) م. ن. ص. ن.

القادسية، وما أن وصل إلى ساحة القتال حتى انبرى ينادي: هل من مبارز؟ فخرج إليه ذو الحاجب (بهمن جاذويه) فبارزه القعقاع وصرعه، وبدأت كتيبة القعقاع تصل إلى ساحة القتال، عشرة إثر عشرة، وكانت كل عشرة تصل إلى ميدان القتال لا تتوانى عن الدخول في القتال مباشرة دون شعور بالتعب أو الإرهاق من جراء المسير الشاق والطويل، فانضم مقاتلو الشام إلى رفاقهم، ونشط المسلمون وتأججت حميتهم للقتال إذ وصلهم المدد، وتزعزعت صفوف الفرس وبدأوا يتقهقرون، ونادى القعقاع من جديد: هل من مبارز؟ فبرز إليه رجلان أحدهما البيرزان والثاني البندوان، فانضم إلى القعقاع الحارث بن ظبيان بن الحارث، وبارز القعقاع البيرزان بينما بارز الحارث البندوان، وشج كل منهما رأس صاحبه فصرعه[73].

وعمد رجال القعقاع، في هذه الأثناء، إلى حيلة يخيفون بها خيل الفرس، فجللوا إبلاً لهم وبرقعوها، تشبهاً بالفيلة، ودفعوها إلى ساحة القتال أمامهم في وجه خيول الفرس التي ما أن رأت هذه الابل حتى جفلت وذعرت فاوقعت من على ظهورها من الرجال وولت هاربة. وكان خيالة المسلمين يحمون تلك الإبل المبرقعة، فلما أن رأوا خيل الفرس تهرب وتلقي مَنْ على ظهورها من رجال حتى انكبوا على أعدائهم يعملون فيهم قتلاً. وكان نصيب خيل الفرس من ابل المسلمين المبرقعة يوم أغواث، هو نفسه نصيب خيل المسلمين من فيلة الفرس يوم أرماث. أما القعقاع بن عمرو فقد روى المؤرخون أنه حمل، في هذا اليوم، ثلاثين حملة، لم يخب سيفه في واحدة منها قط، وكان آخر من قتل من الفرس في هذه الحملات، بزرجمهر الهمذاني[74]. وظل القتال سجالاً بين الفرس والمسلمين من صبيحة هذا اليوم حتى ظهره، وما أن «عدل النهار» حتى تزاحف الفريقان واستمر القتال بينهما شديداً وعنيفاً حتى انتصف الليل، فسميت ليلة أغواث هذه «بليلة السواد» واندفعت خيل القلب من جيش المسلمين، وخلفهم المشاة، باتجاه القلب من جيش الفرس، ونشب بين القلبين قتال عنيف حتى اختلطا فلم يعد أي من رستم

---

(٧٣) م. ن. ص. ن.

(٧٤) م. ن. جـ٣ : ٥٤٧.

وسعد يميز بين جنده وجند خصمه. ويروى أن سعداً نام في هذه الأثناء وقال لمن معه: «إن تم الناس على الانتماء فلا توقظني فإنهم أقوياء على عدوهم، وإن سكتوا ولم ينتم الآخرون فلا توقظني فإنهم على السواء، فإن سمعتهم ينتمون فأيقظني، فإن انتماءهم عن السّؤ»[٧٥]. ولما اشتد القتال نزل أبو محجن الثقفي (وكان مسجوناً في الحصن فغادر سجنه) وأخذ يجول تارة في الميمنة وتارة في الميسرة و«يلعب بين الصفين برمحه وسلاحه» والناس مندهشون لا يعرفون من هو هذا الفارس، وقال سعد وهو مشرف من فوق الحصن على هذا المنظر الغريب: «والله لولا محبس أبي محجن لقلت هذا أبو محجن وهذه البلقاء»[٧٦]. واستمر القتال على هذه الوتيرة حتى انتصف الليل فرجع كل فريق إلى مصافه دون أن ينتهي أي منهما إلى نصر حاسم.

ـ اليوم الثالث: يوم اعماس (أو عماس):

ظل رجال القعقاع يفدون إلى ساحة القتال عشرة إثر عشرة حتى حلول الظلام في يوم أغواث، وفي الليل، أمر القعقاع أصحابه أن يفدوا، عند طلوع الشمس، إلى ساحة القتال، ماية إثر ماية، «كلما توارى عنكم ماية فليتبعها ماية»[٧٧]. وما أن طلع الصباح حتى اصطف الجيشان للقتال من جديد، وقد أصبح كل مهم على مواقعه، وما أن «ذر قرن الشمس» حتى بدأت خيول المسلمين تظهر في أفق القادسية من جديد، ماية إثر ماية، ثم كتيبة إثر كتيبة، فكبر القعقاع وكبر الناس وقالوا «جاء المدد»، مما عزز من معنويات المسلمين وقدرتهم القتالية، وزرع الخوف في قلوب الفرس إذ رأوا المدد يصل إلى المسلمين تباعاً، ومع ذلك فقد كان هذا اليوم أشد أيام القتال هولاً وضراوة.

بدأ عاصم بن عمرو القتال، وكان في القلب، فتقدم بفرسانه نحو العدو، وقد تكتّبوا كتائب. وما أن حمي وطيس المعركة، وكان آخر رجال القعقاع قد وصل، حتى بدأت طلائع كتائب هاشم تصل وهو على رأسها ومعه قيس بن هبيرة، وكان هاشم قد اقتدى بالقعقاع فقسم كتائبه إلى وحدات، كل وحدة

---

(٧٥) م. ن. جـ٣ : ٥٤٧ ـ ٥٤٨.
(٧٦) م. ن. جـ٣ : ٥٤٩.
(٧٧)م. ن. جـ٣ : ٥٥١.

سبعون رجلاً، وبدأت هذه الوحدات تصل إلى ساحة المعركة سبعين إثر سبعين، وكان هاشم، ومعه قيس، أول الواصلين مع الوحدة الأولى، فانضم إلى عاصم في القلب وهو يقول: «أول القتال المطاردة، ثم المراماة»[٧٨].

وبينما كان القتال دائراً، كان بعض الفرس منهمكاً في الإسراع باعداد الصناديق التي سوف تحملها الفيلة على ظهورها، وفيها الرجال، وما أن أصبحت تلك الصناديق، ومعها الرجال والفيلة، جاهزة حتى أطلقوها إلى الصفوف الأولى، وحولها حماة من الخيالة والمشاة يذبون عنها المسلمين كي لا يحاولوا، من جديد، الاقتراب منها، وقطع وُضُنها. وكان القتال بين الفريقين سجالاً دون أن يتمكن أحدهما من التغلب على الآخر، إذ كان «كلما بلغ منهم ـ أي من الفرس ـ المسلمون بلغ الكافرون من المسلمين مثله، وكلما بلغ الكافرون من المسلمين بلغ المسلمون من الكافرين مثله»[٧٩]. وكان النهار قد انتصف عندما أقبلت فيلة الفرس و «معها الرجّالة يحمونها أن تقطع وضنها، ومع الرجّالة فرسان يحمونهم»[٨٠]. واتبع الفرس خطة جديدة في مناورة الفيلة لم يتبعوها في اليوم الأول، فأخذوا يطلقون في وجه كل كتيبة من كتائب المسلمين فيلاً من فيلتهم «لينفروا بها خيلهم» ومع الفيل «حاشيته» وحماته من خيالة ومشاة، وفعلت الفيلة فعلها في صفوف المسلمين ففتكت بهم وفرقت بين كتائبهم، كما فعلت يوم أرماث. وأدرك سعد أن لا مجال لقهر العدو والتغلب عليه إلا بالقضاء على فيلته، واستشار بعض من أسلم من الفرس عن مقاتل الفيلة وعن الطريقة التي تمكنه من ذلك فأشاروا إلى «المشافر والعيون» حيث «لا يُنتفع بها بعدها»[٨١]. وكان بين فيلة الفرس أكبرها ويدعى «الأبيض» ويليه «الأجرب»، وكانت الفيلة الأخرى تألفهما وتنقاد إليهما، فأمر سعد القعقاع وأخاه عاصم بن عمرو التميميين أن «أكفياني الأبيض» ثم أمر حمّال والربيل الأسديين أن «أكفياني الأجرب». وأخذ كل من القعقاع وعاصم رمحين

---

(٧٨) م. ن. جـ٣ : ٥٥٢ وفي رواية أخرى أن هاشم كان في «الميمنة» أو «على الميمنة» (م. ن. ص ٥٥٣) إلا أنه لا خلاف في ذلك طالما أن عاصماً كان في ميمنة القلب.

(٧٩) م. ن. جـ٣ : ٥٥٣.

(٨٠) م. ن. جـ٣ : ٥٥٢.

(٨١) م. ن. جـ٣ : ٥٥٥.

«أصمين لينين» ومعهما فئة من الخيالة والرجّالة، وأمرا من معهما أن يكتنفوا الفيل الأبيض ويتحايلوا عليه ليحيّروه، ثم رماه كل منهما بالنبل في عينيه ففقئتا، ونفض الفيل رأسه ألماً ودلّى مشفره فقطعه القعقاع. وفعل كل من حمال والربيل مع «الأجرب» ما فعله كل من القعقاع وعاصم مع «الأبيض» فتحايل حمال عليه حتى طعنه في عينيه ففقأهما، وقطع الربيل مشفره[٨٢]. وانتفض الفيلان ألماً ومضياً يضجان ويعويان كالخنازير ويدوران حول نفسيهما ثم آنطلقا تجاه النهر فنزلا فيه وخرجا منه باتجاه المدائن، وتبعتهما الفيلة الأخرى وهي لا تلوى على شيء، وداست، في جريانها ودورانها، على مشاة الفرس وخيالتهم فقتلت منهم الكثير، ومن سقط من هؤلاء ولم يقتل تناولته سيوف المسلمين فقضت عليه. أما الصناديق المحملة بالرجال فمات من سقط منها عن ظهور الفيلة على أيدي المسلمين، وهلك من بقي فيها وهي هاربة نحو المدائن[٨٣]. وخسر الفرس «مدرعاتهم» التي كانوا يتقوون بها ويحتمون فأصبحوا متساوين، من حيث وسائل القتال، بالمسلمين. وارتفعت معنويات المسلمين فحملوا بدورهم على الفرس الذين اضطربوا لهزيمة فيلتهم فارتبكوا وهلعوا، ولكنهم، مع ذلك، صمدوا وقاتلوا ببسالة نادرة. وامتد القتال حتى حلول الظلام ثم اشتد وسعر، وصبر الفريقان واستمر القتال طيلة الليل، «ولم يكن قتال بليل بعدها بالقادسية»، وقد سميت تلك الليلة «بليلة الهرير»[٨٤].

ليلة الهرير: اصطف المسلمون للقتال في هذه الليلة ثلاثة صفوف: أولها (نحو العدو) للرماة وثانيها للخيالة وثالثها للمشاة من أصحاب الرماح والسيوف، «وكذلك الميمنة وكذلك الميسرة» وكان على المسلمين «مسعود بن مالك الأسدي وعاصم بن عمرو التميمي وابن ذي البردين الهلالي وابن ذي السهمين وقيس بن هبيرة الأسدي وأشباههم» وكذلك القعقاع بن عمرو وخالد بن يعمر التميمين[٨٥]. أما الفرس فقد تعبأوا في ثلاثة عشر صفاً «في القلب والمجنبتين»، وقد اتبعوا في هذه

---

(٨٢) م. ن. جـ٣ : ٥٥٥ ـ ٥٥٦
(٨٣) م. ن. جـ٣ : ٥٥٦.
(٨٤) م. ن. جـ٣: ٥٥٧.
(٨٥) م. ن. جـ٣ : ٥٥٩.

الليلة تكتيك الزحف فقدموا لذلك صفاً ثم أتبعوه بآخر مثله «وآخر وآخر»[٨٦].
عندها نهد القعقاع لقتالهم قبل أن يأذن سعد بذلك فزحف إليهم «والناس على راياتهم» فغفر له سعد ودعا له بالنصر، ثم أمر المسلمين أن تهيأوا للقتال واستعدوا له، «فإذا كبرت ثلاثاً فازحفوا»، ثم كبر الأولى فتهيأ الناس وكادت الدائرة تدور على القعقاع وصحبه، وخرج منهم من رأى وجوب البدء بالهجوم قبل أن يأذن سعد بذلك، وفيما هم بين موافق ومعارض إذا بسعد يكبر التكبيرة الثانية، ولم ينتظر عاصم (أخو القعقاع) التكبيرة الثالثة بل حمل بمن معه وانضم إلى أخيه القعقاع لينصره، ثم حملت «النخع» بعده «وعصي الناس كلهم سعداً فلم ينتظروا الثالثة إلا الرؤساء»[٨٧]، فلما كبر الثالثة زحف هؤلاء ملتحقين باصحابهم. وذكر «انس بن الحُليس» قال: «شهدت ليلة الهرير فكان صليل الحديد فيها كصوت القيون (الحدادين)، ليلتهم حتى الصباح، أفرغ عليهم الصبر إفراغاً، وبات سعد بليلة لم يبت بمثلها، ورأى العرب والعجم أمراً لم يروا مثله قط، وانقطعت الأصوات والأخبار عن رستم وسعد، وأقبل سعد على الدعاء حتى إذا كان وجه الصباح انتهى الناس فاستدل بذلك على أنهم الأعلون وأن الغلبة لهم»[٨٨]. وقد استدل سعد على انتصار المسلمين في هذه الليلة بصوت القعقاع عائداً من القتال وهو يدوي بالتكبير وينشد الأناشيد الحماسية[٨٩].

وفي ليلة الهرير هذه، أمر سعد طليحة وعمراً (ابن معد يكرب الزبيدي) أن يمنعوا الفرس من مباغتة المسلمين من الخلف من جهة المخاضة (القنطرة)، ولما وصل القائدان إلى ذلك المكان لم يجدا الفرس عليه، فقرر عمرو أن ينقض بمن معه على الفرس بعد أن يأخذهم من خلفهم، وفوجىء الفرس، ودارت بينهم وبين عمرو وأصحابه معركة ليلية عنيفة كاد عمرو أن ينهزم فيها لولا أن أنجده سعد

---

(٨٦) م. ن. ص. ن.
(٨٧) م. ن. ص ٥٦١، وفي رواية أخرى أن الناس عامة حملوا ليلة الهرير ولم ينتظروا سعداً، وكان القعقاع أول من حمل في بني تميم، ثم حملت قبيلة النخع، ثم بجيلة، ثم كندة، ثم زحف الرؤساء بمن انتظر التكبيرة (الثالثة) «فقامت حربهم على ساق حتى الصباح» (م. ن. ص. ن).
(٨٨) م. ن. جـ٣ : ٥٦١ ـ ٥٦٢.
(٨٩) م. ن. جـ٣ : ٥٦٢.

بسبعين رجلاً بقيادة قيس بن المكشوح الذي «نهنه الناس» عن عمرو»[٩٠]، وأما طليحة فإنه مضى حتى بلغ ردم العتيق فكبر ثلاثاً «فراع أهل الفرس وتعجب المسلمون»، ثم إنه غاب فلم يدر الفرس، ولا المسلمون، أي طريق سلك، أما هو فوصل إلى المخاضة فاجتازها وعاد إلى صفوف المسلمين[٩١].

اليوم الرابع: يوم القادسية:[٩٢]

امتد القتال حتى صباح هذا اليوم، وكان قد أسقط في يد الفرس، خاصة وأن المسلمين استطاعوا أن يخترقوا صفوفهم وكادوا يصلون إلى مركز القلب من جيشهم حيث يوجد رستم قائدهم، وأخذ المسلمون يتنافسون في القتال ويحملون على الفرس، كل قائد بمن معه من المقاتلين، فحمل عليهم قيس بن عبد يغوث والأشعث بن قيس وعمرو بن معد يكرب وابن ذي السهمين الخثعمي وابن ذي البردين الهلالي، كل برجاله وأصحابه، فأخذ يحمل كل منهم على من يليه من الأعداء، مما زاد الحماسة في صفوف المسلمين. وخالط المقاتلون المسلمون من بازائهم من الفرس حتى بدأوا بازاحتهم عن مواقعهم، وما أن «قام قائم الظهيرة» حتى استطاع المسلمون أن يخترقوا ميمنة الفرس وميسرتهم مما يلي القلب ويزيحوا كلا من الهرمزان والبيرزان عن مواقعهما، فانكشف قلب الفرس عندئذ للمسلمين، فاهتاج المسلمون لما رأوا ذلك واندفعوا نحو مركز قيادة العدو حيث كان رستم على سريره وقد تظلل بخيمة تقيه حر الشمس، وهبت ريح اقتلعت تلك الخيمة ورمتها في العتيق فقام رستم عن سريره واندفع ليستظل بظل بغل محمل، وكان القعقاع أول الواصلين إلى سرير رستم، فوجد السرير خاوياً. وكان هلال بن علّفة قد أدرك

---

(٩٠) م. ن. ص ٥٥٨، وذكر البلاذري: «ويقال ان قيس بن مكشوح لم يحضر القتال بالقادسية ولكنه قدمها وقد فرغ المسلمون من القتال»(فتوح البلدان، ص ٣٦١) إلا أنه لم يذكر مصدر روايته هذه

(٩١) الطبري، م. ن. ص، وروى عن شعيب عن سيف عن عمرو عن الأعور ومحمد عن عمه والنضر عن ابن الرفيل قالوا «اجتلدوا ـ أي المتقاتلون ـ تلك الليلة من أولها حتى الصباح لا ينطقون، كلامهم الهرير، فسميت ليلة الهرير» (م. ن. ص ٥٦٢).

(٩٢) ويسمى أيضاً «ليلة القادسية» من بين تلك الأيام، وذلك لأن الناس «لم يغمضوا ليلتهم كلها» وقد روي «عن شعيب عن سيف عن محمد وطلحة وزياد قالوا: وأصبحوا ليلة القادسية وهي صُبحة ليلة الهرير» (م. ن. ص ٥٦٣).

البغل المحمل دون أن يدرك أن رستم مستظل بحمله فضرب ذلك الحمل بسيفه فسقط عن ظهر البغل ووقع على رستم فقصم ظهره. وحاول رستم الفرار فاتجه نحو العتيق ورمى بنفسه ولكن هلالاً أدركه فأخذ بإحدى قدميه وأخرجه من النهر ثم ضربه بسيفه فقتله وأخذ يصيح: «قتلت رستم ورب الكعبة، إلي». وما أن علم الفرس بمصرع قائدهم حتى دب الهلع في صفوفهم وبدأوا ينهزمون، فكانوا ينزلون إلى النهر وهم مقيدون بالسلاسل فينهال بهم التراب فيسقطون في الماء ويغرقون، حتى قيل إنه قد غرق منهم في النهر في ذلك اليوم ثلاثون ألفاً، وقتل منهم على يد المسلمين في اليوم نفسه عشرة آلاف عدا من قتل منهم في الأيام السابقة[٩٣]، فيكون عدد قتلى الفرس في معركة القادسية قد جاوز الأربعين ألفاً. وكان الجالنوس قد هرب مع رجاله الذين أخذوا يجتازون القنطرة نحو المدائن وهو في مؤخرتهم يحميهم، فلحق به زهرة بن الحوية فقاتله حتى قتله[٩٤]. وبلغ عدد شهداء المسلمين في معركة القادسية ثمانية آلاف وخمسماية شهيد: ألفان وخمسماية قبل ليلة الهرير، وستة آلاف في ليلة الهرير ويوم القادسية، وقد دفنوا جميعاً في الخندق إزاء موضع يسمى «مشرِّق». وقد غنم المسلمون في هذه المعركة غنائم كثيرة، وغنم ضرار بن الخطاب علم الفرس الأكبر المسمى «درفش كابيان»[٩٥].

ويذكر البلاذري أن معركة القادسية جرت أيام «الخميس والجمعة وليلة السبت وهي ليلة الهرير»[٩٦] في آخر عام ١٦هـ[٩٧].

الدروس المستخلصة
من معركة القادسية

كانت القادسية نموذجاً مميزاً من نماذج التكتيك العسكري الإسلامي، حيث برع المسلمون فيها باتقان المناورة التكتيكية التي تتلاءم مع كل حالة قتالية من

---

(٩٣) الطبري، م. ن. جـ٣ : ٥٦٤.
(٩٤) م. ن. جـ٣ : ٥٦٥.
(٩٥)م. ن. جـ٣ : ٥٦٤.
(٩٦) البلاذري، فتوح البلدان، ص ٣٦١
(٩٧) م. ن. ص ٣٥٨.

حالات المعركة، وسوف نستعرض فيما يلي ما أمكننا استنتاجه من هذه المعركة من لمحات تعبر صادقاً عن تطور الفن العسكري عند المسلمين.

١ ـ التبعئة العامة، أو التجنيد الإلزامي، والحشد الأقصى للوسائل:

كانت أوامر الخليفة عمر، في الإعداد لمعركة القادسية، واضحة وحازمة، فقد قدر، بتبصره وبعد نظره، أنها ستكون المعركة الحاسمة مع الفرس في العراق، فقرر التعبئة العامة، وأمر قادته أن «لا تدعوا في ربيعة أحداً ولا مضر وحلفائهم أحداً من أهل النجدات ولا فارساً إلا اجتلبتموه، فإن جاء طائعاً وإلا حشر تموه». وقد وضع الخليفة في ذلك مبدأ عاماً من مبادىء التجنيد الإلزامي في الإسلام، الأمر الذي لم يعرف في عهد أبي بكر قبله، يضاف إلى ذلك أن التعبئة العامة لمعركة القادسية كانت تعني، في هذا المجال بالذات، حشداً أقصى للوسائل المادية والمعنوية، إذ حشد الخليفة لهذه المعركة أقصى ما يمكن حشده من الرجال، كما حشد لها الفئة المختارة من رجال المسلمين، فقد كتب إلى سعد أن ينتخب «أهل الخيل والسلاح ممن له رأي ونجده»[٩٨] وفي رواية أخرى «أهل النجدة والرأي والقوة والعدة»[٩٩]، فاجتمع لسعد في هذه المعركة بضعة وسبعون ممن حضروا بدراً، وثلاثماية وبضعة عشر ممن صحبوا النبي ﷺ بعد بيعة الرضوان، وثلاثماية ممن شهدوا فتح مكة، وسبعماية من أبناء الصحابة[١٠٠]. ويروى أنه (رضي) قال: «والله لاضربن ملوك العجم بملوك العرب» ثم أنه «لم يدع رئيساً ولا ذا رأي ولا ذا شرف ولا ذا سِطة ولا خطيباً ولا شاعراً إلا رماهم به، فرماهم بوجوه الناس وغررهم»[١٠١] وهذا هو الحشد الأقصى للوسائل المادية والمعنوية للمعركة.

ونجد، في التعبئة لهذه المعركة، تجديداً لم نعهده عند المسلمين من قبل، إذ لم ينتظر سعد في «صرار» حتى يكتمل جيشه ثم ينطلق به إلى العراق، بل انطلق في أربعة آلاف رجل ووصل إلى مكان المعركة بالقادسية في سبعة عشر ألفاً، وهذه

(٩٨) الطبري، م. ن. جـ٣ : ٤٨٢.
(٩٩) م. ن. جـ٣ : ٤٨٥.
(١٠٠) م. ن. جـ٣ : ٤٩٠.
(١٠١) م. ن. جـ٣ : ٤٨٧ والسِّطة: السطوة والهيبة.

طريقة مبتكرة في تعبئة الجيوش لم يعتمدها المسلمون قبل عمر.

٢ ـ اختيار مكان المعركة:

حدد الخليفة في رسائله إلى كل من المثنى وسعد، مكان المعركة الحاسمة، وهو القادسية، وذلك عندما قال لسعد: «إذا انتهيت إلى القادسية، والقادسية باب فارس في الجاهلية.... فتكون مسالحك على أنقابها، ويكون الناس بين الحجر والمدر» أي حجر العراق ومدر الجزيرة، فهو، في تحديده هذا المكان للقاء الفرس، كان يبغي، من ذلك، عدة أمور، أهمها:

أ ـ أن يظل المسلمون على حدود بلادهم فلا يتوغلوا في أرض لا يعرفونها وبين قوم هم أعداء لهم، حتى إذا خسروا المعركة كان خلفهم من هو ظهير لهم مما يتيح لهم الاستعداد لجولة قادمة، أما إذا ربحوها فإن عدوهم لن يتوانى عن الفرار والتراجع متوغلاً في أرضه نحو عاصمة بلاده المدائن، عندها يتاح للمسلمين أن يتقدموا إثره دون أن يخشوا أي خطر من قبله.

ب ـ إن وجود المسلمين عند حدود الجزيرة يتيح لهم أن يتلقوا الإمداد بالرجال والمؤن من ديارهم وبني قومهم، أما إذا أقاموا داخل بلاد العدو فسيتاح له أن يقطع عليهم، في أي وقت، طريق إمدادهم ويقضي عليهم.

ج ـ إن اختيار «القادسية» ما بين خندق سابور ونهر العتيق، بالذات مكاناً للمعركة، أتاح للمسلمين حرية الحركة والمناورة وهم مطمئنون إلى مؤخرتهم وغير خائفين أن يأتيهم العدو من خلفهم، بالإضافة إلى أنهم كانوا قادرين على التحرك يمنة ويسرة وإلى الأمام، وإلى الخلف قليلاً، باعتبار أن المعبر الذي أنشأوه على الخندق، تجاه حصن قديس، يتيح لهم ذلك.

٣ ـ دراسة أرض المعركة وبيئتها:

كان الخليفة عمر أول قائد عربي ومسلم يعتمد «الرسالة الخارطة» في دراسته لأرض المعركة وبيئتها، إذ طلب من سعد أن يصف له، في رسالة مفصلة، منازل المسلمين ـ أي مواقعهم ـ كأنه ينظر إليها، وأن يجعله من أمرهم ـ أي المسلمين ـ

على جلية، فكتب إليه سعد رسالة يشرح له فيها، بالتفصيل، جغرافية القادسية (بين الخندق والعتيق) وما يقع على يمينها ويسارها، ثم يشرح له أوضاع البيئة التي تحيط بأرض المعركة فينبئه أن أهلها معادون للمسلمين، ويتخذ الخليفة، بناء لذلك، قراره التكتيكي والاستراتيجي التالي:

- ثبات المسلمين في مواقعهم.
- عدم مبادرتهم العدو وبالقتال.
- استثمار النصر، إن تم، حتى المدائن، عاصمة العدو في العراق.

وقد طبق المسلمون توجيهات الخليفة تطبيقاً صارماً إذ أنهم لم يسمحوا للعدو بأن يستدرجهم للقتال بل استدرجوه إليه، ولم يعبروا إليه بل عبر هو إليهم، وكان مقتله في عبوره هذا، إذ أنه حشر عدده الكثيف بين النهر والمسلمين، فخسر حرية المناورة كما خسر حرية التراجع المنتظم.

إن هذه الطريقة في دراسة أرض المعركة وبيئتها وفي اتخاذ القرار الملائم لا تقل عن أحدث الدراسات التكتيكية والاستراتيجية العسكرية التي نعهدها في عصرنا الحاضر، ولا تختلف عنها إلا بتطور وسائل الإيضاح المستعملة حالياً كالخارطات والصور وما شابه ذلك.

٤ - الغارات التموينية واستنزاف العدو:

لم يكن من الممكن أن تصل المؤن كاملة إلى جيش المسلمين من المدينة، عاصمة الخلافة، فكان على القائد أن يستعمل وسائله الخاصة لتموين جيشه. لذا، أخذ المسلمون يقومون، منذ وصولهم إلى أرض العدو وتمركزهم فيها، بغارات تموينية لسد حاجات الجيش من المؤن، فكان «يوم الأباقر» ويوم «الحيتان» وغيرهما من الأيام والغارات التي أقضت مضاجع الأهالي في ضياع الفرس المحيطة بمواقع المسلمين[١٠٢]، مما أثار إستياء هؤلاء الأهالي فرفعوا شكاواهم إلى حكام فارس الذين لم يجدوا لرد هذه الغارات سبيلاً، ومن هذا المنطلق، اتخذت هذه

(١٠٢) م. ن. جـ٣: ٤٩٤ - ٤٩٥.

الغارات، بالإضافة إلى وجهها التمويني، وجهاً آخر هاماً، هو استنزاف طاقات العدو وقدرة الأهالي على تحمل آثار الحرب ومعاناتها.

٥ ـ أسلوب «الكمائن»:

استعمل المسلمون أسلوب «الكمائن» في مناوشاتهم مع الفرس قبل القادسية، وفي استنزافهم لطاقات العدو ومعنوياته، فقد كمن بكير بن عبد الله الليثي بفرقة من خيالة المسلمين، في أجمة من النخيل، وعلى الطريق إلى «الصنّين»، لقافلة تضم أخت أزاذمرد بن أزاذبه مرزبان الحيرة، وهي تزف إلى صاحب «الصنين» من أشراف العجم، وما أن وصلت القافلة إلى مكان الكمين، حتى انقض المسلمون عليها، فقصم بكير صلب «شيرزاذ بن ازاذبه» أخي العروس، وكان على رأس الخيل التي تتقدم القافلة، ونفرت الخيل تعدو بمن على ظهورها من رجال، وأخذ المسلمون «الأثقال وابنة ازاذبه في ثلاثين امرأة من الدهاقين ومائة من التوابع ومعهما لا يُدرى قيمته».(١٠٣).

٦ ـ أسلوب «التكتيك المتغير»:

استعمل المسلمون في هذه المعركة أسلوب «التكتيك المتغير» وفقاً لكل حالة من حالات القتال وظرف من ظروفه، فبينما نراهم (في اليوم الأول من المعركة) يحتالون على الفيلة المهاجمة فيقطعون وُضُنها بعد أن يرموها بنبالهم فتفر من ميدان القتال بعد أن ترمي مَنْ على ظهورها من رجال الفرس فيفتك المسلمون بهم، إذا بهم، أي المسلمون، يعمدون (في اليوم الثاني) إلى أسلوب المبارزة كي يطيلوا أمد القتال ريثما يصل إليهم المدد القادم من الشام، كما يعمدون إلى إيصال هذا المدد إلى ساحة القتال تباعاً وزمرة إثر زمرة بغية إيهام العدو بكثرته، ثم يعمدون إلى حيلة تكتيكية بارعة وذلك بأن يجللوا إبلهم ويبرقعوها تشبهاً بالفيلة ثم يطلقوها في صفوف العدو فتجفل خيلهم وتولي هاربة لا تلوى على شيء. ويعمد المسلمون (في اليوم الثالث) إلى مواجهة فيلة الفرس المحمية بخيالتهم ومشاتهم بأن يهاجموا أكبرها وأضخمها فيفقأوا عيونها ويقطعوا مشافرها، فتفر الفيلة هاربة، ويتساوى

---

(١٠٣) م. ن. جـ٣ : ٤٩٤.

الفرس والمسلمون، في ساحة القتال، بعد أن يخسر الفرس فيلتهم، أي مدرعاتهم.

ولما رأى المسلمون أن أمد القتال يمكن أن يطول قرروا الهجوم العام فعبأوا صفوفهم وزحفوا زحفة واحدة، وما أن تخلخلت صفوف العدو وانكشف قلبه حتى كان رستم قائد جيش العدو هدفهم، وما أن قضي على رستم حتى انهزم جيش الفرس هزيمة ساحقة.

وهكذا نرى أن الأسلوب الذي اتبعه المسلمون في هذه المعركة لم يتقيد بالأساليب التقليدية التي كانت متبعة في القتال بل أنه لبس لكل حالة لبوسها، فانتقل من الأساليب البدائية (المبارزة) إلى الحيل التكتيكية (الابل المبرقعة وقطع وُضن الفيلة وفقأ عيونها وقطع مشافرها)، إلى القتال الكلاسيكي التقليدي (الهجوم العام واستهداف القائد).

٧ ـ التميز بالقبائل:

تميزت هذه المعركة بالتعبئة ذات الطابع القبلي، وهو أسلوب استعمله العرب كثيراً في جاهليتهم وكذلك المسلمون، وخاصة خالد بن الوليد في معركته مع مسيلمة الكذاب في حروب الردة عام ١١هـ(٦٣٢م)[١٠٤]، وقد عبأ سعد المسلمين في هذه المعركة قبائل على الشكل التالي:

ـ قبائل قيس عيلان وقضاعة وطيء وعبد قيس وبعض من بكر بن وائل، في الميمنة.

ـ قبائل الرِّباب وتميم وكنانة واسد وبعض من بكر بن وائل، في القلب.

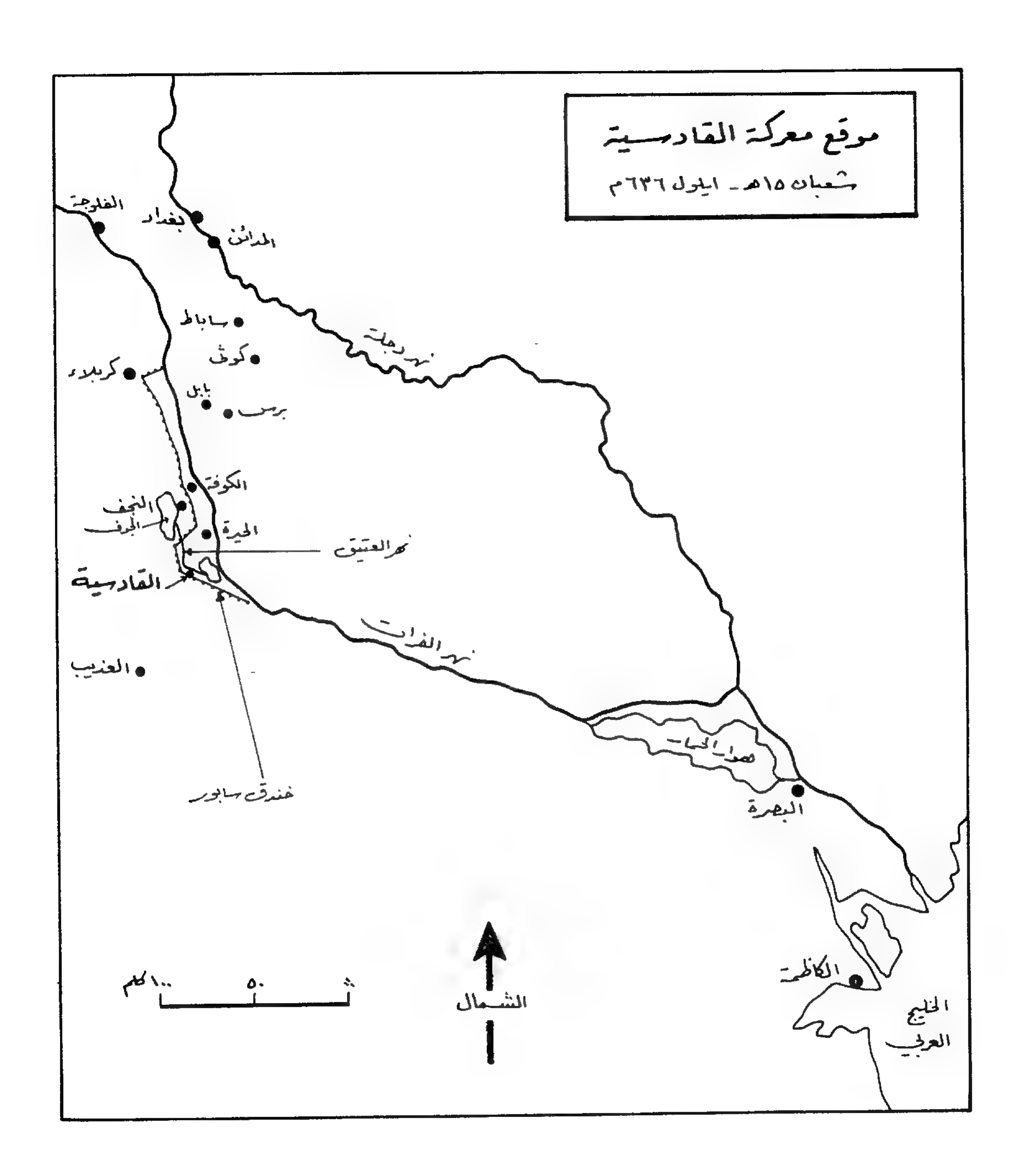
ـ قبائل بجيلة ونخع وكندة والازد وهمذان وخثعم وغيرها، في الميسرة.

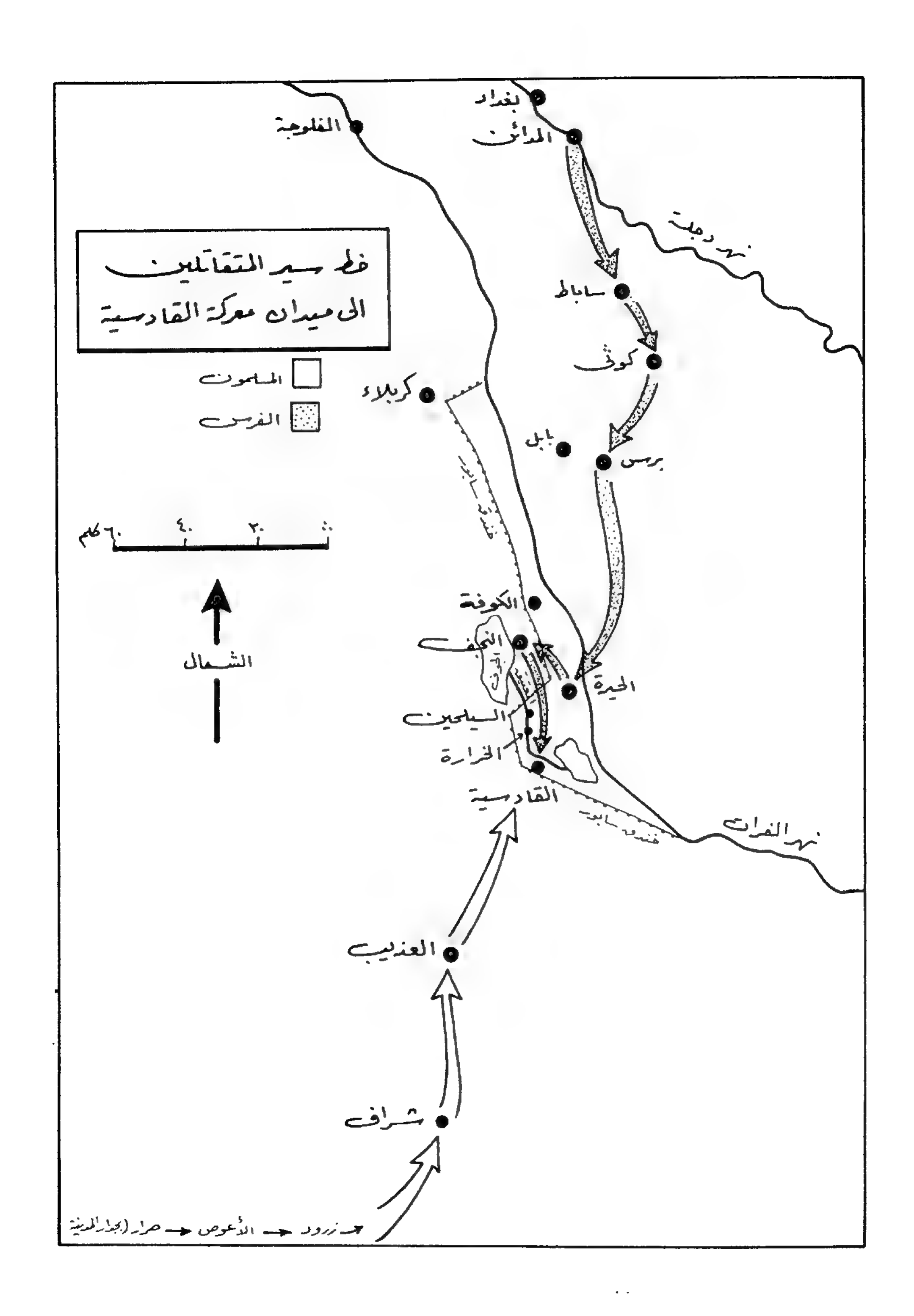
وميزة هذا الأسلوب أنه يخلق بين القبائل تنافساً فريداً في الحماسة للقتال

---

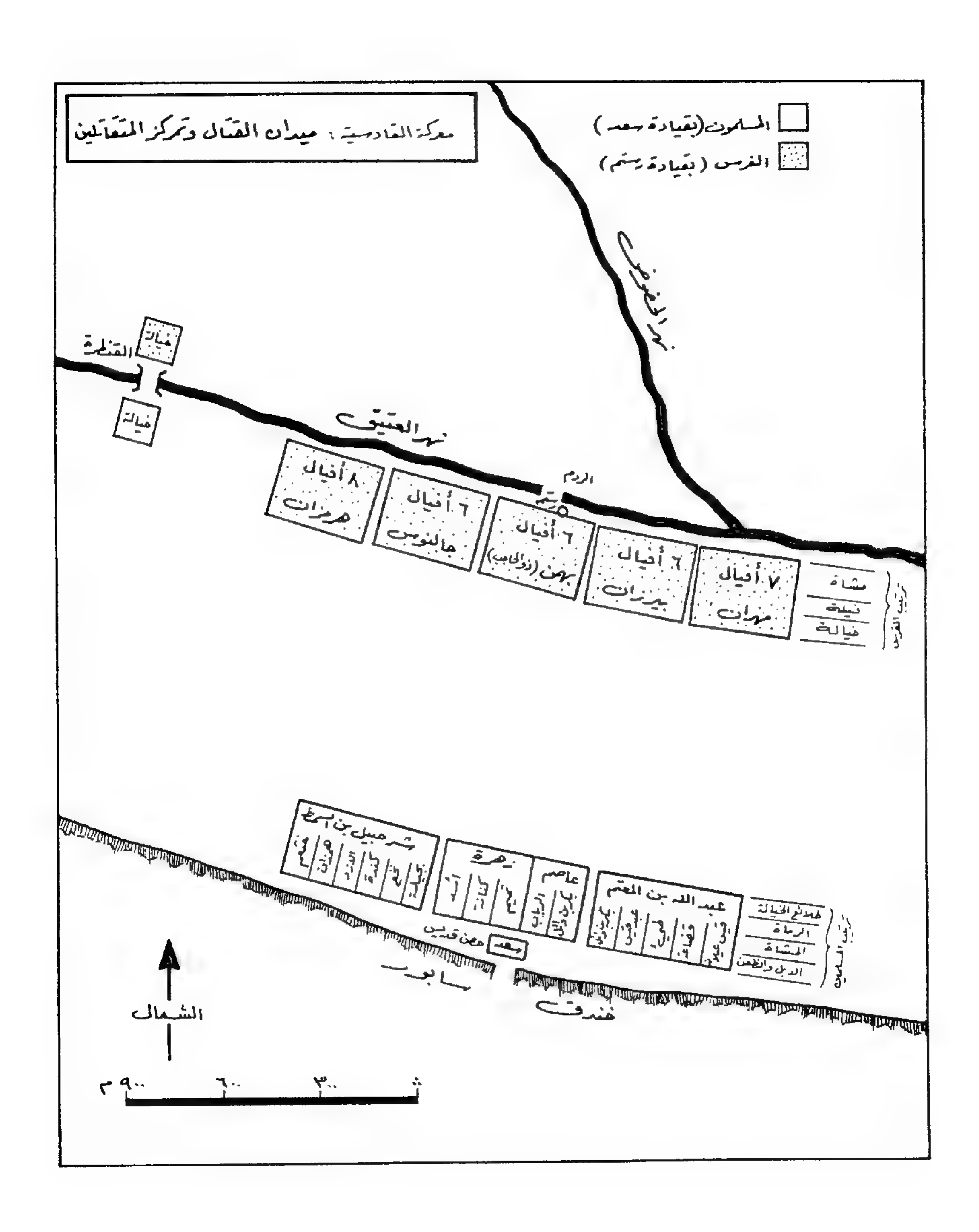
(١٠٤) المؤلف، معارك خالد، ص ١٦١، وقد قال خالد للمسلمين في هذه المعركة وقد كادوا ينهزمون أمام مسيلمة: «امتازوا أيها الناس، لنعلم بلاء كل حي، ولنعلم من أين نؤتى» فامتازت كل قبيلة عن اختها، وقاتل المهاجرون والأنصار في جهة، والاعراب في جهة أخرى.

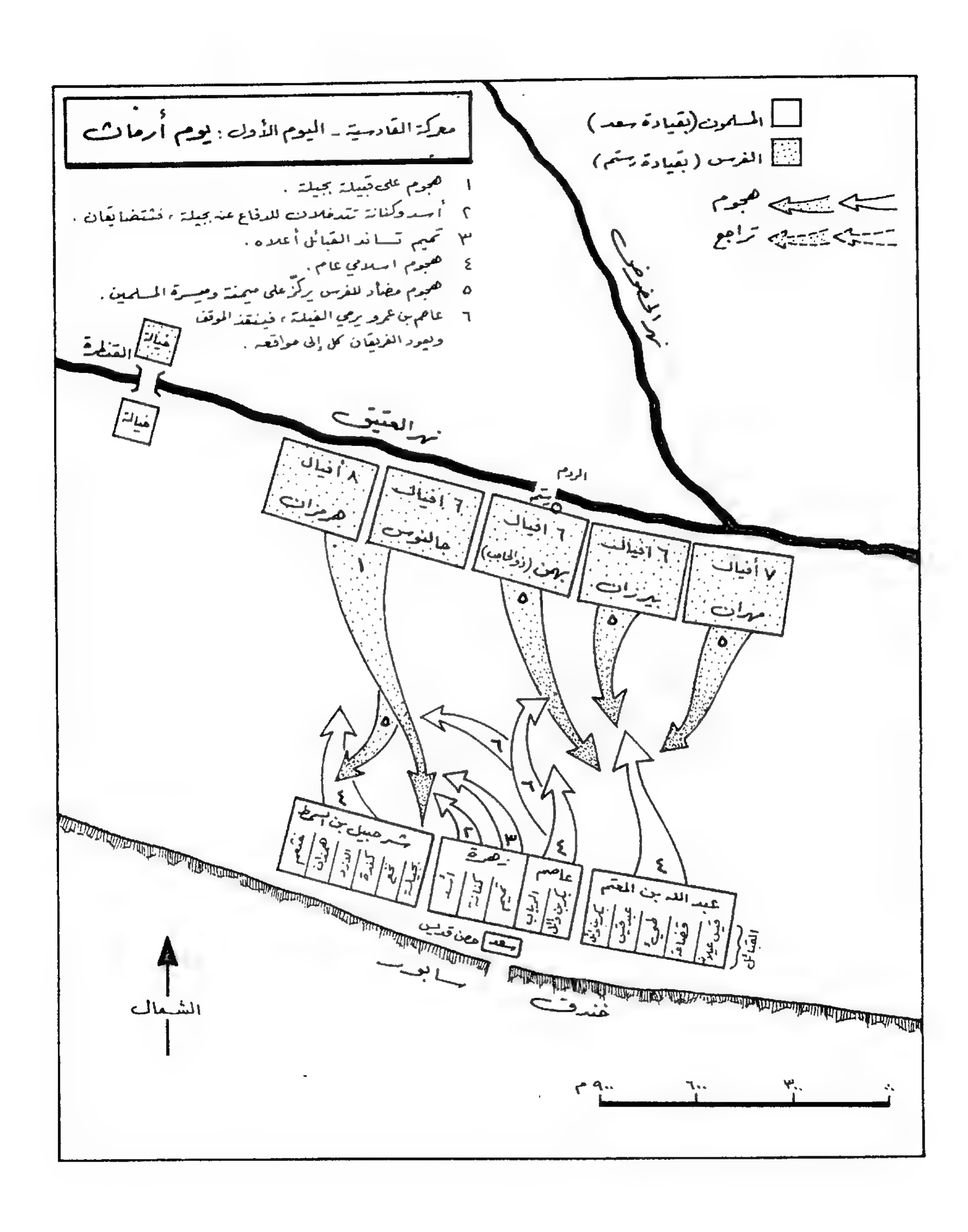
والاندفاع فيه، الأمر الذي لا نجده في تشكيلات القتال الحديثة، وربما كان مرد ذلك أن أساليب القتال في ذلك العهد، وهي الزحف بالصفوف، كانت تتطلب هذه الحماسة نظراً لأنها تقوم، في الأساس، على حمية المقاتل واندفاعه وقوته أكثر من حيلته أو من الآلة التي يستعملها في قتاله.

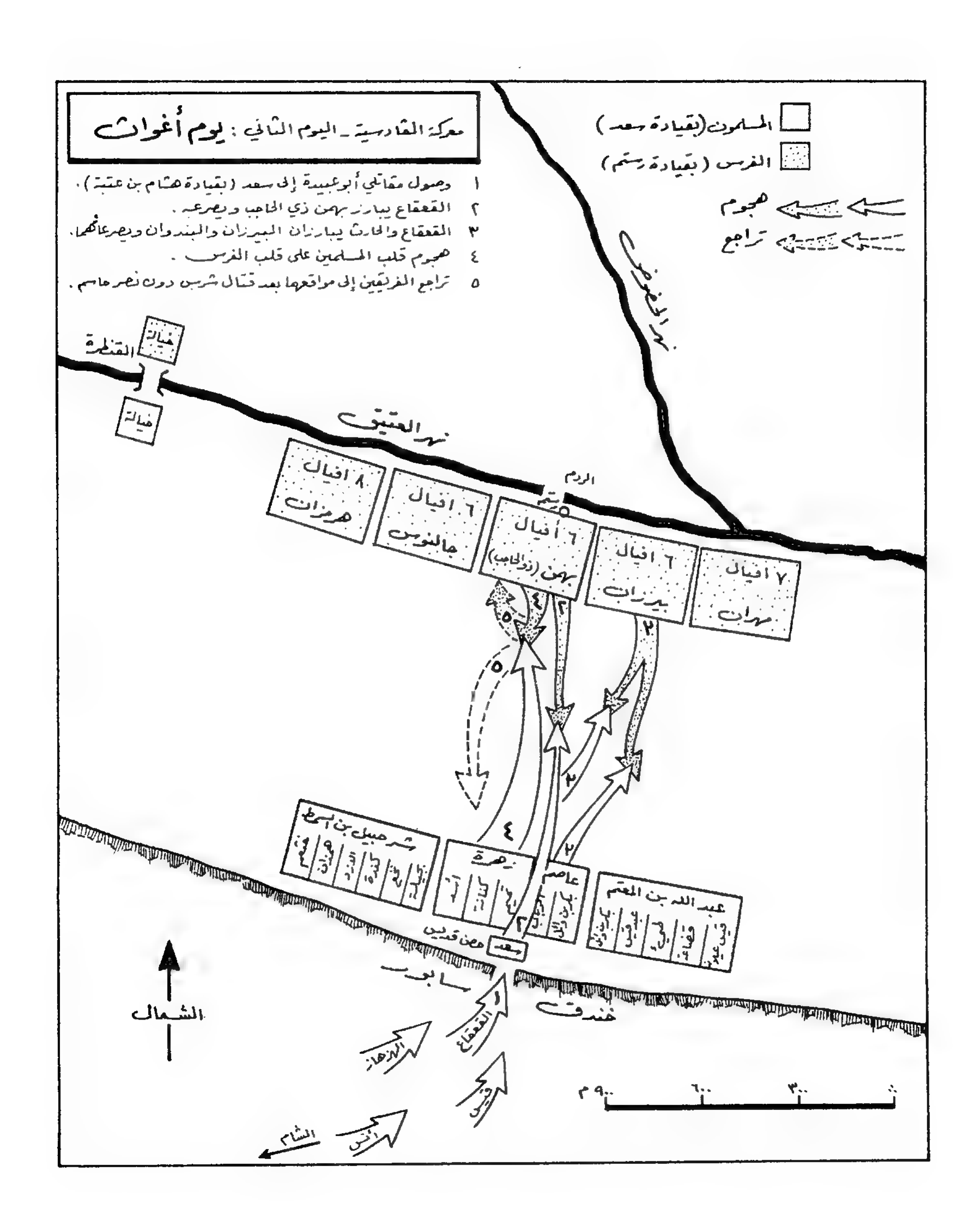

موقع معركة القادسية
شعبان ١٥هـ - ايلول ٦٣٦م
الفلوجة
بغداد
المدائن
ساباط
كوثى
كربلاء
بابل
برس
نهر دجلة
الكوفة
النجف
الجوف
الحيرة
نهر العتيق
القادسية
نهر الفرات
العذيب
خندق سابور
هور الحما
البصرة
الكاظمة
الخليج العربي
الشمال
١٠٠كلم ٥٠ ٠



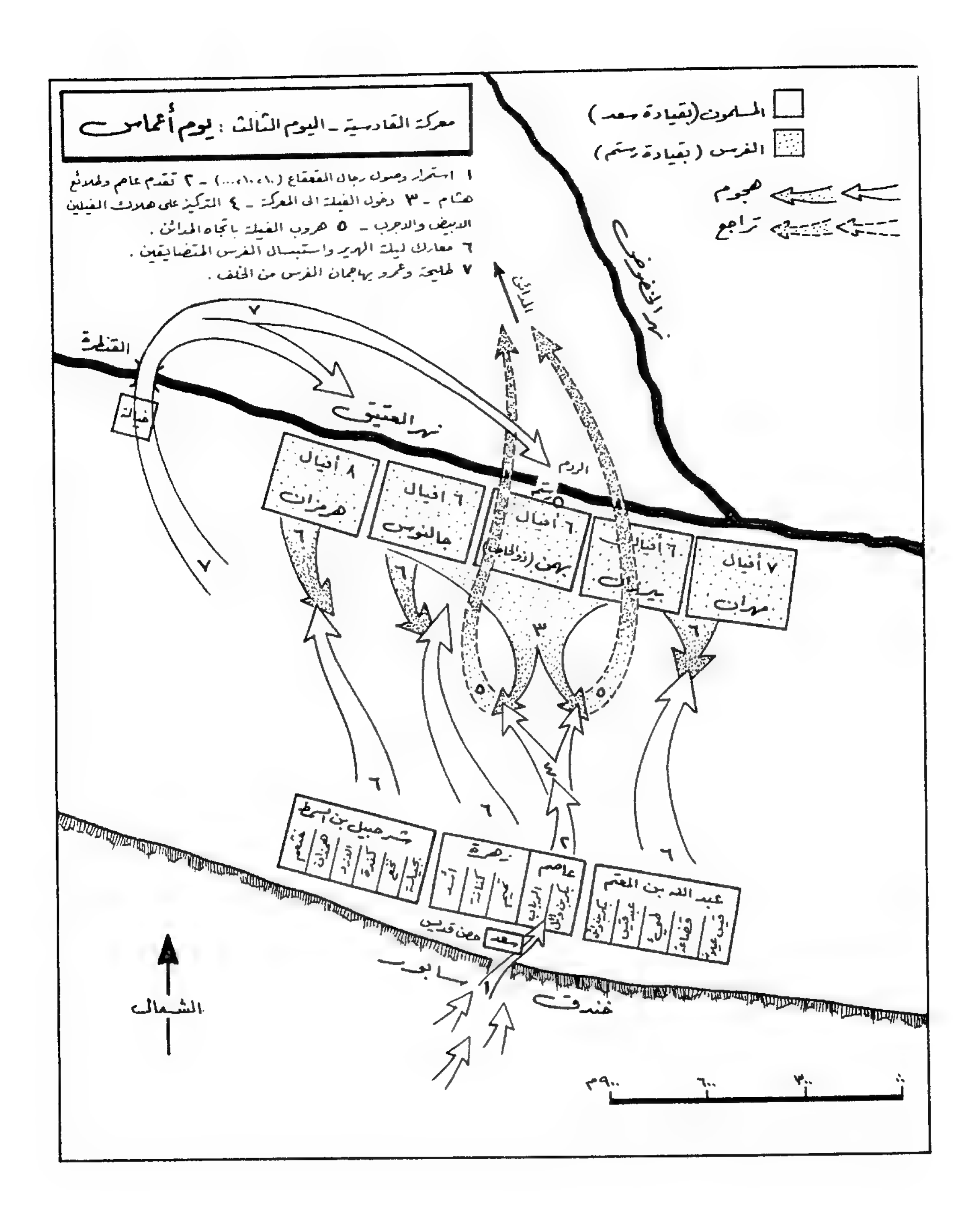
خط سير المتقاتلين
الى ميدان معركة القادسية
المسلمون
الفرس
بغداد
المدائن
الفلوجة
نهر دجلة
ساباط
كوثى
كربلاء
بابل
برس
٠ ٢٠ ٤٠ ٦٠ كلم
الشمال
الكوفة
النجف
الحيرة
السيلحين
الخرارة
القادسية
خندق سابور
نهر الفرات
العذيب
شراف
زرود ← الأعوص ← حرار


معركة القادسية : ميدان القتال وتمركز المتقاتلين
المسلمون (بقيادة سعد)
الفرس (بقيادة رستم)
القنطرة
فيالة
فيالة
نهر العتيق
الردم
رستم
٨ أفيال
هرمزان
٦ أفيال
جالينوس
٦ أفيال
بهمن (ذو الحاجب)
٦ أفيال
بيرزان
٧ أفيال
مهران
مشاة
فيلة
خيالة
ترتيب الفرس
شرحبيل بن السمط
زهرة
عاصم
عبد الله بن المعتم
طلائع الخيالة
الرماة
المشاة
الإبل والظعن
ترتيب المسلمين
حصن قديس
سعد
خندق
الشمال
٠ ٣٠٠ ٦٠٠ ٩٠٠ م

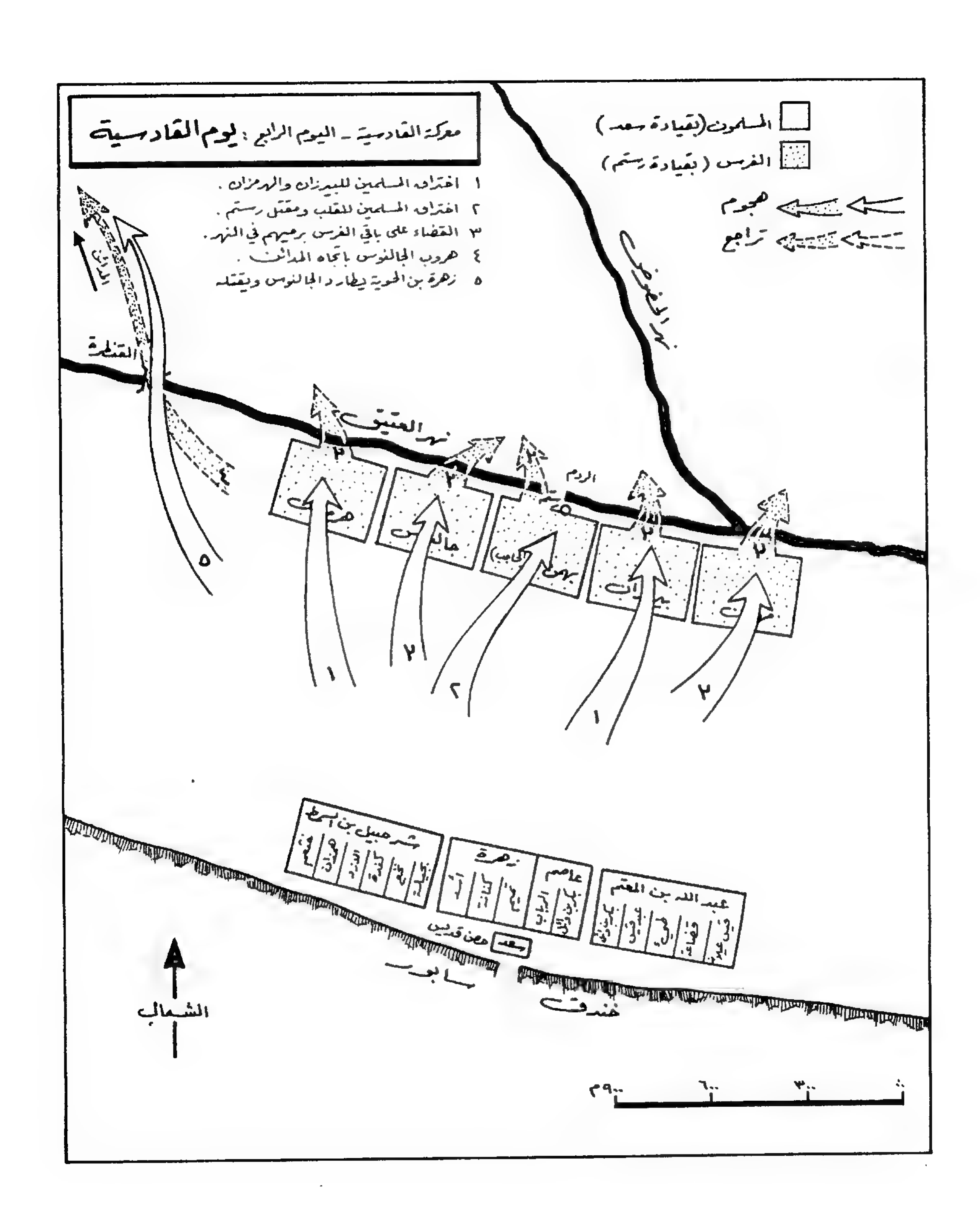

معركة القادسية ـ اليوم الأول : يوم أرماث
١ هجوم على قبيلة بجيلة .
٢ أسد وكنانة تتدخلان للدفاع عن بجيلة ، فتتضايقان .
٣ تميم تساند القبائل أعلاه .
٤ هجوم إسلامي عام .
٥ هجوم مضاد للفرس يركز على ميمنة وميسرة المسلمين .
٦ عاصم بن عمرو يرمي الفيلة ، فينقذ الموقف
ويعود الفريقان كل إلى مواقعه .
المسلمون (بقيادة سعد)
الفرس (بقيادة رستم)
هجوم
تراجع
نهر العتيق
القنطرة
خيالة
خيالة
نهر العتيق
رستم
٨ أفيال
هرمزان
٦ أفيال
جالينوس
٦ أفيال
بهمن (ذو الحاجب)
٦ أفيال
بيرزان
٧ أفيال
مهران
شرحبيل بن السمط
زهرة
عاصم
عبد الله بن المعتم
القبائل
سعد
حصن قديس
سابور
خندق
الشمال
٩٠٠ م
٦٠٠
٣٠٠
٠



معركة القادسية _ اليوم الثاني : يوم أغواث
١ وصول مقاتلي أبو عبيدة إلى سعد (بقيادة هشام بن عتبة).
٢ القعقاع يبارز بهمن ذي الحاجب ويصرعه.
٣ القعقاع والحارث يبارزان البيرزان والبندوان ويصرعانهما.
٤ هجوم قلب المسلمين على قلب الفرس.
٥ تراجع الفريقين إلى مواقعها بعد قتال شرس دون نصر حاسم.
المسلمون (بقيادة سعد)
الفرس (بقيادة رستم)
هجوم
تراجع
القنطرة
فيالة
فيالة
نهر العتيق
نهر الحضوض
الردم
رستم
٨ افيال
هرمزان
٦ افيال
جالنوس
٦ أفيال
بهمن (ذو الحاجب)
٦ افيال
بيرزان
٧ افيال
مهران
شرحبيل بن السمط
زهرة
عاصم
عبد الله بن المعتم
حصن قديس
سعد
خندق
القعقاع
الشمال
الشام
٩٠٠ م
٦٠٠
٣٠٠
٠



معركة القادسية - اليوم الثالث : يوم أغماس
المسلمون (بقيادة سعد)
الفرس (بقيادة رستم)
هجوم
تراجع
١ استمرار وصول رجال القعقاع (١٠، ١٠، ....) - ٢ تقدم عاصم وطلائع هشام - ٣ دخول الفيلة الى المعركة - ٤ التركيز على هلاك الفيلين الابيض والاجرب - ٥ هروب الفيلة باتجاه المدائن .
٦ معارك ليلة الهرير واستبسال الفرس المتضايقين .
٧ طليحة وعمرو يهاجمان الفرس من الخلف .
المدائن
القنطرة
نهر العتيق
٨ أفيال
هرمزان
٦ أفيال
جالينوس
٦ أفيال
بهمن (ذو الحاجب)
٦ أفيال
بيرزان
٧ أفيال
مهران
شرحبيل بن السمط
زهرة
عاصم
عبد الله بن المعتم
حصن قديس
سعد
خندق
الشمال
٩٠٠م ٦٠٠ ٣٠٠ ٠



معركة القادسية ـ اليوم الرابع : يوم القادسية
١ اختراق المسلمين للبيرزان والهرمزان .
٢ اختراق المسلمين للقلب ومقتل رستم .
٣ القضاء على باقي الفرس برميهم في النهر .
٤ هروب الجالنوس باتجاه المدائن .
٥ زهرة بن الحوية يطارد الجالنوس ويقتله
المسلمون (بقيادة سعد)
الفرس (بقيادة رستم)
هجوم
تراجع
القنطرة
نهر العتيق
الردم
عبد الله بن المعتم
عاصم
زهرة
شرحبيل بن السمط
حصن قديس
خندق
الشمال
٩٠٠م
٦٠٠
٣٠٠

المقالة الثالثة

نهاوند
أو
معركة العبور إلى بلاد فارس
"١٩هـ - ٦٤٠م"

نهاوند مدينة تقع في وسط السهل القائم خلف جبال زاغروس، من الجهة الشمالية الشرقية، جنوب شرقي همذان، وقد جرت فيها المعركة المسماة بآسمها بين الفرس بقياة الفيرُزان[١] والمسلمين بقيادة النعمان بن مقرّن المزني، وذلك عام ١٩هـ - ٦٤٠م[٢] وقيل عام ٢١هـ - ٦٤٢م[٣] وكانت الغلبة فيها للمسلمين. وأهمية هذه المعركة أنها أنهت، بصورة حاسمة، مقاومة الفرس للفتح الإسلامي، وفتحت أمام المسلمين أبواب فارس كلها.

١ - التعبئة والحشد:

كان المسلمون قد انتصروا على جيوش الفرس في معارك عديدة متتالية، وأضحوا يطاردون فلول تلك الجيوش دون أن يتركوا لها فرصة لالتقاط انفاسها، فمنذ انتصارهم الساحق في معركة القادسية بالعراق عام ١٥هـ - ٦٣٦م، حتى

---

(١) بضم الراء، هكذا وردت عند الطبري، وهو غير «البيرزان» بكسر الباء، الذي شهد معركة القادسية عام ١٥هـ وقتل فيها. وقد سماه ابن الأثير «الفيرزان» في كل من القادسية ونهاوند.

(٢) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، جـ ٤ : ١٣٦، وابن الأثير، الكامل في التاريخ، جـ ٣ : ٥، والبلاذري، فتوح البلدان، ص ٤٢٨.

(٣) الطبري، المصدر السابق، جـ ٤ : ١١٤، وابن الأثير، المصدر السابق، جـ ٣ : ٥، والبلاذري، المصدر السابق ص ٤٢٨. وقيل كذلك إنها كانت عام ١٨هـ، (الطبري، م. ن. ص، ن، وابن الأثير، م، ن. ص. ن) وعام ٢٠هـ (البلاذري، م. ن. ص. ن).

المعركة الحاسمة في نهاوند، مرت أربع سنوات كان المسلمون ينتقلون خلالها من نصر إلى نصر، من بابل إلى بهرسير فالمدائن فجلولاء، فتكريت فماسبذان، فقرقيسيا، فالاهواز فطاووس فتستر بإقليم خوزستان، وكانت معاقل الفرس تتساقط أمام الجيوش الفاتحة بسهولة ويسر، وكان على تلك الجيوش أن تتابع تقدمها لكي تقضي على ما تبقى من فلول جيوش الامبراطورية الهرمة، لولا أن أوامر الخليفة عمر (رضي) كانت تقضي بالتوقف أمام جبال زاغروس وعدم تجاوزها، وذلك بغية إعادة تنظيم الجيوش المنهكة من القتال المستمر، وتنظيم إدارة الأقاليم المفتوحة، وربما كانت لدى الخليفة رغبة في عدم التوغل بعيداً في بلاد فارس، فقامت بين المسلمين والفرس هدنة غير معلنة قيل إنها استمرت زهاء ثلاث سنوات[٤].

أ ـ الفرس:

أثارت الهزائم المتتالية التي ألحقها المسلمون بالفرس، بعد القادسية خاصة، حفيظتهم وحنقهم، ولم تكن كافية، على ما يبدو، للقضاء نهائياً على مقاومتهم، فكتب أمراؤهم وقادتهم إلى مليكهم (يزدجرد) وكان في (مرو)[٥] يستنهضونه للقتال من جديد، فعزم عليه، وأخذ يعد العدة للعودة إلى قتال المسلمين فيما تبقى له في بلاده من معاقل ومعتصمات، فكتب إلى أهل الجبال، من الباب إلى سجستان فخراسان، أن يتحركوا للقاء المسلمين، وواعدهم جميعاً «نهاوند»، وكان قد وقع اختياره عليها كمركز أخير للمقاومة، وكميدان للمعركة الحاسمة، فهي مدينة منيعة تحيط بها الجبال من كل جانب، ولا يمكن الوصول إليها إلا عبر مسالك وعرة وصعبة، وقد تحشَّد الفرس في هذه المدينة، واجتمع ليزدجرد فيها نحو ماية وخمسين ألف مقاتل: ثلاثون ألفاً من الباب إلى حلوان، وستون ألفاً من خراسان إلى

(٤) غلوب، الفتوحات العربية الكبرى، تعريب خيري حماد، ص ٣٨٣، هذا إذا كانت معركة نهاوند قد جرت عام ٢١هـ، فتكون هذه الهدنة قد استمرت منذ عام ١٨هـ ولغاية عام ٢١هـ، كما يبدو من أحداث هذه السنوات عند الطبري وابن الأثير، أما إذا كانت معركة نهاوند قد جرت عام ١٩هـ، وهذا هو المرجح، فنستبعد أن تكون الهدنة قد استمرت طيلة هذه المدة.

(٥) سبق أن هزم أمام المسلمين في القادسية ثم في المدائن ففر منها إلى حلوان فالري فمرو، (الطبري، م. ن. جـ ٤ : ١٢٠. وابن الأثير، م. ن. جـ ٣ : ٥).

حلوان، ومثلها من سجستان إلى حلوان، فجعل يزدجرد عليهم الفيرزان قائداً[٦].

ب ـ المسلمون:

كان سعد بن أبي وقاص في الكوفة حين علم بخبر الحشود الفارسية، فكتب إلى الخليفة عمر ينبئه بذلك ويستأمره، شارحاً له الوضع من مختلف جوانبه، فجمع عمر في المدينة أهل الرأي والمشورة من المسلمين واستشارهم في الأمر، ثم قرر بعدها إرسال جيش لقتال الفرس في معقلهم الأخير «نهاوند»، وكان النعمان بن مقرِّن المزني يومئذ عاملاً على كسكر، وكان قد كتب إلى الخليفة كتاباً يقول له فيه: «مثَلي ومثَل كسكر كمثل رجل شاب إلى جنبه مومسة تلون له وتعطر، فانشدك الله لما عزلتني عن كسكر وبعثتني إلى جيش من جيوش المسلمين»[٧]، فكتب إليه عمر يقول: «إني قد وليتك حربهم، فسر من وجهك ذلك حتى تأتي «ماه»، فإني قد كتبت إلى أهل الكوفة أن يوافوك بها، فإذا اجتمع لك جنودك فسر إلى الفيرزان ومن تجمع إليه من الأعاجم من أهل فارس وغيرهم، واستنصِروا بالله»[٨]، ثم أرسل إلى قادته وعماله في أقاليم فارس والعراق أن يتحشدوا للقاء الفرس في نهاوند، وكانت أوامر الخليفة للتعبئة على الشكل التالي:

- النعمان بن مقرِّن المزني (والي كسكر)، قائداً عاماً للجيش.
- حذيفة بن اليمان: قائداً لفرقة تعبأ من أهل الكوفة.
- أبو موسى الأشعري (والي البصرة): قائداً لفرقة تعبأ من أهل البصرة.
- عبد الله بن عمر (بن الخطاب): قائداً لفرقة تعبأ من المهاجرين والأنصار من المدينة.
- سلمى بن القين، وحرملة بن مريطة، وزر بن كليب، والأسود بن ربيعة،

---

(٦) الطبري، م. ن. جـ ٤ : ١٢٢.

(٧) الطبري، م. ن. جـ ٤ : ١٢٦، وفي رواية أخرى أن النعمان كان يومئذ بالبصرة «ومعه قواد من أهل الكوفة أمده بهم عمر عند انتقاض الهرمزان فافتتحوا رامَهُرْمُز وايذج وأعانوهم على تُسْتَر وجنديسابور والسوس، فكتب إليه عمر... إني قد وليتك حربهم...» (م. ن. ص. ن).

(٨) م. ن. ص. ن، وفي رواية أخرى أن عمر (رضي) كتب إلى النعمان يقول: «قد بلغني أن جموعاً من الأعاجم كثيرة قد جمعوا لكم بمدينة نهاوند، فإذا أتاك كتابي هذا فسر بأمر الله وبعون الله وبنصر الله بمن معك من المسلمين....» (الطبري، م. ن. جـ ٤: ١١٥).

وسواهم من قادة المسلمين في الأهواز وباقي بلاد فارس: إحتياط ومشاغلة[٩].

وكتب عمر إلى كل من حذيفة بن اليمان وأبي موسى الأشعري أن يتوجه بجيشه من مكان تجمعه (الأول من الكوفة والثاني من البصرة)، إلى «ماه» للانضمام إلى النعمان والائتمار بأمره، ثم أمر ابنه عبد الله، في المدينة، بمثل ذلك، وكتب إلى كل من سلمى بن القين وحرملة بن مريطة وزر بن كليب والمقترِب الأسود بن ربيعة «وقواد فارس الذين كانوا بين فارسْ والاهواز» أن «اشغلَوا فارس عن اخوانكم، وحوطوا بذلك امتكم وأرضكم، وأقيموا على حدود ما بين فارس والاهواز حتى يأتيكم أمري»، ثم كتب إلى النعمان يقول له: «إن حدث بك حدث فعلى الناس حذيفة بن اليمان، فإن حدث بحذيفة حدث فعلى الناس نعيم بن مقرِّن»[١٠]. فعبأ القادة جيوشهم وساروا للانضمام إلى النعمان، فخرج حذيفة بجيشه، ومعه نعيم بن مقرِّن (أخو النعمان) فلحق بالنعمان في «الطَّزر» حيث أقام فيها وجعل خيلاً من عنده «بمرج القلعة»[١١]. وكان عمر قد بعث «مجاشع بن مسعود السلمي» إلى الاهواز وأمره أن «انصُل منها إلى ماه» حيث يلاقي النعمان، فخرج مجاشع حتى إذا وصل إلى «غُضى شجر» أمره النعمان أن يقيم مكانه «فأقام بين غُضَى شجر ومرج القلعة»[١٢]، أما سلمى وحرملة وزر والمقترب فأقاموا في «تخوم إصبهان وفارس، فقطعوا بذلك عن أهل نهاوند أمداد فارس»[١٣] وقد اجتمع للنعمان جيش بلغ ثلاثين ألف مقاتل[١٤].

٢ ـ السير للقتال: (أنظر الخارطة)

أ ـ سير المسلمين للقتال: كان النعمان بكسكر عندما تلقى كتاب الخليفة

---

(٩) م. ن. جـ٤: ١١٧ ـ ١١٨ و١٢٧، وروى الطبري أن عمر كتب إلى أبوموسى الأشعري «أن سر بأهل البصرة» وكتب إلى حذيفة بن اليمان «أن سر بأهل الكوفة حتى تجتمعوا جميعاً بنهاوند» وكتب «إذا التقيتم فأميركم النعمان بن مقرن المزني» (م. ن. جـ٤: ١١٧ ـ ١١٨).

(١٠) الطبري، م. ن. جـ٤: ١٢٧.

(١١) م. ن. ص. ن.

(١٢) م. ن. ص. ن.

(١٣) م. ن. ص. ن.

(١٤) م. ن. جـ٤: ١٣٦، وابن الأثير، المصدر السابق، جـ٣: ١٠.

بتوليته على جيش المسلمين لقتال الفرس في نهاوند وأمره بالتوجه إليها عن طريق «ماه»، فانطلق، فور تلقي هذه الأوامر، نحو ماه، حيث انضم إليه حذيفة وأبو موسى بفرقتيهما، ومعهما نخبة من أبطال المسلمين وقادتهم أمثال القعقاع بن عمرو التميمي وعمرو بن معد يكرب الزبيدي وعمرو بن أبي سلمى العنزي وطليحة بن خويلد الأسدي وجرير بن عبد الله البجيلي، وبشير بن الخصاصية، وسواهم من أشراف الكوفة والبصرة، كما انضم إليه عبد الله بن عمر، ومعه المغيرة بن شعبة، بفرقة من المهاجرين والأنصار من أهل المدينة.

وصل النعمان إلى «الطزر» وكانت على «بضعة وعشرين فرسخاً» من نهاوند[١٥] فاستقر فيها، ثم أمر كلا من طليحة بن خويلد الأسدي وعمرو بن إبي سلمى العنزي وعمرو بن معد يكرب الزبيدي بالتقدم نحو نهاوند لاستكشاف العدو، فمضى الثلاثة للقيام بالمهمة، وساروا «يوماً وليلة» ثم عادوا يخبرون النعمان أنه «ليس بينه وبين نهاوند شي يكرهه، ولا أحد»[١٦]. فأمر النعمان قادته بالاستعداد للمسير، وارتحل عن الطزر إلى نهاوند وهو على تعبئة، وكانت تعبئته على الشكل التالي:

- في المقدمة: نعيم بن مقرّن المزني.
- في المجنبتين: حذيفة بن اليمان وسويد بن مقرِّن المزني.
- في الساقة: مجاشع بن مسعود السلمي (وكان متمركزاً بفرقته بين غُضَى شجر ومرج القلعة فكتب إليه أن يلتحق به).
- على الخيل: القعقاع بن عمرو التميمي[١٧].

ووصل النعمان بجيشه إلى «الاسبيذهان» قبالة «نهاوند» فوجد الفيرزان قد تحصن بجيشه، وهو على تعبئة، داخل أسوار المدينة، فأمر النعمان جيشه بالتوقف وضرب فسطاطه، وبدأ يستعد للقتال.

---

(١٥) م. ن. جـ ٤: ١٢٨.
(١٦) م. ن. ص. ن.
(١٧) م. ن. ص. ن، وابن الأثير، المصدر السابق، جـ ٣ : ١٠.

ب ـ التنظيم الدفاعي للفرس في نهاوند: كانت نهاوند مدينة حصينة، أعدها الفرس للقاء حاسم مع المسلمين فنظموا فيها ومن حولها دفاعاً متقناً، فالمدينة محاطة بسور منيع، وحول السور خندق عريض يمنع وصول المهاجمين إلى السور. وزرع الفرس، أمام الخندق وباتجاه المسلمين، نوعاً من الحسك الشائك مربع الاضلاع يثبت ضلع منه أو أكثر في الأرض وتظل الأضلع الثلاثة الباقية أو اثنان منها على الأقل فوق سطحها، لتعيق تقدم المهاجمين أو تؤذي خيالتهم بأحداث ثقوب في حوافر جيادهم مما يمنعها من متابعة الجري. أما جيش الفرس داخل سور المدينة فكان على «تعبئة» وقد انضم إليه بنهاوند «كل من غاب عن القادسية»[١٨]، وقد ركز الفيرزان رماته باتجاه محاور التقدم المحتملة للمسلمين كي يطالوا جندهم بنبالهم إذا ما حاولوا التقدم.

٣ ـ القتال: (انظر الخارطة)

أ ـ الحصار: ما أن أصبح النعمان مستعداً للقتال حتى ضرب حصاراً محكماً حول المدينة «نهاوند» مانعاً وصول أي مدد إليها، وأخذ يهاجم السور من أماكن مختلفة بفرق من جيشه، خلال يومين متتاليين، هما يوما أربعاء وخميس[١٩]، إلا أن خيله كانت تصطدم بالحسك الشائك ثم بالخندق، فلا تقوى على اجتيازهما، بينما تولى رماة الفرس اصطياد جند المسلمين الذين تمكنوا من الاقتراب من السور.

---

(١٨) الطبري، م. ن. جـ ٤ : ١٢٨. ويذكر الطبري أنه كان على مجنبتي الفيرزان في نهاوند: الزردُق وبهمن جاذويه «الذي جُعل مكان ذي الحاجب» (الطبري، م. ن. ص. ن.) إلا أنه سبق ومر معنا، عن الطبري نفسه (جـ٣ : ٥٤٣) وفي معركة القادسية، أن القعقاع دعا، في يوم أغواث، للمبارزة، فبرز إليه ذو الحاجب فسأله القعقاع: من أنت؟ فأجابه: أنا بهمن جاذويه «فنادى: يالثارات أبي عبيد وسليط وأصحاب يوم الجسر، فاجتلدا فقتله القعقاع» (م. ن. ص. ن.) ولكن ابن الأثير الذي اعتمد رواية الطبري في نهاوند (م. ن. جـ٣ : ١٠) ذكر، في روايته عن القادسية، ذا الحاجب دون أن يذكر بهمن جاذويه، إذ روى أن القعقاع صرع ذا الحاجب في المبارزة دون أن يأتي على ذكر بهمن جاذويه، إذ قال: «فخرج إليه ذو الحاجب، فعرفه القعقاع فنادى: يالثارات أبي عبيد وسليط وأصحاب الجسر، وتضاربا، فقتله القعقاع» (ابن الأثير، المصدر السابق، جـ٢ : ٤٧٤)، ولكن ابن الأثير عودنا أن ينقل عن الطبري، رواياته، باختصار.

(١٩) الطبري، م. ن. جـ ٤ : ١٢٩ وابن الأثير، م. ن. جـ٣ : ١١، إلا أن المؤرخين لم يحددا أي اربعاء وأي خميس من أي شهر، وإن قال الطبري: «في سبع سنين من إمارة عمر في سنة تسع عشرة» (م. ن. ص. ن).

وظلت الحرب سجالاً بين الفرس والمسلمين خلال هذين اليومين، بحيث لم يستطع المسلمون التقدم نحو أسوار المدينة، بينما انحجر الفرس في خنادقهم «لا يخرجون إلا إذا أرادوا الخروج»[٢٠]. ورأى النعمان، بعد يومين من القتال المكلف دون جدوى، أن لا أمل له في اختراق دفاع الفرس إلا بوسيلة لا بد من ابتكارها، فاستمرار الحصار مرهق للمسلمين وغير مجد طالما أن الفرس متحصنون داخل حصون منيعة تزخر بالأرزاق والمؤن، مما يسهل لهم البقاء ضمن هذه الحصون لمدة طويلة دون حاجة لأي مدد من الخارج، ودون أن يستطيع المسلمون إخراجهم ولا إحراجهم، فقرر جمع أركانه للتشاور واتخاذ القرار المناسب بهذا الشأن[٢١].

وفي اليوم الثالث من القتال، وهو يوم جمعة، التأم أركان الجيش الإسلامي وتدارسوا الوضع مع قائدهم، وخرجوا، بنتيجة الاجتماع، بالخطة التالية:

ب ـ المناورة التضليلية الإسلامية:

كانت الخطة التي تبناها النعمان أكثر الخطط براعة وذكاء، وقد اقترحها طليحة بن خويلد الأسدي الذي قال له: «أرى أن تبعث خيلاً مؤدية فيحدقوا بهم ثم يرموا لينشبوا القتال ويحمِشوهم، فإذا استحمَشوا واختلطوا بهم وأرادوا الخروج أرزوا إلينا استطراداً، فإنا لم نستطرد لهم في طول ما قاتلناهم، وإنا إذا فعلنا ذلك ورأوا ذلك منا طمعوا في هزيمتنا ولم يشكّوا فيها، فخرجوا فجادّونا وجاددناهم، حتى يقضي الله فيهم وفينا ما أحب»[٢٢]. فأقر الجميع خطة طليحة واتُفق على تنفيذها كما يلي:

ـ تخرج خيول المسلمين فتنشب القتال مع الفرس، وتستفزهم حتى تخرجهم من أسوارهم.

ـ إذا خرجوا، تقهقرت خيول المسلمين أمامهم، فيعتقدون تراجعها ضعفاً ويطمعون بالنصر، فليحقوا بها وهي تجري أمامهم.

---

(٢٠) الطبري، م. ن. ص. ن.

(٢١) م. ن. ص. ن.

(٢٢) م. ن. جـ ٤: ١٣٠. و: أَرِز: إنقبض وتجمّع وثبت (محيط المحيط).

ـ تستدرج خيول المسلمين، المتظاهرة بالهزيمة، الفرس إلى خارج أسوارهم ومواقعهم.

ـ يفاجىء المسلمون الذين يكونون قد كمنوا في أماكن محددة ومموهة، الفرس المتدفقين خلف خيول المسلمين، ويطبقون عليهم وهم بعيدون عن مراكزهم وخنادقهم وأسوارهم[٢٣].

ولتنفيذ هذه الخطة، وزع النعمان قواته فرقاً على الشكل التالي:

ـ **الفرقة الأولى**: خيالة، بقيادة القعقاع بن عمرو، ومهمتها تنفيذ عملية التضليل وفقاً للخطة المرسومة آنِفاً، واقتحام أسوار العدو والاشتباك معه.

ـ **الفرقة الثانية**: مشاة، بقيادته هو، ومهمتها التمركز في مواقع ثابتة ومموهة بانتظار وصول الفرس إليها حيث تنشب القتال معها في معركة جبهية.

ـ **الفرقة الثالثة**: خيالة، وهي القوة الضاربة في الجيش، ومهمتها التمركز في مواقع ثابتة ومموهة، ثم الهجوم على قوات العدو من الجانبين.

وأمر النعمان المسلمين، في كمائنهم «أن يلزموا الأرض ولا يقاتلوهم حتى يأذن لهم»[٢٤] ففعل المسلمون ذلك منتظرين إشارة القائد العام لبدء الهجوم.

ج ـ **المعركة**:

ـ انبرىِ القعقاع، مع فرقته، للقتال، فاقتحم اسوار المدينة، مخترقاً حواجز الحسك الشائك، ورمى الفرس الذين على الأسوار بالنبل، فاستفزهم وانبروا لقتاله.

ـ ما أن اشتد القتال حتى بدأ القعقاع بالانكفاء والتراجع متظاهراً بالانهزام تحت وطأة الفرس وضغطهم.

ـ ما أن رأى الفرس القعقاع وخيالته منهزمين حتى خرجوا من خلف

(٢٣) الطبري، م. ن. جـ ٤ : ١٣٠ ـ ١٣١، وابن الأثير، المصدر السابق، جـ ٣ : ١١ ـ ١٢.
(٢٤) الطبري، م. ن. جـ ٤ : ١٣٠.

أسوارهم وتحصيناتهم طمعاً في مطاردته والنيل منه «فأخرجهم من خنادقهم كأنهم جبال حديد قد تواثقوا أن لا يفروا، وقد قرن بعضهم بعضاً كل سبعة في قران، وألقوا حسك الحديد خلفهم لئلا ينهزموا»[25].

ـ رأى القعقاع الفرس يخرجون لمطاردته وقد تخلوا عن معاقلهم وحصونهم وخنادقهم، فتوغل في التراجع وتوغلوا في مطاردته، طامعين في انتصار سهل على المسلمين لم يسبق لهم أن تذوقوا طعمه أبداً، وخرج كل من كان من الفرس داخل السور يتبعون المسلمين «المنهزمين» حتى «لم يبق أحد إلا من يقوم لهم على الأبواب»[26] فانقطع الفرس عن حصونهم وخنادقهم وهم جادون في أثر القعقاع وخيالته.

ـ وكانت مفاجأة الفرس مذهلة عندما وجدوا أنفسهم، في آخر المطاف، محاصرين جبهياً ومن الجانبين، من قبل المسلمين الذين عرفوا كيف يتقنون استعمال عنصري الأرض والمباغتة، فأسقط في أيدي الفرس واكتشفوا، ولكن بعد فوات الأوان، المناورة البارعة التي قام المسلمون بها، وعملية التضليل التي جرّتهم إلى خارج أسوارهم، إلا أنه لم يعد لديهم أي خيار سوى الارتداد، قتالاً أو فراراً، إلى حصونهم. لقد ربح المسلمون الجولة الأولى من المعركة بأن استطاعوا إخراج عدوهم من معاقله ليقاتلوه في المواقع التي اختاروها هم أنفسهم، ولم يبق للمسلمين، لكي يبدأوا الهجوم العام، سوى إشارة القائد.

ـ في هذه الحالة، لم يعد للفرس مناص من القتال، فاستعدوا له مكرهين، وبدأوا يستفزون المسلمين الذين استمروا في هدوئهم متقيدين بأوامر القائد العام، وقد استتروا من الرمي «بالجَحَف» (مفردها جَحفة، وهي الترس من جلد بلا خشب)، ولكن الفرس أثخنوهم بالجراح، وأوامر القائد العام لم تصدر بعد إيذاناً بالرد أو ببدء الهجوم، وكانت الشمس قد أصبحت في كبد السماء، وأخذ المسلمون يلحون على النعمان طالبين الإيذان بالهجوم ولكن النعمان ظل هادئاً ومتريثاً.

---

(٢٥) ابن الأثير، المصدر السابق، جـ٣ : ١٢.

(٢٦) الطبري، المصدر السابق، جـ٤ : ١٣٠ وابن الأثير، م. ن. جـ٣ : ١٢.

ـ وما أن مالت الشمس نحو المغيب حتى بدأ النعمان يطوف على صفوف المقاتلين ويعطيهم التعليمات اللازمة لبدء الهجوم قائلاً: «إني مكبر ثلاثاً. فإذا كبرت التكبيرة الأولى فليتهيأ من لم يكن تهيأ، فإذا كبرت الثانية فليشد عليه سلاحه وليتأهب للنهوض، فإذا كبرت الثالثة فإني حامل إن شاء الله فاحملوا معاً»[٢٧]، وفي رواية أخرى أنه قال: «إني هاز لوائي فتيسروا للسلاح، ثم هاز الثانية فكونوا متأهبين لقتال عدوكم، فإذا هززت الثالثة فليحمل كل قوم على من يليهم من عدوهم»[٢٨]. ويروي الطبري أن النعمان كان ينتظر لبدء الهجوم «إكمال ساعات كانت أحب إلى رسول الله ﷺ في القتال أن يلقى فيها العدو وذلك عند الزوال وتفيؤ الأفياء ومهب الرياح»[٢٩]، وقد روى ابن الأثير مثل ذلك[٣٠].

ـ إبتدأ المسلمون الهجوم العام عند صدور الإشارة عن القائد العام، فانطلقوا يقاتلون الفرس قتالاً «لم يسمع السامعون بوقعة يوم قط كانت أشد (قتالاً) منها»[٣١]. إقتتلوا بالسيوف «فما كان يسمع إلا وقع الحديد»[٣٢] وقتل المسلمون من الفرس «ما بين الزوال والإعتام، ما طبّق أرض المعركة دماً يزلق الناس والدواب فيه»[٣٣].

ـ وبينما كان النعمان يتجول بين الصفوف، ممتطياً جواده، يحث المسلمين على القتال، وقد حمل راية الجيش، زلق به جواده فسقط عنه «في الدماء» فصرع[٣٤] وقيل «بل رمي بسهم في خاصرته فقتله»[٣٥]. فتقدم منه أخوه «نعيم بن مقرّن»[٣٦]

(٢٧) الطبري، م. ن. جـ ٤ : ١٣١ ـ ١٣٢، وابن الأثير، م. ن، جـ٣ : ١٢.
(٢٨) الطبري، م. ن. جـ ٤ : ١١٩.
(٢٩) م. ن. جـ ٤ : ١٣١.
(٣٠) ابن الأثير، المصدر السابق، جـ٣ : ١٢.
(٣١) الطبري، المصدر السابق، جـ ٤ : ١٣٢ وابن الأثير، المصدر السابق، جـ٣ : ١٢ ـ ١٣.
(٣٢) ابن الأثير، م. ن. جـ٣ : ١٣.
(٣٣) الطبري، م. ن. جـ ٤ : ١٣٢، وابن الأثير، م. ن. ص ١٣.
(٣٤) الطبري، م. ن. ص. ن، وابن الأثير، م. ن. ص. ن.
(٣٥) ابن الأثير، م. ن. ص. ن.
(٣٦) الطبري، م. ن. ص. ن. وابن الأثير، م. ن. ص. ن.

فسجاه وأخذ الراية وناولها حذيفة[٣٧]، وكـان الخليفة قـد عيَّنه ليخلف النعـمان إن حدث له حدث في أثناء القتال. وكتم خبر استشهاد القائد العام عن المسلمين كي لا يذعروا فتتفرق صفوفهم، واقترب حذيفة من جثة النعمان فزرع الراية إلى جانبها ثم تابع القتال.

ـ استمر القتال من غروب الشمس إلى حلول الظلام، وما أن بدأ الظلام يشتد حتى بدأت مقاومة الفرس تنهار وتتلاشى، فأخذوا يتقهقرن نحو حصونهم والمسلمون، في أثرهم، يطاردونهم، ولا يتركون لهم فرصة لالتقاط أنفاسهم أو إعادة تنظيم صفوفهم أو أخذ المبادرة في هجوم معاكس، ووصل الفرس إلى حيث كانوا قد زرعوا الحسك الشائك ليُسقطوا به عدوهم فأخذوا يتساقطون هم به، خيالتهم ومشاتهم، في ظلام الليل، وقبل أن يتسنى لهم رفع هذه الحواجز. وكان جند المسلمين يرهقونهم من خلفهم دون أن يدعوا لهم فرصة انتزاعها، فصار الفرس، إذا حاولوا الإنحراف عنها سقطوا جماعة إثر جماعة، خيالة ومشاة، مسلسلين وغير مسلسلين، في الخندق المحفور خلف هذه الحواجز، فكان إذا سقط واحد من السبعة المسلسلين في الخندق تبعه الستة الباقون فسقطوا إثره[٣٨].

ـ استمرت هزيمة الفرس وتساقطهم في الخندق وعلى الحسك الشائك طيلة الليل، واستمر المسلمون يطاردونهم ويعملون سيوفهم في ظهورهم واقفيتهم، حتى سقط من الفرس في الخندق، حسب روايات المؤرخين، نحو «مابة ألف أو يزيدون، سوى من قتل في المعركة»[٣٩] وقيل: «قتل في اللِّهْب ممن هوى فيه ثمانون ألفاً وفي المعركة ثلاثون ألفاً مقـترنين سـوى من قتـل في الـطلب»[٤٠]، ولم يفلت إلا الشريد. وفر الفيرزان نحو همذان فتبعه القعقاع بن عمرو حتى أدركه عند ثنية

---

(٣٧) الطبري، م. ن. ص. ن. وابن الأثير، م. ن. ص. ن. وقيل «سويد بن مقرن» (الطبري، م. ن. ص ١٢٦).

(٣٨) يذكر الطبري أن الفرس أخذوا يتراكضون نحو «اللِّهْب الذي كانوا نزلوا دونه باسبيذهان فوقعوا فيه وجعلوا لا يهوي منهم واحد إلا قال: وايه خُرد، فسمي بذلك «وايه خرد» إلى اليوم» (الطبري، م. ن. ص ١٣٢) والمرجح أن المقصود «باللهب» الخندق الذي أخذ الفرس يتساقطون فيه.

(٣٩) الطبري، م. ن. جـ ٤ : ١٣٢، وابن الأثير، م. ن. جـ ٣ : ١٣.

(٤٠) الطبري، م. ن. جـ ٤ : ١٣٦، وابن الأثير، م. ن. جـ ٣ : ١٣.

همذان، ويقال إن الفيرزان حشرته، في الطريق وهو هارب عند الثنية، بغال وحمير محملة عسلاً، فما استطاع الإفلات، فلحقه القعقاع وقضى عليه، وقال المسلمون بعدها: «إن لله جنوداً من عسل» وسميت ثنية همذان منذ ذلك الحين «ثنية العسل»[41]. ودخل المسلمون، بعد هذه المعركة، نهاوند، ثم همذان، ثم انطلقوا بعد ذلك يستكملون فتح ما تبقى من بلاد فارس دون مقاومة تذكر، ولم يكن للفرس، بعد نهاوند، اجتماع، «وملك المسلمون بلادهم» لذا سميت معركة نهاوند «بفتح الفتوح»[42]. ولم نجد فيما رجعنا إليه من كتب للمؤرخين القدامى (وخاصة الطبري والبلاذري وابن الأثير) ذكراً لعدد شهداء المسلمين في هذه المعركة.

الدروس المستخلصة
من
معركة نهاوند

١ ـ التحشد ومنع العدو من التحشد:

لم يكتف الخليفة عمر (رضي) بأن أمر عماله في الكوفة والبصرة، والمسلمين في الجزيرة، بالتحشد لقتال الفرس، بل أمر قادته في الأهواز وباقي بلاد فارس أن يمنعوا العدو من التحشد، فكلف سلمى بن القين وحرملة بن مريطة وزر بن كليب والأسود بن ربيعة وسواهم أن «يقيموا على حدود ما بين فارس والاهواز» وأن يمنعوا الفرس من الانضمام إلى الجيش المتحشد في نهاوند، وهكذا فقد أقام هؤلاء القادة «في تخوم اصبهان وفارس» وقطعوا الامداد عن نهاوند.

٢ ـ تعيين القادة البدائل:

وكما فعل النبي ﷺ يوم مؤتة (٨هـ/٦٢٩م) عندما أمَّر على المسلمين «زيد بن حارثة» فإن أصيب «فجعفر بن أبي طالب على الناس، فإن أصيب جعفر

---

(٤١) الطبري، م. ن. جـ٤: ١٣٣، وابن الأثير، م. ن. جـ٣: ١٣ ـ ١٤.
(٤٢) ابن الأثير، م. ن. جـ٣: ١٦.

فعبد الله بن رواحة على الناس»[43] كذلك فعل الخليفة عمر (رضي)، يوم نهاوند، عندما أمَّر النعمان على المسلمين، فإن حدث بالنعمان حدث «فعلى الناس حذيفة بن اليمان، فإن)حدث بحذيفة حدث فعلى الناس نعيم بن مقرِّن».

٣ ـ الاستطلاع قبل السير للقتال:

كلف النعمان، قبل السير بجيشه نحو نهاوند، وكان على بعد «بضعة وعشرين فرسخاً» منها، كلاً من طليحة بن خويلد الأسدي وعمرو بن أبي سلمى العنزي وعمرو بن معد يكرب الزبيدي بالتقدم نحوها واستطلاع الطريق الموصلة إليها ومعرفة ما إذا كان من عدو بينه وبينها، فسار الثلاثة مقدار يوم وليلة ثم عادوا ليبلغوا القائد العام أن «ليس بينه وبين نهاوند شيء يكرهه، ولا أحد»، فكانت هذه البعثة أشبه بما يعرف، في عصرنا الحاضر، بالطليعة «أو المفرزة المتقدمة» (Détachement Précurseur) التي تسبق أي جيش لاستطلاع الطريق له قبل تقدمه. ومع ذلك فقد أخذ القائد العام كل الاحتياطات اللازمة عند تحركه بجيشه، فسار «على تعبئة» كما يفترض أن يسير.

٤ ـ عملية التضليل:

وكانت «عملية التضليل» التي نفذها المسلمون في نهاوند من أروع المناورات العسكرية التي يمكن أن ينفذها جيش في التاريخ القديم والحديث، فعندما عجز المسلمون عن اقتحام أسوار المدينة المحصنة والمحمية بالخندق المحيط بها وبالحسك الشائك وبالرماة المهرة، وقدروا أن الحصار سوف يستمر طويلاً، دون جدوى، طالما أن لدى الفرس المحاصرين داخل أسوار المدينة من الذخائر والمؤن ما يكفيهم للمقاومة مدة طويلة، رأوا أن يعمدوا إلى الحيلة في استدراج العدو وإخراجه من «جحوره» ومواقعه، لكي يقاتلوه خارج تلك الأسوار، فيكونوا قد فرضوا عليه ميدان القتال الذي اختاروه بانفسهم، وقد تم ما قدره المسلمون تماماً، فاستُدرج العدو إلى مواقع حددها المسلمون للقتال، حيث كمنوا له، ثم

---

(٤٣) ابن هشام، سيرة النبي، جـ٣ : ٣٢٢، والبخاري، صحيحه، جـ٥ : ١٨٢.

نازلوه في تلك المواقع، جبهياً ومن كل جانب، ففوجىء ثم ذعر فاسقط في يده وانهزم، وليس هناك من حيلة أخرى يمكن أن يلجأ إليها أي خصم لإحراج خصمه وإخراجه والتغلب عليه، أفضل من هذه الحيلة.

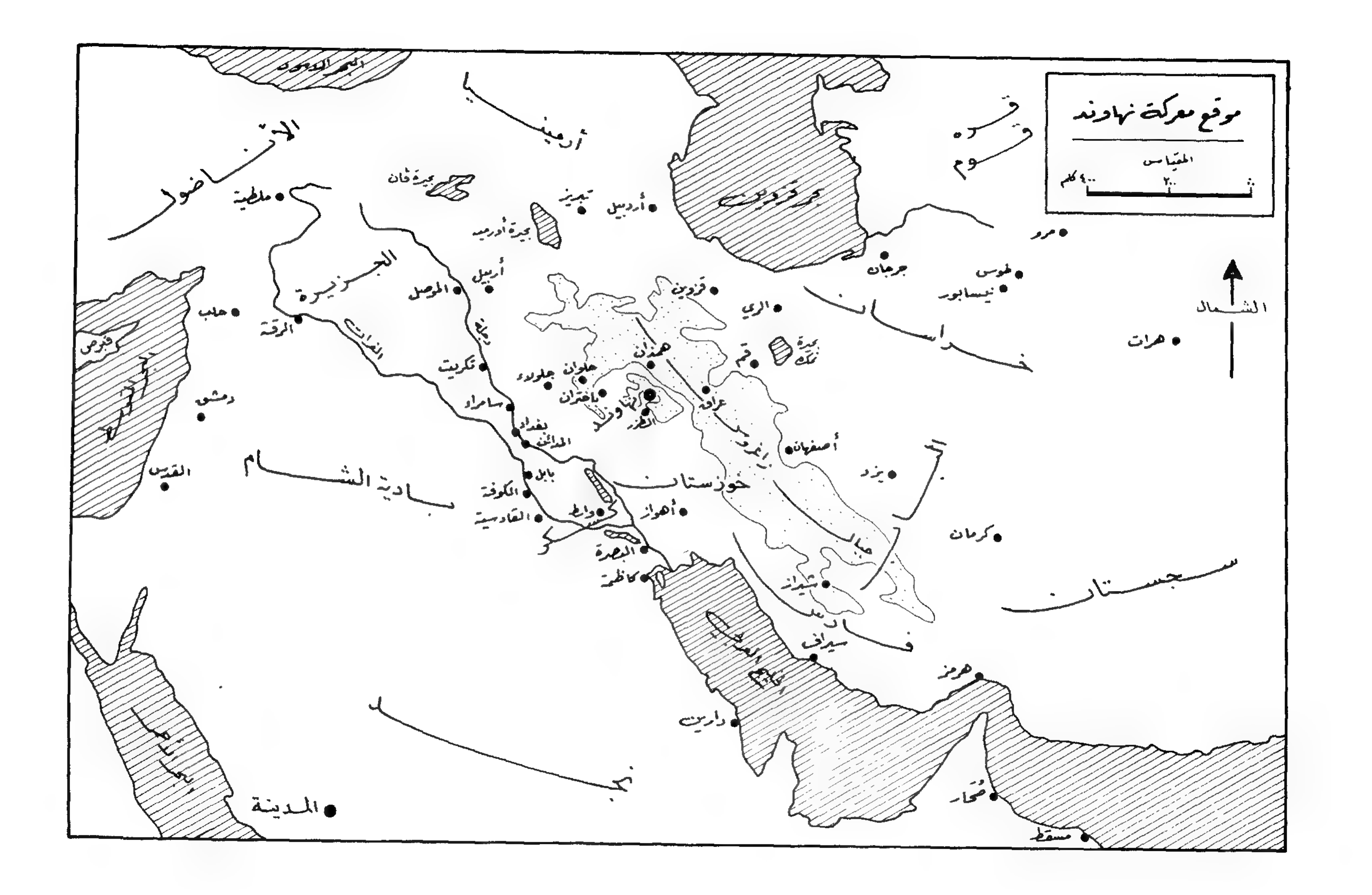
٥ ـ اختيار ساعة الهجوم:

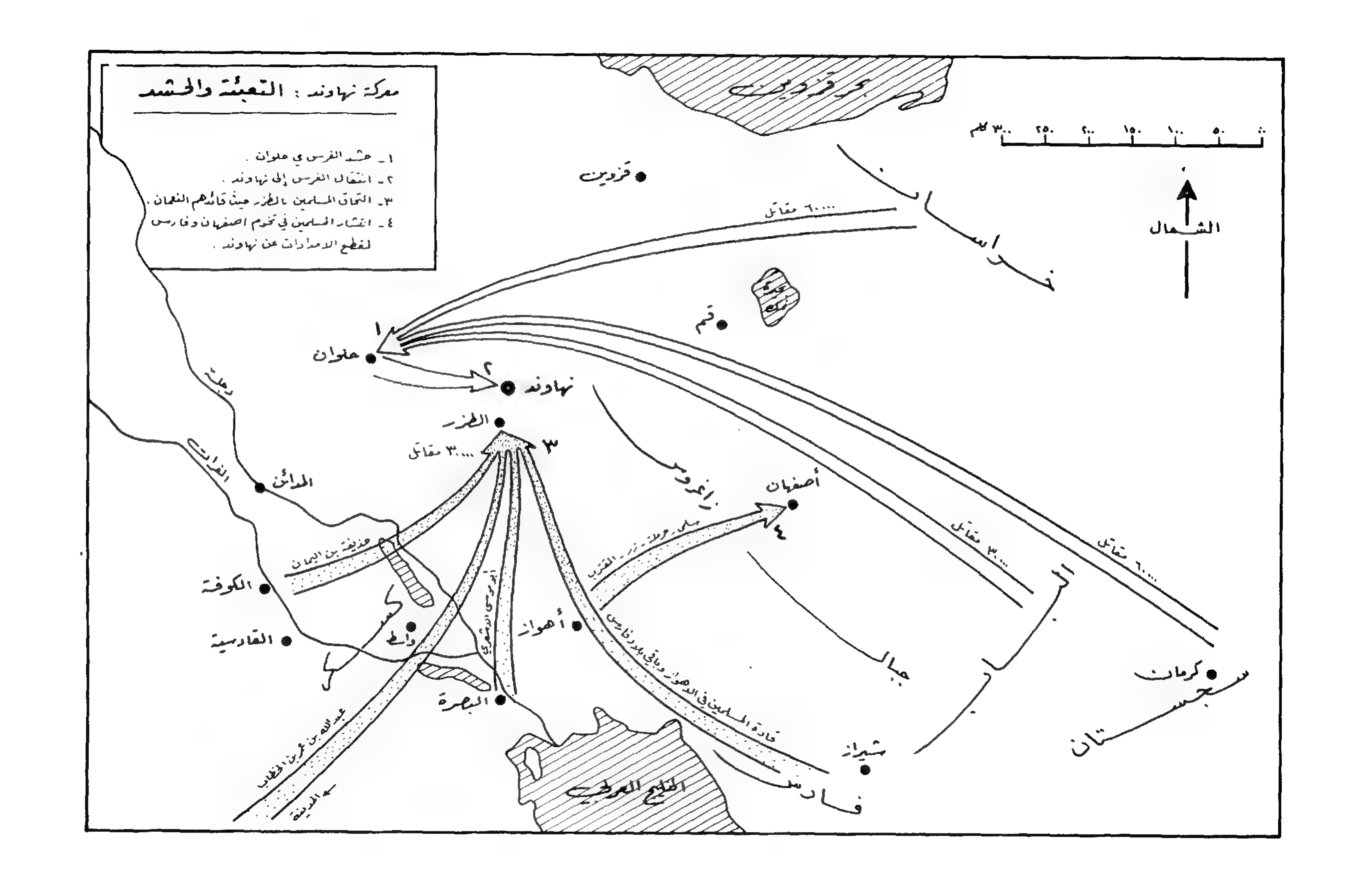
ومن ميزات هذه المعركة ما شهدناه من اتقان «اختيار ساعة الهجوم» الذي نفذه النعمان في ساعات كانت «أحب إلى رسول الله ﷺ في القتال أن يلقى فيها العدو، وذلك، عند الزوال وتفيؤ الأفياء وهبوب الرياح» وإذا كنا نعلم أن «ساعات الفجر الأولى» هي الساعات المفضلة للهجوم في التكتيك العسكري الحديث، فإننا نجد مبرر اختيار النعمان لساعات الزوال في معارك كثيرة، قديمة ومعاصرة، فقد قالت العجم: «أخرِّ الحرب ما استطعت، فإن لم تجد بداً فاجعل ذلك آخر النهار»(٤٤). ولا نستطيع إلا أن نذكر أن ساعة الصفر لبدء الهجوم في حرب تشرين العربية ـ الإسرائيلية عام ١٩٧٣، كانت الساعة الثانية والدقيقة الخامسة عشرة (بتوقيت الشرق الأوسط) من بعد ظهر يوم السبت الواقع في ٦ تشرين الأول من العام المذكور، وذلك للجيش العربي المصري(٤٥) ثم للجيش العربي السوري. ولا شك في أن لهذا التوقيت حسابات يدخل فيها: موقع الشمس من كبد السماء، وانحسار الظل أو ميله، وهبوب الرياح.

---

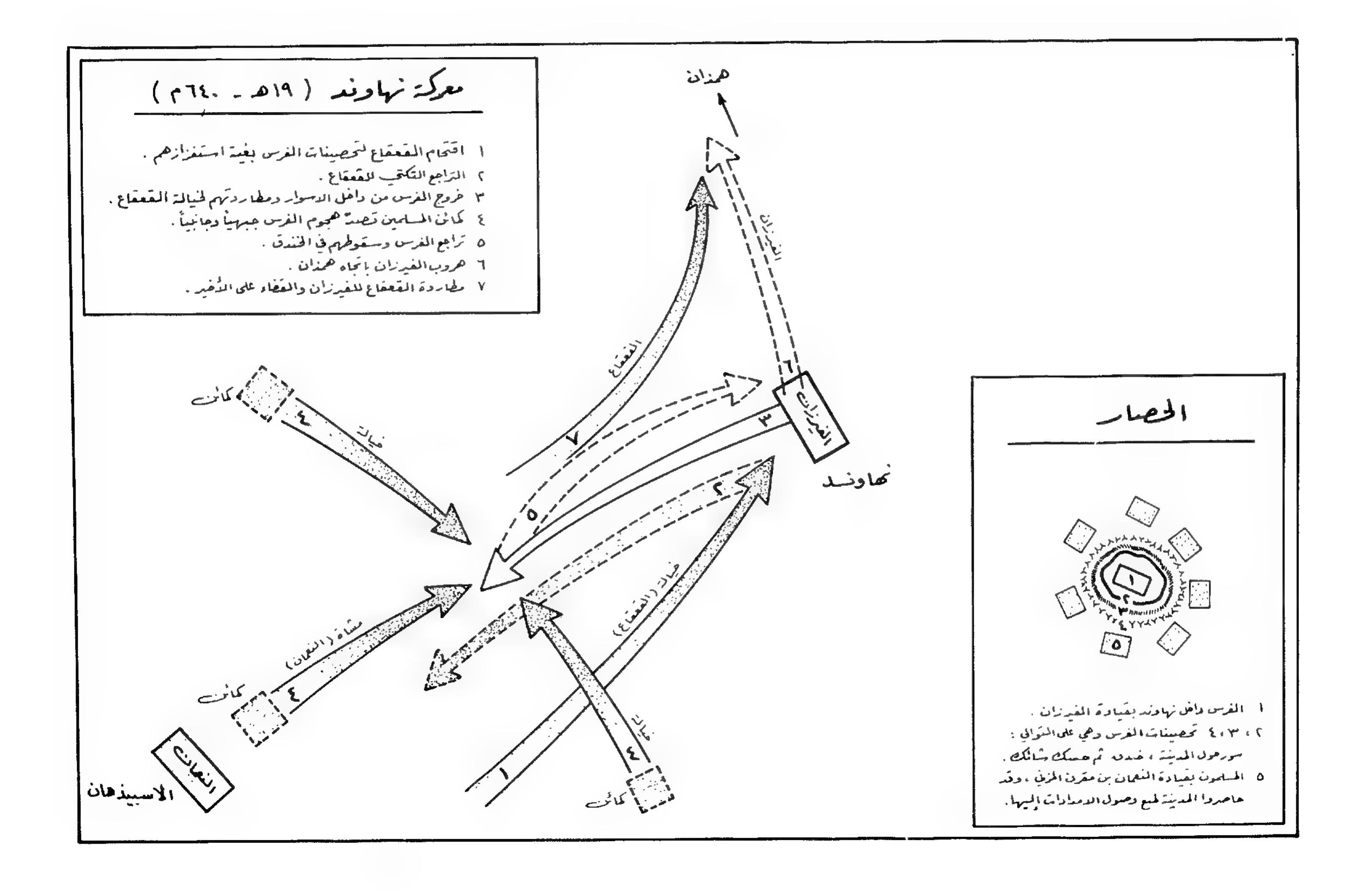
(٤٤) الدينوري، عيون الأخبار، المجلد الأول ص ٢٢.

(٤٥) نقلاً عن راديو القاهرة الذي أذاع ذلك في اليوم نفسه.


موقع معركة نهاوند
المقياس
٤٠٠ كلم
الشمال
بحر قزوين
أرمينيا
الأناضول
الجزيرة
الفرات
دجلة
خراسان
خوزستان
بادية الشام
سجستان
فارس
جبال
ملطية
حلب
الرقة
دمشق
القدس
المدينة
الموصل
تكريت
سامراء
بغداد
المدائن
بابل
الكوفة
القادسية
واسط
البصرة
كاظمة
أهواز
أربيل
تبريز
أردبيل
قزوين
الري
قم
همذان
نهاوند
حلوان
جلولاء
أصفهان
يزد
كرمان
شيراز
سيراف
هرمز
دارين
صحار
مسقط
جرجان
طوس
نيسابور
مرو
هراة



معركة نهاوند : التعبئة والحشد
١ـ حشد الفرس في حلوان .
٢ـ انتقال الفرس إلى نهاوند .
٣ـ التحاق المسلمين بالطزر حيث قائدهم النعمان .
٤ـ انتشار المسلمين في تخوم اصفهان وفارس لقطع الامدادات عن نهاوند .
بحر قزوين
قزوين
قم
خراسان
الشمال
٦٠٠٠٠ مقاتل
٣٠٠٠٠ مقاتل
حلوان
نهاوند
الطزر
أصفهان
زاغروس
جبال
البرز
كرمان
سجستان
شيراز
فارس
المدائن
الكوفة
القادسية
واسط
البصرة
أهواز
دجلة
الفرات
الخليج العربي



معركة نهاوند (١٩هـ - ٦٤٠م)
١ اقتحام القعقاع لتحصينات الفرس بغية استفزازهم .
٢ التراجع التكتيكي للقعقاع .
٣ خروج الفرس من داخل الاسوار ومطاردتهم لخيالة القعقاع .
٤ كمائن المسلمين تصد هجوم الفرس جبهياً وجانبياً .
٥ تراجع الفرس وسقوطهم في الخندق .
٦ هروب الفيرزان باتجاه همذان .
٧ مطاردة القعقاع للفيرزان والقضاء على الأخير .
همذان
الفيرزان
القعقاع
نهاوند
كمائن
خيالة
مشاة (النعمان)
خيالة (القعقاع)
النعمان
الاسبيذهان
الحصار
١ الفرس داخل نهاوند بقيادة الفيرزان .
٢ ، ٣ ، ٤ تحصينات الفرس وهي على التوالي :
سور حول المدينة ، خندق ، ثم حسك شائك .
٥ المسلمون بقيادة النعمان بن مقرن المزني ، وقد
حاصروا المدينة لحين وصول الامدادات إليها .

المقالة الرابعة

من عين شمس إلى الإسكندرية
أو
معارك العبور إلى مصر وشمال إفريقية
"١٩ - ٢١ هـ - ٦٤٠ - ٦٤٢م"

مسير عمرو بن العاص من فلسطين إلى مصر: (انظر الخارطة).

ما أن فرغ عمرو بن العاص من فتح قيسارية في فلسطين عام ١٩ هـ/ ٦٤٠م[١] حتى انطلق بمن معه، وكانوا نحو أربعة آلاف مقاتل[٢]، مجتازاً حدود فلسطين غرباً

---

(١) تضاربت روايات المؤرخين في تحديد تاريخ توجه عمرو بن العاص إلى مصر لفتحها، فذكر البلاذري أن مسير عمرو إلى مصر كان عام ١٩هـ (فتوح البلدان، ص ٢٩٨) وذكر الطبري (في إحدى رواياته) أن فتح قيسارية، كان عام ١٩هـ (تاريخ الأمم والملوك، جـ ٤ : ١٠٢)، ثم ذكر، في رواية أخرى، أن «فتح قيسارية من فلسطين وهرب هرقل وفتح مصر» كان عام ٢٠هـ (م. ن. ص. ن) ثم عاد فذكر في رواية ثالثة أن مصر والإسكندرية فتحتا عام ٢٠هـ (م. ن. جـ ٤ : ١٠٤) وذكر في رواية رابعة أن مصر والإسكندرية فتحتا عام ١٦هـ (م. ن. ص. ن). وذكر المقريزي عدة روايات لفتح مصر (سنة ٢٠هـ و ١٦ هـ و ٢٦ هـ و ٢١ هـ و ٢٢ هـ) ثم قال: والأول (سنة ٢٠هـ) أشهر وأصح (المقريزي، الخطط، جـ ١ : ٢٨٨). وكرر ابن الأثير روايتي الطبري في أن مصر وكذلك الإسكندرية فتحتا عام ٢٠هـ، ثم قال: «وقيل: فتحت مصر سنة ست عشرة في ربيع الأول» (الكامل في التاريخ، جـ ٢ : ٥٦٤)، أما الواقدي فقد ذكر أن فتح قيسارية تم في العشر الأول من رجب عام ١٩هـ (العشر الأول من تموز ٦٤٠م)، (فتوح الشام، جـ ٢ : ٢١). ويذكر «بتلر» في كتابه «فتح العرب لمصر» (تعريب محمد فريد أبو حديد بك، ص ١٤٧)، نقلاً عن ابن عبد الحكم، أن عمراً أقام عيد الأضحى، في ١٠ ذي الحجة عام ١٨هـ/ ١٢ كانون الأول ٦٣٩م، في العريش، وقد كرر غلوب القول نفسه في كتابه (الفتوحات العربية الكبرى، ص ٣٤٦). ونحن نرجح أن يكون عمرو بن العاص قد انطلق لفتح مصر في أواخر العام ١٩هـ (أوائل العام ٢٠هـ)، آخذين بالاعتبار المسافة التي كان على ساعي البريد أن يقطعها بين قيسارية والمدينة لنقل خبر فتح قيسارية إلى الخليفة ثم نقل الأوامر إلى عمرو بالتوجه إلى مصر.

(٢) الواقدي، المصدر السابق، جـ ٢ : ٢٣، وذكر البلاذري أن عمراً قد توجه إلى مصر بجيش قوامه =

باتجاه مصر، لفتحها[3] وكان عليها حاكم روماني يدعى المقوقس (أو قيرس)، فنـزل، أول ما نزل، بالعريش في سيناء، من أرض مصر، ثم تابع سيره إلى «الفرماء»[4] وكانت مدينة محصنة ومنيعة تسيطر على الطريق الرئيـس الممتد من العريش إلى مصر، فحاصرها شهراً، وقاتل حاميتها فانتصر عليها وفتح المدينة، ثم تابع تقدمه، جنوباً بغرب، سالكاً طريقاً هي الحد الفاصل بين الصحراء والري، حتى إذا وصل إلى «بلبيس» قاتل حاميتها وكانت بقيادة «أرطبون» (أو اريطبون) فانتصر عليه وامتلك المدينة، ثم استمر في تقدمه، جنوباً بغرب كذلك، حتى أطل بجيشه على مشارف مدينة تاريخية قديمة وشهيرة هي مدينة «هليوبوليس» التي تعرف اليوم «بعين شمس» وكان عمرو قد طلب من الخليفة إمداداً فأمده بعشرة آلاف (أو بآثني عشر ألف) رجل بقيادة الزبير بن العوام[5].

= ٣٥٠٠ مقاتل (المصدر السابق، ص ٢٩٨)، ولم يذكر الطبري ولا ابن الأثير عدد هذا الجيش.

(٣) تضاربت روايات المؤرخين في كيفية عزم عمرو بن العاص على التوجه إلى مصر لفتحها، فقد ذكر البلاذري أن عمراً قرر المضي إلى مصر من تلقاء نفسه «فغضب عمر لذلك وكتب إليه يوبخه ويعنفه وأمره بالرجوع إلى موضعه إن وافاه كتابه دون مصر فورد الكتاب عليه وهو بالعريش» (المصدر السابق، ص ٢٩٨)، كما ذكر رواية أخرى تقول إن الخليفة عمر «كتب إلى عمرو بن العاص يأمره بالشخوص إلى مصر، فوافاه كتابه وهو محاصر قيسارية» (م. ن. ص. ن). وذكر الطبري أن الخليفة عمر «حين فرغ من الشام كلها، كتب إلى عمرو بن العاص أن يسير إلى مصر في جنده» (المصدر السابق، جـ ٤ : ١٠٤)، ولم يذكر ابن الأثير شيئاً من ذلك. أما الواقدي فقد ذكر أن الخليفـة عمر كتب إلى أبي عبيـدة في الشام يقـوم له: «إذا قـرأت كتابي هذا فأمر عمرو بن العاص أن يتوجه إلى مصر بعسكره» (المصدر السابق، جـ ٢ : ٢٢)، ويرى «بتلر» أن عمراً اقترح على الخليفة فتح مصر فوافقه الخليفة على ذلك (المصدر السابق، ص ١٤٤ ـ ١٤٥). ونحن نميل إلى أعتهاد الرواية الثانية للبلاذري، والتي تتفق مع رواية كل من الطبري والواقدي، إذ لا يعقل أن يقدم قائد كعمرو بن العاص على أمر جلل وخطير كهذا الأمر بمبادرة منه وبدون أمر من الخليفة.

(٤) بيلوسيوم أو بلوز، واسمها بالقبطية (پرمون) وبالعربية (الفرماء)، وكانت قائمة على هضبة تبعد عن البحر نحو ميل ونصف الميل، كما كانت «مفتاح مصر من الشرق، تشرف على طريق القادم من الصحراء (بتلر، المصدر السابق ص ١٥٦ وغلوب، المصدر السابق، ص ٣٤٧)، وذكر المقريزي أن «الفـرما» أو «الفـرماء» هي «مـدينـة تلقـاء مصر» سميت بـاسم أخي الاسكنـدر، وهي قـريـة أم إسماعيل بن ابراهيم، كانت تقع على شاطىء بحيرة «تنيس» وكانت مدينة خصبة، وبها قبر جالنوس الحكيم (المقريزي، الخطط، جـ ١ : ٢١١).

(٥) البلاذري، المصدر السابق، ص ٢٩٩، وقد ذكر كل من الطبري وابن الأثير أن الخليفة أتبع عمراً بالزبير بن العوام (الطبري، المصدر السابق، جـ ٤ : ١٠٦ ـ ١٠٧ وابن الأثير، المصدر السابق، جـ ٢ : ٥٦٤)، إلا أنهما لم يذكرا عدد الجيش الذي رافق الزبير إلى مصر.

دراسة أرض المعركة: (انظر الخارطة)

لقد قامت مدينة القاهرة على أرض عرفت، منذ قرون، حضارة الإغريق والرومان، ومن آثار تلك الحضارة ما عفا عليه الزمن ومنها ما ظل قائماً حتى هذا القرن ولا يزال، وسوف نحاول أن نحدد المواقع التي كانت تقوم عليها الأماكن التي سوف يمر ذكرها في أثناء درسنا للمعارك، من عين شمس إلى الإسكندرية، ولو على وجه التقريب.

ـ مدينة ممفيس:

مدينة قديمة كانت عاصمة الفراعنة إلا أنها فقدت أهميتها بعد بناء الإسكندرية وليس لها اليوم من أثر، ولكن أطلالها كانت لا تزال قائمة كما أنه كان فيها بعض المساكن الآهلة وقت الفتح الإسلامي لمصر، وقد قامت، في الجانب الآخر لنهر النيل، مدينة أخرى نمت وازداد عدد سكانها، وهي «مدينة مصر» التي كان يطلق عليها أحياناً اسم «ممفيس»، وكان أكثر هذه المدينة جنوب حصن بابليون، فكان الواقف، في وقت الفتح، في الجانب الغربي للنيل، يرى أمامه، على الجانب الشرقي للنهر، مدينة «مصر» بوضوح، وقد أشرفت عليها أسوار حصن بابليون وحوله أطلال ممفيس، فكان اسم «مدينة مصر» يطلق اذن على المدينة الواقعة في الجانب الشرقي للنيل بجوار حصن بابليون(٦).

فمدينة «ممفيس» التي نعنيها في دراستنا، هي اذن، تلك التي كانت قائمة وقت الفتح، وكانت على الجانب الشرقي لنهر النيل، جنوب حصن «بابليون» وفي الموقع المعروف حالياً بمصر القديمة.

ـ مدينة هليوبوليس: كانت إحدى مدن مصر الكبرى قديماً، اسمها الأصلي (أون) وقد تردد في قصص موسى، ومعناه (مدينة الشمس)، ثم سماها اليونان بالاسم نفسه (هليوبوليس)، وكذلك العرب (عين شمس) ولما دخل العرب مصر لم يكن قد بقي من هذه المدينة الشهيرة سوى بعض الأسوار المهدمة وتماثيل لأبي

---

(٦) بتلر، المصدر السابق، ص ١٦٤ ـ ١٦٥.

الهول وعمود هو (المسلة) المشهورة، وكانت تقع على هضبة من الأرض يحيط بها سور لا تزال آثاره باقية إلى اليوم، كما كان فيها ماء كثير وتصلح لإمداد الجيوش بالمؤن[٧]، ولذلك أقام فيها عمرو بجنده عند نزوله مصر لينطلق منها فاتحاً لمواقع الروم وحصونهم بمصر.

وتشكل عين شمس اليوم ضاحية من ضواحي مدينة القاهرة، على الجانب الشرقي للنيل، في موقع يعرف بتل الحسن[٨].

ـ حصن بابليون: أقامه بختنصر عندما غزا مصر وسماه باسم عاصمته (بابل) وحصّنه بعده الامبراطور الروماني (تراجان) وسوّره وزاد في بنائه. كان هذا الحصن قائماً في الموقع المعروف حالياً بمصر القديمة بل كان موضعه في مكان يقال له الفسطاط، وقد وصفه المقريزي كما يلي: «إعلم أن موضع الفسطاط الذي يقال له اليوم مدينة مصر كان فضاء ومزارع فيما بين النيل والجبل الشرقي الذي يعرف بالجبل المقطم ليس فيه من البناء والعمارة سوى حصن يعرف بقصر الشمع وبالمعلقة»[٩]. وكانت تحيط به أسوار مرتفعة يحيط بها نهر النيل، ويحيط بهذه الأسوار خندق يملأ بالمياه وقت فيضان النيل فيعرقل سبيل المهاجمين. وكان للحصن عدة أبواب وعليه عدة أبراج، وكان يتصل بجزيرة الروضة بجسر من السفن، كما يتصل بحصن أم دنين بالطريقة نفسها، وكذلك بمدينة مصر. وتقع إلى الشمال الشرقي منه سهول تكثر فيها البساتين والأديرة. ومن الآثار الباقية من هذا الحصن كنيسة أبو سرجة، وكنيسة المعلقة.

ـ أم دنين: قرية قديمة محصنة ومنيعة، سماها المؤرخ القبطي حنا النقيوسي

---

(٧) بتلر، م. ن. ص ١٦٨ ـ ١٦٩، وذكر المقريزي (المصدر السابق، جـ ١ : ٢٢٨) أنها كانت تعرف قديماً باسم «رعمساس».

(٨) بتلر، م. ن. ص ١٦٩ حاشية (٢)، والمقريزي، م. ن، جـ ١ : ٢٢٨ ـ ٢٣٠.

(٩) المقريزي، المصدر السابق، جـ ١ ٢٨٦، وانظر: بتلر، المصدر السابق، ص ١٨٠، وقد ذكر «استرابو» أن سبب تسميته هذه هو أن جماعة من أسرى بابل أقامت فيه في عهد ملك مصر (سيزوستريس) فاطلق اسم بابل عليه، إلا أنه لا يمكن الركون إلى هذه الرواية إذ أن «استرابو» نفسه أتى إلى مصر قبل تراجان بماية وثلاثين عاماً وشاهد «حصناً قوياً على نهد من الصخر» (م. ن. ص ١٨٠ ـ ١٨١)

(تنونديس)، واعتبر المؤرخان العربيان المقريزي وياقوت أنها هي (المقس) وأنها كانت على الضفة الغربية لخليج تراجان وعلى نهر النيل، وأنها كانت ميناء مصر وقت الفتح. ويعتبر المؤرخ (بتلر) أن النيل قد غير مجراه في خلال آثني عشر قرناً، فكان يجري بجوار حصن بابليون ودير أبي سيفين، شرق المجرى الحالي، لذا، كانت أم دنين أو (تنونديس) تقع شمال حصن بابليون فكانت تعتبر مركزاً حربياً مساعداً له، كما كانت تعتبر ميناء مدينة «مصر» على النيل، وكان موقعها في المكان الذي تقوم عليه اليوم حديقة الأزبكية، في قلب القاهرة[10].

جزيرة الروضة: جزيرة تقع في وسط نهر النيل، ذات حصون تتصل بحصن بابليون، وتسير بينها السفن. غزاها المسلمون في أثناء حصارهم لحصن بابليون، ولما خرج الروم منها هدم عمرو أسوارها، إلا أن ابن طولون أعاد بناء هذه الأسوار عام ٨٧٦م. سماها العرب، في العصور المتأخرة، (جزيرة دار الصناعة)[11]، وكانت هذه الجزيرة القائمة في وسط النيل، وغرب حصن بابليون، تعتبر مركزاً حربياً مساعداً لهذا الحصن.

ـ **قلعة الجبل**: أو ثنية الجبل، أو الجبل الأحمر، وهو جبل يطل على القاهرة من شرقها الشمالي، ويقرب من الموضع الذي تقوم عليه اليوم قلعة القاهرة. وقد سماها المسلمون (مغارة بني وائل) ربما لأن الذين كمنوا من المسلمين فيها كانوا من بني وائل، وقد ذكر المقريزي هذه الحادثة بقوله: «فساروا ـ أي المسلمون ـ من وراء الجبل حتى دخلوا مغار بني وائل قبل الصبح»[12].

ـ **حصن كِرْيون**: (Choereum) أو كريوم، وهو آخر سلسلة من الحصون بين حصن بابليون ومدينة الإسكندرية عاصمة مصر في ذلك الحين، إلا أن هذه الحصون لم تكنْ منيعة كحصن بابليون، ويقول المؤرخ العربي (ابن حوقل) أن مدينة (كريون) كانت، في أيامه، مدينة عظيمة جميلة تقوم على ضفتي ترعة

---

(١٠) بتلر، م. ن. ص ١٦١ و١٦١ حاشية (٢).

(١١) م. ن. ص ١٧٩.

(١٢) المقريزي، المصدر السابق، جـ١ : ٢٨٩.

الإسكندرية[١٣] وكان هذا الحصن يعتبر موقعاً عسكرياً متقدماً وهاماً بالنسبة إلى استراتيجية الدفاع عن عاصمة البلاد.

١ ـ وقعة عين شمس (أو هليوبوليس) (انظر الخارطة)

هليوبوليس، أو عين شمس، ضاحية من ضواحي القاهرة اليوم، جرت فيها الوقعة المسماة باسمها (هليوبوليس)، بين المسلمين بقيادة عمرو بن العاص، والروم بقيادة «تيودور» وذلك عام ٢٠هـ/٦٤١م وكان جيش المسلمين نحو ستة عشر ألف مقاتل، بينما كان جيش الروم نحو خمسين ألفاً. وكانت المدينة واقعة على هضبة يسهل الدفاع عنها، يحيط بها سور قوي علوه عشرون قدماً[١٤]، وفيرة الماء والغذاء، فعسكر عمرو عليها، وكان «تيودور» في مواجهته داخل أسوار حصن يقال له «بابليون». وفي كلا المعسكرين كان كل من القائدين يفكر بالطريقة التي يقتاد بواسطتها خصمه إلى خارج مواقعه للنزال، فبينما كان عمرو يفكر باستدراج تيودور من الحصن ومنازلته خارجه، كان تيودور يفكر بالأمر نفسه، ولكن تيودور، وقد غرّته كثرة عدد جيشه وضآلة عدد جيش المسلمين، رأى أن يبادر لقتالهم بنفسه فيخرج من الحصن ويهاجمهم في مواقعهم، وعلم عمرو، بواسطة جواسيسه، بما يدور في رأس تيودور، فتفاءل بالنصر إذا ما نفذ تيودور عزمه، ورسم عمرو في مواجهة ذلك، الخطة التالية:

ـ أمر كتيبة من خمسماية مقاتل، بقيادة خارجة بن حذافة، أن تتوجه شرقاً إلى «مغارة بني وائل» عند «قلعة الجبل» (قلعة القاهرة اليوم)، على ميسرته، وتكمن فيها[١٥].

---

(١٣) بتلر، المصدر السابق، ص ٢١٢ حاشية (٣).

(١٤) بتلر، المصدر السابق، ص ١٦٩ حاشية (٢)، ومدينة «هليوبوليس» هي مدينة «أون» أو «مدينة الشمس» القديمة، ويرى بتلر أنها كانت تقع في الموقع المسمى «بتل الحسن» (م. ن. ص. ن). ويذكر البلاذري موقعاً يسميه «جنان الريحان» ويقول إن عمراً نزل فيه بجيشه قبالة «الفسطاط» أو «حصن بابليون» (المصدر السابق، ص ٢٩٨) وربما كان هذا الاسم هو لهليوبوليس نفسها، وذلك بسبب وفرة الماء فيها. أما غلوب فيذكر أن موقع هليوبوليس هو موقع «مصر الجديدة» اليوم (المصدر السابق، ص ٣٥١).

(١٥) بتلر، م. ن. ص ١٧٠، ولكن المقريزي (المصدر السابق، جـ١ : ٢٨٩) يضع هذه الحادثة في حصار حصن بابليون وليس في وقعة عين شمس.

ـ أمر كتيبة أخرى من خمسماية مقاتل أن تتوجه غرباً إلى «أم دنين» (في حي الأزبكية اليوم)، على ميمنته، وتكمن هناك.

وأمر قائدي الكتيبتين أن لا يتحركا إلا في وقت حدده لهما، وهو ساعة اشتباك جيشه بجيش العدو، فينقض كل كمين من جهته على الجنب الذي هو بحذائه من العدو.

كانت مواقع المسلمين تبعد نحو ستة أميال، أو سبعة، عن مواقع الروم الذين تقدموا نحو مواقع المسلمين، وفي مقدمتهم، على الخيل، «تيودوسيوس» و «أنستاسيوس» ويليهم معظم الجيش وهو من المشاة، رماة ورماحين. وعبأ عمرو جيشه للقتال بانتظار وصول الروم، بينما كانت كمائن المسلمين قد شقت طريقها، في ظلام الليل، إلى المراكز التي حددها عمرو لها.

خرج تيودور بجيشه من الحصن ليلاً وانتشر بين البساتين والأديرة والسهل «شمال شرقي الحصن»[16] وما أن انبلج الفجر حتى كان جيش الروم قد انتشر في مواجهة جيش المسلمين الذي كان قد تقدم بدوره، وفي الليل، ليلاقي جيش الروم عند «العباسية».

وتصادم الجيشان صداماً جبهياً، تيودور ومعه نحو أربعين ألفاً (بعد أن ترك في الحصن، لحماية مؤخرته، نحو عشرة آلاف)، وعمرو ومعه نحو خمسة عشر ألفاً (بعد أن أرسل ألفاً في الكمائن)، ودار بينهما قتال عنيف، دون أن يستطيع أي منهما النيل من الآخر.

وفي هذه الأثناء، وبينما القتال محتدم، برز الكمين الأول منطلقاً من «مغارة بني وائل» وجوارها ففاجأ الروم وانقض على ميمنتهم فذعروا واضطربت صفوفهم، ثم تقهقرت وانحرفت يساراً نحو «أم دنين»، وقبل أن يستفيق الروم من دهشتهم وذهولهم، فاجأ الكمين الثاني، منطلقاً هذه المرة من «أم دنين»، ميمنةَ الروم المنحرفة نحو هذا الموقع، وكذلك ميسرتهم، فأصبح الروم، والحالة هذه،

---

(١٦) م. ن. ص ١٧١.

بين نيران ثلاث: نار من الامام، وأخرى من الميمنة وثالثة من الميسرة، فظنوا أن ثلاثة جيوش تهاجمهم، بدلاً من واحد، فانهارت معنوياتهم، وتضعضعت صفوفهم، بينما اغتنم المسلمون الفرصة فاندفعوا، بحماسة شديدة، يضغطون على الروم من كل جانب ويعملون فيهم تقتيلا، فقتل منهم كثير، قتل «كل ما كان بها من الجنود إلا ثلاثمائة»[١٧]، وتقهقر من نجا نحو حصن بابليون فلجأ إليه، ونزل آخرون في مياه النيل حيث استولوا على بعض السفن وفروا بها إلى الحصن المذكور، واستولى المسلمون على معظم المواقع المحيطة بأرض المعركة. أما تيودور ففر إلى الاسكندرية، بينما احتمى المقوقس (حاكم مصر) بحصن بابليون، بانتظار المعركة القادمة.

ولم يحدد أي من المؤرخين عدد القتلى من الفريقين في هذه المعركة، ولكن المؤكد أن قادة الجيش الرومي وهم تيودور وتيودوسيوس وانستاسيوس ظلوا سالمين، وتمكن المسلمون من السيطرة على مدينة «مصر» وأصبحوا «يملكون ناصية شاطىء النهر - النيل - من ناحيتي الحصن - بابليون - من أعلاه ومن أسفله»، وانتقل عمرو بجيشه نحو الحصن فحاصره من كل جانب بينما انحصر الروم في داخله[١٨].

٢ - حصار حصن بابليون (انظر التصميم)

بابليون، أو باب ليون، أو حصن بابل، أو قصر الشمع، أو الفسطاط أو مدينة اليونة[١٩]، كلها أسماء لمسمى واحد، وكان اسم المدينة «اليونة» فسماها المسلمون «فسطاطاً»[٢٠] وقد بقيت معالم هذا الحصن ظاهرة حتى مطلع هذا القرن[٢١].

---

(١٧) بتلر، م. ن. ص ١٧٢.

(١٨) بتلر، م. ن. ص ١٧٣، ومدينة مصر هي مدينة «ممفيس» القديمة، وكانت قائمة على النيل جنوب حصن بابليون (م. ن. ص ١٦٤)

(١٩) بتلر، المصدر السابق، ص ١٧٦ (بابليون)، والطبري، المصدر السابق، جـ ٤ : ١٠٥ (باب اليون) وغلوب، المصدر السابق، ص ٣٤٨ - ٣٤٩ (بابل)، والواقدي، المصدر السابق، جـ ٢ : ٢٣ (قصر الشمع)، والبلاذري، المصدر السابق، ص ٢٢٠ (الفسطاط أو مدينة اليونة). ويذكر الواقدي أن هذا الحصن قد سمي بقصر الشمع لأنه «لا يخلو من شمع الملوك» (م. ن. جـ ٢ : ٣٢)، والمقريزي، المصدر السابق. جـ ١ : ٢٨٧، ويذكر المقريزي أن الشمع كان يوقد عليه في رأس كل شهر للدلالة على البرج الذي انتقلت الشمس إليه.

(٢٠) البلاذري، المصدر السابق، ص ٢٩٨.

(٢١) بتلر، المصدر السابق، ص ١٧٦.

كان هذا الحصن، يعتبر، قبل الفتح الإسلامي، مفتاح مصر السفلى والعليا، يحيط به سور تبلغ سماكته ١٨ قدماً ويبلغ ارتفاع بعض أماكنه ستين قدماً[٢٢]، وتبلغ مساحة الحصن بكامله ٢/١ ٢ كلم٢. ويقع هذا الحصن في مصر القديمة على الضفة الشرقية لنهر النيل حيث ترتفع على سوره من الشرق والجنوب أبراج محصنة، ويتصل من الغرب بالنهر بواسطة باب حديدي ودرج ينتهي إلى سطح النهر حيث ترسو السفن، وإلى الغرب من الحصن تقع جزيرة «الروضة» في وسط النيل، وكانت هذه الجزيرة محصنة أيضاً لكي تزيد من مناعة الحصن الذي يتصل بها بواسطة جسر من السفن[٢٣]. ويحيط بالحصن خندق حفره المقوقس، حاكم مصر، حين بدأ المسلمون غزو هذا البلد، وكان قد قرر أن يكون هذا الحصن أحد معاقله في مقاومة المسلمين الفاتحين[٢٤]. وانشئت على الخندق قنطرة متحركة لا تفتح إلا من الداخل، وكان هذا الخندق يملأ بالماء عند الضرورة وفي وقت فيضان النيل. وعلى مقربة من هذا الحصن يقوم حصن آخر يدعى «أم دنين» ويعتبر مركزاً حربياً مساعداً لحصن بابليون. وتقوم القاهرة حالياً في المكان نفسه الذي وجد فيه هذان الحصنان قديماً، وبالتحديد «مصر القديمة» منها[٢٥].

احتل عمرو بن العاص المواقع المحيطة بعين شمس فأصبح في مواجهة حصن بابليون وعلى مقربة من أسواره المنيعة، وكان في الحصن حامية قوية بلغت نحو خمسة وعشرين ألف مقاتل بقيادة المقوقس نفسه، تمدهم سفن النيل بالمؤن والذخيرة دون عائق، بينما لم يكن جيش عمرو يتجاوز الخمسة عشر ألف مقاتل كما قدمنا، ووجد عمرو أنه يصعب عليه مهاجمة الحصن واحتلاله عنوة فقرر محاصرته، ولكن ذلك لم يكن ليجديه نفعاً طالما بقيت مياه النيل حرة تمخر فيها سفن العدو ناقلة إلى الحصن الذخيرة والمؤن، بالإضافة إلى مناعة أسواره وضخامة أبراجه وخندق الماء الذي يحيط به من كل جانب. وكان المسلمون يجهلون تقنية حرب الحصون جهلاً تاماً كما أنهم لم يكونوا مجهزين بمعدات الحصار وآلاته، كل هذه

---

(٢٢) م. ن، ص ١٧٦ ـ ١٧٧.

(٢٣) م. ن. ص ١٧٩.

(٢٤) م. ن. ص ١٥٤.

(٢٥) م. ن. ص ١٧٦.

الأمور كادت توهن عزيمة المسلمين وتجعلهم يفكرون بالارتداد عنه والتوجه إلى غيره من المواقع لإحتلالها، لولا أن قائد جند الروم وحاكم مصر «قيرس» أو «المقوقس» كان يشعر، في قرارة نفسه، بالرهبة من هؤلاء المسلمين الذين أتوا بلاده فاتحين وانتصروا عليه في مواقع عدة، فتكونت لديه قناعة تامة بأنه لا سبيل إلى هـزيمتهم في القتال، لذا قرر مفاوضتهم بالرغم من معارضة قادته، وأكبرهم «اودوقيانوس» أخو «دومنيتانوس» لهذا القرار، وقد استطاع «المقوقس» أن يقنع هؤلاء القادة، بعد لأي، بصواب رأيه[٢٦].

وفي جزيرة «الروضة» بدأت المفاوضات بين الفريقين، فكان «عبادة بن الصامت» مفاوضاً عن المسلمين، وكان «المقوقس» نفسه مفاوضاً عن قومه، وقاد عبادة مفاوضات شاقة مع المقوقس اتفق على أثرها أن يتسلم المسلمون الحصن وفقاً لشروطهم وهي: الجزية أو الإسلام، ولكن هذا العهد بقي مشروطاً بموافقة هرقل نفسه، وانطلق المقوقس إلى الاسكندرية ومنها إلى القسطنطينية لكي ينال موافقة هرقل على عقد الصلح هذا، ولكن هرقل أبى ذلك ونفى المقوقس من مصر[٢٧].

وكان رفض هرقل لعقد الصلح وعدم تسليم الحصن للمسلمين سبباً لعودة القتال بين الفريقين، وكانت مياه النيل، في هذه الأثناء، قد بدأت بالهبوط، وبدأ الخندق، تبعاً لذلك، يفرغ من المياه، كما بدأت همة المدافعين تضعف وقواهم تخور، خاصة وأن الحصار قد استمر سبعة أشهر[٢٨]، وفتك المرض بأهل الحصن والمدافعين عنه. ورغم أن المسلمين لم يكونوا يفقهون من أمور الحصار وفنه إلا قليلاً، فقد استطاعـوا خـلال مدة الحصار هذه، أن يعدّوا بعضاً من معداته مثل السلالم والمجانيق التي لم تكن تترك أي أثر في أسوار الحصن الضخمة والقوية، وطال أمد الحصار، وخاف عمرو من عاقبته على جنده، فقرر أن يقتحم الأسوار، وأعدّ لذلك العدة، وكان الروم قد ملأوا الخندق، الذي جفت مياهه، بالحسك الشائك، كي يعيقوا عبوره من قبل المسلمين، كما أنهم كثّفوا تلك العوائق عند

---

(٢٦) بتلر، م. ن. ص ١٨٧.

(٢٧) م. ن. ص ١٩٣ ـ ١٩٥.

(٢٨) المقريزي، المصدر السابق، جـ١ : ٢٩٠.

أبواب الحصن ومداخله[٢٩]، ولكن ذلك كله لم يكن ليشكل عائقاً أمام المسلمين عندما ما عزموا على اقتحام الحصن، وقد تم ذلك بالفعل، إذ مهد عمرو للاقتحام بضرب الحصن بالمجانيق، ثم اختار الزبير بن العوام مكاناً ضعيفاً في الخندق فردمه، وما أن ازفت ساعة الهجوم، وكان الوقت ليلاً، حتى اجتاز، برجاله، الخندق من ذلك المكان، ووضع سلماً على السور كان قد أعده لهذا الغرض، فتسلق بواسطته السور دون أن يفطن إليه أحد، وتسلق رجاله السور بعده، وما أن وصل إلى أعلى السور حتى صاح «الله أكبر» وكبّر رجاله بعده، وما أن رأى الروم المدافعون الزبير ورجاله على أعلى السور يكبرون وسيوفهم بأيديهم حتى هلعوا وفروا هاربين، وحاول بعض المدافعين أن يقاتلوا فرماهم المسلمون بالنبل من خارج السور فشلوا مقاومتهم واحبطوا محاولتهم، واندفع الزبير بمن معه إلى داخل الحصن حيث دارت معركة دامية فتك المسلمون فيها بالروم فتكاً ذريعاً، فاجتمع كبارهم على عجل وقرروا تسليم الحصن إلى المهاجمين. وكان الفجر قد انبلج على الروم المنهزمين، فعرض قائدهم، ويدعى (جورج) على عمرو «أن يسلّم على أن يأمن كل من كان هناك من الجند على أنفسهم»[٣٠] فقبل عمرو، وخالفه الزبير في ذلك بشدة قائلاً إنه «كان على وشك أن يفتح الحصن عنوة»[٣١]، ولكن عمراً رفض ذلك وكتب إلى الروم عهداً «أن يخرج الجند من الحصن في ثلاثة أيام، فينزلوا بالنهر ويحملوا ما يلزم لهم من القوت لبضعة أيام»[٣٢] على أن يستولي المسلمون على كل ما في الحصن من ذخائر ومعدات حربية، ويدفع أهله، بعدها، الجزية.

وقد تم سقوط الحصن بيد المسلمين عام ٢٠هـ/٦٤١م[٣٣] ولم يذكر المؤرخون عدد القتلى من الفريقين.

---

(٢٩) بتلر، المصدر السابق، ص ١٩٥.
(٣٠) بتلر، م. ن. ص ٢٠٠.
(٣١) م. ن. ص. ن.
(٣٢) م. ن. ص. ن، وانظر حصار حصن بابليون عند (المقريزي، المصدر السابق، جـ١ : ٢٨٨ ـ ٢٩٤).
(٣٣) الطبري، المصدر السابق، جـ٤ : ١٠٤ وابن الأثير، المصدر السابق، جـ٢ : ٥٦٤، ويذكر =

٣ ـ حصار حصن كِرْيون

آخر حصن من الحصون بين بابليون والإسكندرية، إلا أنه لم يكن في منعة حصن بابليون، يبعد عن الإسكندرية نحو ٢٦ كلم، وقد رممه الروم ليجعلوا منه خط الدفاع الأول عن مدينة الإسكندرية، عاصمة مصر يومذاك. وكانت «كريون» في ذلك الحين، مدينة تجارية كبيرة وجميلة على ضفتي ترعة الإسكندرية، تشرف على الترعة التي تزود الإسكندرية بالمؤن. وتتصل بهذه المدينة بسلسلة من الحصون، لذا كان لهذه الحصون أهمية كبرى لدى الروم في مخططهم الدفاعي عن الإسكندرية، فزجوا فيها قواتهم وحصنوها واعتنوا بها وملأوها بالذخائر والمؤن والمعدات الحربية كي تصمد لحصار طويل، فقد كانوا يعلمون جيداً أن انهيار دفاعهم عن حصن كريون انما يعني انهيار دفاعهم عن مدينة الإسكندرية بالذات، واستيلاء المسلمين عليها، وبالتالي خروج الروم من مصر ومن افريقية بعدها.

قلنا إن تيودور انسحب، بعد هزيمته في عين شمس، نحو الإسكندرية، حيث اتخذ من حصن «كريون» مركزاً دفاعياً له وقاعدة ثابتة لصد المسلمين عن مدينة الإسكندرية، فتجمع لديه، في هذا الحصن وفي الإسكندرية، نحو خمسين ألف مقاتل مع العتاد والذخيرة والسلاح والمؤن، واستعد تيودور لقتال المسلمين في هذا الحصن، كما استعد لحصار طويل.

أما عمرو، فقد أوكل أمر حماية حصن بابليون، بعد فتحه، إلى حامية من جنده بقيادة خارجة بن حذيفة العدوي، وتوجه بباقي الجيش نحو الإسكندرية،

= المقريزي عدة روايات لتاريخ فتح هذا الحصن فيذكر سنة ٢٠هـ و١٦هـ و٢٥هـ ويرجح أنها فتحت «قبل عام الرمادة، وكانت الرمادة في آخر سنة ١٧هـ وأول ١٨هـ»، (المقريزي، المصدر السابق، جـ ١ : ٢٩٤) إلا أننا لا نوافق المقريزي على هذا الرأي. ويذكر بتلر أن سقوط هذا الحصن قد تم «في يوم الجمعة السابق لعيد الفصح» أي في «السادس من نيسان عام ٦٤١م» الموافق لشهر ربيع الثاني عام ٢٠ هـ وكان خروج الروم من الحصن «يوم الاثنين وهو عيد الفصح» (م. ن. ص ٢٠١). إلا أننا نستبعد التاريخ الذي وضعه «بتلر» إذا اعتبرنا أن عمراً توجه إلى مصر في أواخر عام ١٩هـ/ ٦٤٠م، وأنه قاتل الروم في ممفيس وعين شمس ثم حاصرهم في بابليون سبعة أشهر، فلا يعقل، والحالة هذه، أن يكون سقوط هذا الحصن قد تم بالتاريخ المذكور، إلا أن بتلر يعود فيقول إن المؤرخين اختلفوا في ذكر التسليم وخلطوا بينه وبين تاريخ الصلح الذي عقده المقوقس ولم يقرّه هرقل.

وقد سار بمحاذاة الجانب الشرقي للفرع الغربي للنيل (فرع رشيد)، فوصل إلى مدينة نقيوس[٣٤] بعد مسير يوم كامل من بابليون، فدخلها بلا قتال حيث أقام فيها أياماً، ثم تابع سيره باتجاه الإسكندرية وقد أصبحت الطريق بينه وبينها خالية من أية مقاومة، ثم عبر النهر باتجاه الغرب واتجه شمالاً حتى بلغ دمنهور، ولم يكن يجد أمامه، في تقدمه، مقاومة تذكر، بل كانت فلول العدو تتراجع أمامه متدافعة نحو الشمال باتجاه الإسكندرية، حتى استقروا جمعياً في حصن «كريون» حيث قرروا الصمود والمدافعة، فقد عزم «تيودور» أن يقف في هذا الحصن وقفته الأخيرة، ولم يكن بامكانه إيجاد موقع أكثر ملاءمة للدفاع، فقد كان هذا الحصن معززاً بالجند المدافعين عن المدينة من جهة ومحمياً بالترعة من جهة أخرى، وكان خط تراجعهم باتجاه الإسكندرية مؤمناً من جهة ثالثة[٣٥].

وما أن أطل عمرو بجيشه على الحصن حتى أمر رجاله أن يعسكروا في مواقع تحيط به، وكانت كتائب الروم قد وفدت إلى الحصن من كل حدب وصوب، «من أهل سخا وبلهيت والخيس وسلطيس وغيرهم»[٣٦] وبدأت المناوشات بين الفريقين، ثم استعر القتال واستمر الحصار «بضعة عشر يوماً»[٣٧] وكل من الفريقين يستبسل، فالمسلمون يطمحون إلى اخراج الروم من كل أرض افريقية ومفتاح انتصارهم هو مفتاح هذا الحصن، والروم يدركون جيداً أن هزيمتهم في «كريون» سوف لن تبقي لهم مقاماً في هذه البلاد، وهكذا كان الفريقان يدركان أن من يحرز الغلبة في هذه المعركة يحرز النصر الأخير. ويئس الروم من الاستمرار في الصمود والمدافعة بعد هذه الفترة من حصار المسلمين لهم، ورأوا في تصميم المسلمين وصبرهم ومجالدتهم في الحصار ما جعلهم يدركون استحالة ردهم

---

(٣٤) كان موضعها عند القرية الحديثة المسماة (شبشير)، شمال غربي منوف على نهر النيل (بتلر، المصدر السابق، ص ٢٠٨ حاشية ٢).

(٣٥) م. ن. ص ٢١٣.

(٣٦) البلاذري، المصدر السابق، ص ٣٠٩ أما «بلهيت» فقد وردت «بلهيب» في نسخة أخرى عن البلاذري، كما في «معجم البلدان» لياقوت، وكذلك عند الطبري (م. ن. جـ ٤ : ١٠٥) وهذه المواقع قديمة عفا عليها الزمن.

(٣٧) بتلر، م. ن. ص ٢١٣، ويذكر بتلر أنه أخذ مدة الأيام العشرة للقتال عن المقريزي (م. ن. ص ٢١٤ حاشية ٢).

عن غايتهم ومطلبهم وهو استسلام الحصن واستيلاؤهم عليه، فهزم الروم وتركوا الحصن منسحبين من الطريق الوحيد المتبقي لهم، من الخلف، باتجاه الإسكندرية، ولكن عمراً لم يترك لهم مجال التحصن في المدينة فجدّ في أثرهم نحوها، وبلغ أسوار الإسكندرية فضرب الحصار حولها، وكان سقوط حصن «كريون» بيد المسلمين عام ٢١هـ/٦٤٢م[٣٨].

٤ ـ فتح الإسكندرية

تضاربت روايات المؤرخين في تاريخ فتح الإسكندرية، فذكر البلاذري أن عمراً زحف إليها بعد فتحه لحصن كريون عام ٢١ هـ، وأنه لقي الروم بالحصن «فهزمهم وقتل منهم مقتلة عظيمة» ثم سار «حتى انتهى إلى الإسكندرية، فوجد أهلها معدّين لقتاله......... فقاتلهم المسلمون قتالاً شديداً وحصروهم ثلاثة أشهر، ثم أن عمراً فتحها بالسيف»[٣٩] دون أن يذكر تاريخ فتح المدينة، إلا أنه يعود فيقول في مكان آخر: «وقال بعض الرواة إن هذه الغزاة كانت في سنة ٢٣»[٤٠]. وذكر الطبري عدة روايات عن تاريخ فتح الاسكندرية فقال: «وقد اختلف الناس في فتح الإسكندرية فبعض الناس يزعم أنها فتحت في سنة خمس وعشرين وعلى سنتين من خلافة عثمان بن عفان (رضي)»[٤١]، وذكر في رواية أخرى أنها فتحت سنة ٢١ هـ أو سنة ٢٢ هـ[٤٢]، وقال، نقلاً عن الواقدي، إنها فتحت سنة ٢٠ هـ[٤٣].

أما ابن الأثير فقد ذكر، في أخبار سنة ٢٠ هـ أنه، «في هذه السنة فتحت مصر في قول بعضهم على يد عمرو بن العاص، والإسكندرية أيضاً، وقيل: فتحت الإسكندرية سنة خمس وعشرين، وقيل: فتحت مصر سنة ست عشرة في ربيع

(٣٨) البلاذري، المصدر السابق، ص ٣٠٩.
(٣٩) م. ن. ص. ٣١٠.
(٤٠) م. ن. ص ٣١١.
(٤١) الطبري، المصدر السابق، جـ٤ : ١٠٤ ـ ١٠٥.
(٤٢) م. ن. جـ٤ : ١٠٥.
(٤٣) م. ن. جـ٤ : ١٠٤.

الأول»[٤٤]. ومن الواضح أن ابن الأثير لا يختلف، في معظم رواياته وأقواله، عن الطبري.

كانت مدينة الإسكندرية محصنة من البر والبحر ومن جميع الجهات، فهي محاطة بسور منيع تعلوه الأبراج والحصون، كما أن البحر يحمي جانباً منها حيث ترابط سفن الأسطول البيزنطي الذي يسيطر على الشاطىء سيطرة تامة، كما كانت محمية من جهات أخرى بعدد من الترع (ترعة الثعبان وترعة مريوط) وببحيرة مريوط[٤٥]، «بحيث بات المكان الوحيد الذي يمكن منه الهجوم على المدينة فسحة ضيقة نسبياً تقع في الطرف الشرقي» والجنوب الشرقي[٤٦]. أما حامية المدينة فقد بلغت نحو خمسين ألف مقاتل[٤٧]، وكانت الأقوات والذخائر ومعدات القتال وفيرة في المدينة مما جعل أمر اقتحامها أشق على المسلمين من اقتحام أي حصن آخر، بالإضافة إلى أن الروم استخدموا، في الدفاع عن مدينتهم، معدات القتال الثقيلة كالمجانيق التي كانت تصيب المسلمين مما اضطرهم للابتعاد عن أسوارها، بينما لم يكن لدى المسلمين من معدات القتال الثقلية ومعدات الحصار ما يمكن أن يؤثر على أسوار المدينة بشيء[٤٨].

وحاول عمرو، في أثناء الحصار، ولمرة واحدة، أن يقتحم أسوار المدينة، فلم يوفق، إذ رده المدافعون عنها بقذائق المجانيق وبالنبال، فارتد المسلمون وابتعدوا عن مرمى سلاح العدو، ولم يعد عمرو الكرة بعدها، بل اكتفى بمحاصرتها منتظراً أن ييأس الروم ويقنطوا، كما حصل في حصاره لحصن الكريون، ثم خلّف على الأسوار قوة من عنده للاستمرار في حصارها، وسار مع من بقي من الجيش إلى مصر السفلى ليستكمل فتحها قبل أن يقترب وقت فيضان النيل فيعسر عليه ذلك[٤٩].

---

(٤٤) ابن الأثير، المصدر السابق، جـ٢ : ٥٦٤.
(٤٥) غلوب، المصدر السابق، ص ٣٦٧ وبتلر، المصدر السابق، ٢١٦.
(٤٦) غلوب، م. ن. ص. ن. وانظر بتلر، م. ن. ص. ن.
(٤٧) بتلر، م. ن. ص. ن.
(٤٨) غلوب، م. ن. ص. ن. وبتلر، م. ن. ص. ن.
(٤٩) غلوب، م. ن. ص. ن، وبتلر، م. ن، ص ٢١٧.

وكان هرقل قد توفي في أثناء حصار المسلمين لحصن بابليون[50]، فأعيد المقوقس من منفاه إلى مصر حيث توجه لتوه إلى الإسكندرية، ولم يلبث فيها شهراً حتى قرر الاتصال بعمرو وكان قد عاد من مصر السفلى وبلاد الصعيد، بعد فتحها، إلى حصن بابليون، ليقضي فيه بعض الوقت. وكانت الحرب الأهلية قد استعرت في مصر، والإسكندرية خصوصاً[51]، بين الحزبين الأهمين، الحزب الأزرق ومنه الجنود الزرق ويقودهم «دومينتيانوس» والحزب الأخضر ومنه الجنود الخضر ويقودهم «مينوس» وهما حزبان متساويان في القوة، وقد أخذا يشتبكان في شوارع المدينة وينهمكان في أعمال السلب والنهب[52]، مما أضعف معنويات أهل المدينة ورغبتهم في الصمود لقاء هذا التفسخ والانهيار في الجيش، وهو بعض ما دفع بالمقوقس للذهاب إلى عمرو في حصن بابليون وطلب عقد الصلح معه.

والتقى الرجلان، عمرو والمقوقس، في حصن بابليون، حيث تم بينهما عقد الصلح الذي سلم المقوقس بموجبه الإسكندرية «ومعها بقية أرجاء مصر»[53] إلى المسلمين. وذكر الطبري في إحدى رواياته أن الصلح قد تم على أن يُجمع ما في أيدي المسلمين من السبايا فتُخيّر بين الإسلام أو الجزية «واجتمعت النصارى فجعلنا نأتي بالرجل في أيدينا ثم نخيّره بين الإسلام وبين النصرانية فإذا اختار الإسلام كبّرنا تكبيرة هي أشد من تكبيرنا حين تفتح القرية. . . . ثم نحوزه إلينا، وإذا اختار النصرانية نخرت النصارى ثم حازوه إليهم ووضعنا عليه الجزية»[54]. وذكر ابن الأثير أن المقوقس «صالح عمراً على آثني عشر ألف دينار على أن يخرج

---

(٥٠) يذكر غلوب أن هرقل توفي في ١١ شباط ٦٤١م (م. ن، ص ٤٢٧).

(٥١) يشرح بتلر هذه الحرب باسهاب في فصل خاص (م. ن. ص ٢٢٠ ـ ٢٢٧) ويعتبر أنها السبب الأهم في نزوع المقوقس لتسليم الإسكندرية، ومصر كلها، إلى المسلمين، كما يعزو ذلك إلى كره المقوقس للأقباط وحقده عليهم (م. ن. ص ٢٣٣). ويجري غلوب مجراه في هذا القول (م. ن. ص. ٣٧٠ ـ ٣٧٢). ويعتمد بتلر، على ما يظهر، أقوال المؤرخ حنا النقيوسي في روايته عن الحرب الأهلية، إلا أننا لا نجد ذكرا لهذه الحرب عند أشهر المؤرخين العرب مثل الطبري وابن الأثير والبلاذري وكذلك الواقدي.

(٥٢) غلوب، المصدر السابق، ص ٣٧١.

(٥٣) غلوب، المصدر السابق، ص ٣٧١.

(٥٤) الطبري، المصدر السابق، جـ ٤ : ١٠٦.

من الإسكندرية من أراد الخروج ويقيم من أراد القيام»[٥٥]. أما بتلر، فهو يعتمد على المؤرخ القبطي «حنا النقيوسي» في ذكر أهم بنود هذا العقد ويعددها كما يلي:

«١ ـ أن يدفع الجزية كل من دخل في العقد.

«٢ ـ أن تعقد هدنة لنحو أحد عشر شهراً تنتهي في أول شهر بابه القبطي الموافق للثامن والعشرين من شهر سبتمبر (أيلول) من سنة ٦٤٢م.

«٣ ـ أن يبقى العرب في مواضعهم في مدة هذه الهدنة على أن يعتزلوا وحدهم ولا يسعوا أي سعي لقتال الإسكندرية وأن يكف الروم عن القتال.

«٤ ـ أن ترحل مسلحة الإسكندرية في البحر ويحمل جنودها معهم متاعهم وأموالهم جميعها، على أن من أراد الرحيل من جانب البّر فله أن يفعل على أن يدفع كل شهر جزاء معلوماً ما بقي في أرض مصر في رحلته.

«٥ ـ أن لا يعود جيش من الروم إلى مصر أو يسعى لردها.

«٦ ـ أن يكف المسلمون عن أخذ كنائس المسيحيين ولا يتدخلوا في أمورهم أي تدخل.

«٧ ـ أن يباح لليهود الإقامة في الإسكندرية.

«٨ ـ أن يبعث الروم رهائن من قبلهم ماية وخمسين من جنودهم وخمسين من غير الجند ضماناً لانفاذ العقد»[٥٦].

ولم نجد لدى المؤرخين العرب نصاً مشابهاً لهذا العقد، فلم يذكر الطبري ولا البلاذري ولا ابن الأثير ولا الواقدي شيئاً من ذلك، وقد استمر حصار المسلمين للإسكندرية ثلاثة أشهر[٥٧] وانتهى بخضوعها لهم كما قدمنا[٥٨].

ويذكر بتلر، نقلاً عن حنا النقيوسي، تاريخ خروج المقوقس (أو قيرس) إلى

(٥٥) ابن الأثير، المصدر السابق، جـ ٢ : ٥٦٧، وذكر البلاذري مثل ذلك إلا أنه جعل ما صالح عليه عمرو المقوقس «ثلاثة عشر ألف دينار» بدلاً من أثني عشر ألفاً (المصدر السابق، ص ٣١٠).

(٥٦) بتلر، م. ن. ص ٢٣٥.

(٥٧) البلاذري، المصدر السابق، ص ٣١٠، وابن الأثير، المصدر السابق، جـ ٢ : ٥٦٧. والمقريزي المصدر السابق، جـ ١ : ١٦٣.

(٥٨) لم يتمكن بتلر من إخفاء تعصّبه وذلك بإظهار حقده على المقوقس وكرهه له وإتهامه إياه بأنه «لم =

حصن بابليون لمفاوضته عمرو، وتاريخ توقيع عقد الصلح بينه وبين عمرو لتسليم الإسكندرية، (وينقل غلوب عن بتلر التواريخ نفسها) فيذكر أن المقوقس خرج إلى حصن بابليون «في أواخر شهر أكتوبر (تشرين الأول) بعد نحو عام من صلح بابليون الذي لم يتم»[٥٩] وتم توقيع عقد الصلح بينه وبين عمرو بشأن الإسكندرية في ٨ تشرين الثاني عام ٦٤١م[٦٠].

إلا أن هذا التاريخ يختلف إلى حد كبير عن بعض التواريخ الواردة في روايات المؤرخين العرب، وربما يكون مرد ذلك المهلة التي طلبها عمرو لمكاتبة الخليفة بشأن إبرام العقد، أو مهلة الهدنة التي اعطيت للروم كي يخرجوا من المدينة ويدخلها المسلمون، ولهذا، فإننا نرجح أن يكون المسلمون قد دخلوا الإسكندرية في عام ٢١هـ/٦٤٢م.

وآختلف المؤرخون، كذلك، في أمر فتح الإسكندرية، وهل تم صلحاً أم عنوة، فمنهم من قال إن عمرا «فتحها بالسيف وغنم ما فيها واستبقى أهلها ولم يقتل ولم يسب وجعلهم ذمة كأهل أليونة»[٦١]، ومنهم من قال إن فتحها تم صلحاً[٦٢]. أما الطبري فيذكر في رواية أن فتح الاسكندرية تم بناء على «عهد» بين عمرو وصاحبها (وهو المقوقس) ويذكر بعد ذلك رواية تخيير النصارى بين الإسلام أو الجزية كما سبق واوردناها[٦٣]، ولم يذكر غير ذلك. ونحن نرجح الرأي القائل

ينس بعد عودته ما كان في قلبه من الحفيظة على ديانة القبط، فكان يرضى بالاذعان للعدو وإسلام البلاد له ومصالحة من لا يؤمنون بدين المسيح، ولكنه ما كان ليرضى بأن يسالم القبط ويعفو عنهم» ويتهمه، في مكان آخر، بأنه كان يرغب في «إسلام بلاد مصر جميعها للعرب» وقد توصل إلى هذا الأمر «بالخداع والدناءة، حتى أنه لم يستطع أن يظهره لكبار قادة الدولة في الإسكندرية، ولا أن يعلنه للناس، فخرج وحده ذاهباً إلى حصن بابليون» لعرض الصلح على عمرو، (م. ن. ص ٢٣٣). وانظر (فتح الإسكندرية) عند المقريزي (المصدر السابق، جـ ١: ١٦٣ ـ ١٦٦) وقد ذكر أنه تم عام ٢٢ هـ (م. ن. جـ ١: ١٦٨).

(٥٩) بتلر، م. ن. ص ٢٣٣ وغلوب، م. ن. ص ٣٧١.

(٦٠) بتلر، م. ن. ص ٢٣٥، وغلوب، م. ن. ص ٣٧٢.

(٦١) البلاذري، المصدر السابق، ص ٣١٠ وابن الأثير، المصدر السابق، جـ ٢ : ٥٦٧.

(٦٢) ابن الأثير، إذ قال: «وقيل إن المقوقس صالح عمراً.... على أن يخرج من الإسكندرية من أراد الخروج ويقيم من أراد القيام» (م. ن. ص. ن).

(٦٣) الطبري، المصدر السابق، جـ ٤ : ١٠٤ ـ ١٠٦.

بأن دخول المسلمين الإسكندرية كان صلحاً وبعقد بين عمرو والمقوقس.

إلا أن ذلك لم يكن آخر عهد الروم بالإسكندرية إذ أنهم عادوا إليها عام ٢٥هـ/٦٤٦م(٦٤) باسطول كبير عدده ثلاثمائة سفينة حربية بقيادة البطريرك مانويل(٦٥)، وذلك بعد أن كاتبهم من فيها من الروم ودعوهم إلى نقض الصلح مع المسلمين. وتمكنت هذه الحملة من احتلال الإسكندرية بمعاونة من بقي فيها من الروم، إلا أن هذا الاحتلال لم يدم طويلاً، إذ سرعان ما عاد عمرو بن العاص إليها بخمسة عشر ألف مقاتل(٦٦) فحاصرها وآلى على نفسه ليهدمنّ أسوارها ولا يترك للروم سبيلاً إليها، ثم أنه دخلها وقاتل الروم فيها فهزمهم وقتل منهم في البلد «مقتلة عظيمة، منهم منويل الخصي..... وهدم عمرو سور الإسكندرية وتركها بغير سور»(٦٧). أما المقوقس فقد ثبت على عهد الصلح ولم ينقضه(٦٨)، فأقره عمرو ومن معه على أمره الأول «وروي أيضاً أنه قد كان مات قبل هذه الغزاة»(٦٩)، وأما من تبقى من الروم في المدينة، وخاصة أولئك الذين تعاونوا مع مانويل في هجمته، فقد لجأوا، مع الجند، إلى السفن، وولوا هاربين. واستقر المسلمون، بعد ذلك نهائياً، في المدينة.

ويذكر المقريزي أن عمراً أمر جنده بالكف عن قتل الروم عندما وصل إلى وسط المدينة، وبنى في ذلك المكان مسجداً دعاه «مسجد الرحمة» تذكاراً لما جرى(٧٠).

---

(٦٤) البلاذري، المصدر السابق، ص ٣١٠ ـ ٣١١، وابن الأثير، المصدر السابق، جـ٣ : ٨١، كما ذكر الطبري هذه الوقعة في أحداث العام المذكور (٢٥هـ)، ونقل الشيء نفسه عن الواقدي، (الطبري، المصدر السابق، جـ٤ : ٢٥٠) وكذلك المقريزي الذي ذكر أنها جرت عام ٢٥هـ (المصدر السابق، جـ١ : ١٦٨).

(٦٥) البلاذري، م. ن. ص. ن. وابن الأثير، م. ن. ص. ن.

(٦٦) البلاذري، م. ن. ص. ن.

(٦٧) ابن الأثير، المصدر السابق، جـ٣ : ٨١ والبلاذري، المصدر السابق، ص ٣١١ والمقريزي، المصدر السابق، جـ١ : ١٦٨.

(٦٨) ابن الأثير، م. ن. ص. ن.

(٦٩) البلاذري، م. ن. ص. ٣١١ ـ ٣١٢.

(٧٠) المقريزي، المصدر السابق، جـ١ : ١٦٨. وانظر (نقض الروم لصلح الإسكندرية وفتحها) عند المقريزي، م. ن. جـ١ : ١٦٧ ـ ١٦٨.

ويظهر أن الخلاف الذي جرى حول فتح الإسكندرية، صلحاً أم عنوة، ناتج عن هذين الفتحين، الأول الذي جرى صلحاً عام ٢١هـ/٦٤٢م وفي عهد الخليفة عمر (رضي) كما قدمنا، والثاني الذي جرى عنوة عام ٢٥هـ/٦٤٦م «في خلافة عثمان وبعد وفاة عمر»[٧١].

الدروس المستخلصة
من
«عين شمس إلى الإسكندرية»

١ ـ أسلوب المباغتة بالكمائن:

اتقن عمرو أسلوب المباغتة بالكمائن في وقعة عين شمس، فقد أعدّ هذه الكمائن إعداداً متقناً مما يسر لها سبل النجاح الكامل، فهو قد أرسلها لاتخاذ مواقع معينة في الليل، فأحسن اختيار تلك المواقع، وعيّن ساعة انطلاق كل منها في وقت يكون العدو منشغلاً بمجابهته، فباغتته تلك الكمائن في ميمنته وميسرته، فأحسن بذلك اختيار التوقيت وساعة الصفر ونقاط الصدم مع العدو. وهكذا تعتبر عملية عمرو «المباغتة بالكمائن» في هذه الوقعة من أكثر عمليات المباغتة نجاحاً واتقاناً.

٢ ـ أسلوب المباغتة في أثناء الحصار:

واتقن عمرو كذلك أسلوب المباغتة في أثناء حصار حصن بابليون، فبينما كان الروم المحاصَرون في هذا الحصن مطمئنين إلى أن المسلمين لن يستطيعوا النيل منهم، بفضل مناعة حصونهم وأسوارهم وما لديهم من ذخائر ومؤن ومعدات حربية، وبفضل ما وضعوه من عوائق من الحسك الشائك على أبواب الحصن وفي الخندق الذي جفت مياهه بعد هبوط مياه النيل، إذا بهم يفاجأون، في ليلة مظلمة، بالزبير بن العوام وثلة من رجاله المقاتلين، يعتلون السور مكبرين، ويباغتونهم

---

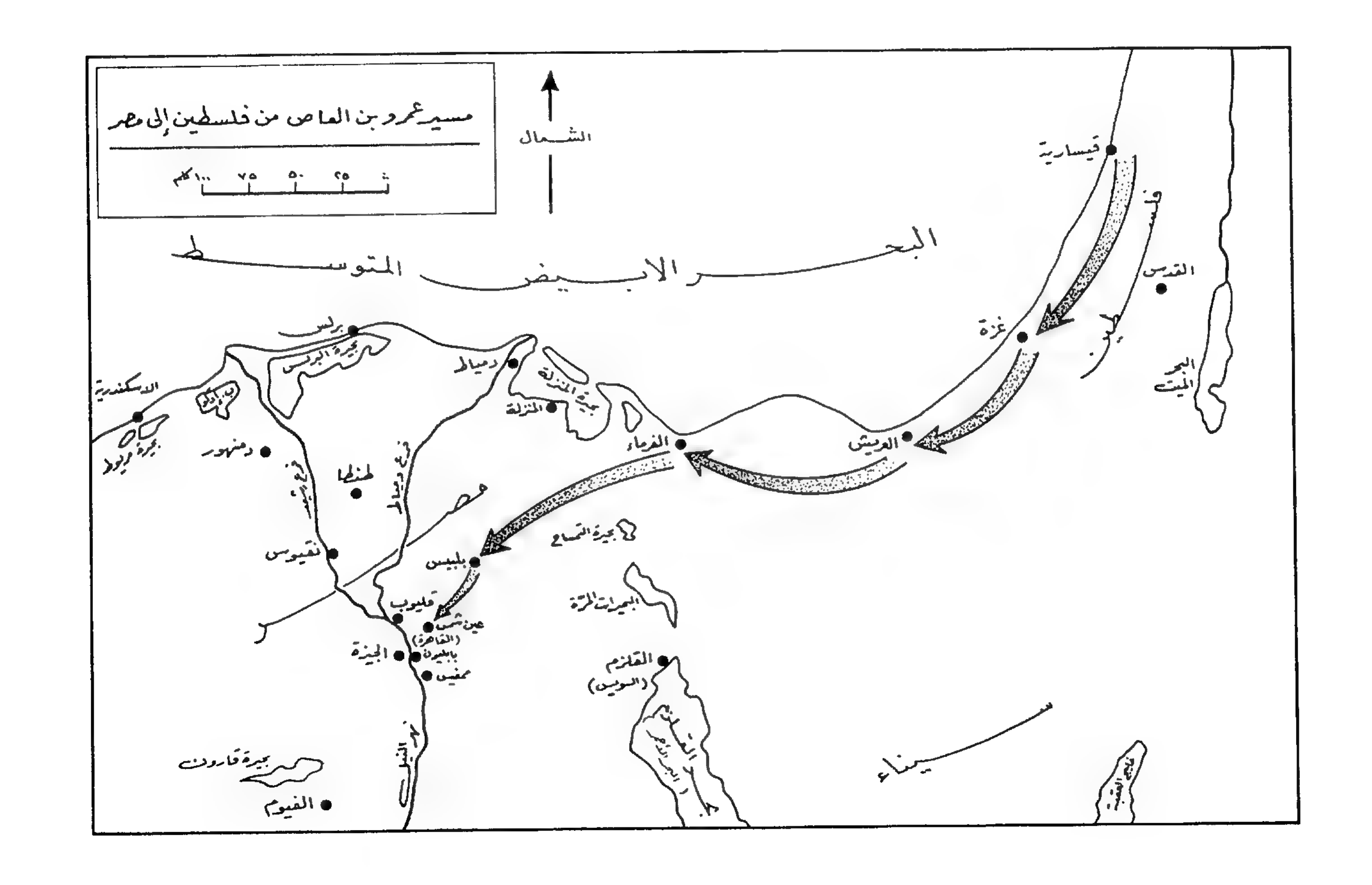
(٧١) البلاذري، م. ن. ص ٣١٤، ويظهر أن رواية الطبري التي سبق ذكرها والتي يقول فيها إن: بعض الناس يزعم ان الإسكندرية فتحت عام ٢٥هـ، وعلى سنتين من خلافة عثمان بن عفان (رضي) (الطبري، المصدر السابق، جـ ٤ : ١٠٤ ـ ١٠٥) تتناول ولا شك الفتح الثاني الذي تم عنوة، وليس الأول الذي تم صلحاً.

فيعملون السيف فيهم، ويهزم من في الحصن من المدافعين فيطلبون الصلح والأمان، ويدخل المسلمون الحصن فاتحين.

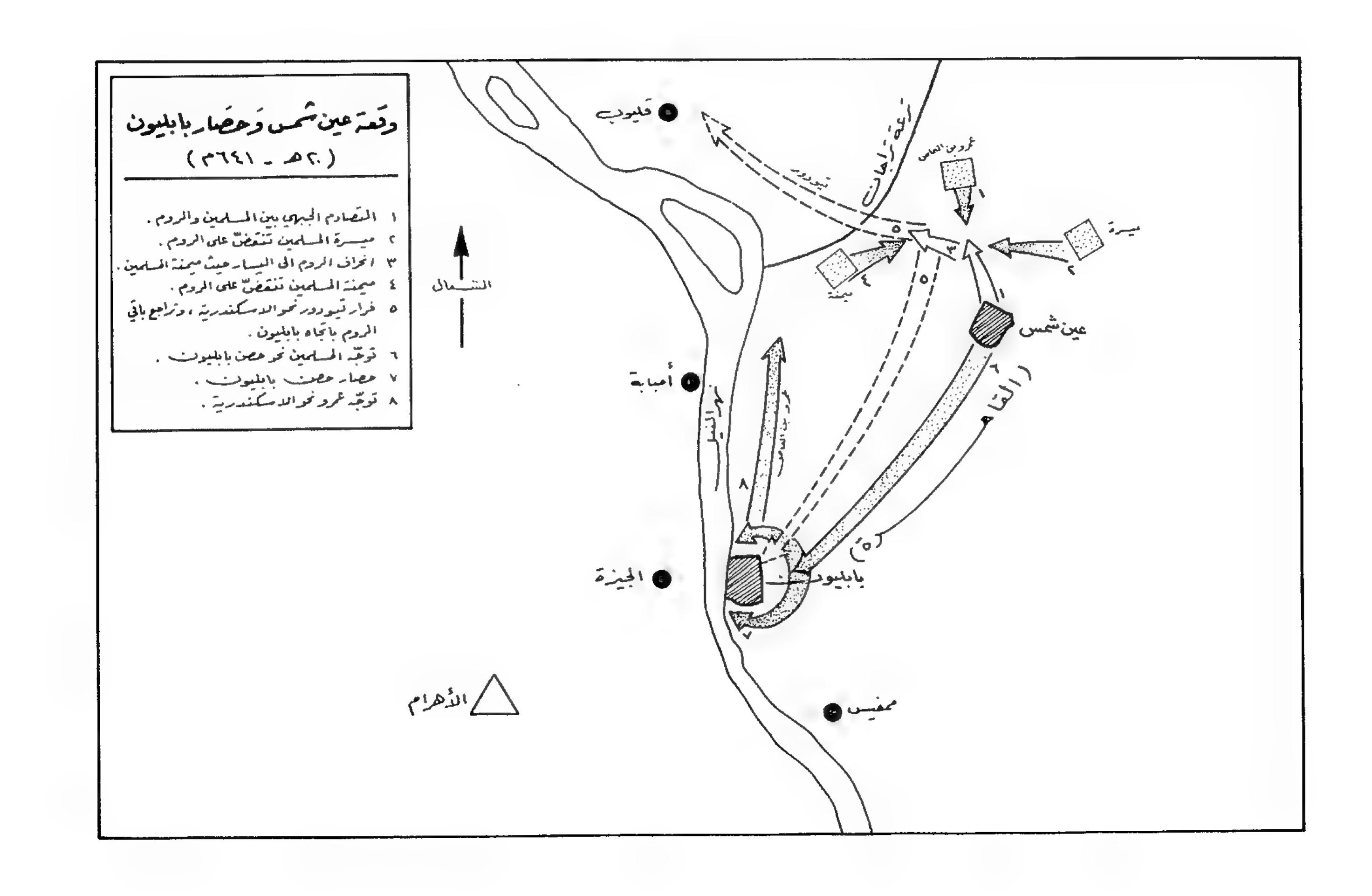
٣ ـ أسلوب «النفس الطويل» في الحصار:

اعتمد عمرو في حصار «كِرْيون» و«الإسكندرية» أسلوب «النفس الطويل»، فهو عندما أيقن صعوبة الانتصار على الروم المتمركزين في مواقع منيعة ومحصنة في كريون، بدأ بمناوشتهم، محاولاً، لمرة واحدة فقط، شن هجوم على الحصن، إلا أنه فشل، فاستمر في المناوشة تاركاً للزمن، والارهاق، ونفاذ الذخيرة والمؤونة وصبر الرجال، أن يفعل فعله. وهكذا كان، وما أن استمر حصار كريون «بضعة عشر يوماً» حتى أيقن الروم من عزم المسلمين على الإستمرار في هذا الحصار فلم يجدوا بدا من الاستسلام وتسليم الحصن للمهاجمين.

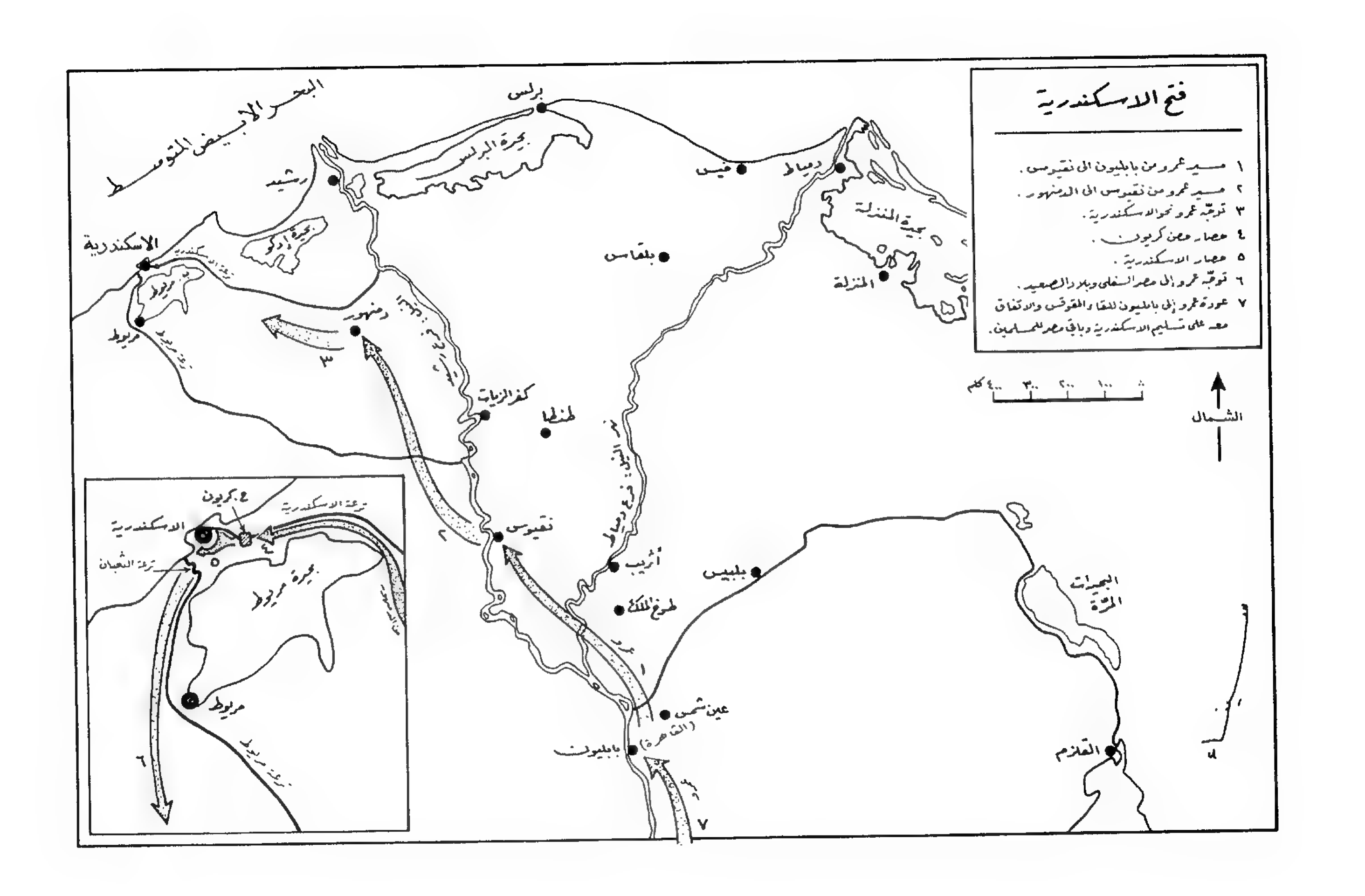
وحدث الشيء نفسه في حصار الاسكندرية، إلا أن هذا الأخير استمر مدة أطول (ثلاثة أشهر) وذلك لأن الروم كانوا يدركون إدراكاً تاماً أن هذه هي الفرصة الأخيرة لجيشهم بل ولهم جميعاً، فإن سقطوا في الإسكندرية سقطوا في مصر وفي افريقيا بأسرها. وهذا ما حصل تماماً، وليس صحيحاً على الإطلاق ما نسبه المؤرخ «بتلر» إلى المقوقس من خيانة «وخداع ودناءة» إذ أنه ليس منطقياً ولا معقولاً أن يخون ملك كالمقوقس نفسه ملكه وقومه بالشكل الذي وصفه بتلر.



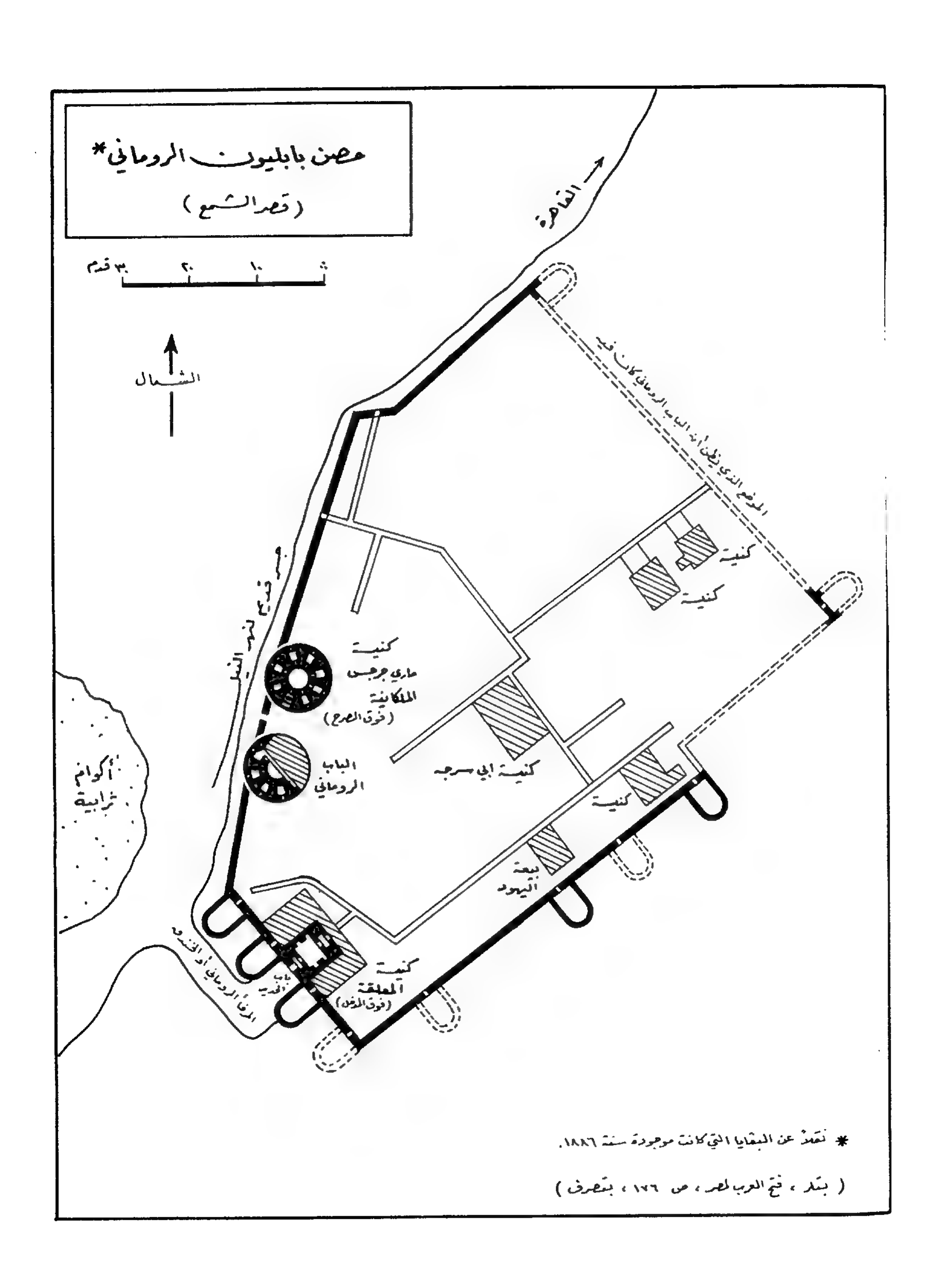
مسير عمرو بن العاص من فلسطين إلى مصر
٠ ٢٥ ٥٠ ٧٥ ١٠٠ كلم
الشمال
البحر الابيض المتوسط
قيسارية
فلسطين
القدس
البحر الميت
غزة
العريش
الفرماء
بلبيس
بحيرة التمساح
البحيرات المرة
القلزم
(السويس)
سيناء
خليج العقبة
قليوب
عين شمس
(القاهرة)
بابليون
منفيس
الجيزة
نهر النيل
بحيرة قارون
الفيوم
نقيوس
منوف
دمنهور
الاسكندرية
بحيرة مريوط
برلس
دمياط
المنزلة
بحيرة المنزلة
بحيرة البرلس
فرع دمياط
فرع رشيد
مصر



وقعة عين شمس وحصار بابليون
(٢٠هـ - ٦٤١م)
١ التصادم الجبهي بين المسلمين والروم .
٢ ميسرة المسلمين تنقض على الروم .
٣ انحراف الروم الى اليسار حيث ميمنة المسلمين .
٤ ميمنة المسلمين تنقض على الروم .
٥ فرار تيودور نحو الاسكندرية ، وتراجع باقي الروم باتجاه بابليون .
٦ توجه المسلمين نحو حصن بابليون .
٧ حصار حصن بابليون .
٨ توجه عمرو نحو الاسكندرية .
الشمال
قليوب
ترعة زلجات
عمرو بن العاص
ميسرة
ميمنة
عين شمس
أمبابة
نهر النيل
الجيزة
بابليون
الأهرام
ممفيس



فتح الاسكندرية
١ مسير عمرو من بابليون الى نقيوس.
٢ مسير عمرو من نقيوس الى الدمنهور.
٣ توجّه عمرو نحو الاسكندرية.
٤ حصار حصن كريون.
٥ حصار الاسكندرية.
٦ توجّه عمرو إلى مصر السفلى وبلاد الصعيد.
٧ عودة عمرو إلى بابليون للقاء المقوقس والاتفاق معه على تسليم الاسكندرية وباقي مصر للمسلمين.
٠ ١٠٠ ٢٠٠ ٣٠٠ ٤٠٠ كلم
الشمال
البحر الابيض المتوسط
الاسكندرية
رشيد
بحيرة البرلس
برلس
دمياط
فيس
بلقاس
بحيرة المنزلة
المنزلة
دمنهور
كفر الزيات
طنطا
نقيوس
أتريب
طوخ الملك
بلبيس
عين شمس
(القاهرة)
بابليون
البحيرات المرة
القلزم
مريوط
بحيرة مريوط
كريون
ترعة الثعبان



حصن بابليون الروماني*
(قصر الشمع)
٠ ١٠ ٢٠ ٣٠ قدم
الشمال
القاهرة
الموضع الذي يظن أن الباب الروماني كان فيه
كنيسة
كنيسة
مجرى قديم لنهر النيل
كنيسة مار جرجس الملكانية (فوق البرج)
الباب الروماني
كنيسة أبي سرجة
كنيسة
أكوام ترابية
بيعة اليهود
باب القديم
المرفأ الروماني أو الخندق
كنيسة المعلقة (فوق المدخل)
* نقلاً عن البقايا التي كانت موجودة سنة ١٨٨٦.
(بتلر ، فتح العرب لمصر ، ص ١٢٦ ، بتصرف)

المقالة الخامسة

وادي لكّة (Guadalete)

أو

معركة العبور الى الأندلس

٩٢هـ - ٧١١م

وادي لَكُه، هكذا يسميه ابن عذارى في كتابه (البيان المُغرِب)[١] نقلاً عن الرازي، والحميري في كتابه (الروض المعطار)[٢]، والمقرّي في كتابه (نفح الطيب)[٣]، نقلاً عن ابن حيان في كتابه (المقتبس)، ووادي لَكَّه أو وادي بَكّه، كما يسميه ابن القوطية في كتابه (تاريخ افتتاح الأندلس)[٤] وربما كان ابن عذارى يقصده عندما ذكر أن رذريق قتل في «وادي الطين»[٥]. كما سماه بعض المؤرخين وادي البرباط، نسبة إلى نهر البرباط (Barbate) الذي يمر فيه[٦]. ونسبه الحميري إلى مدينة قديمة كانت تدعى لكّه، وتقع على نهر لكّه، من كورة شذونة، جنوب الأندلس،وزاد على ذلك أنه «موضع من أرض الجزيرة الخضراء من ساحل الأندلس القبلي، فيه التقى طارق بن زياد... مع لذريق طاغية الأندلس، آخر ملوك القوط، الخ...»[٧].

وقد أجمع المؤرخون العرب على تسمية هذه المعركة باسم «معركة وادى لكّه»

(١) ابن عذارى المراكشي، البيان المُغرِب في أخبار الأندلس والمغرب، جـ٢ : ٨.
(٢) الحميري، محمد بن عبد المنعم، الروض المعطار في خبر الأقطار، ص ٦٠٥.
(٣) المقرّي التلمساني، أحمد بن محمد، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، جـ١ : ٢٢٣.
(٤) ابن القوطية، أبو بكر محمد بن عمر، تاريخ افتتاح الأندلس، ص ٣٣ وحاشية ١ و٣.
(٥) ابن عذارى، المصدر السابق، ص ٧.
(٦) مؤنس، حسين، فجر الأندلس، ص ٧٣.
(٧) الحميري، المصدر السابق، ص ٥١١ و٦٠٥.

مع أن خارطة الأندلس تظهر هذا الوادي (Guadalete) في موقع مختلف عن موقع المعركة، وعن «وادي البرباط» كذلك. فبينما نجد «وادي لكّه» يقع شمال «مدينة صيدونيا Medina Sidonia» أو «شذونة» كما يسميها المؤرخون العرب، ويمتد من شمال بلدة «أولفيرا Olvera» شمالاً بشرق، حتى جزيرة «قادس Cadiz» على الساحل الأطلسي، جنوباً بغرب، (انظر الخارطة)، نجد، من جهة أخرى، «وادي البرباط» يقع جنوب وادي لكّه وعلى موازاته، ويمتد من شرق مدينه «شذونة» شمالاً، ماراً بمحاذاة بحيرة «الخندق»[8] أو بحيرة الخاندا (Lago de La Janda) ومخترقاً السهل الفسيح المحيط بها، لينتهي في المحيط الأطلسي (أو بحر الظلمات) عند مدينة البرباط (Barbate) بالقرب من «الطرف الأغر» على الساحل الجنوبي للأندلس[9].

لا شك في أن هذه المعركة قد جرت على «نهر البرباط» أو «وادي البرباط». وأن تسميتها بمعركة «وادي لكّه» خطأ كاد يجمع عليه المؤرخون العرب، ودليلنا على ذلك أن بعضهم قد سماها «معركة البحيرة» نسبة إلى «بحيرة الخاندا»، وسماها بعضهم الآخر «معركة شذونة» نسبة إلى مدينة «شذونة» القريبة من النهر والبحيرة، ولا شك كذلك في أن التسمية الصحيحة لهذه المعركة هي «معركة وادي البرباط» وهو اسم الوادي الذي جرت فعلاً عليه[10].

جرت هذه المعركة بين طارق بن زياد الليثي[11] وبين رودريك (Rodrigue)

---

(٨) هكذا يسميها مؤنس دون أن يذكر مصدر هذه التسمية، وربما أخذها من كلمة (خاندا Janda) الاسبانية المشتقة من كلمة (خندق) العربية، (مؤنس، المصدر نفسه، ص ٧١).

(٩) يجدر الإشارة إلى أن كلمة (لكّه) تلفظ بصور مختلفة، مثل: لَكُّه عند ابن عذارى، وكذلك الحميري، ولَكُّه عند المقرّي، وابن القوطي، وعند ابن الخطيب، ولِك Leke في الصورة الاسبانية للرازي، وقد حاول البعض تفسير اسم هذا الوادي (بوادي اللذة أو وادي السرور) Guadalete (انظر: مؤنس، المصدر السابق، ص ٧١ حاشية ١).

(١٠) ورد في «أخبار مجموعة» لمؤلف مجهول ص ١٨: «فالتقى لذريق وطارق، وهو بالجزيرة، بموضع يقال له: البحيرة، فاقتتلوا قتالاً شديداً، فانهزمت الميمنة والميسرة...»، ويذكر محمد عبد الله عنان في كتابه (دولة الإسلام في الأندلس، ق ١ : ٤٥)، مشيراً إلى المعركة نفسها: «هكذا كانت موقعة شذونة التي دالت فيها دولة القوط» كما يشير في مكان آخر من الكتاب نفسه (ص ٤٢) إلى هذا الالتباس الذي وقع فيه المؤرخون العرب، ويؤكد ما ذهبنا إليه من أن المعركة جرت على وادي البرباط وليس على وادي لكه.

(١١) هكذا نسبه ابن خلدون في تاريخه (كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر، جـ ٤ : ٢٥٣) وقد اختلف=

أو لذريق ملك القوط[١٢] وآخر ملوك اسبانيا قبل الفتح في عام ٩٢هـ (٧١١م) وقد استمرت ثمانية أيام وانتهت بهزيمة القوط هزيمة تامة. وأهمية هذه المعركة أنها كانت أول معركة حاسمة في الفتح الإسلامي لبلاد الأندلس، إذ تمزق، على أثرها، الجيش الاسباني (القوطي) وانهار، وانفتحت أمام طارق، ومن جاء بعده من المسلمين الفاتحين، أبواب الأندلس وما بعدها من اسبانيا وجنوب فرنسا.

١ ـ الوضع العام ومقدمات الفتح:

يمتد الساحل الشمالي للمغرب العربي (الافريقي) ما بين مدينتي (الجزائر) شرقاً و«طنجة» غرباً، بموازاة الساحل الجنوبي لشبه جزيرة «ايبيريه» من قارة أوروبا، أو الساحل الاسباني، ما بين «قرطاجنة» في اقليم «تدمير» على البحر المتوسط، شرقاً، و«قادس» على المحيط الأطلسي، جنوباً. وتفصل بين الساحلين مياه البحر الأبيض المتوسط التي تتصل ما بين «ألمرية» على الساحل الاسباني و«وهران» على الساحل الافريقي، بما كان يسمى قديماً «بحر الزقاق»[١٣]. ويقترب

= المؤرخون في أصل طارق ونسبته، فذكر المقري أنه فارسي أو بربري إذ قال: «فدعا ـ أي موسى بن نصير ـ مولى له كان على مقدمته يسمى طارق بن زياد بن عبد الله، فارسياً همذانياً، قيل إنه ليس بمولى لموسى وإنما هو رجل من صَدِف، وقيل: مولى لهم، وقيل: إنه بربري من نفزة» (المقري، المصدر السابق، جـ١ : ٢٣٨). وذكر ابن عذارى نقلاً عن صالح بن أبي صالح أنه بربري فقال: «هو طارق بن زياد بن عبد الله بن رَفْهُو بن وَرْفَجُوم بن نيزغاسن بن وَلْهاص بن يَطُوفَت بن نَفْزاو» (ابن عذارى، المصدر السابق، ص ٥). فهو اذن بربري من نفزة. ونجد في «أخبار مجموعة» قولاً يشبه ما ورد عند المقري، وهو أن طارقاً كان «فارسياً همذانياً»، ويقال: إنه ليس بمولى موسى بن نصير و«إنه من موالي صَدِف» (ص ١٧). ولكن معظم المؤرخين المحدثين يكادون يجمعون على أن طارقاً بربري الأصل من نفزة بافريقية (مؤنس، المصدر السابق، ص ٦٨).

(١٢) اتفق المؤرخون العرب على أن رودريك كان ملك القوط في هذه الفترة وقائد جيشهم في هذه المعركة، إلا أن المؤرخين العرب والمسلمين اختلفوا في كتابة اسمه. فكتبه الحميري لذريق (المصدر السابق ص ٦٠٦)، وكتبه ابن خلدون: لزريق (المصدر السابق، جـ٤ : ٢٥٣) وكتبه الطبري: الأدرينوق)(تاريخ الرسل والملوك، جـ٦ : ٤٦٨)، وكتبه ابن الأثير: الاذرينوق، واعتبره من اصبهان ومن ملوك عجم الأندلس، (الكامل في التاريخ، جـ٤ : ٥٥٦)، وكتبه المقري: لذريق (المصدر السابق ص ١٣٦) وكتبه كذلك ابن القوطية (المصدر السابق، ص ٢٩) وفي «أخبار مجموعة» ورد كذلك (ص ١٥). وكتبه ابن عذارى: رذريق (المصدر السابق، ص ٣). وقد ذهب معظم المؤرخين إلى القول إن ملوك القوط في الأندلس كانوا من العجم، وقال البلاذري إن أصلهم من اصبهان (فتوح البلدان، ص ٣٢٣).

الساحلان، الأوروبي والافـريقي، فيكادان يتعـانقان، مـا بين «سبتـة» شرقاً و«طنجة» غرباً، على الساحل الافريقي، وجزيرة «طريف»[14]، على الساحل الأوروبي، عند المضيق الذي يصل بين البحر والمحيط، والذي سماه العرب في أول الفتح «مجازاً»[15]، وعند الجبل الذي سمي «جبل الفتح» أو «جبل طارق»[16]، نسبة إلى القائد المسلم طارق بن زياد الليثي، الذي فتح تلك البلاد المسماة «بلاد الأندلس».

وكان المسلمون، في أواخر القرن الأول الهجري، أي في أوائل الثامن الميلادي، وفي عهد الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك، قد أكملوا بسط سلطتهم على شمال افريقيا، باستثناء «سبتة» فقد قعد عنها موسى بن نصير بعد أن لقي مقاومة عنيفة من حاكمها البيزنطي جوليان (Julien) أو يليان[17]، الذي كان يتلقى المدد والعون من مملكة القوط في شبه جزيرة ايبيرية (اسبانيا)، وكانت «سبتة» (Ceuta) هذه آخر معقل للبيزنطيين في افريقيا الشمالية، كما أنها لم تكن تشكل أي

---

(١٣) المقري، المصدر السابق، جـ١ : ٢٣٢. نقلاً عن ابن حيان في «المقتبس».

(١٤) جزيرة طريف ليست بجزيرة، وإنما سميت بذلك الجزيرة التي أمامها في البحر وهي الجزيرة الخضراء، وطريف المنسوبة إليه بربري من موالي موسى بن نصير بعثه موسى قبل طارق ببعثة إلى تلك البلاد ليستكشف أخبارها (المقري، المصدر السابق، جـ١ : ١٥٢).

(١٥) المقري، المصدر السابق، جـ١ : ٢١٤. نقلاً عن الحجازي وابن حيان وغيرهما.

(١٦) ابن خلدون، المصدر السابق، جـ٤ : ٢٥٤.

(١٧) اختلف المؤرخون في نسب «يُليان» هذا، فمنهم سافدرا «Saavedra» الذي اعتبره فارسي الأصل، من الازارقة (مؤنس، المصدر السابق، ص ٥٣ حاشية ٣). وقد ذكرت الروايات الإسلامية سلالة يليان بعد الفتح كما يلي: يليان ـ بلكايش (أسلم بعد الفتح وحسن إسلامه) ـ عبد الله ـ الحكم ـ سليمان ـ أيوب (توفي سنة ٣٢٦هـ) ـ سليمان (توفي سنة ٣٧٩هـ) ـ أحمد (توفي سنة ٣٨٨هـ)، وقد اشتهر الثلاثة الأخيرون من هذه السلالة بصدق إسلامهم وسعة علمهم (مؤنس، م. ن. ص. ٥٣ ـ ٥٤ حاشية ٣)، وكذلك كتاب «أخبار مجموعة» الذي اعتبره «علجاً» أي فارسياً، فجاء فيه «وكان عليها ـ أي سبتة ـ وعلى حولها من المدائن، علج يسمى يُليان» (اخبار مجموعة، ص ١٥) وكذلك (ابن عذارى) الذي اعتبره علجا، أي فارسياً (المصدر السابق، جـ٢ : ٤)، نقلا عن عَريب، ومنهم (ابن خلدون) الذي اعتبره بربرياً، قال ابن خلدون «وكان ملك البرابرة بذلك القطر الذي هو اليوم بجبال غمارة يسمي بليان» ـ بالباء وليس بالياء ـ (المصدر السابق، جـ٤ : ٢٥٣). وذكر مؤنس أن بعض المؤرخين يزعم أن يليان قوطي والبعض الآخر يزعم أنه رومي، إلا أنه لم يذكر من هو هذا البعض أو ذاك (مؤنس، المصدر السابق، ص ٥٢ ـ ٥٣)

خطر على الولاية الإسلامية الجديدة، بل أضحت، بعكس ذلك، تحت رحمة المسلمين الذين استولوا على «طنجة» ولم يبقوا لحاكم «سبتة» إلا شريطاً ساحلياً ضيقاً ومحدوداً، وربما كان ذلك هو السبب الأساسي في تساهل المسلمين مع حاكم «سبتة» البيزنطي.

وجعل موسى (بن نصير)[18] مدينة «القيروان» عاصمة لولايته في افريقيا الإسلامية، ثم انصرف إلى تنظيم الحكم والإدارة في هذه الولاية بعد أن سلم حكم طنجة الواقعة على حدود «سبتة» لواحد من أكفاء قادته وأكثرهم بسالة وجدارة، والذي سوف يعرف، فيما بعد، بفاتح الأندلس، وهو «طارق بن زياد الليثي». ولعله خطر ببال طارق، وهو يسرّح بصره من مقره في المدينة الافريقية الواقعة على الساحل المقابل والقريب من الساحل الأندلسي، فوق مياه ذلك المجاز أو الخليج أو المضيق من بحر الزقاق[19]، لعله خطر بباله أن ينطلق، عبر هذه المياه، ليستكشف معالم القارة المقابلة والغريبة عنه وعن عالمه الصحراوي، ولكنه لم يكن يحسب، ولا شك، أن القدر قد أعده ليكون أول قائد مسلم تطأ قدماه أرض تلك الديار، فاتحاً.

وإذا كان للمسلمين طموح في فتح بلاد الأندلس، في ذلك الحين، وبعد أن استتب الحكم لهم في شمال افريقيا، فإن ظروف الحكم الذي كان قائماً في شبه الجزيرة الإيبيرية قد ساعدتهم ولا شك، إلى حد كبير، على تحقيق هذا الطموح، فقد كان رودريك (أو لذريق) يعاني من مشاكل داخلية ضاغطة وصعبة الحل، فهو كان قد انتزع الحكم من أصحابه الشرعيين آل غيطشة (Wittiza)[20] بعد موت هذا؟

---

(١٨) أبو عبد الرحمن، موس بن نصير، قيل إنه لخمي (ينتمي إلى بني لخم) وقيل إنه بكري (من بكر بن وائل)، وقيل إنه علج أصابه خالد بن الوليد في عين التمر، فصار وصيفاً لعبد العزيز بن مروان الذي أعتقه (المقري، المصدر السابق، ص ٢٣٤).

(١٩) سمي «مجازاً» كما مر معنا، وسمي «خليجاً» كما ورد في كتاب «أخبار مجموعة» وفي كتاب من موسى بن نصير إلى الوليد بن عبد الملك (ص ١٦)، وسمي «مضيقاً» كما هو معروف اليوم.

(٢٠) تسلم غيطشة حكم القوط في عام ٧٠٠م إلا أنه توفي بعد ذلك بفترة قصيرة (في أواخر عام ٧٠٨ أو أوائل عام ٧٠٩م)، وذكر مؤنس روايتين مختلفتين عن موت غيطشة فقال في إحداهما ـ ص ١٥ ـ إنه مات ميتة طبيعية، وقال في الثانية ـ ص ٥٥ ـ إنه مات قتلاً، ولم توضح المراجع الأخرى ذلك. وقد خلف غيطشة أولاداً صغاراً اختلف المؤرخون في عددهم، فجاء في كتاب «أخبار مجموعة» ما يلي:

الأخير وتركه أولاداً صغاراً، قاصرين وضعفاء، ولم يكن لذريق، في الأصل، من «بيت الملك» وإنما كان أحد قادة جيش غيطشة وفرسانه[٢١].

ولم يحسن لذريق إدارة المملكة، فكثر لذلك خصومه، بالإضافة إلى أولئك الذين كانوا، في الأساس، حلفاء للملك المتوفى، وكان يليان واحداً من هؤلاء الحلفاء، فلجأ إليه أولاد غيطشة سراً يطلبون منه مؤازرتهم لاستعادة ملك أبيهم من غاصبه[٢٢].

وكان لأولاد غيطشة أنصار كثر في مملكة لذريق، مما شجع يليان، وهو خصم للذريق، على السعي لخلع هذا الأخير بأية وسيلة من الوسائل، ولم يكن

= «هلك ملك الأندلس غيطشة، وترك أولاداً لم يرضهم أهلها، منهم: ششبرت، وابه» (ص ١٥)، وذكر «ابن القوطية» أن غيطشة «آخر ملوك القوط بالأندلس» توفي عن ثلاثة أولاد: «أكبرهم ألمند ثم وَقْلة (والأصل: رملة) ثم أرطباش» (المصدر السابق ص ٢٩)، وذكر المقري أن أولاد غيطشة اقتسموا، بعد الفتح، ضياع والدهم، وكانت ثلاثة آلاف ضيعة، فصار منها لكبيرهم ألمند ألف ضيعة.. وصار لأرطباش ألف ضيعة، وهو تلوه في السن.. وصار لثالثهم وقلة ألف ضيعة..» (ص ٢٤٩)، ولكن مؤنس يقرر، بعد بحث دقيق قام به في هذا المجال، أن غيطشة «ترك من بعده زوجاً أرملة طامعة في العرش، وأخاً لا يقل طمعاً هو أبَّه (Oppa) وكان أسقفاً لاشبيلية، وثلاثة بنين هم: أخيلا (رُمُله عن المقري وابن القوطية وصحته وَقِله)، وألمند (Olmundo) وارطاقازدُس أو اردبست (أرطباس أو أرطبان)، وتضيف بعض الروايات شخصاً آخر سيلعب فيما يلي من الحوادث دوراً مهما هو سيسبرتو Siseberto (ششبرت، وسبرى، وسبسرة في النصوص العربية)، وتزعم أنه كان أخاً لغيطشة أو ابناً له، ويذهب ساڤدرا Saavedra إلى أنه لم يكن من العائلة، وإنما من المتصلين بها وحسب» (المصدر السابق ص ١٥).

(٢١) جاء في «أخبار مجموعة» أن القوط رفضوا أن يحكمهم أي من أولاد غيطشة فتراضوا على «علج يقال له: لذريق، شجاع، هَجوم، ليس من بيت الملك، إلا أنه من قوادهم وفرسانهم، فولوه أمرهم» (المصدر السابق ص ١٥)، إلا أن معظم المؤرخين يجمعون على أن لذريق انتزع الملك انتزاعاً (انظر: المقري، م. ن. جـ ١ : ٢٣٢ ـ ٢٣٣ عن ابن حيان). ويذكر ابن القوطية أنه، عندما توفي غيطشة، كان أولاده صغارا، «فضبطت عليهم أمهم ملك أبيهم بطليطلة، وانحرف لذريق، وكان قائداً للملك أبيهم... فاحتل قرطبة» (م. ن. ص ٢٩).

(٢٢) يذكر كثير من المؤرخين قصة اغتصاب لذريق لابنة يليان التي كانت في بلاده جرياً على عادة كبار القوم في المملكة الذين كانوا يرسلون أبناءهم، ذكوراً واناثاً، إلى بلاط الملك ليتعلموا الأدب وليتربوا تربية الملوك، وقد حقد يليان على لذريق لهذا السبب وعقد العزم على التعاون مع أولاد غيطشة ومع المسلمين لكسر شوكة لذريق وانتزاع الملك منه (انظر: ابن خلدون، م. ن. جـ ٤ : ٢٥٣، والمقري، م. ن. جـ ١ : ٢٣٦ ـ ٢٣٧، وابن عذارى، م. ن. ص ٧، و«أخبار مجموعة» ص ١٥، وغيرها).

أسهل عليه من الاتصال بجيرانه المسلمين وإغرائهم بسهولة احتلال بلاد الأندلس وقهر مليكها وخلعه عن ملكها والتمتع بخيراتها، وكان يعتقد، هو وأولاد غيطشة وأنصارهم من خصوم لذريق، أن هؤلاء المسلمين لا يهمهم من احتلالهم لبلاد الأندلس سوى الفوز بالغنائم، وأنهم لن يكونوا فيها سوى وافدين ينشدون الغنيمة، ويكتفون؟ بما يكسبون من متاع وسبي ثم يعودون أدراجهم من حيث أتوا، ويخلو لأولاد غيطشة وأنصارهم الحكم في البلاد. واتصل يليان بطارق في طنجة وعرض عليه الفكرة فأعجبت طارقاً وأغرته المغامرة، واتصل بموسى بن نصير في القيروان فكان رأيه كرأي طارق، ويقال إن لقاء تم في القيروان بين القائدين المسلم والبيزنطي، موسى ويليان، تم على أثره الإتفاق بينهما على عملية الفتح، بعد أن استطاع يليان إقناع موسى بفوائد هذه العملية ووصف له حسن تلك البلاد «وما جمعت من أشتات المنافع وأنواع المرافق وطيب المزارع وكثرة الثمار وثرارة المياه وعذوبتها، وهوّن عليه مع ذلك حال رجالها، ووصفهم بضعف البأس وقلة الغَنَاء، فشوق موسى إلى ما هناك»[٢٣]، ولكن موسى كان، مع ذلك، حذرا من عرض يليان خشية أن يودي به، مع المسلمين، في تهلكة ليست بالحسبان، فأراد أن يختبر جدية قوله وصدق نواياه، فطلب إليه أن يقوم بنفسه، وبسرية من جنده، بحملة على الساحل الجنوبي للأندلس، وكان هدف موسى من ذلك أن يختبر صدق يليان من جهة، وأن يستشكف العدو ويستطلع أخباره من جهة أخرى. ونفذ يليان المهمة، بالفعل، فجمع سرية من رجاله وأبحر بهم على مركبين من عنده نحو الجزيرة الخضراء «فأغار وقتل وسبى وغنم، وأقام بها أياماً، ثم رجع بمن معه سالمين»[٢٤]، عندها اطمأن موسى إلى حليفه وارتاح إليه، ثم كتب إلى أمير المؤمنين الوليد بن عبد الملك يعرض عليه ما عرضه يليان من فتح الأندلس ويستأذن في ذلك، فكتب إليه الوليد «خضها بالسرايا حتى ترى وتختبر شأنها، ولا تغرِّر بالمسلمين في بحر شديد الأهوال»، فكتب إليه موسى يقول: «إنه ليس ببحرزخّار وإنما هو خليج منه يبين للناظر ما خلفه»، فكتب إليه الخليفة: «وإن كان، فلا بد

(٢٣) المقري، المصدر السابق، جـ ١ : ٢٣٦ ـ ٢٣٧.
(٢٤) م. ن. جـ ١ : ٢٣٧.

من اختباره بالسرايا قبل اقتحامه»[٢٥]، وهكذا، فقد كان جواب الخليفة بشأن الفتح، إيجابياً، إلا أنه كان مشروطاً بالاستطلاع والاستكشاف قبل الاقدام على فتح بلاد ربما هان على المسلمين الدخول في متاهاتها، إلا أنه قد يصعب عليهم البقاء فيها أو الخروج منها سالمين.

٢ ـ الحملة الاستطلاعية، أو حملة طريف:[٢٦]

نفذ موسى أوامر الوليد بأن جهز حملة استطلاعية مؤلفة من سرية بلغت أربعمأية من المشاة وألفاً من الخيالة[٢٧] بقيادة طريف بن مالك المعافري (أو النخعي)، وأمره أن يجتاز بهذه الحملة المضيق إلى الساحل المقابل للساحل الافريقي ليستطلع أخبار العدو فيه ويعود، وقد استعان، لعبور المضيق، بمراكب أعدها له حليفه يليان الذي قدّم لطريف أربع سفن حملت المسلمين من «سبتة» إلى جزيرة تدعى «بالوماس» أو «الجزيرة الخضراء» على مقربة من موضع سوف تقوم عليه فيها بعد بلدة تحمل اسم طريف (أو جزيرة طريف) (Tarifa) حيث استقرت الحملة التي قادها هذا القائد الإسلامي. وكان إبحار هذه الحملة من سبتة في رمضان عام ٩١هـ (تموز ٧١٠م) وقد جال طريف في الجزيرة والنواحي المحيطة بها وبارشاد من إيليان نفسه[٢٨]، واستطلع أخبار العدو في تلك

---

(٢٥) م. ن. ص. ن وانظر نصاً مشابهاً في «أخبار مجموعة» ص ١٦.

(٢٦) هو طريف بن مالك المعافري، يكنى بأبي زُرعة. يرى ابن خلدون أنه نخعي (المصدر السابق، جـ ٤ : ٢٥٤)، ويرى المقري أنه بربري (المصدر السابق جـ ١ : ١٥٢)، وكذلك نقلاً عن الحجاري وابن حيان (المقري، م. ن. جـ ١ : ٢١٤)، وذكر نقلاً عن الرازي أنه معافري (المقري، م. ن. جـ ١ : ٢٣٨) أما ابن عذارى فيذكر أن طريفاً بربري، ويكنّى بأبي زرعة (المصدر السابق جـ ٢ : ٥)، أما كتاب «أخبار مجموعة» فلم يذكر أصل طريف بل قال إن موسى «بعث رجلاً من مواليه يقال له طريف، ويكنى بأبي زرعة. .» (ص ١٦) والغريب أن طريفاً هذا الذي قاد أول حملة استطلاعية ناجحة إلى بلاد الأندلس وإلى الجزيرة التي سمِيت باسمه، لم نعد نسمع باسمه طيلة مدة فتح المسلمين لهذه البلاد.

(٢٧) المقري، المصدر السابق، جـ ١ : ٢١٤ نقلاً عن الحجاري وابن حيان، وابن عذارى، المصدر السابق، جـ ٢ : ٥، وأخبار مجموعه، ص ١٦، وغيرها.

(٢٨) المقري، م. ن. جـ ١ : ١٥٢، وكذلك نقلاً عن الحجاري وابن حيان (ص ٢١٤) وابن عذارى، م. ن. جـ ٢ : ٥، وأخبار مجموعة، ص ١٦.

الجهات، ثم عاد مع سريته ليحدث موسى بن نصير عن ما تنعم به تلك البلاد من خيرات وعن الود الذي استقبل به، هو وجماعته، من أهلها، باعتبارهم موالين لغيطشة وأولاده وحليفهم يليان، مما زاد من حماسة موسى وتشوقه للاستعجال بفتح بلاد الأندلس.

٣ ـ العبور:

بعد الحملة الاستطلاعية التي قام بها طريف إلى الأندلس، أصبح أمر فتح هذه البلاد، في نظر موسى وطارق، وفي نظر الخلافة في دمشق، أمراً جدياً، وبدأت الاستعدادات للحملة على قدم وساق، ولبث موسى، في طنجة، ردحاً من الزمن، يعمل مع طارق على تنظيم الجيش الذي سيقوم بهذه المهمة الخطيرة، ولم يمر عام على الحملة الاستطلاعية التي قادها طريف حتى كانت طلائع حملة الفتح تبحر من سبتة، في رجب عام ٩٢ هـ (أوله ٢٤ نيسان ٧١١م)[٢٩]، بقيادة طارق نفسه، ولم تبحر هذه الحملة دفعة واحدة خشية أن ينفضح أمرها وتثير انتباه العدو، بل كانت تُنقل إلى الساحل الأندلسي في السفن التجارية التي أعدها يليان لها، حتى اكتمل قوامها سبعة آلاف مقاتل، جلهم من البربر المسلمين، ما عدا قلة من العرب[٣٠]، وانضم إليهم، فيما بعد، يليان بنفر من صحبه وأتباعه، وإذا

---

(٢٩) ذكر المقري (م. ن. جـ ١: ٢١٥)، نقلاً عن ابن بشكوال، أن طارقاً احتل الجبل المنسوب إليه «يوم الاثنين لخمس خلون من رجب سنة ٩٢ هـ» (م. ن. جـ ١: ٢١٥)، ونقل عن ابن حيان قوله: «وحط ـ أي طارق ـ بجبل طارق المنسوب إليه يوم السبت في شعبان سنة ٩٢» (م. ن. جـ ١: ٢١٦)، ويذكر الحميدي، في «جذوة المقتبس» أن طارقاً «صعد إلى الجبل المنسوب إليه يوم الاثنين خامس رجب سنة ٩٢» (المقري، م. ن. جـ ١: ٢٢٤). وهكذا نرى أن آراء معظم المؤرخين تراوح، لنزول طارق بالأندلس، ما بين رجب وشعبان من عام ٩٢ هـ، إلا أنها تؤكد جميعها بلا خلاف أنه نزلها في العام المذكور.

(٣٠) ذكر ابن خلدون أن طارقاً حشد، في الأندلس، عند نزوله بها: ثلاثمائة من العرب وزهاء عشرة آلاف من البربر (م. ن. جـ ٤ : ٢٥٤)، وذكر المقري، نقلاً عن ابن حيان، أن طارقاً جهز للنزول بالأندلس «سبعة آلاف من المسلمين جلهم من البربر، في أربع سفن» (م. ن. جـ ١ : ٢١٦)، وذكر المقري في رواية أخرى، الشيء نفسه (المقري، م. ن. ص ٢٣٨). وقد ذكر معظم المؤرخين أن طارقاً فتح الأندلس باثني عشر ألف مقاتل (الطبري، المصدر السابق، جـ ٦ : ٤٦٨، وابن الأثير، المصدر السابق، جـ ٤ : ٥٥٦، والمقري، جـ ١ : ٢١٥، عن ابن =

كان للبربر المسلمين فضل تكوين حملة لفتح بلاد الأندلس، وعلى رأسهم قائدهم البربري الأصل، طارق، فذلك لأنهم كانوا أدرى من العرب في تلك البلاد وأكثر منهم خبرة بدروبها ومسالكها وأهلها، كما كان ذلك دليلاً على ثقة موسى بصدق إسلامهم على الرغم من حداثة عهدهم بالإسلام، ولكن ذلك لم يمنع موسى من أن يبعث، مع طارق وبإمرته، خيرة القادة المسلمين أمثال عبد الملك بن أبي عامر المعافري وعلقمة اللخمي ومغيث الرومي (مولى الوليد بن عبد الملك) وسواهم.

وما أن اكتمل عقد الجيش الإسلامي على الساحل الجنوبي للأندلس، عند جبل كالبي (Calpe) الذي سمي فيما بعد «جبل الفتح أو جبل طارق» حتى باشر طارق بإحكام رأس الجسر الذي أقامه بجيشه على الساحل الأندلسي، وتوسيعه، فأقام قاعدة حصينة له عند سفح الجبل، وأنشأ مرفأ يصله بسبتة، وأنشأ حول الجبل سوراً سمي «سور العرب»(٣١). ويعتقد كثير من المؤرخين أن طارقاً أحرق سفنه، بعد أن أنزل جيشه على الساحل الأندلسي، ثم خطب بجنده الخطبة الشهيرة: «أيها الناس، أين المفر، البحر من ورائكم، والعدو أمامكم وليس لكم والله إلا الصدق والصبر. . .» إلى أن يقول: «. . . واعلموا أني أول مجيب إلى ما دعوتكم إليه، وأني، عند ملتقى الجمعين، حامل بنفسي على طاغية القوم لذريق فقاتله إن شاء الله تعالى، فاحملوا معي، فإن هلكت بعده فقد كفيتكم أمره، ولم يعوزكم بطل عاقل تسندون أموركم إليه، وإن هلكت قبل وصولي إليه فاخلفوني في عزيمتي هذه واحملوا بأنفسكم عليه، واكتفوا لهم من فتح هذه الجزيرة بقتله، فإنهم يخذلون بعده». ولكن بعض المؤرخين يرى أن طارقاً لم يحرق سفنه، بل أعادها إلى الساحل الافريقي(٣٢)، وأن الخطبة التي نسبت إليه هي من وضع مؤرخين

= بشكوال وص ٢٢٤ عن الحميدي في «جذوة المقتبس» وص ٢٣٨، عن آخرين، وابن عذارى، المصدر السابق، ص ٦، عن الرازي عن الواقدي). إلا أنه ليس من خلاف بين هذه الأراء جميعها، باعتبار أن طارقاً انطلق، في البدء، بسبعة آلاف ثم ألحق به موسى بعد ذلك خمسة آلاف فأصبح عديد الحملة ١٢ ألفاً.

(٣١) ابن عذارى، المصدر السابق، جـ ٢ : ص ٩.

(٣٢) ذكر ابن حيان أن المراكب لم تزل تعود «حتى توافى جميع أصحابه ـ أي طارق ـ عنده بالجبل» ولم يأت على ذكر إحراق السفن (المقري، المصدر السابق، جـ ١ : ٢١٦)، وقال المقري، نقلاً عن =

محدثين، إذ أن السفن لم تكن ملك المسلمين، كي يحرقوها، بل كانت ملك يليان صاحب سبتة، وأن طارقاً كان بربري المحتد، ولا يعقل أن يكون فصيحاً باللغة العربية إلى هذا الحد، كما أن اللغة التي كتبت الخطبة بها هي لغة حديثة وليست من لغة القرن الأول الهجري، ثم أن الجيش الذي قاده طارق لفتح الأندلس، وزُعم أنه خطب فيه هذه الخطبة، كان بربرياً في معظمه ولم يكن عربي اللسان كي يتمكن من فهمها[٣٣]. ونحن إذ نميل إلى الرأي الأخير، نستبعد بدورنا أن يكون طارق قد أحرق السفن، فهو لم يكن بحاجة لأن يحرقها طالما هو قادر على إعادتها إلى الساحل الافريقي، كما أننا نرى أن الخطبة منسوبة إليه ولكنها ليست من صنعه ولا كلامه[٣٤].

٤ ـ الاستعداد للقتال:

كان أول عمل قام به طارق عندما استكمل انزال جيشه على الساحل الأندلسي هو استكشاف المنطقة المحيطة ببقعة النزول، فارسل سرية من جنده

= آخرين، أن طارقاً «صرف المراكب على من خلفه من أصحابه، فركب من بقي من الناس، ولم تزل السفائن تختلف إليهم حتى توافى جميعهم عنده بالجبل» (المقري م. ن. ص ٢٣٨). ولكن المقري يعود فيذكر، في إحدى رواياته، أن لذريق أرسل واحداً من علوجه ليتنسم أخبار جيش المسلمين فعاد إليه يقول: «جاءك منهم من لا يريد إلا الموت أو إصابة ما تحت قدميك، قد حرقوا مراكبهم إياساً لأنفسهم من التعلق بها، وصفّوا في السهل موطّنين أنفسهم على الثبات..» (م. ن. ص ٢٤٢). أما ابن عذارى فقد ذكر، نقلاً عن الرازي، أن يليان كان يحمل أصحاب طارق «في مراكب التجار التي تختلف إلى الأندلس ولا يشعر أهل الأندلس بذلك، ويظنون أن المراكب تختلف بالتجار، فحمل الناس فوجاً بعد فوج إلى الأندلس، فلما لم يبق إلا فوج واحد ركب طارق ومن معه» (ابن عذارى، م. ن. جـ٢ : ٦). وجاء في كتاب «أخبار مجموعة» ما يلي: «فاختلفت السفن بالرجال والخيل، وضمهم إلى جبل على شط البحر منيع، فنزله، والمراكب تختلف حتى توافى جميع أصحابه» (ص ١٧). ولم يذكر واقعة إحراق السفن من القدماء إلا الإدريسي، ذكرها في جغرافيته عام ١١٥٤م (مؤنس، المصدر السابق ص ٦٩ حاشية ٢). وهكذا نرى كم هي ضعيفة رواية إحراق طارق لسفنه بعد نزوله وجيشه على الساحل الأندلسي.

(٣٣) اجمع المؤرخون على أن الجيش الذي فتح طارق به الأندلس كان بربرياً في معظمه (ابن خلدون، م. ن. جـ ٤ : ٢٥٤، والمقري، م. ن. جـ ١ : ٢١٦ نقلاً عن ابن بشكوال، وص ٢٢٤ عن الحميدي، وص ٢٣٨ عن آخرين، وابن عذارى م. ن. جـ ٢ : ٦ وأخبار مجموعة ص ١٧).

(٣٤) رغم أن ابن بشكوال يذكر أن طارقاً كان «حسن الكلام ينظم ما يجوز كتبه» (المقري م. ن. ص ٢١٥) دون أن يحدد اللغة التي كان طارق يحسنها وربما كانت لغته الأصلية.

بقيادة عبد الملك بن أبي عامر المعافري لاستكشاف القسم الشرقي من الساحل، حيث انطلقت شرقاً حتى وصلت إلى قرطاجنة Carteya، القرية الفينيقية القديمة القائمة على هذا الساحل، فاحتلتها، ثم انحرفت غرباً بجنوب نحو «الجزيرة الخضراء» قرب «جبل طارق».

في هذه الأثناء، كان طارق قد انتهى من إعادة تنظيم جيشه ووضع خطة التحرك المقبل. وبعد أن اطمأن إلى سلامة وضعه العسكري، واستعلم عن ضعف الجهاز الدفاعي للعدو على طول الساحل الجنوبي الشرقي، قرر الزحف شمالاً نحو طليطلة، عاصمة القوط، فزحف على ولاية الجزيرة (الخضراء) وكان يحكمها قوطي يدعى «تُدْمير»[٣٥]، فكتب تدمير إلى لذريق ينبئه بالأمر، وكان يقاتل «البَشْكنس» في شمال البلاد عند «بنبلونة» (Pampelona) فقفل عائداً لتوه نحو الجنوب لمواجهة طارق[٣٦] الذي كان قد احتل، في أثناء ذلك، قلاع تلك المنطقة، وتصدت له قوة من العدو، قرب الجزيرة الخضراء، بقيادة قائد قوطي يدعى «بنج» أو «بنشو» أو «بنثيو» Bencho (وهو ابن اخت لذريق) فهزمها طارق وقضى عليها[٣٧]، ثم تابع تحركه شمالاً باتجاه العاصمة طليطلة.

ولا يخفي معظم المؤرخين الدور الهام الذي لعبه يليان، حليف طارق، في المرحلة الأولى من نزول المسلمين في الأندلس، حتى أنهم يصفونه بالدليل المرشد لطارق، إذ أنه «كشف للعرب عورة القوط»[٣٨] وتجسس لهم أخبارهم[٣٩] ودلهم على

---

(٣٥) المقري، المصدر السابق، جـ ١ : ٢٢٥، ويذكر المقري أن بلدة «تدمير» بالأندلس تنسب إليه (م. ن. ص. ن).

(٣٦) المقري، م. ن. ص ٢١٦ نقلاً عن ابن حيان وص ٢٣٩ نقلاً عن آخرين، ومؤنس، المصدر السابق، ص ٧٠.

(٣٧) ابن عذارى، المصدر السابق، جـ ٢ : ٨ نقلاً عن الرازي. وذكر مؤنس أنه لم ينج من قوة القوط في هذه الوقعة سوى واحد سماه الرازي «بلياسن» (Williesindo-Beliasin) وهو الذي انبأ لذريق بما حدث، (مؤنس م. ن. ص ٧٠) إلا أن المقري يذكر أن «تدمير» هو الذي أنبأ لذريق بدخول المسلمين إلى البلاد، كما ذكرنا، ونحن نرجح هذا الرأي. وربما تكون هذه المعركة هي نفسها التي ذكر بعض المؤرخين أنها جرت بين طارق وبين قائد قوطي يدعى «أنيكو» في منطقة تدعى «لافرونتيرا La Frontera» إذ أن بعض المراجع الاسبانية تكتب اسم بنج محرّفاً «أنيكو Eneco» (مؤنس م. ن. ص ٧٠ حاشية ٢).

(٣٨) ابن خلدون، المصدر السابق، جـ ٤ : ٢٥٣.

نقاط الضعف في جهازهم الدفاعي، بينما كانت قوات المسلمين تجهل كل شيء تقريباً عن ذلك العدو في تلك البلاد، كذلك فإن بعض المؤرخين يرى أن طارقاً، بعد أن احتل الجزيرة الخضراء، أقام فيها قاعدة عسكرية حصينـة، وأوكل إلى يليـان أمر حمايتها وحماية مؤخرة جيشه من أي هجوم قوطي محتمل[٤٠].

لم يدر في خلد لذريق، بادىء ذي بدء، وهو يقاتـل «البشكنس» أو «الباسك» في شمال البلاد، أن هؤلاء المسلمين، الذين أتوا بلاده غزاة، سوف يقيمون فيها فاتحين، بل اعتبر، للوهلة الأولى، أنها غزوة بدو لا بد أن تنتهي، وأنه لا بد أن يقنع الغزاة بالغنيمة والإياب، ولكن أنباء الفتح التي بدأت ترد إليه تباعاً أقلقته وأقضت مضجعه، فالخطر قد استفحل، وأضحى الأمر أدهى مما كان قد تصور، خاصة وقد علم بسقوط ولاية «الجزيرة الخضراء» بيد المسلمين وهزيمة قائده «بنج» وهلاك فرقته بكاملها على أيديهم، فأسرع عائداً إلى عاصمته طليطلة ليعد العدة لقتالهم.

وهكذا لم يعد بين طارق وخصمه لذريق سوى عاملي الزمن والأرض، وأصبح من الواضح أن طارقاً أكثر حرية من خصمه في اختيار ساحة القتال، فانحاز بجيشه، عبر أرض كثيرة المستنقعات، إلى سهل يقع ما بين وادي برباط شمالاً وغرباً، وبحيرة الخندق، أو «بحيرة خاندا Lago de Janda» شرقاً، وجبال «سيرا دي رتينا Sierra de Retina» جنوباً، حيث قرر طارق أن يلاقي خصمه في المعركة الحاسمة.

وكان اختيار ميدان القتال من قبل طارق من أهم عناصر نجاحه في هذه المعركة، إذ كان قد أسند ميمنة جيشه إلى بحيرة خاندا شرقاً، الممتدة عدة كيلو مترات، والتي يصبّ فيها نهر البرباط الذي يمر بوادي البرباط، وأسند ميسرته إلى الوادي المذكور غرباً، كما أسند مؤخرة هذا الجيش إلى جبال «رتينا» العالية جنوباً، منتظراً أن يأتيه العدو من الشمال بعد أن وضعه في موضع الاضطرار لا الاختيار (انظر الخارطة).

---

(٣٩) المقري، المصدر السابق، جـ١ : ٢١٦ و«أخبار مجموعة» ص ١٧.
(٤٠) مؤنس، المصدر السابق، ص ٦٩.

ما أن وصل لذريق إلى طليطلة حتى استنفر جميع مواطنيه، الأنصار منهم والخصوم، بمن فيهم أولاد غيطشة، أكثر الناس خصومة له، وفي ظنه أن هؤلاء سوف يلبون النداء لمقاومة الخطر الداهم الآتي من الجنوب من أرض افريقية، على يد المسلمين. وكان واثقاً من ذلك إلى حد أنه أوكل إلى ابني غيطشة «ألمند وأرطباش» تسلم قيادات عليا في الجيش، فتظاهرا بالانصياع لأوامره ضامرين الشر له، وكان لهما، في الجيش، أتباع كثر، كما كانا على اتصال دائم بيليان حليفهم وحليف طارق في آن واحد. وتمكن لذريق أن يجمع، في فترة وجيزة، جيشاً ضخماً قدره بعض المؤرخين بماية ألف مقاتل[٤١]، وقدره ابن خلدون بأربعين ألفاً[٤٢]، ولا شك في أن التقدير الأول مبالغ فيه، إلا أن الذي لا شك فيه هو أن لذريق أعد للقاء طارق جيشاً «ذا عدد وعدة»[٤٣]، فقد أقبل إلى ساحة القتال «في غابة من البنود والأعلام، وبين يديه المقاتلة والسلاح»[٤٤]، فكان جيشه أضعاف جيش المسلمين، وذلك رغم ما منيت به بلاد الأندلس، في تلك الفترة بالذات، وبالتحديد عام ٨٨هـ، من مجاعة ووباء، إذ أنها «ضارت جوعاً سنة ثمان وسنة تسع وسنة تسعين، ووبئت حتى مات نصف أهلها أو أكثر»[٤٥].

وعلم طارق بالحشود التي حشدها لذريق لمجابهته، فكتب إلى موسى ينبئه بضخامتها ويطلب منه مدداً، فأمدّه موسى بخمسة آلاف مقاتل فأصبح جيش المسلمين، في هذه المعركة، اثني عشر ألفاً، بالإضافة إلى قوة صغيرة من أنصار حليفهم يليان[٤٦].

---

(٤١) المقري، المصدر السابق، جـ١ : ٢١٦ نقلاً عن ابن حيان، وص ٢٤١ نقلاً عن آخرين، وأخبار مجموعة، ص ١٧ و١٨.

(٤٢) المصدر السابق، جـ٤ : ٢٥٤.

(٤٣) المقري، م. ن. جـ١ : ٢١٦ و٢٤١.

(٤٤) المقري، م. ن. ص ٢٢٦.

(٤٥) أخبار مجموعة، ص ١٨.

(٤٦) الطبري، المصدر السابق، جـ٦ : ٤٦٨، وابن الأثير، المصدر السابق جـ٤ : ٥٥٦، والمقري، المصدر السابق، جـ١: ٢١٥ نقلاً عن ابن بشكوال، وص ٢١٦ عن ابن حيان، وص ٢٢٤ عن الحميدي في «جذوة المقتبس» وص ٢٣٨ عن أخرين، وابن عذارى، المصدر السابق، جـ٢ : ٦، وأخبار مجموعة، ص ١٧. ويذكر بعض المؤرخين أن موسى أعدّ لنقل هذا المدد مراكب من صنع =

ويصف المقري، نقلاً عن «بعض المؤرخين» جند طارق وقد أقبلوا وعليهم «الزرد» وفوق رؤوسهم «العمائم البيض» وبأيديهم «القسي العربية» وقد «تقلدوا السيوف، واعتقلوا الرماح»، فلما رآهم لذريق قال: «هذه الصور هي التي رأيناها ببيت الحكمة ببلدنا، فداخله منهم الرعب»(٤٧).

وما أن استكمل لذريق عدة الجيش وعديده حتى تحرك جنوباً لمواجهة طارق وجيشه في المكان الذي اختاره هذا الأخير، فوصله في الأيام الأخيرة من شهر رمضان عام ٩٢هـ (تموز ٧١١م) وعسكر بجيشه على الجهة الشمالية للوادي، وقد «ولّى ميمنته أحد ابني غيطشة وميسرته الآخر، فكانا رأسي الذين أداروا عليه الهزيمة»(٤٨) بينما كان طارق قد عسكر على الجهة الجنوبية للوادي، فأضحى ذلك الوادي (وادي البرباط) فاصلاً بين الجيشين المتواجهين، (انظر الخارطة).

٥ ـ المعركة: (انظر الخارطة)

بدأت المعركة يوم الأحد الواقع في ٢٨ رمضان سنة ٩٢هـ (١٩ تموز ٧١١م) واستمرت ثمانية أيام كاملة.

قال الرازي: «كانت الملاقاة يوم الأحد لليلتين بقيتا من شهر رمضان

= المسلمين، قال المقري نقلاً عن ابن حيان: «وكان ـ موسى ـ عمل من السفن عدة، فجهز له ـ أي لطارق ـ فيها خمسة آلاف من المسلمين، فكملوا بمن تقدم اثني عشر ألفاً، ومعهم يليان صاحب سبتة في حشده يدلهم على العورات ويتجسس لهم الأخبار» (م. ن. جـ١ : ٢١٦).

(٤٧) المقري، م. ن. جـ١ : ٢٢٦ ـ ٢٢٧، ويقصد لذريق بالصور التي رآها ببيت الحكمة ببلده ـ أي بيت حكمة اليونان ـ تلك التي تشير إلى أن «من تقدم من ملوك اليونان يخشى على الأندلس من البربر» وأنه قد «حان وقت انقراض دولة من كان بالأندلس، ودخول العرب والبربر إليها، وذلك بعد مضي ستة وعشرين ملكاً من ملوكهم من تاريخ عمل الطلسمات بطليطلة، وكان لذريق المذكور آنفاً هو تمام السابع والعشرين من ملوكهم» (م. ن. ص ٢٣١، وانظر شرحاً لهذه الأسطورة عند المقري، م. ن. ص ٢٢٧ ـ ٢٣٢).

(٤٨) المقري، م. ن. جـ١ : ٢٤١ نقلاً عن بعض المؤرخين، ويذكر كتاب «أخبار مجموعة» (ص ١٨) أن ابني غيطشة اللذين كانا على ميمنة لذريق وميسرته هما: ششبرت وأبّه، فيقول: «وكان لذريق ولّى ششبرت ميمنته وأبّه ميسرته، وهما ابنا الملك غيطشة الذي كان ملكاً قبله».

فاتصلت الحرب بينهم إلى يوم الأحد لخمس خلون من شوال بعد تتمة ثمانية أيام»[49].

التقى الجيشان على وادي البرباط، وذلك بعد أن عبر طارق بجيشه الوادي لينازل لذريق في موقعه، فتكتّب الجيشان كتائب وتعبأ[50]، واستمرت المناوشات بينهما تراشقاً بالسهام طيلة ثلاثة أيام، وكان لذريق قد استقر في سرير الملك وعليه «تاجه وقفازه وجميع الحلية التي كان يلبسها الملوك»[51]، بينما كان طارق ومن معه إما على خيلهم، وإما مشاة[52]، وقد تسلحوا بالقسي العربية و«تقلدوا السيوف واعتقلوا الرماح»[53]، فكان الواحد منهم قادراً على الحركة بخفة ونشاط، بعكس المقاتل القوطي الذي كان، كالمقاتل الفارسي أو الرومي، ثقيل الأحمال غير قادر على الحركة والمناورة، ومع ذلك فقد كان القتال في الأيام الثلاثة الأولى شديداً، إذ أظهر البربر الذين أتى بهم يليان، للقتال إلى جانب المسلمين، ضراوة وبأساً شديدين، كما أبدى فرسان القوط شجاعة ومقدرة في مجابهة المسلمين من العرب والبربر[54]. وقد تعمد طارق، في هذه الأيام الثلاثة، أن يشن على العدو عمليات هجومية محدودة لكي يرهقه ويشغله ويستطلع، في الوقت نفسه، قوته ومكامن الضعف عنده، في الوقت الذي كان من تبقى من جيشه على الجهة الجنوبية يسارع في العبور إلى الجهة الشمالية، حيث الصدام مع العدو، ليأخذ مراكزه المحددة له في جبهة القتال.

---

(٤٩) المقري، المصدر السابق، جـ ١ : ٢٤٣ وانظر المعنى نفسه عند: ابن عذاري، المصدر السابق، جـ ٢ : ٨ نقلاً عن الرازي، وذكر ابن عذارى، في رواية أخرى، أنه اختُلف في عدد أيام القتال فقيل يوم وقيل يومان وقيل ثلاثة وقيل ثمانية (م. ن. ص ٩).

(٥٠) المقري، م. ن. جـ ١ : ٢٢٦.

(٥١) الطبري، المصدر السابق، جـ ٦ : ٤٦٨. وابن الأثير، المصدر السابق، جـ ٤ : ٥٥٦.

(٥٢) يذكر مؤنس ان قوة طارق الأولى التي اجتازت البحر معه كان معظمها من المشاة، أما المدد الذي أتاه بعد ذلك فكان معظمه من الخيالة (مؤنس، م. ن. ص ٧٢).

(٥٣) المقري، المصدر السابق، جـ ١ : ٢٢٦ ـ ٢٢٧.

(٥٤) مؤنس، المصدر السابق، ص ٧٣ ـ ٧٤، ويذكر مؤنس أنه كان مع طارق نفر من أهل السودان تلقوا «بما عرف عنهم من الصبر والثبات، دفعة الجيش القوطي الأولى» ولم يذكر هؤلاء السودانيين إلا سافدرا (Saavedra) (مؤنس، م. ن. ص ٧٣ وحاشية ٤).

في هذه الأثناء، كان آبنا غيطشة، في ميمنة لذريق وميسرته، يتدبران الأمر لكي يضربا خصمهما الضربة القاضية، وذلك بفرط عقد الجيش القوطي بواسطة انسحاب جناحيه من المعركة في الوقت المناسب، وقد مهدا لذلك مع أنصارهما وحلفائهما والناقمين على لذريق من الملوك والفرسان وقادة الجيش، وكانوا كثراً، فقد ذكر بعض المؤرخين أن هؤلاء الملوك والقادة اجتمعوا للتشاور، قبل القتال، فقال بعضهم لبعض، «إن هذا ابن الخبيثة ـ يعني لذريق ـ قد غلب على سلطاننا، وليس من أهله، وإنما كان من أتباعنا، فلسنا نعدم من سيرته خَبَالاً في أمرنا، وهؤلاء القوم الطارقون ـ أي المسلمون ـ لا حاجة لهم في استيطان بلدنا، وإنما مرادهم أن يملأوا أيديهم من الغنائم ثم يخرجوا عنا، فهلم فلنُهزم بابن الخبيثة إذا نحن لقينا القوم لعلهم يكفوننا إياه، فإذا انصرفوا عنا أقعدنا في ملكنا من يستحقه» فاجمعوا على ذلك(٥٥).

واختلف المؤرخين فيما إذا كان ابنا غيطشة وأنصارهما قد اتصلوا بطارق، بواسطة يليان، في عهد سابق للمعركة (قبل أن يبحر إلى الأندلس أو بعد ابحاره إليها) أو خلال المعركة، ولكن المرجح أن هذا الاتصال قد تم في عهد سابق للمعركة، حيث أعطى طارق، لابناء غيطشة، عهداً بإعادة ما سلبه منهم لذريق من ضياع (وكانت تعد ثلاثة آلاف ضيعة، وقد سميت، فيما بعد، نفائس الملوك أو صفايا الملوك) رغم أن بعضهم يرى أن الاتصال قد تم خلال المعركة وقبل بدء القتال بقليل(٥٦)، وذلك ما نستبعده.

ومهما يكن من أمر فإنه ما أن بدأت المعركة حتى كان فريق من الجيش

---

(٥٥) المقري، المصدر السابق، جـ١، ص ٢٤١.

(٥٦) يذكر المقري أنه «لما تقابل الجيشان، أجمع أولاد غيطشة على الغدر بلذريق، وأرسلوا إلى طارق يعلمونه أن لذريق كان تابعاً وخادماً لأبيهم فغلبهم على سلطانه بعد مهلكه وأنهم غير تاركي حقهم لديه، ويسألونه الأمان على أن يميلوا إليه عند اللقاء فيمن يتبعهم، وأن يسلم إليهم، إذا ظفر، ضياع والدهم بالأندلس كلها، وكانت ثلاثة آلاف ضيعة نفائس مختارة، وهي التي سميت بعد ذلك صفايا الملوك، فاجابهم إلى ذلك وعاقدهم عليه، فالتقى الفريقان من الغد، فانحاز الأولاد إلى طارق، فكان ذلك أقوى أسباب الفتح» (م. ن. ص ٢٤١ ـ ٢٤٢) ولكننا نستبعد أن يكون كل ذلك قد تم قبل القتال مباشرة ودون أي تمهيد أو اتصال مسبق مع طارق.

القوطي من الملوك والفرسان وأنصار أبناء غيطشة، قد اتفقوا فيما بينهم على الغدر بلذريق، وأنبأوا طارقاً بذلك، وما أن بزغ فجر اليوم الرابع من القتال حتى شن طارق على القوط هجوماً عاماً، ودارت رحى معركة عنيفة قاتل فيها فرسان القوط بشجاعة منقطعة النظير. واستمرت المعركة ثلاثة أيام[٥٧] لم تلن لأي من الفريقين خلالها شكيمة ولا بان في أي منهما ضعف أو وهن، إلى أن كان اليوم السابع، وقد بدأ الوهن يدب في صفوف القوط، وبدأت ضربات المسلمين لقلب الجيش القوطي وجناحيه تشتد، فاغتنم ابنا غيطشة الفرصة المتاحة من ظهور ذلك الوهن في صفوف الجيش وباشرا بتنفيذ الخطة المرسومة، بـدءاً بسحب الجناحين، وما أن انسحب جناحا الجيش القوطي حتى انكشف قلبه وأخذ يترنح تحت ضربات المسلمين الذين كانوا قد تشجعوا وزادت حماستهم عندما رأوا جناحي جيش العـدو ينسحبان من المعركة، وهكذا أضحى لذريق وحيداً يتلقى بقلب جيشه ضربات جيش المسلمين، وكان هو الذي يقود هذا القلب بنفسه، مضطجعاً في هودج من العاج على جوادٍ سرجه «من ذهب مكلل بالياقوت والزبرجد»[٥٨]، وما لبثت أن بدأت مقاومة القلب تنهار، وبدأ جند لذريق يفرون يميناً وشمالاً لا يلوون على شيء والمسلمون يطاردونهم بسيوفهم ونبالهم. وما أن أصبح اليوم الثامن (الأحد ٥ شوال[٥٩] ٩٢هـ/٢٦ تموز ٧١١م)، حتى كادت ساحة القتال تخلو من عسكر القوط، فأسقط في يد لذريق عندما رأى جيشه ينهزم، فانهزم بدوره، وطارد المسلمون فلول الجيش المنهزم وأوقعوا بها خسائر فادحة، واستولوا على معظم الخيول التي كان فرسان القوط يمتطونها، حتى أنهم «ركبوا جميعاً خيل العجم ولم يبق فيهم راجل وفضلت عنهم الخيل»[٦٠]، وذلك بعد أن تمزق جيش القوط وفر معظمه إلى الجبال يحتمي بها، أو اتجه نحو العاصمة طليطلة. ويصف المقري هذه

---

(٥٧) ذكر الواقدي عن عبد الحميد بن جعفر عن أبيه قال: سمعت رجلاً من أهل الأندلس يحدث سعيد بن المسيِّب ويذكر له قصتهم فقال: «لم يرفع المسلمون السيف عنهم ثلاثة أيام حتى أوطَئوهم على غلبه» (ابن عذارى، المصدر السابق، جـ٢ : ٧ ـ ٨).

(٥٨) المقري، المصدر السابق، جـ١ : ٢٤٣.

(٥٩) المقري، م. ن. جـ١ : ٢٤٣ نقلاً عن الرازي.

(٦٠) المقري، المصدر السابق، جـ١ : ٢٤٤ نقلاً عن الرازي.

المعركة وصفاً دقيقاً فيقول: «التقى العسكران بالبحيرة، واقتتلوا قتالاً شديداً، إلى أن انهزمت ميمنة لذريق وميسرته، انهزم بهما أبناء غيطشة، وثبت القلب بعدهما قليلاً وفيه لذريق، فعذَّر أهله[٦١] بشيء من قتال، ثم انهزموا، ولذريق أمامهم، فاستمرت هزيمتهم، وأذرع المسلمون[٦٢] القتل فيهم، وخفي أثر لذريق فلا يُدرى أمره، إلا أن المسلمين وجدوا فرسه الأشهب الذي فقد وهو راكبه وعليه سرج مكلل بالذهب والياقوت والزبرجد، ووجدوا أحد خفَّيه وكان من ذهب مكلل بالدر والياقوت والزبرجد، وقد ساخ الفرس في طين وحمأة[٦٣] وغرق العلج فثبت أحد خفيه في الطين، فأُخذ، وخفي الآخر، وغاب شخص العلج ولم يوجد لا حياً ولا ميتاً، والله أعلم بشأنه»[٦٤].

إلا أن الروايات اختلفت في شأن لذريق، فمنها ما ذكر أنه مات غرقاً دون أن يعثر له بعد المعركة على أثر[٦٥]، ومنها ما قال أنه استطاع النجاة لكي يعود فيؤلف جيشاً جديداً قاتل به موسى بن نصير سنة ٩٤ هـ/٧١٣م، في وقعة السواقي، وأنه لقي مصرعه في تلك المعركة على يد مروان بن موسى بن نصير[٦٦]. ويقول المؤرخ الإسباني ساڤدرا أن أتباع لذريق حملوا جثته ودفنوها في مدينة فيزو Viseu وأن الملك الفونس العظيم قد أورد في حولياته أنه شاهد قبر لذريق وقد نُقش عليه «هنا يرقد لذريق ملك القوط» كما تحدث عن مصرعه الكثير من الملاحم الاسبانية[٦٧].

---

(٦١) عذَّر: قصَّر وهو يظهر أنه جاد لإخفاء تقصيره.

(٦٢) أذرع: أفرط.

(٦٣) الحمأة: الطين الأسود المنتن.

(٦٤) المقري، المصدر السابق، جـ١ : ٢٤٢ ـ ٢٤٣.

(٦٥) راجع الفقرة السابقة عن المقري، المصدر السابق، جـ١ : ٢٤٣. إلا أن ابن عذارى لا يجزم بموت لذريق، بل يقول: «وقتل الله رذريق ومن معه، وفتح للمسلمين الأندلس، ولم يعرف لرذريق موضع، ولا وجدت له جثة، وإنما وجد له خف مفضض، فقالوا(إنه) غرق، وقالوا إنه قتل، والله أعلم». (ابن عذارى، المصدر السابق، جـ٢ : ٨). ويذكر مؤنس أن معظم المراجع العربية ترى أن لذريق غرق في نهر البرباط عندما حاول عبوره هارباً، ولكن مؤنساً يعود فيجزم أن لذريق لم يمت في هذه المعركة، وأنه سيقوم بدور خطير فيما بعد، (مؤنس، المصدر السابق، ص ٧٤).

(٦٦) مؤنس، م. ن. ص ٩٨ ـ ٩٩.

(٦٧) مؤنس، م. ن. ص ٩٩.

وقد بلغ شهداء المسلمين في هذه المعركة زهاء ثلاثة آلاف شهيد[٦٨]، أما قتلى القوط فكانوا أكثر من ذلك بكثير، إذ ذكر الرازي أن المسلمين قتلوا من القوط، في هذه المعركة، خلقاً كثيراً، وقد «أقامت عظامهم بعد ذلك بدهر طويل متلبسة بتلك الأرض»[٦٩]، أو كما قال ابن عذارى «لم تكن قط بالمغرب مقتلة أعظم منها، بقيت عظامهم في المعركة دهراً طويلاً لم تذهب»[٧٠].

٦ ـ استثمار النصر:

لم يتح طارق لفلول الجيش القوطي أن تلتقط أنفاسها، إذ انطلق في إثرها نحو هدفه الأساسي، طليطلة، عاصمة القوط، مستثمراً بذلك انتصاره أبلغ استثمار، فانطلق من وادي لكّة إلى «مدينة صيدونيا Medina Sidonia» أو «شذونة» التي امتنعت عليه فحاصرها حتى أنهك أهلها وأرهقهم فاستسلمت له[٧١]، ثم تابع تقدمه شمالاً نحو «قرمونة Carmona» فاحتلها بعد أن كان قد مرّ بالعين التي نسبت إليه وسميت باسمه «عين طارق»، ثم انعطف غرباً نحو «اشبيلية Sevilla» فصالح أهلها على الجزية، ثم انعطف بعدها شرقاً نحو «استجة Ecija» التي امتنعت عليه كذلك فقاتل أهلها قتالاً شديداً حتى غلبهم وفتح مدينتهم، «ولم يلق المسلمون فيما بعد ذلك حرباً مثلها»[٧٢]. وفي استجة، قال يليان لطارق: «قد فضضت جيوش القوم، ورعبوا، فاصمد لبيضتهم (أي رئيسهم)، وهؤلاء أدلاء من أصحابي مهرة، ففرق جيوشك معهم في جهات البلاد، واعمد أنت إلى طليطلة حيث معظمهم، فأشغل القوم عن النظر في أمرهم والاجتماع إلى أولي رأيهم»[٧٣]، فعمل

---

(٦٨) المقري، المصدر السابق، جـ ١ : ٢٤٣ نقلاً عن الرازي الذي قال إن طارقاً اقتسم الفيء على تسعة آلاف من المسلمين «سوى العبيد والأتباع» وذلك من أصل اثني عشر ألف رجل، فيكون عدد شهداء المسلمين في المعركة ثلاثة آلاف شهيد.

(٦٩) المقري، م. ن. ص. ن.

(٧٠) ابن عذارى، المصدر السابق، جـ ٢ : ٧.

(٧١) المقري، م. ن. جـ ١ : ٢٤٣.

(٧٢) م. ن. ص ٢٤٣ ـ ٢٤٤.

(٧٣) المقري، جـ ١ : ص ٢٤٤.

طارق برأي يليان[٧٤] وقسّم جيشه فرقاً انطلقت من «استجة» في كل اتجاه وبالشكل التالي:

أ ـ بعث فرقة من سبعماية فارس، بقيادة مغيث الرومي، لاحتلال قرطبة.

ب ـ وبعث فرقة أخرى (لم يذكر المؤرخون اسم قائدها) لاحتلال غرناطة.

ج ـ وبعث فرقة ثالثة لاحتلال ملقة.

د ـ وسار هو بمعظم الجيش إلى «كورة جَيّان» لاحتلال طليطلة[٧٥]. وسارت هذه الفرق الإسلامية لاستكمال فتح بلاد الأندلس بينما تابع طارق تقدمه نحو طليطلة ليهاجمها قبل أن يستكمل القوط أسباب الدفاع عنها، فدخلها بلا مقاومة واستولى على ما فيها من كنوز، وخاصة مائدة سليمان الشهيرة[٧٦]، ثم ارتاح، ومن معه، في طليطلة، طيلة فصل الشتاء، ليعبر موسى بن نصير بدوره، إلى الأندلس (عام ٩٣هـ) ويستكمل فتح ما تبقى من تلك البلاد.

ولقد تضاربت روايات المؤرخين العرب في تحديد خط سير طارق بعد معركة وادي لكّة، فرووا، لذلك، روايتين متناقضتين:

الأولى: أن طارقاً توجه، بعد هذه المعركة، إلى «استجة» مباشرة، حيث نصحه «يليان» أن يرسل جيوشاً لفتح كل من قرطبة وملقة وغرناطة، ففعل ذلك، كما مر

---

(٧٤) الجدير بالذكر أن أحداً من المؤرخين لم يذكر إن كان يليان نفسه قد أسلم بعد الفتح أم لا، ولكن المؤكد هو أن ابنه «بلكايش» أسلم وحسن إسلامه، وخلف ذرية مسلمة صالحة (مؤنس، المصدر السابق، ص ٥٣ حاشية ٢).

(٧٥) المقري، المصدر السابق، جـ١ : ٢٤٤، ويرى مؤنس أن طارقاً لم يرسل أية حملة لفتح ملقة وغرناطة (واوريولة) إذ أن هذه الأقاليم فتحت في ولاية عبد العزيز بن موسى (مؤنس، المصدر السابق، ص ٧٧). والجدير بالذكر أنه انضم إلى جيش طارق، بعد وادي لكّة، خلق كثير (مؤنس، المصدر السابق، ص ٧٧).

(٧٦) وهي مائدة مصنوعة من الذهب الخالص، مرصعة بالدر والياقوت والزمرد، كانت توضع على مذبح كنيسة طليطلة وفوقها الأناجيل، وقال بعض المؤرخين إنها كانت مصنوعة من الذهب والفضة وكان عليها طوق لؤلؤ وطوق ياقوت وطوق زمرد، وكلها مكللة بالجواهر، وقيل إنه كان لها ٣٦٥ رجلاً، وقيل إنها من زبرجدة خضراء حافاتها وأرجلها منها (المقري، م. ن. ص ٢٥٤ ـ ٢٥٥ و٢٧١).

معنا، وتابع هو مسيره نحو طليطلة، وأن موسى بن نصير هو الذي فتح (عام ٩٣هـ) كلا من شذونة وقرمونة وإشبيلية[٧٧].

والثانية: أن طارقاً توجه، بعد معركة وادي لكّة، إلى شذونة، فقرمونة، فإشبيلية، فأستجة، كما قدمنا[٧٨].

إلا أن بعضهم ذكر الروايتين معاً، نقلاً عن مؤرخين آخرين[٧٩].

ونحن إذ تبنينا الرواية الثانية، فإنما كان ذلك للأسباب التالية (انظر الخارطة):

١ - إنه من غير المنطقي أن يتقدم طارق، بعد معركة وادي لكّة، نحو «أستجة» مباشرة لفتحها، دون أن يكون قد فرغ من فتح «شذونة» وهي على مقربة منه، بحيث أنه، إذا أغفلها، يكون قد ترك خلفه عدواً يمكن أن يقطع عليه طريق امداده في أية لحظة شاء، وقد رأينا أنه لقي في شذونة حامية قوطية قوية، وأنه «فتحها عنوة» بعد أن امتنعت عليه.

٢ - وإنه من غير المنطقي، كذلك، أن يحتل طارق «أستجة» ثم ينطلق منها إلى «كورة جيان» فطليطلة، دون أن يهتم بتأمين مؤخرته من حاميات العدو المتمركزة في كل من قرمونة واشبيلية (وقد أكد مؤيدو الرواية الأولى وجود حاميتين عدوتين قويتين في كل منهما)، وخاصة إذا علمنا أن الزمن الذي مر بين معركة وادي لكّة (رمضان ٩٢ هـ - تموز ٧١١م) وبين دخول موسى بن نصير الأندلس (رمضان ٩٣ هـ - حزيران ٧١٢م)[٨٠] هو سنة كاملة.

٣ - وإنه لمن غير المنطقي وغير المعقول، أيضاً، أن يرسل طارق، من «أستجة»، جيوشاً لاحتلال كل من قرمونة وغرناطة وملقة، كما أشار عليه يليان، دون

---

(٧٧) أخبار مجموعة، ص ١٩، وابن القوطية، المصدر السابق، ص ٣٥، وابن عذارى المصدر السابق، جـ ٢: ٨ و١٣ - ١٤، وابن الأثير، المصدر السابق، جـ ٤: ٥٦٣ - ٥٦٤.

(٧٨) المقري، المصدر السابق، جـ ١: ٢٤٣، نقلاً عن الرازي.

(٧٩) م. ن. ص ٢٥٢ نقلاً عن ابن حيان.

(٨٠) م. ن. ص. ن.

أن يفكر بارسال مثل هذه الجيوش لاحتلال كل من قرمونة واشبيلية وهما تهددان مؤخرته، ومع ذلك، فهو لم يفعل، الأمر الذي يؤكد احتلاله لهاتين المدينتين الحصينتين قبل احتلاله «أستجة»[٨١].

الدروس المستخلصة
من
معركة وادي لكّة

١ ـ أسلوب «الحذر واليقظة» تجاه الحلفاء:

لم يكتف موسى بن نصير بقول يليان ووعده بالعون والمساعدة في فتح الأندلس، بل كلفه مهمة استطلاعية في تلك البلاد ليختبر صدقه ووفاءه بعهده، وقد كان يليان صادقاً بما قال ووفياً لما تعهد به، كما كان موسى حذراً ويقظاً ونبيهاً.

٢ ـ أسلوب الاستطلاع قبل الانزال:

أراد موسى أن يستطلع البيئة التي سوف يقتحمها والعدو الذي سوف يقاتله والبقعة التي سوف يتم النزول فيها، وذلك قبل أن يدفع بجيشه في مغامرة مجهولة النتائج، فأرسل حملة استطلاعية بقيادة طريف بن مالك، وما أن عادت تلك الحملة بالمعلومات الوافية عن البيئة والعدو وبقعة النزول حتى اطمأن إلى سلامة قراره فكتب إلى الخليفة يستأذنه بالفتح.

٣ ـ الأسلوب المتكرر في الاختبار والحيطة:

رغم ما سبق من اختبار سواء بواسطة الحملة التي قام بها يليان أو حملة طريف، فقد أبى الخليفة إلا أن يكرر الاختبار فقال لموسى: «خضها بالسرايا

---

(٨١) يذكر الطبري (المصدر السابق، جـ ٦: ٤٦٨ و ٤٨١) أن طارقاً غزا الأندلس وفتحها عام ٩٢ هـ (ص ٤٦٨) وأن موسى بن نصير غضب عليه «في سنة ثلاث وتسعين، فشخص إليه في رجب منها» ثم أنه عاد فرضي عنه، ووجهه من قرطبة (حيث كان) إلى طليطلة فأصاب طارق فقها «مائدة سليمان بن داود فيها من الذهب والجوهر ما الله أعلم به» (ص ٤٨١).

حتى ترى وتختبر شأنها، ولا تغرر بالمسلمين في بحر شديد الأهوال» ولما لفت موسى نظر الخليفة إلى سهولة عملية الإبحار والإنزال أصر الخليفة قائلاً: «وإن كان، فلا بد من اختباره بالسرايا قبل اقتحامه» وذلك يدل على مدى حرص الخليفة على التأكد من نجاح العمليـة وسلامتهـا وتأمـين الفوز للمسلمين بدل أن يغرر بهم في «بحر شديد الأهوال»، وهذا الأسلوب المتكرر في الاختبار والحيطة قبل الانزال والاقتحام سهّل عملية الفتح إلى حد كبير وأعان المسلمين في مواجهتهم الحاسمة للعدو، إذ أمنّ لهم عملية «المباغتة» لعدو لم يكن ينتظر مثل هذه المفاجأة أبداً.

٤ ـ أسلوب المباغتة:

إن الأسلوب الذي اتبعه طارق في إيصال المسلمين إلى الساحل الأندلسي منفذاً تعليمات الخليفة، كان أسلوباً بارعاً إلى حد كبير، فهو لم يبحـر بالمسلمين دفعة واحدة بل أبحر بهم على دفعات متتالية وفي مراكب تجارية، وما أن التأم شمل المسلمين في تلك البلاد، وعددهم سبعة آلاف رجل، حتى فوجىء القوط بوجود هذا العدد الكبير من المسلمين في ديارهم، كما فوجئوا بالهزيمة الساحقة التي لحقت بهم على يد هؤلاء المسلمين ومقتل أحد أهم قادتهم «بنج» ابن أخت مليكهم لذريق، فانتزع المسلمون، بهذه المباغتة وهذا الانتصار، المبادرة من يد أعدائهم، وأسقط في يد القوط، وأصبحت هزيمتهم على يد المسلمين قدراً محتوماً.

٥ ـ تنفيذ أسلوب «رأس الجسر»

نفذ طارق، فور وصول جيشه إلى الساحل الأندلسي، أسلوب «رأس الجسر» وهو أسلوب يعمل به في الحروب الحديثة، فأقام على الساحل قاعدة حصينة سوّرها وحماها وانطلق منها في فتوحه، تماماً كما يفعل أي جيش في أيامنا هذه.

٦ ـ اختيار ميدان القتال:

لقد أحسن طارق اختيار ميدان القتال، فأسند ميمنة جيشه إلى بحيرة

خاندا شرقاً، وأسند ميسرته إلى وادي البرباط غرباً، وأسند مؤخرة هذا الجيش إلى جبال سيرادي رتينا جنوباً، ففرض على العدو أن يجابهه من جهة واحدة هي جهة الشمال، ووضعه في موضع الاضطرار لا الاختيار.

٧ ـ المبادرة بالقتال:

لقد رأينا المسلمين (في معركة القادسية) يطلبون من الفرس أن يعبروا إليهم، كما كانوا، في معظم معاركهم، يتركون للعدو المبادرة بالقتال. ولكن طارقاً، في هذه المعركة، كان هو البادىء بالقتال، بل بادر إلى اجتياز النهر لملاقاة عدوه، فناوشه ثلاثة أيام ثم شن عليه، بعد ذلك، هجوماً عاماً انتهى بهزيمته. وربما كان مرد ذلك إلى ثقة طارق بالاتفاق السري الذي كان قد عقد بين يليان وابني غيطشة من جهة (وكانا في ميمنة لذريق وميسرته) وبينه من جهة أخرى، فاستعجل القتال ليستعجل تنفيذ هذا الاتفاق. وقد كان حلفاؤه صادقين في تعهدهم، فنفذوه بكل دقة واتقان، ولا شك في أن ذلك يقلل من قيمة النصر العسكري الذي أحرزه طارق في هذه المعركة وإن لم يقلل من أهميتها كمعركة حاسمة ومصيرية.

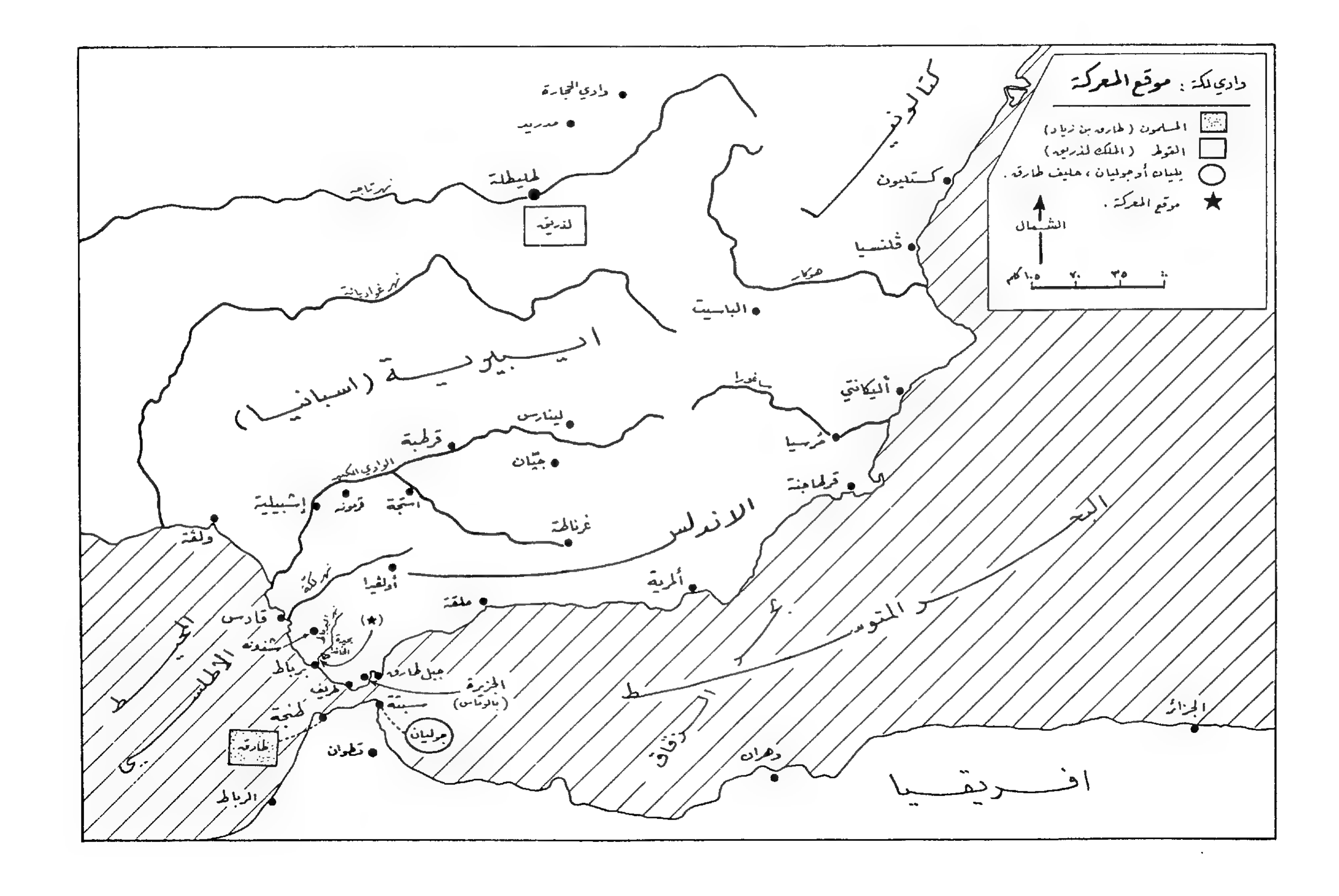
٨ ـ صدق المسلمين ووفاؤهم بالعهود:

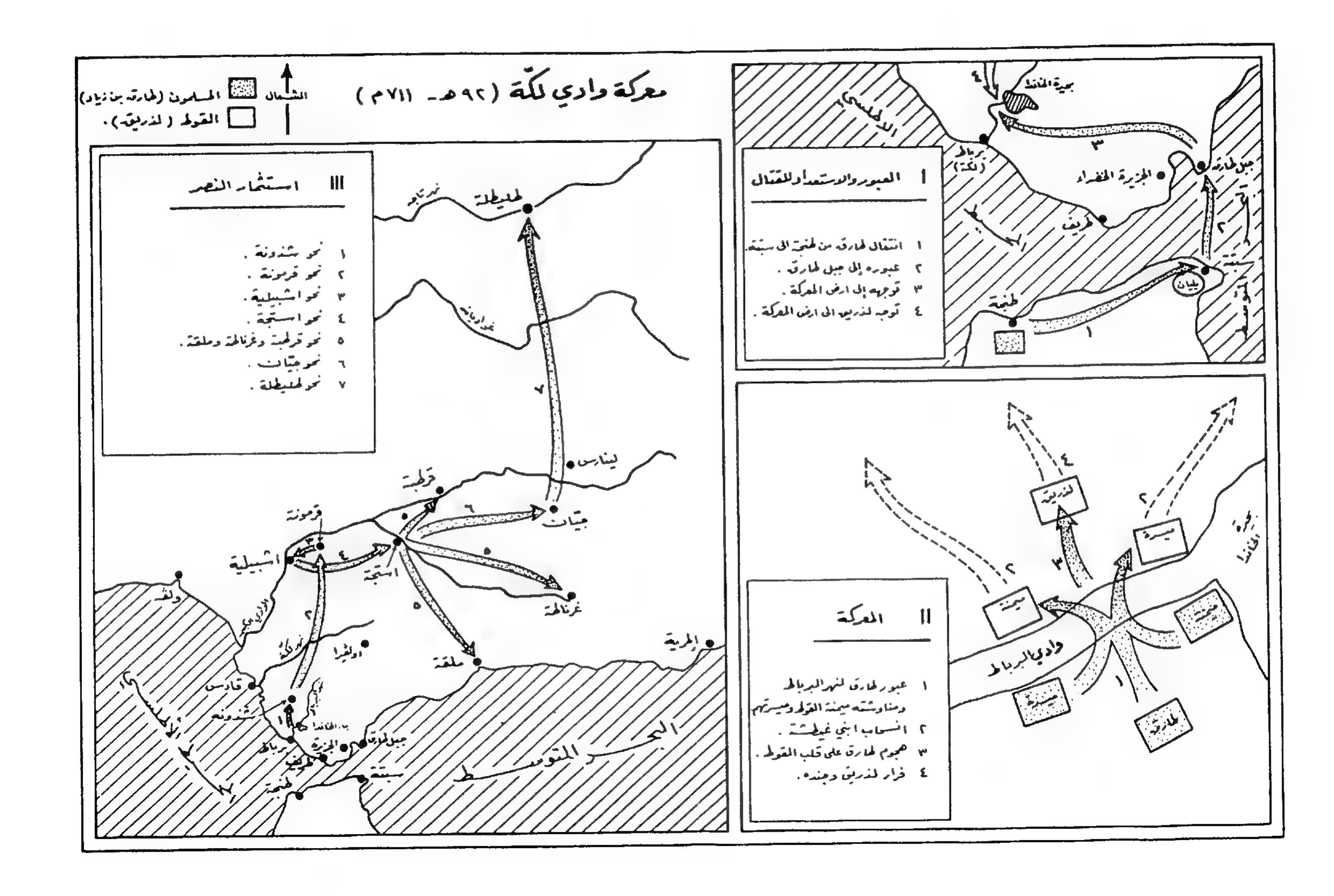
مقابل ذلك، كان المسلمون صادقين ووفوا بعهودهم تجاه يليان وأبناء غيطشة فأعادوا لهؤلاء ضياع أبيهم، واحترموا تعهداتهم ليليان وأنصاره، وكانت نتيجة ذلك أن اعتنقت سلالة كل من يليان وأبناء غيطشة الإسلام، فكان فيها من حسن إسلامه مثل أيوب (توفي سنة ٢٢٦هـ) وسليمان (توفي سنة ٣٧٩هـ) واحمد (توفي سنة ٣٨٨هـ) من سلالة يليان، ومثل أبي بكر محمد بن عمر المعروف بابن القوطية (صاحب كتاب تاريخ افتتاح الأندلس الذي رجعنا إليه في مواضع كثيرة من هذا البحث) وهو من سلالة سارة بنت ألمند بن غيطشة آخر ملوك القوط.

٩ ـ استثمار النصر:

طبق طارق، بالبداهة، مبدأ من أهم المبادىء العسكرية الحديثة وهو

«استثمار النصر» إذ أنه ما أن هزم لذريق في وادي لكّة حتى لاحق فلول جيشه دون أن يترك لهذا الجيش مجالاً للتجمع وإعادة التنظيم من جديد. وكان طارق قد وضع لنفسه هدفاً أساسياً هو احتلال طليطلة عاصمة العدو، إذ أنه يعرف ولا شك، أنه، باحتلاله لعاصمة المملكة، تفقد هذه المملكة مركزيّتها، ويفقد الملك قاعدة ملكه وحكمه. ولكن طارقاً، مع ذلك، لم ينس أن يرسل جيشه في حملات إلى مختلف أنحاء البلاد لكي يحتل المواقع الاستراتيجية فيها فيفقد القوط كل أمل بمتابعة القتال والنصر، فأرسل إحداها إلى داخل البلاد شمالاً نحو قرطبة، وكانت قصبة هامة في الأندلس، وأرسل أخرى شرقاً، على الساحل الجنوبي للبلاد، نحو ملقة، وأرسل ثالثة إلى داخل البلاد شمالاً بشرق، نحو غرناطة، وكانت تشكل موقعاً استراتيجياً هاماً في البلاد، ثم توجه بنفسه شمالاً إلى العاصمة طليطلة واستولى عليها، فظل الحكم القوطي، من جراء ذلك، شريداً طريداً في أنحاء الأندلس، إلى أن سقط.


وادي لكة : موقع المعركة
المسلمون (طارق بن زياد)
القوط (الملك لذريق)
يليان أو جوليان، حليف طارق.
موقع المعركة.
الشمال
كتالونيا
وادي الحجارة
مدريد
طليطلة
نهر تاجة
لذريق
نهر غواديانة
كستليون
قلنسيا
البسيط
ايبيرية (اسبانيا)
أليكانتي
مرسية
قرطاجنة
لينارس
قرطبة
جيّان
الوادي الكبير
إشبيلية
قرمونة
استجة
غرناطة
الاندلس
ولبة
أوليفيا
المرية
ملقة
قادس
شذونة
جبل طارق
الجزيرة
طريف
طنجة
سبتة
جوليان
طارق
تطوان
الرباط
البحر المتوسط
الزقاق
وهران
افريقيا
الجزائر
المحيط الاطلسي



معركة وادي لكة (٩٢هـ - ٧١١م)
الشمال
المسلمون (طارق بن زياد)
القوط (لذريق).
I العبور والاستعداد للقتال
١ انتقال طارق من طنجة الى سبتة.
٢ عبوره إلى جبل طارق.
٣ توجهه إلى ارض المعركة.
٤ توجه لذريق الى ارض المعركة.
جبل طارق
الجزيرة الخضراء
طريف
برباط (لكة)
بحيرة الجانظ
طنجة
سبتة
بليان
II المعركة
١ عبور طارق لنهر البرباط ومناوشته ميمنة القوط وميسرتهم
٢ انسحاب ابني غيطشة.
٣ هجوم طارق على قلب القوط.
٤ فرار لذريق وجنده.
وادي البرباط
ميمنة
ميسرة
لذريق
طارق
III استثمار النصر
١ نحو شذونة.
٢ نحو قرمونة.
٣ نحو اشبيلية.
٤ نحو استجة.
٥ نحو قرطبة وغرناطة وملقة.
٦ نحو جيان.
٧ نحو طليطلة.
طليطلة
ليناريس
جيان
قرطبة
قرمونة
اشبيلية
استجة
غرناطة
ملقة
المرية
ولبة
قادس
شذونة
برباط
الجزيرة
جبل طارق
طريف
سبتة
طنجة
البحر المتوسط

الخاتمة

العقيدة العسكرية الإسلامية
عقيدة هجومية

العقيدة العسكرية الإسلامية: تعريفها وغاياتها .

العقيدة العسكرية، في تعريفها العام، هي السياسة العسكرية العامة التي تنتهجها دولة، أو أمة ما، في إطار المبادىء الأساسية المتعلقة بشؤون الحرب وغاياتها وطرق إدارتها وإعداد البلاد لها، وذلك بهدف تحقيق غايات عقيدية أو سياسية. وتنبثق العقيدة العسكرية الإسلامية من الغايات الأساسية للرسالة الإسلامية، وهي غايات عقيدية أساساً ثم سياسية استطراداً.

وكما يترابط مفهوم الفن العسكري لدى كل أمة بمفهوم العقيدة العسكرية عند هذه الأمة، يرتبط كذلك مفهوم العقيدة العسكرية في الإسلام بمفهوم الإسلام نفسه، فالإسلام، في مفهومه العام، دين ودولة، وهو، في توجهه العام للانسان، لا يميز بين الشأن الروحي الذي هو جوهر الدين وغاية الرسالة، وبين الشأن الدنيوي الذي هو أيضاً من جوهر الدين وإحدى غايات الرسالة، بمعنى أنه، إذا كان الدين، نظرية وممارسة، هو المظهر الأول للإسلام، فإن السلوك الاجتماعي هو المظهر الثاني له، وقد أبرز الامام علي (كرم الله وجهه) هذين المظهرين المتساويين في الإسلام بقوله: «إعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً، واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً».

وإذا كانت العقيدة العسكرية في الإسلام تتمحور حول غايات الدين العقيدية والسياسية، وأهدافه العامة، بل وترتبط بها ارتباطاً وثيقاً، فإن الفن

العسكري الإسلامي يستمد أصوله ومبادئه، حتى التفاصيل تقريباً، من مصادر الشريعة الإسلامية نفسها، وأهم تلك المصادر: القرآن الكريم، والحديث الشريف وسنة رسول الله ﷺ، ففي هذه المصادر كثير من الآيات والأحاديث والأفعال التي تعبر بوضوح عن الفن العسكري الإسلامي وعن السلوك العسكري العام الذي يجب أن ينتهجه المسلمون قادة وجنداً، في مختلف مراحل القتال.

وإذا كان ظهور الدعوة الإسلامية قد أحدث، في المجتمع العربي خاصة، وفي الكون عامة، ثورة قلبت الكثير من المقاييس الأخلاقية والاجتماعية، فضلاً عن الدينية، فمما لا شك فيه أن ظهور هذه الدعوة قد أحدث، لدى العرب، بيئة الإسلام ومجتمعه الأول، ثورة في فن الحرب كانت وراء كل ما قام به المسلمون بعدها من فتوح. وإذا كان يحق لبعض المؤرخين الأوروبيين أمثال غوستاف لوبون القول، (في كتابه: حضارة العرب)، إنه لم يكن لدى العرب، قبل الإسلام، فن عسكري بالمعنى الصحيح، فإنه لمن نافل القول إنهم برعوا في هذا الفن واتقنوه، خلال فترة وجيزة، حتى فاقوا فيه أعرق الأمم وأكثرها دراية وكفاية، ولا ريب في أن الحافز العقيدي كان خلف هذا الابداع الذي بلغ حد الإعجاز، فالمسلمون أصحاب الدعوة السماوية، المنطلقة بزخم لا نظير له في أرجاء الجزيرة العربية وخارجها، في عهد النبي العربي محمد ﷺ وعهد الخلفاء الراشدين بعده، أولئك الذين لاقوا، في بدء ظهور الدعوة وعلى أيدي أبناء قومهم، من صنوف العذاب ما لا قبل لبشر على تحمله والصبر عليه، لم يجدوا أجدى من السيف لرد الأذى عنهم، في البدء، ثم لنشر دعوة الإسلام أو ردع المفتنين وصد الفتنة والتطلع إلى حياة أفضل، بعد ذلك. فالجهاد لنشر الدعوة الإسلامية وردع المفتنين وصد الفتنة عن المسلمين يتطلب اقتحاماً، كما أن تطلع المسلمين إلى حياة أفضل يتطلب استمرارية في التطور.

وللوصول إلى الأهداف التي حددتها الدعوة الإسلامية كان لا بد من وسائل تناسب الغاية، إذ أنه لابد لكل غاية من وسيلة، وما بين الغاية والوسيلة سلوك هو الذي يحدد قواعد العمل، وبالمعنى العسكري، يحدد قواعد العمل العسكري، وكذلك تنظيم الجيوش وتكتيكها وأساليب تعبئتها والاستراتيجية العسكرية

الواجب اتباعها وفقاً لغايات الحرب التي تنوي الأمة أن تخوضها، وكل هذه الأمور تشكل بمجملها، الفن العسكري لهذه الأمة.

وهكذا، فقد كان على المسلمين، الخارجين من عالم الجاهلية، ومن بداوة الصحراء القاحلة، ليصارعوا امبراطوريات قادرة قوية، وحضارات متجذرة في التاريخ، كان لزاماً عليهم أن ينظروا بجدية وعمق إلى تطوير أساليبهم البدائية في القتال، سواء بإبداع منهم، أو بتقليد الأمم التي كتب عليهم أن يقاتلوها، فأجادوا في كلتا الحالتين إجادة قادتهم إلى الانتصار الكبير.

والأمر الذي لا يمكن اغفاله هو أن الدعوة الإسلامية، وأساسها والقرآن الكريم والحديث الشريف وسنة رسول الله ﷺ، قد حملت في جذورها من المبادىء الجوهرية في الفن العسكري ما ساعد المسلمين على تطوير مفاهيمهم في فن الحرب، بسرعة مذهلة، وإلى حد كبير. يضاف إلى ذلك ما اكتسبه الخلفاء الراشدون والقادة العسكريون المسلمون من خبرة في القتال ما لبث مفكرو المسلمين في مختلف العهود اللاحقة أن حولوها إلى نظريات وقواعد ثابتة شكلت بمجموعها ما يمكن تسميته حقاً «بالفن العسكري الإسلامي».

استنتاج

يمكننا أن نستنتج، مما تقدم، أن الإسلام، أصولاً وعقيدة ومنهجاً وسلوكاً، استطاع أن يستوعب، بيسر، مفاهيم الحرب التي كانت سائدة بين الأمم، منذ أن بدأ انطلاقته الأولى وحتى اكتمال انتشاره. وأكثر من ذلك، فقد وضع مفاهيم جديدة وتصوراً متطوراً للفن العسكري، تكتيكاً واستراتيجية، ومن هذه المفاهيم.

أولاً: حرب الجماعة أو الأمة المسلحة

عرف الإسلام ما يسمى بحرب الجماعة أو الأمة المسلحة، وقد سبق وذكرنا أن القرآن الكريم حرض المسلمين، في آيات كثيرة، على القتال وحثهم عليه، وكره أن يراهم متقاعسين عنه، حتى أنه لام المتخلفين والمتقاعسين منهم، فاعتبرهم منافقين وفاسقين وهددهم بعذاب أليم، ومنع الرسول ﷺ من الصلاة عليهم عند

موتهم. وفي ذلك دعوة صريحة للاستنفار الكلي والتعبئة الجماعية، حيث كان على المسلمين أن يقاتلوا كجماعة أو كأمة دفاعاً عن الدين وجهاداً في سبيل الله، وكان المسلم الذي لا يلبي الدعوة للقتال يرذل ويعزل ويعتبر خارجاً على الجماعة وعلى الأمة.

ثانياً: التكتيك الإسلامي (نظام الصف والزحف، وتكتيك الكر دون الفر، والتعبئة الخالدية)

أوجد الإسلام تكتيكاً جديداً يمكن أن يسمى باسمه، وهو نظام الصف والزحف وتكتيك الكر دون الفر مجتمعين، وذلك بعد أن كان التكتيك السائد عند عرب الجاهلية هو «الكر والفر»، وقد أخذ المسلمون التكتيك الجديد من القرآن الكريم نفسه ومن حديث الرسول ﷺ وسنته. ويعتبر ترتيب المقاتلين صفوفاً أول نظام أوجده الإسلام في الفن العسكري عند عرب الجزيرة، (وإن كان معروفاً عند غير العرب من الأمم مثل الفرس والروم) حيث أصبح المسلمون يسوون صفوفهم للقتال كما يسوونها للصلاة، ثم يتقدمون للقتال زحفاً. واقترن نظام الصف بتكتيك الزحف وتكتيك «الكر دون الفر»، فكان ذلك من أهم أسباب انتصار الأقلية المسلمة على الأكثرية المشركة. وكانت وقعة بدر (٣هـ) أول معركة طبق فيها المسلمون هذا الأسلوب المبتكر في القتال، حيث رتبوا صفوفهم وزحفوا نحو العدو دون فكرة تراجع، جاعلين خلفهم إبلهم ونساءهم وأولادهم كحاجز معنوي ومادي يمنعهم من التقهقر أو الفرار.

وقد استعمل المسلمون الأسلوب نفسه في معركة اليرموك الحاسمة والشهيرة (٦٣٤م) حيث ابتدع خالد بن الوليد في هذه المعركة تعبئة جديدة لم يعرفها المسلمون ولا أعداؤهم من قبل، وهي «التعبئة الخالدية» ومن ضمنها مناورة (الحركة الإفراجية)، وقد سبق وتحدثنا عن ذلك كله.

ثالثاً: الاستراتيجية الإسلامية ونقل الحرب إلى أرض العدو

منذ أن اشتد عضد المسلمين وقويت شوكتهم بانتصاراتهم في الجزيرة العربية، بدأوا بتطبيق استراتيجية جديدة هي «نقل الحرب إلى أرض العدو»، فنقلوا الحرب إلى خارج حدود الجزيرة العربية. وكان النبي ﷺ قد أعّد، قبل وفاته،

حملة لغزو الشام بقيادة أسامة بن زيد، إلا أن الموت داهمه قبل إنفاذها، فانفذها أبو بكر بعده. وكذلك، ما أن فرغ أبو بكر من قتال المرتدين، حتى اتجه بجيشه لمحاربة إمبراطورية الفرس في العراق، وإمبراطورية الروم في الشام، مما يؤكد أن المسلمين كانوا عازمين على نقل الحرب إلى أراضي العدو قبل أن يتمكن هذا العدو من مهاجمتهم في عقر دارهم. وتلك طبيعة أية أقلية مسلحة ومستنفرة داخل حدود ضيقة محاطة بدول معادية، إذ تسعى هذه الأقلية، أول ما تسعى، إلى خوض الحرب خارج حدودها، لكي لا يتسنى للعدو أن يغزوها في عقر دارها، فيقضي بذلك على حرية المناورة لجيوشها، وبالتالي على أي أمل في انتصارها.

وترتبط هذه الاستراتيجية، ارتباطاً مباشراً، باستراتيجية «الحرب الوقائية» (La guerre Préventive) التي هي في أساسها «حرب دفاعية»، إلا أن الذي يميز هذه الاستراتيجية الإسلامية عن استراتيجية «الحرب الوقائية» هو ما يلي:

١ ـ تعتبر الحرب الوقائية استباقاً لعمل عسكري عدو مرتقب، تدل عليه حشود عسكرية عدوة على حدود البلد المهدد، وذلك بصورة تشكل تهديداً خطيراً وجدياً لهذا البلد، وهو تهديد لا يمكن رده إلا بشن حرب وقائية أو استباقية. ولا نعتقد أن هذا الشرط كان متوافراً في كل من فارس وبيزنطية اللتين لم تكونا على استعداد لشن هجوم على المسلمين وهم في عقر دارهم، في جزيرة العرب، وإن كان ملوك هاتين الامبراطوريتين قد أظهروا عداء واضحاً للمسلمين ونبيهّم سواء برغبتهم في قتل النبي أو بقتل بعض من أسلم من رعاياهم.

٢ ـ يعتبر القتال في الإسلام جهاداً في سبيل الله ونشر دينه ورد الأذى عن المسلمين وصد الفتنة، ولا ينتهي قتال المسلمين لأهل الكتاب من النصارى واليهود إلا بدخولهم الإسلام أو بدفعهم الجزية، ولا ينتهي قتال المسلمين للكفار والمشركين إلا بدخولهم الإسلام، وذلك عملاً بقوله تعالى: ﴿قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرّمون ما حرّم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون﴾ وقوله: ﴿فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم﴾[1]، وقول رسوله ﷺ: «أمرت أن أقاتل

(١) اختلف الفقهاء في أمر الجزية، فقال الشافعي إنها لا تؤخذ من المشركين لقوله تعالى: ﴿فاقتلوا =

الناس حتى يقولوا: لا اله إلا الله، فإن قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها، وحسابهم على الله»، وفي هذا تجاوز واضح وصريح لمفهوم الحرب الوقائية والاستباقية إلى مفهوم الحرب الهجومية الصرف.

رابعاً: وضع قواعد ومبادىء للتربية العسكرية الإسلامية

لقد تضمنت العقيدة العسكرية الإسلامية قواعد ومبادىء عسكرية وأخلاقية، يمكن اعتبارها تربية عسكرية قائمة بذاتها، إذ أن الإسلام لم يترك أتباعه يحاربون على هواهم وحسب تربيتهم الجاهلية، بل فرض عليهم قواعد ومبادىء يتقيدون بها في قتالهم ضد المشركين. ومن هذه القواعد والمبادىء:

١ ـ التعبئة المادية والنفسية والمعنوية للقتال

٢ ـ تعليم أساليب القتال

٣ ـ التمسك بالأداب الإسلامية في القتال، وأهمها:

أ ـ عدم الطمع في الغنائم

ب ـ عدم قتل الجرحى والأسرى

ج ـ احترام قتلى الأعداء وعدم التمثيل بجثثهم وإفساح المجال للعدو كي يدفن قتلاه، وحث المسلمين على دفن قتلى أعدائهم إذا لم يتمكن هؤلاء من دفنهم، كما جرى في غزوة بدر إذ أمر رسول الله ﷺ المسلمين بدفن قتلى الأعداء في القُليب[٢].

د ـ جواز المن أو الفداء لأسرى العدو

هـ ـ رفض العدوان وتأكيد المساواة بين العدوان والقصاص

= المشركين حيث وجدتموهم﴾، ولم يقل ﴿حتى يعطوا الجزية﴾ كما قال في أهل الكتاب، وقال آخرون (مثل أبي ثور وأبي حنيفة وأصحابه) إنها لا تؤخذ من المجوس عملاً بقول الرسول ﷺ: «سنّوا بهم سنة أهل الكتاب»، ويرى الأوزاعي ومالك أنها تؤخذ «من كل عابد وثن أو نار أو جاحد أو مكذب» و«من جميع أجناس الشرك والجحد» (القرطبي، الجامع لاحكام القرآن جـ ٨ : ١١٠)، ونحن نميل إلى الأخذ بقول الشافعي.

(٢) الطبري، تاريخ الأمم والملوك، جـ ٢ : ٤٥٦.

و ـ منع اتلاف أموال العدو وعدم التعرض لشيوخه ونسائه وأطفاله ومرضاه.

ز ـ احترام العهود والمواثيق، وقد اشتهرت في الإسلام عهود ومواثيق كثيرة برّ المسلمون بها ولم ينقضوها، وأهمها «صلح الحديبية» بين النبي ﷺ وقريش، وعقد الأمان الذي أبرمه الخليفة عمر بن الخطاب مع أهل بيت المقدس، وقد سبق وشرحنا ذلك، في مكان آخر، بالتفصيل.

خامساً: الطابع الهجومي للعقيدة العسكرية الإسلامية

بعد كل الذي تقدم، يتبادر إلى الذهن السؤال التالي: هل يمكن اعتبار العقيدة العسكرية الإسلامية المنبثقة عن الدعوة الإسلامية الانسانية الشمولية عقيدة ذات طابع هجومي أم دفاعي؟

يرى بعض المؤرخين العسكريين[٣] أن العقيدة العسكرية الإسلامية هي عقيدة ذات طابع دفاعي، بينما يحصر بعضهم جواز الحرب في الإسلام بحالتين هما: حالة الدفاع عن النفس وعن الدين وحرية العقيدة، وحالة ردّ الاعتداء. معتبراً أن الحرب المشروعة في الإسلام هي الحرب الدفاعية[٤].

ونحن إذ نخالف هؤلاء المؤرخين في اعتبار العقيدة العسكرية الإسلامية ذات طابع دفاعي، وفي حصر الحرب المشروعة في الإسلام بالحرب الدفاعية دون سواها، نرى أن العقيدة الإسلامية هي عقيدة ذات طابع هجومي وذلك للإسباب التالية:

١ ـ لم يكن النبي محمد ﷺ نبياً مرسلاً للعرب فقط، وإنما كان صاحب رسالة انسانية كونية حملها لينشرها على الناس أجمعين، لذا، كان لا بد أن ينطلق، هو وخلفاؤه من بعده، حاملين رسالة الإسلام إلى العالم وخارج حدود الجزيرة العربية، وذلك أمر يتطلب، ولا شك، اقتحاماً وإيجابية ومبادأة وتوسعاً لفرض السيادة، وهذه كلها مواقف هجومية بطبيعتها.

---

(٣) اللواء محمد جمال الدين محفوظ. المدخل الى العقيدة والاستراتيجية الإسلامية.
(٤) الصاغ محمد فرج، المدرسة العسكرية الإسلامية.

٢ ـ لم يكن للعقيـدة الإسلاميـة أن تحقق ما حققتـه من توسـع وفتوح في جميـع أقطار الدنيا لو لم تكن تتميز بعقيدة عسكرية هجومية، فالجهاد في الإسلام لم يكن لرد الاعتداء بقدر ما كان لنشر مبادىء الدين الحنيف، لذا لم يعتبر المسلمون جهادهم في سبيل نشر رسالة الإسلام اعتداء، وإنما هو قتال في سبيل إعلاء كلمة الله، باعتبار أن الدين عند الله الإسلام، كما أنه، أي القتال، دفاع عن عقيدة الإسلام في وجه المشركين.

٣ ـ لم يكن للدعوة الإسلامية أن تنتشر إلا بالجهاد الذي هو في صلب الحياة الإسلامية ومن أهم الشعائر اللازمة لممارسة عقيدة الإسلام قولاً وعملاً، ورغم أنه «لا إكراه في الدين» يظل الجهاد في الإسلام أحد أهم وسائل نشر الدعوة الإسلامية التي حددت لغير المسلمين من أهل الكتاب ثلاثة منافذ للخلاص لا رابع لها وهي: الإسلام أو الجزية أو المنابذة، أي القتال، ولم تحدد للكافرين والمشركين أكثر من منفذين هما: الإسلام أو القتال. وإذا كان الإسلام قد فرض الجزية على أهل الكتاب، في دولته، وحيث يبسط سيادته، فذلك لأمر يتعلق بالنظام العام للدولة، حيث يكون أهل الكتاب رعايا، ولا تكون الجزية أكثر من «بدل» عن الحماية أو الخدمة العسكرية. وإذا كـانت العقيدة الإسـلامية قـد فُرِضت عـلى الكفار والمشركين، فذلك لأمر يتعلق أيضاً بالنظام العام للدولة الإسلامية، حيث يجب أن تسود دعوة الإسلام دون غيرها. وهكذا، تكون الجزية، بالنسبة إلى أهل الكتاب الذين لم يدخلوا في الإسلام، مظهراً من مظاهر الإقرار بسلطة الدولة الإسـلامية وسيادتها، ويكون الإسلام، بالنسبة إلى من دخل فيه من الكفار والمشركين، مظهراً من مظاهر الإيمان بعقيدة الإسلام.

٤ ـ لا ينتقص من سمو الدين الإسلامي وأخلاقيته أن تكون العقيدة العسكرية المنبثقة عنه هجومية في الأساس، فما أرسل الله نبيه إلا رسولاً للعاملين، وما كانت الدعوة الإسلامية لتتقوقع داخل حدود الجزيرة العربية، طالما أنها أتت لتكون دعوة انسانية وشمولية، ولكن المسلمين حافظوا، في جميع مراحل فتوحهم، على أخلاقية في السلوك العسكري في ممارسة الحرب ندر أن عرفها سواهم من الفاتحين.

٥ ـ لم يكن المسلمون ليتحملون هزيمة واحدة داخل حدود الجزيرة العربية إذا ما حوصروا من أعدائهم الرابضين على حدودهم (الروم والفرس)، لذا كان عليهم أن ينقلوا الحرب إلى ديار الأعداء، وبالفعل، لم يخض المسلمون معركة واحدة مع هؤلاء الأعداء أو مع سواهم، داخل الجزيرة العربية.

٦ ـ إن ما لا يمكن انكاره هو أن القتال أهم مظاهر الجهاد في الإسلام، لذا فقد كرّم الله في قرآنه الكريم المقاتلين وحضهم عليه كما علّمهم الكثير من أصوله ومبادئه، وكذلك فعل النبي ﷺ فقاد هو نفسه المسلمين إلى القتال في معارك عديدة وعلمهم الكثير من أصول القتال وآدابه، كل ذلك يدل على أن القتال هو أحد خصائص الدعوة الإسلامية.

٧ ـ لم يكن المسلمون ليرتضون، بعد أن أصبح الأمر لهم في الجزيرة العربية، أن لا يتطلعوا إلى حياة أفضل يرون مظاهرها خارج حدود جزيرتهم، وربما يعترض الكثير من المفكرين المسلمين على القول إن التطلع إلى حياة أفضل كان غاية من غايات الحرب في الإسلام، ولكن الحقيقة التي لا تقبل الجدل هي أنه، وإن لم تكن الدوافع الأقتصادية غاية الحروب الإسلامية في الأساس، إلا أنها، بعد النهضة الإسلامية في الجزيرة العربية وانفتاح عرب هذه الجزيرة على العالم الخارجي بفضل عقيدتهم الجديدة، أصبحت ـ أي الدوافع الأقتصادية ـ تمثل حافزاً هاماً من حوافز الحرب عند المسلمين.

٨ ـ إذا قررنا أن الإسلام أمر بالجهاد وحض عليه، وأمر المسلمين بالردع وأقره لهم، فالجهاد، كما حدده الإسلام، يكون بالمال والنفس، كما تكرر في عدد من الآيات الكريمة، والردع يكون بالاستعداد للقتال وبمباشرته قبل أن يبادر العدو به، فالجهاد إذن، والقتال أحد أسسه، لابد وأن يكون ذا طابع هجومي في الأساس، وهو كذلك بمفهومه العام، وكذلك الردع أيضاً.

٩ ـ إن «الطابع الهجومي» للعقيدة العسكرية الإسلامية لا يعني، إطلاقاً، «العدوانية» طالما أن الجهاد، في جوهره، وفي المفهوم الإسلامي، ذو غاية محددة وواضحة هي نشر الدعوة الإسلامية، فإذا ما انحرف القتال عن هذه الغاية، لم

يعد جهاداً، بل أصبح مجرد نزوة دنيوية لا علاقة لها بعقيدة الإسلام من قريب أو بعيد، وقد كان يكفي أن تبلغ الدعوة غايتها (وهي الدخول في الإسلام، أو المعاهدة، أو الالتزام المادي، أي الجزية) حتى يمتنع المسلمون عن القتال، إذ أن عدم امتناعهم عنه، في هذه الحالة، يجرده من أنبل أهدافه وأقدسها، وهي نشر دين الله، ويصبح المسلمون، عندها، مجرد قوم يقاتلون لغايات دنيوية لا تربطها بأخلاق الإسلام وعقيدته أية صلة. إلا أنه يجب أن لا يغرب عن بالنا أن الحرب ليست هي الأساس في السعي لنشر الدين الإسلامي وفي علاقات المسلمين بغيرهم، فإذا أدت هذه العلاقات إلى الغاية المرجوة منها وهي نشر الدعوة الإسلامية ودفع الظلم عن المسلمين ورد الأعتدا عنهم، لم يعد للحرب من مبرر، أما إذا لم تؤد هذه العلاقات إلى غايتها المرجوة أصبح القتال أمراً لازماً، بل واجباً دينياً على المسلمين.

وإذا كان المسلمون قد لجأوا إلى أسلوب الهجوم في القتال، في سعيهم لحماية الدعوة الإسلامية والذود عنها ونشرها، فذلك لأنهم كانوا ملزمين بالدفاع عنها ضد مختلف صنوف الأعداء الذين واجهوها، منذ بدئها، سواء في الجزيرة العربية أو خارجها، كما كانوا ملزمين بتنفيذ أوامر الله عز وجل في ان تعمّ هذه الدعوة الناس أجمعين، فكان عليهم ان يؤدوا المهمة التي انتدبهم الله لها وهي: الجهاد في سبيله ونشر دينه في أصقاع الأرض قاطبة وفي الأمم كافة، ولم يكن ذلك ممكناً إلا بالوسائل الهجومية، سلماً كانت هذه الوسائل أو حرباً.

من كل ما تقدم، نرى أن العقيدة العسكرية الإسلامية هي عقيدة ذات طابع هجومي، وقد جمع الإسلام، في القرآن والحديث والسنة، بين النظرية والتطبيق، في تحديد هذه العقيدة العسكرية وفي ممارستها، ولم يتوان الخلفاء، بعد النبي ﷺ، والقادة العسكريون في مختلف معارك الفتوح، عن الاستمرار في تطبيق هذه العقيدة القتالية، حتى تمكنوا، بفضلها، من تحقيق أعظم الانتصارات في تاريخ الأمم.

ـ انهاء ـ

انتهى وضع هذا الكتاب يوم الأحد

الواقع في الأول من رمضان عام ١٤٠٨ هـ،

الموافق للسابع عشر من شهر نيسان عام ١٩٨٨م.

المصادر والمراجع

- ابن أبي حديد، **شرح نهج البلاغة**، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، ١٩٦٣.

- ابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، دار صادر ودار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٦٥.

- ابن الجوزي، **سيرة عمر بن الخطاب**، المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة، ١٣٣١هـ.

- ابن حنبل، احمد بن محمد، **المسند**، دار المعارف، القاهرة، ط ٤، ١٩٥٤.

- ابن خلدون، **تاريخ ابن خلدون**، مكتبة المدرسة ودار الكتب اللبنانية، ط ٣، بيروت ١٩٦٧.

- ابن عبد ربه الأندلسي، أبو عمر أحمد بن محمد، **العقد الفريد**، المطبعة الأزهرية، مصر، ط ٢، ١٣٤٦هـ - ١٩٢٨م.

- ابن عذارى المراكشي، **البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب**، تحقيق ومراجعة جاك كولان وليفي بروفنسال، دار الثقافة، بيروت، ط ٣، ١٩٨٣.

ابن القوطية، أبو بكر محمد بن عمر، **تاريخ افتتاح الأندلس**، تحقيق ابراهيم الأبياري، دار الكتاب اللبناني ومكتبة المدرسة، بيروت، ط ١، ١٤٠٢هـ ـ ١٩٨٢م.

ابن القيم الجوزية، **أحكام أهل الذمة**، تحقيق الدكتور صبحي الصالح، مطبعة الجامعة، دمشق، ط ١، ١٩٦١.

- ابن القيم الجوزية، **الفروسية**، مطبعة الأنوار، ط ٢، ١٣٦١هـ ـ ١٩٤٢م.
- ابن كثير، **البداية والنهاية**، مكتبة المعارف، بيروت ١٩٦٦.
- ابن ماجة القزويني، محمد بن يزيد، **سنن المصطفى**، دار الفكر، ط ٢، بيروت، لات.
- ابن مزاحم المنقري، نصر، **وقعة صفين**، منشورات مكتبة بصيرتي، ايران، قم، ط ٢، ١٣٨٣هـ.
- ابن هشام، أبو محمد عبد الملك، **سيرة النبي**، طبعة كتاب التحرير، القاهرة، ١٣٨٤هـ.
- أبو يوسف، يعقوب بن ابراهيم، **الخراج**، المطبعة السلفية ومكتبتها، القاهرة، ط ٢، ١٣٥٢هـ.
- أكرم، أ. ي. (جنرال)، **سيف الله خالد بن الوليد**، ترجمة العميد الركن صبحي الجابي، دمشق، ١٩٧٦.
- أمين، أحمد، **فجر الإسلام**، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ط ٩، ١٩٦٤.
- بتلر، الفرد، **فتح العرب لمصر**، تعريب محمد فريد أبو حديد بك، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ط ٢، ١٣٦٥هـ ـ ١٩٤٦م.
- البخاري، **صحيح البخاري**، مطبعة البابي الحلبي، القاهرة، ١٣٤٥هـ.
- البستاني، بطرس، محيط المحيط، بيروت ١٢٨٦ هـ ـ ١٨٧٠م.

- البلاذري، أبو العباس أحمد بن يحي بن جابر، **فتوح البلدان**، تحقيق عبد الله وعمر أنيس الطباع، دار النشر للجامعيين، ١٣٧٧هـ - ١٩٥٧م.
- بينز، نورمان، **الامبراطورية البيزنطية**، تع: مؤنس وزايد، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ط ١، ١٩٥٠.
- الثعالبي، أبو منصور عبد الملك بن محمد، **فقه اللغة**، مطبعة الاستقامة، القاهرة، لات.
- الجندي، علي، **شعر الحرب في العصر الجاهلي**، مكتبة الجامعة العربية، بيروت، ط ٣، ١٩٦٦.
- الحلبي، برهان الدين، **السيرة الحلبية**، المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة، لات.
- الحميري، محمد بن عبد المنعم، **الروض المعطار في خبر الأقطار**، تحقيق الدكتور إحسان عباس، مكتبة لبنان، بيروت، ١٩٧٥.
- خدوري، مجيد، **الحرب والسلم في شرعة الإسلام**، الدار المتحدة للنشر، بيروت، ١٩٧٣.
- الدرة محمود، تاريخ العرب العسكري، دار الكاتب العربي، بيروت، ط ١، ١٩٦٤.
- الدينوري، أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة، **عيون الأخبار**، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٣٤٣هـ - ١٩٢٥م.
- رودانسون، مكسيم، **الإسلام والرأسمالية**، تعريب نزيه الحكيم، دار الطليعة، بيروت، ١٩٦٨.
- زيدان، جرجي، **تاريخ التمدن الإسلامي**، مطبعة الهلال، مصر، ط ٣، ١٩٢٢.
- سعيد، أمين، **حروب الإسلام والامبراطورية الرومية**، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، مصر، ١٩٣٥.

- سويد، ياسين، **معارك خالد بن الوليد**، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط ٣، ١٩٨١.
- السيوطي، جلال الدين، **أسباب النزول**، بهامش القرآن الكريم، دار المعرفة، بيروت، لات.
- السيوطي، جلال الدين، **تاريخ الخلفاء**، دار التراث، بيروت، ١٩٦٩.
- الشافعي، أبو عبد الله محمد بن إدريس، **الأم**، مكتبة الكليات الأزهرية ـ شركة الطباعة الفنية المتحدة، القاهرة، ١٣٨١هـ ـ ١٩٦١م.
- الشيباني، محمد بن الحسن، **كتاب السير**، حققه وقدمه وعلق عليه: مجيد خدوري (القانون الدولي الإسلامي)، الدار المتحدة للنشر، بيروت، ط ١، ١٩٧٥.
- الصالح، صبحي، **النظم الإسلامية**، دار العلم للملايين، بيروت، ط ١، ١٩٦٥.
- الطبري، أبو جعفر، **تاريخ الرسل والملوك**، دار المعارف بمصر، القاهرة، ١٩٦٠ ـ ١٩٦٩.
- الطرسوسي، مرضي بن علي بن مرضي، **تبصرة أرباب الألباب في كيفية النجاة في الحروب من الأسوأ، ونشر أعلام الأعلام في العدد والآلات المعينة على لقاء الأعداء**، عني بتحقيقه ونشره المستشرق الفرنسي كلود كاهين Claude Cahen، بيروت، ١٩٧٨.
- العبادي، عبد الحميد، وزيادة، محمد مصطفى، والعدوي، ابراهيم، **الدولة الإسلامية، تاريخها وحضارتها**، مطابع المصري، القاهرة، ١٩٥٤.
- علي بن أبي طالب (الإمام)، **نهج البلاغة**، شرح الشيخ محمد عبده، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، لات.
- عنّان، محمد عبد الله، **دولة الإسلام في الأندلس**، القاهرة، ط ٣، ١٩٦٠.
- عون، عبد الرؤوف. **الفن الحربي في صدر الإسلام**، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦١.

- غلوب، جون باجوت، **الفتوحات العربية الكبرى**، تعريب: خيري حماد، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٦٣.

- فرج، محمد، **المدرسة العسكرية الإسلامية**، دار الفكر العربي، مصر، ١٩٦٩.

- الفيروز آبادي، **القاموس المحيط**، دار المأمون، القاهرة، ١٩٣٨.

- **القرآن الكريم**، وبهامشه تفسير الأمامين الجليلين، جلال الدين المحلي وجلال الدين السيوطي، (**تفسير الجلالين**)، دار المعرفة، بيروت، لات.

- **القرآن الكريم**، وبهامشه تفسير القاضي ناصر الدين البيضاوي، المطبعة العثمانية المصرية، مصر ١٣٥٨هـ.

- القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري، **الجامع لأحكام القرآن**، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر، القاهرة، ١٣٨٧هـ - ١٩٦٧م.

- كحالة، عمر، **سيف الله خالد بن الوليد**، المكتبة العربية، دمشق، ١٣٥٣هـ.

- كريستنسن، أرثر، **إيران في عهد الساسانيين**، ترجمة يحيى الخشاب، مراجعة عبد الوهاب عزام، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٥٧.

- كمال، أحمد عادل، **القادسية**، دار النفائس، بيروت، ١٣٩٣هـ - ١٩٧٣م.

- لوبون. غوستاف، **حضارة العرب**، تعريب: عادل زعيتر، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، القاهرة، ط ٤، ١٩٦٥.

- الماوردي، أبو الحسن، **الأحكام السلطانية والولايات الدينية**، مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، مصر، ط ١، ١٩٦٠.

- مجهول المؤلف، **أخبار مجموعة في فتح الأندلس**، تحقيق ابراهيم الأبياري، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط ١، ١٤٠١هـ - ١٩٨١م.

- محفوظ، محمد جمال الدين، **المدخل إلى العقيدة الاستراتيجية العسكرية الإسلامية**، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٦.

- المسعودي، **مروج الذهب ومعادن الجوهر**، تحقيق شارل بلا، منشورات الجامعة اللبنانية، بيروت ١٩٦٥ ـ ١٩٧٩

- مسلم (الامام)، **الجامع الصحيح**، طبعة كتاب التحرير، القاهرة، ١٣٨٣هـ.

- المقري التلمساني، أحمد بن محمد، **نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب**، تحقيق محمد بن محي الدين عبد الحميد، المكتبة التجارية الكبرى، مصر ط ١، ١٣٦٧هـ ـ ١٩٤٩م.

- المقريزي، أبو العباس أحمد بن علي، **الخطط المقريزية، (المسماة بالمواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار)**، القاهرة، المليجي، ١٣٢٤ ـ ١٣٢٦هـ.

- مؤنس، حسين، **فجر الأندلس**، الشركة العربية للطباعة والنشر، القاهرة، ط ١، ١٩٥٩.

- النويري، شهاب الدين، **نهاية الأرب، في فنون الأدب**، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة، ط ١، ١٣٤٥هـ ـ ١٩٢٦م.

- النيسابوري، الامام الشيخ أبو الحسن، **أسباب النزول**، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٤٠٦هـ ـ ١٩٨٦م.

- الهرثمي الشعراني، **مختصر سياسة الحروب**، تحقيق عبد الرؤوف عون، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والطباعة والنشر، القاهرة، لات.

- هيكل، محمد حسين، **الفاروق عمر**، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٦٣.

- الواقدي، **فتوح الشام**، مكتبة ومطبعة المشهد الحسيني، القاهرة، ١٣٦٨هـ.

- الواقدي، **المغازي**، تحقيق مارسدن جونس، مطبعة جامعة لندن، لندن، ١٩٦٦.

- ياقوت، شهاب الدين أبي عبد الله (الحموي البغدادي)، **معجم البلدان**، دار صادر ودار بيروت، بيروت، ١٩٧٩.

الفهرس العام

فهرس الرسوم والخارطات



المؤلف:

- ضابط في الجيش اللبناني برتبة «عميد ركن».
- مجاز في الحقوق من الجامعة اللبنانية.
- دكتور دولة في التاريخ من جامعة السوربون بباريس.
- أستاذ مادة «التاريخ العسكري» في الجامعة اللبنانية وعضو في اللجنة الدولية للتاريخ العسكري.
- من مؤلفاته:
- التاريخ العسكري للمقاطعات اللبنانية في عهد الإمارتين (جزءان) باللغتين العربية والفرنسية.
- معارك خالد بن الوليد
- أسهم في تأليف كتاب «التنشئة الوطنية» الصادر عن قيادة الجيش اللبناني (عام ١٩٦٣)، وكتاب «القضية الفلسطينية والخطر الصهيوني» الصادر عن مؤسسة الدراسات الفلسطينية وقيادة الجيش اللبناني (عام ١٩٧٣).
- أسهم في تأليف الموسوعتين العسكرية والسياسية الصادرتين عن المؤسسة العربية للدراسات والنشر، والموسوعة الفلسطينية الصادرة عن هيئة الموسوعة الفلسطينية.
- نشر عدداً من الأبحاث والدراسات التاريخية والعسكرية في عدد من المجلات والصحف اللبنانية والعربية.
- حقق كتاباً لنقولا الترك عن **«حملة بونابرت على مصر وبلاد الشام»**.

الكتاب:

يبحث في نشوء الفن العسكري الإسلامي ويحدد أصوله ومصادره، ويقدم معارك العبور في الفتوح الإسلامية كدراسة تطبيقية نموذجية لهذا الفن. يتخلل ذلك بحث في التكتيك العسكري الإسلامي وفي العقيدة العسكرية الإسلامية. دراسة عسكرية نموذجية وفريدة تشرح، بإبداع، مواقع الفن العسكري في القرآن والحديث والسنة خاصة. تعتمد تفسير الأئمة والفقهاء لشرح الآيات الكريمة وتفسير الأحاديث والسنة النبوية، وتعتمد المصادر التاريخية الموثوقة للتحقق من تفاصيل الأحداث. تطرح نظرية جريئة جديدة باعتبار العقيدة العسكرية الإسلامية عقيدة هجومية وليست دفاعية، وتقدم لذلك الحجج والبراهين.

دراسة هي الأولى من نوعها في الفكر العربي والإسلامي.

